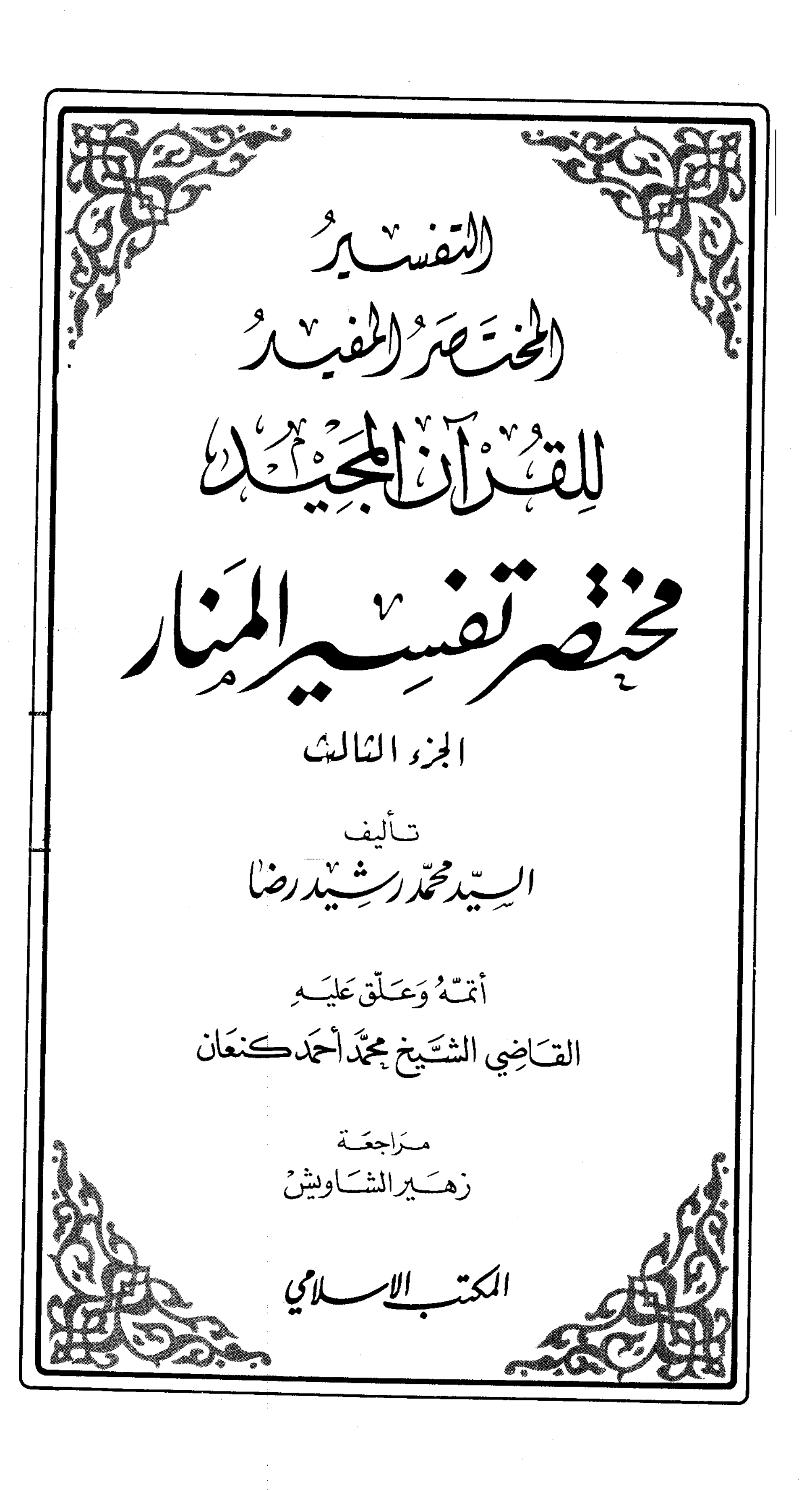


التفسير المختصر المفيد للقرآن المجيد

مختصر تفسير المنار

الجزء الثالث

تأليف

السيّد محمّد رشيد رضا

أتمّه وعلّق عليه

القاضي الشيخ محمّد أحمد كنعان

مراجعة

زهير الشاويش

المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

بيروت - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

المكتب الاسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

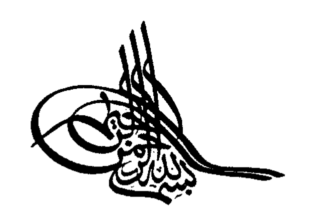
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

التفسير

المختصر المفيد

للقرآن المجيد

مختصر تفسير المنار



سورة الأعراف

(مكية، وهي مائتان وست آيات)

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

١ ــ ﴿المص﴾ هذه حروف مركبة في الرسم بشكل كلمة ذات أربعة أحرف، ولكنها تقرأ بأسماء هذه الأحرف ساكنة هكذا: ألف. لام. ميم. صاد. والمختار عندنا: أن حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروف ليس لها معنى مفهوم، هي تنبيه السامع إلى ما سيلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته منه شيء. فهي كأداة الافتتاح «ألا» وهاء التنبيه.

٢ ــ ﴿كتاب أنزل إليك﴾ إذا قيل إن «المص» اسم للسورة فهو مبتدأ خبره: «كتاب»، وإلا فهذا خبر لمبتدأ تقديره «ذلك كتاب»، كقوله «الم، ذلك الكتاب»، وتنكير «كتاب» للتعظيم والتفخيم، والمراد به على القول الثاني: جملة القرآن المشار إلى بعضه المنزل بالفعل، وجملة «أنزل إليك» صفة له دالة على كمال عظيم قدره، وقدر من أنزل إليه، ولذلك سميت الليلة التي كان بدىء

نزوله فيها بليلة القدر ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ حرجُ الصدر: ضَيْقُهُ وغمه.

فإنه ﷺ كُلِّف به هداية الثقلين وإصلاح أهل الخافقين، ومن المتوقع المعلوم بالبداهة أن المتصدي لذلك لا بد أن يلقى أشد الإيذاء والمقاومة، والطعن في كتاب الله، والإعراض عن آيات الله وهي أسباب لضيق الصدر كما قال تعالى في آخر سورة «الحِجْر» «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون» والمراد من النهي عن أمر طبعي كهذا، الاجتهاد في مقاومته والتسلي عنه بوعد الله والتأسي بمن سبق من رسله، عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ تعليل لإنـزال الكتاب، والجملة قبله معترضة لإفادة أن الإنذار به إنما يكون مطلقاً، أو على وجه الكمال، مع انتفاء الحرج من الصدر، وانشراحه للنهوض بأعباء هذا الأمر.

وأما «الذكرى»، فهي: مصدر لذكر الشيء بقلبه وبلسانه، والاسم: «الذِّكر» ـ بالضم وكذا بالكسر ـ وقد خصها هنا بالمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ كما قال في «الذاريات»: «وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» والمراد بالمؤمنين هنا: مَنْ كتب الله لهم الإيمان، سواء كانوا آمنوا عند نزول السورة أم لا. وتقدير الكلام مع ما قبله: أنزل إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس، وتذكِّر به أهل الإيمان وتعظهم ذكرى نافعة مؤثرة، لأنهم هم المستعدون للاهتداء به، أو: أنزل إليك للإنذار العام والذكرى الخاصة، أو: وهو ذكرى، أو: حال كونه ذكرى لمن آمنوا ولمن علم الله أنهم يؤمنون.

٣ ـ ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ هذا بيان للإنذار العام، الذي أمر الرسول بتبليغه إلى جميع الأنام، أي: قل يا أيها الناس اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، الذي هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم، فإنه هو الذي له وحده الحق في شرع الدين لكم وفرض العبادات عليكم، والتحليل لما ينفعكم والتحريم لما يضركم، لأنه أعلم بمصلحتكم منكم ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ تتخذونهم من أنفسكم، ولا من الشياطين الذين يوسوسون إليكم، بما يزين لكم ضلال تقاليدكم والابتداع في دينكم.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي: تذكراً قليلاً تتذكرون، أو زمناً قليلاً تتذكرون ما يجب أن يُعْلَم فلا يجهل، ويُحفظ فلا ينسى، مما يجب للرب تعالى، ويحظر أن يشرك معه غيره فيه، أو: قليلاً ما تتعظون بما توعظون به فترجعون عن تقاليدكم وأهوائكم، إلى ما أنزل إليكم من ربكم.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

٤ ــ ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ «كم» خبرية تفيد الكثرة، و«القرية»: تطلق على الأمة.

والمعنى: وكثيراً من القرى أهلكناها لعصيان رسلها فيما جاؤوها به من عند ربها، فكان هلاكُها على ضربين، بأن جاء بعضَهم بأسُنا حال كونهم مبيتين أو بائتين ليلاً كقوم لوط، وجاء بعضَهم وهم قائلون آمنون نهاراً كقوم شعيب. والوقتان وقتا دَعة واستراحة، ففيه إيذان بأنه لا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي ولا مواتاة الأيام، ولا يغتر بالرخاء فيعده آية على الاستحقاق له الذي هو مظنة الدوام، وقد يعذر بالغفلة قبل مجيء النذير، وأما بعده فلا عذر ولا عذير، وفيه تعريض بغرور كفار قريش بقوتهم وثروتهم وعزة عصبيتهم، وبما كانوا يزعمون أنها آية رِضَى الله عنهم.

٥ ــ ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾

«الدعوى» في اللغة: اسم لما يدعيه الإنسان، أو القول مطلقاً،ومعنى الآية على هذا: فما كان قولهم، وعلى ما قبله: فما كانت غاية ما يدعونه من الدين وزعمهم فيه أنهم على الحق، أو ما كانوا يدعونه على الرسل من التكذيب وإرادة التفضل عليهم إلا الاعتراف بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فيما كانوا عليه، والشهادة ببطلانه.

٦ ــ ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ المراد بالذين أرسل إليهم: جميع الأمم التي بلغتها دعوة الرسل، يسأل تعالى كلَّ فرد منهم في الآخرة عن رسوله إليه، وعن تبليغه لآياته، وبماذا أجابوهم وما عملوا من إيمان وكفر، وخير وشر، ويسأل المرسلين عن التبليغ منهم، والإجابة من أقوامهم.

٧ ــ ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ حيث يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون أي: فلنقصن على الرسل وعلى أقوامهم الذين أرسلوا إليهم، كلَّ ما وقع من الفريقين، قصصاً بعلم منا محيط بكل ما كان منهم، لا يعزب عنه مثقال ذرة، أو: عالمين بكل ما كان منهم، وما كتبه الكرام الكاتبون عنهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم في حال من الأحوال، ولا وقت من الأوقات، بل كنا معهم نسمع ما يقولون، ونبصر ما يعملون، ونحيط علمًا بما يسرون ويعلنون، وهذا القصص هو الذي يكون به الحساب ويتلوه الجزاء، والآيات والأحاديث في بيانه كثيرة.

أما الآيات فتأتي في مواضعها، وأما الأحاديث فمنها: حديث ابن عمر المتفق عليه قال: قال النبي ﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يُسأل عن الناس، والرجل يُسأل عن أهله، والمرأة تُسأل عن بيت زوجها، والعبد يُسأل عن مال سيده»،وورد بألفاظ أخرى وفي معناه ما رواه الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فأَعدوا للمسائل جواباً» قالوا: وما جوابها؟ قال: «أعمال البر».

٨ ــ ﴿والوزن يومئذٍ الحق﴾ أي: والوزن في ذلك اليوم الذي يَسأل الله

فيه الرسل والأمم، ويقص عليهم كل ما كان منهم، هو الحق الذي تحق به الأمور، وتعرف به حقيقة كل أحد، وما يستحقه من الثواب والعقاب ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ قيل: إن الموازين جمع «ميزان» فهي متعددة، لكل امرىء ميزان، وقيل: لكل عمل. والجمهور على أن الميزان واحد، وأنه يُجمع باعتبار المحاسبين، وهم الناس، أو على حد قول العرب: سافر فلان على البغال، وإن ركب بغلاً واحداً، وقيل: إن الموازين جمع «موزون» والمعنى: فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة حسناته فأولئك هم الفائزون بالنجاة من العذاب والنعيم في دار الثواب.

٩ ــ ﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ أي: ومن خفت موازين أعماله بالكفر وكثرة سيئاته، فأولئك الذين خسروا أنفسهم، إذ حُرموا السعادة التي كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصي، بسبب ما كانوا يظلمونها بكفرهم بآيات الله، مستمرين على ذلك مصرين عليه إلى نهاية أعمارهم.

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

١٠ ــ ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي: جعلنا لكم فيها أوطاناً تتبوءونها وتتمكنون من الراحة في الإقامة فيها، وتأكيد الخبر باللام و«قد» لتذكير الغافلين عن كونه من نعم الله عليهم به ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ جميع «معيشة» وهي: ما تكون به المعيشة والحياة الجسمانية الحيوانية من المطاعم والمشارب وغيرها. أي: وأنشأنا لكم فيها ضروباً شتى مما تعيشون به عيشة راضية.

﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي: شكراً قليلاً تشكرون هذه النعم، لا كثيراً يناسب كثرتها وحسنها، وكثرة الانتفاع بها. وشكر النعمة للمنعم يكون أولاً:

بمعرفتها له، والاعتراف بأنه هو مُسْديها والمنعم بها، وثانياً: بالحمد له والثناء عليه بها، وثالثاً: بالتصرف بها فيما يحبه ويرضيه وهو ما أسداها لأجله من حكمة ورحمة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

هذا شروع في بيان خلق أصل هذه النشأة الآدمية واستعداد الفطرة البشرية، وما يعرض لها من موانع الكمال بإغواء عدو البشر الشيطان، ويليه ما يترتب عليه من الهداية والإرشاد إلى ما يتقي به ذلك الإغواء والفساد، قال تعالى:

١١ ـ ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ الخطاب لبني آدم، والمعنى: خلقنا جنسكم أي: مادته من الصلصال والحمأ المسنون، وهو الماء والطين اللازب المتغير الذي خلق منه الإنسان الأول، ثم صورناكم بأن جعلنا من تلك المادة صورة بشر سوي قابل للحياة، أو: قدرنا إيجادكم تقديراً، ثم صورنا

مادتكم تصويراً، ومعنى الخلق في أصل اللغة: التقدير، ثم أطلق على إيجاد الشيء المقدر على صفة مخصوصة.

﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي: قلنا ذلك بعد أن سويناه ونفخنا فيه من روحنا، ماجعلناه به خليفة في الأرض وعلمناه الأسماء كلها ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ أي: لم يكن من جملتهم لأنه أبى واستكبر وفسق عن أمر ربه. وهو من الجن لا منهم. وهذا السجود تكريم من الله لآدم، لا سجود عبادة إذ نص القرآن القطعي قد تكرر بأنه لا يُعْبَدُ إلا الله وحده.

١٢ ـ ﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك؟﴾ أي: قال تعالى له ما منعك من امتثال الأمر، فحملك على أن لا تسجد لآدم مع الساجدين، في الوقت الذي أمرتك فيه بالسجود؟ ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ أي: منعني من ذلك أنني أنا خير منه، لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار خير من الطين وأشرف، ولا ينبغي للأشرف أن يكرم من دونه ويعظمه، أي: وإنْ أمره بذلك ربه. وهذا الجواب يتضمن ضروباً من الجهل الفاضح، ما أوقع اللعين فيها إلا حسده وكبره فإنهما يعميان البصائر.

١٣ ـ ﴿قال فاهبط منها﴾ الهبوط: الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه، أو من مكانة ومنزلة إلى ما دونها، فهو حسي ومعنوي والضمير عائد إلى الجنة التي خلق الله فيها آدم، أو التي أسكنه إياها بعد خلقه ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ أي: فما ينبغي لك وليس مما تعطاه من التصرف، أن تتكبر في هذا المكان المعد للكرامة، أو في هذه المكانة التي هي منزلة الملائكة لأنها مكانة الامتثال والطاعة. ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ هذا تأكيد للأمر بالهبوط متفرع عليه أي: فاخرج من هذا المكان أو المكانة. وعلل ذلك بقوله على طريق الاستئناف البياني: «إنك من الصاغرين» أي: أولي الذلة والصغار، أظهر حقيقتك الامتحان والاختبار الذي يميز بين الأخيار والأشرار، بإظهاره لما كان كامناً في نفسك من عصيان الاستكبار.

١٤ ـ ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ أي: رب أخرني وأمهلني إلى يوم

يبعث آدم وذريته فأكون أنا وذريتي أحياء ما داموا أحياء، وأشهد انقراضهم وبعثهم.

١٥ - ﴿قال إنك من المنظرين﴾ أي: قال تعالى له مخبراً، أو قال - منشئاً كما يقول للشيء «كن فيكون» -: إنك من المنظرين، قال ابن كثير: أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانُعَ ولا معقب لحكمه.

١٦ - ﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ الإغواء الإيقاع في الغواية وهي ضد الرشاد وصراط الله المستقيم: هو الطريق الذي يصل سالكه إلى السعادة التي أعدها سبحانه لمن تتزكى نفسه بهداية الدين الحق. والمعنى: فبسبب إغوائك إياي من أجل آدم وذريته أقسم لأقعدن لهم على صراطك المستقيم، أو: فيه أو لألزمنه فأصدهم عنه وأقطعه عليهم بأن أزين لهم سلوك طرق أخرى أشرعها لهم من جميع جوانبه ليضلوا عنه، وهو ما فسر بقوله:

١٧ - ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ أي: فلا أدع جهة من جهاتهم الأربع إلا وأهاجمهم منها، وهذه جهات معنوية كما أن الصراط الذي يريد إضلالهم عنه معنوي، ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ لنعمك عليهم، في عقولهم ومشاعرهم وجوارحهم، ومعايشهم وما يهديهم إلى تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك لهم، أي: لا يكون الشكر التام الممكن صفة لازمة لأكثرهم، بل للأقلين منهم.

١٨ - ﴿قال اخرج منها مذؤوما مدحوراً﴾ المعنى: اخرج من الجنة أو المنزلة التي أنت فيها حال كونك معيباً مذموماً من الله وملائكته، مطروداً من جنته، فهو بمعنى لَعْنِهِ وجَعْلِهِ رجيمًا في آيات أخرى ﴿لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ «جهنم»: اسم من أسماء دار الجزاء على الكفر والفسوق والعصيان.

أخبر تعالى خبراً مؤكداً بالقسم بأن من يتبع إبليس من ذرية آدم

فيما يزينه لهم من الكفر والشرك والفجور والفسق، فإن جزاءهم أن يكونوا معه أهل دار العذاب يملؤها منهم أجمعين.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآيات تتمة السياق الوارد في النشأة الأولى للبشر وشياطين الجن أنزلت تمهيداً لهداية الناس بما يتلوها من الآيات في وعظ بني آدم وإرشادهم إلى ما تكمل به فطرتهم، قال تعالى:

١٩ ــ ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فهو معطوف على قوله تعالى في أول السياق «ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» وهذا أظهر من جعله معطوفاً على قوله تعالى في الآية السابقة لهذه «قال أخرج منها مذؤوماً مدحوراً» فإن إخراجه من الجنة ــ على قول الجمهور ــ كان بعد الوسوسة لآدم كما هو مبين في هذه الآيات.

﴿فكلا من حيث شئتما﴾ أي: فكلا من ثمارها حيث شئتما ـ وفي سورة «البقرة» «وكلا منها رغداً حيث شئتما» ومن سنة القرآن أن يتضمن التكرار للقصص فوائد في كل منها لا توجد في الأخرى من غير تعارض في المجموع.

﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ النهي عن قرب الشيء أبلغ من النهي عنه، فهو يقتضي البعد عن موارد الشبهات التي تغري به، وتفضي إليه ورعاً واحتياطاً، «ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» كما ورد في الحديث الصحيح[1]، وتعريف الشجرة كتعريف الجنة، وهي مشار إليها في الآية بما يعين شخصها، ولم يبين في القرآن نوعها ولا وصفها إلا ما في الآية التالية عن إبليس.

٢٠ ـ ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماووري عنهما من سوآتهما﴾ وسوسة الشيطان للبشر: هي ما يجدونه في أنفسهم من الخواطر الرديئة التي تزين لهم ما يضرهم، في أبدانهم أو أرواحهم أو معاملاتهم، والظاهر هنا: أن الشيطان تمثل لآدم وزوجه وكلمهما وأقسم لهما، ولا مانع منه على قول الجمهور.

﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ أي: وقال فيما وسوس به لهما: ما نَهَاكُما ربكما عن هذه الشجرة أن تأكلا منها إلا لأحد أمرين: إتقاء أن تكون بالأكل منها ملكين، أي: كالملكين فيما أوتي الملائكة من الخصائص، كالقوة وطول البقاء وعدم التأثر بفواعل الكون المؤلمة والمتعبة وغير ذلك، أو: إتقاء أن تكونا من الخالدين في الجنة، أو الذين لا يموتون البتة. فأوهمها أن الأكل من هذه الشجرة يعطي الآكل صفة الملائكة، ويقتضي الخلود في الحياة.

٢١ ـ ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ ادعى اللعين أنه ناصح لهما فيما رغبهما فيه من الأكل من الشجرة. ولما كان محل الظنة في نصحه عندهما، لأنه تعالى أخبرهما بأنه عدو لهما، أكد دعواه بأشد المؤكدات وأغلظها، وهي القسم و«أن» واللام وتقديم «لكما» على متعلَّقه الدال على الحصر.

---

(١) قوله: «كما ورد في الحديث الصحيح» أي: من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيِّن وإن الحرام بيِّنٌ» الحديث رواه الشيخان وغيرهما.

٢٢ ـ ﴿فدلاهما بغرور﴾ دلى الشيء تدليةً: أرسله إلى الأسفل رويداً رويداً أي: فما زال يخدعهما بالترغيب في الأكل من الشجرة، والقَسَم على أنه ناصح بذلك لهما به حتى أسقطهما وحطهما عما كانا عليه من سلامة الفطرة وطاعة الفاطر بما غرهما به.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي: فلما ذاقا ثمرة الشجرة ظهرت لكل منهما سوأته وسوأة صاحبه، وكانت مواراة عنهما، فشرعا يخصفان، أي: يلزقان أو يضعان ويربطان على أبدانهما من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ الاستفهام هنا للعتاب والتوبيخ، أي: وقال لهما ربهما الذي يربيهما في طور المخالفة والعصيان، كما يربيهما في حال الطاعة والإذعان: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة أن تقرباها، وأقل لكما إن الشيطان عدو لكما دون غيركما من الخلق، وأنه بيِّـن العداوة ظاهرها، فلا تطيعاه لئلا يخرجكما من الجنة حيث العيش الرغد إلى حيث الشقاء في المعيشة والتعب في جهاد الحياة.

٢٣ ـ ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هذا بيان مستأنف لما كان من أمرهما بعد أن تذكرا نهي الله لهما عن الأكل من الشجرة لما فيه من ظلمهما لأنفسهما به وهو أنهما قالا: يا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بطاعتنا للشيطان وعصياننا لك كما أنذرتنا، وقد عرفنا ضعفنا وعجزنا عن التزام عزائم الطاعات، وإن لم تغفر لنا ما نظلم به أنفسنا، وترحمنا بهدايتك لنا وتوفيقك إيانا إلى ترك الظلم، والاعتصام من الجهل والجهالة بالعلم والحلم، وبقبولنا إذا نحن تبنا إليك، فوحقك لنكونن إذاً من الخاسرين لأنفسنا وللسعادة والفلاح.

٢٤ ـ ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو﴾ الخطاب لآدم وحـواء، عليهما السلام، وللشيطان عليه اللعنة والملام، أي: اهبطوا من هذه الجنة بعضـكم وهو الشيطان، عدوٌ لبعض وهو الإنسان، وأما الإنسان فليس عدواً

للشيطان، لأنه ليس مندفعاً إلى إغوائه وإيذائه، وإنما يجب عليه أن يتخذه عدواً بأن لا يغفل عن عداوته له ولا يأمن وسوسته وإغوائه، كما قال تعالى: «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير».

﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي: ولكم في الأرض استقرار أو: مكان تستقرون فيه، ومتاع تنتفعون به في معيشتكم إلى حين، أي: زمن مقدَّر في علم الله تعالى، وهو الأجل الذي تنتهي فيه أعماركم وتقوم فيه قيامتكم.

٢٥ ـ ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ أي: في هذه الأرض التي خلقتم منها تحيون مدة العمر المقدّر لكل منكم، وفيها تموتون عند انتهائه، ومنها تخرجون بعد موت الجميع، وعندما يريد الخالق أن يبعثكم يوم القيامة للنشأة الآخرة، كما قال في سورة «طه»: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى».

يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

بعد أن قص الله تعالى على بني آدم قصة نشأتهم الأولى وما خلقوا مستعدين له من السعادة ونعيم الجنة، وما يصدهم عن ذلك من وسوسة الشيطان وإغوائه، رتب عليها هذه النصائح الهادية لهم إلى أقوم طرق تربيتهم لأنفسهم. فقال تعالى:

٢٦ ـ ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً﴾ خاطب الله تعالى بني آدم في هذه الآية وأمثالها بالنداء الذي يخاطب به البعيد، لما كان عليه عربهُم وعجمهم عند نزول هذه السورة في مكة مِنْ البعد عن الفطرة السليمة، والشرعة القويمة، تنبيهاً للأذهان، بما يقرع الآذان، فامتن عليهم بما أنعم به عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه، من الأدنى الذي يستر السوأة عن أعين الناس، إلى أنواع الحلل التي تشبه ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد، بستر جميع البدن، وما في ذلك من أنواع الزينة والجمال اللائقة بجميع ذكران البشر وإناثهم، على اختلاف أسنانهم وأحوالهم، فهو يقول: يا بني آدم إنا بما لنا من القدرة والنعمة والرحمة «قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم» وهو أدنى اللباس، وأقله الذي يعد فاقده ذليلاً مهيناً «وريشاً» تزينون به في مساجدكم ومجالسكم ومجامعكم، وهو أعلاه وأكمله، وبينهما لباس الحاجة وهو ما يقي الحر والبرد. والمراد بإنزال ما ذكر: أن الله تعالى خلق لبني آدم مادته من القطن والصوف والوبر، وريش الطير والحرير وغيرها، وعلمهم ـ بما خلق لهم من الغرائز والقوى والأعضاء ـ وسائل صنع اللباس منها كالزراعة والغزل والنسج والخياطة.

وأما قوله تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ فجمهور مفسري السلف على أنه اللباس المعنوي المجازي أي: عين التقوى. وعن ابن عباس: أنه الإيمان والعمل الصالح فقال: الإيمان والعمل خير من الريش واللباس. وجعله بعضهم من اللباس الحسي الحقيقي، ففي بعض كتب التفسير عن زيد بن علي بن الحسين، رضي الله عنهم، أنه لباس الحرب: الدرع والمغفر والآلات التي يتقي بها العدو، ولا مانع عندنا من استعمال التقوى فيما يعم هذا وذاك. أي: تقوى الله بالإيمان والعمل، وتقوى فتك العدو بلبس الدرع والمغفر ونحوهما.

﴿ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: ذلك الذي ذكر من نعم الله بإنزال أنواع الملابس الصورية والمعنوية من آيات الله تعالى ودلائل إحسانه إلى بني آدم، وكثرة نعمه عليهم.

٢٧ ــ ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ الفتنة: الابتلاء والاختبار. ومعنى «لا يفتننكم الشيطان»: لا تغفلوا عن أنفسكم ووسوسته لكم، فتمكنوه بذلك من خداعكم بها، وإيقاعكم في المعاصي، كما وسوس لأبويكم آدم وحواء، فزين لهما معصية ربهما، ففتنهما حتى عصياه بالأكل من الشجرة التي نهاهما عنها، فكان ذلك سبباً لخروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها، ودخلا في طور آخر من الحياة يكابدان فيها شقاء المعيشة وهمومها.

﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ أي: أخرجهما من الجنة حال كونه نازعاً عنهما لباسهما، أي: سبباً لنزع ما اتخذاه لباساً لهما من ورق الجنة، لأجل أن يريهما سوآتهما دائمًا.

﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ الجملة تعليل للنهي عن تمكين الشيطان مما يبغي من الفتنة، وتأكيد للتحذير منه، والتذكير بعداوته وضرره، وذلك أنه يرانا هو وقبيله أي: جنوده وذريته من شياطين الجن ولا نراهم «وحيث» ظرف مكان، أي: يرونكم من حيث يكونون غير مرئيين منكم، والضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أكبر، ووجوب العناية باتقائه أشد، كاتقاء أسباب بعض الأدواء والأوبئة التي ثبتت في هذا الزمان برؤية العينين بالمجهر.

﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ أي: قد مضت سنتنا في التناسب بين أنواع المخلوقات المتجانسة والمتشاكلة، أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار الإنس، وهم الكفار الذين لا يؤمنون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله إيمان إذعان، بحيث يهتدون بوحيه ويزكون أنفسهم بعبادته وآدابه، حتى يبعد التناسب والتجانس بينهما.

وقد كانوا في الجاهلية يعبدون الجن والشياطين، لا بطاعتهم في وسوستهم فقط، بل كان منهم من يستعيذ بهم كما يستعيذ المؤمنون بالله كما قال تعالى: «وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً» وكانوا

يتقربون إليهم بما يظنون أنه يعطِّفهم عليهم فيمنع ضررهم، أو يحملهم على نفعهم كما يتقرب إليهم الدجالون اليوم بالبخور والعزائم والاستغاثة، وقد اشتهر أن بعض الدجالين يتقرب إلى الشياطين بكتابة شيء من القرآن وشده على عورته، وهذا من أقبح أنواع الكفر وأسفلها، فهل يليق بالمؤمن الذي يتولى الله ورسوله أن يلجأ إلى أحد من هؤلاء الدجالين في مصالحه يرجو منه نفعاً أو دفع ضرر؟

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

هذا بيان لبعض آثار ولاية الشياطين للذين لا يؤمنون، أي: أنهم يطيعونهم في إغوائهم في أقبح الأشياء ولا يشعرون بقبحها. قال تعالى:

٢٨ ـ ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ قال ابن جرير، رحمه الله تعالى في تفسير هذه الجملة: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، والذين جعل الله لهم الشياطين أولياء، قبيحاً من الفعل وهو الفاحشة، وذلك تعرِّيهم للطواف بالبيت، وتجرُّدهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهم ونستن بسنتهم والله أمرنا به فنحن نتبع أمره فيه اهـ.

﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ فهذا القول تكذيب لهم من طريقي العقل والنقل، أما الأول فتقريره أن هذا الفعل

لا خلاف بينكم وبيننا في أنه «الفحشاء»، أي: أقبح القبائح، والله تعالى منزه بكماله المطلق عن أن يأمر بالفحشاء، وإنما الذي يأمر بها هو الشيطان الذي هو مجمع النقائص كما قال تعالى في آية أخرى «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء»، وأما طريق النقل، فهو: أن ما يُسند إلى الله تعالى من أمر ونهي، لا يثبت بمجرد الدعوى، بل يجب أن يُعلم بوحي منه تعالى إلى رسول من عنده، ثبتت رسالته بتأييده تعالى له بالآيات البينات، فالاستفهام في قوله تعالى: «أتقولون على الله ما لا تعلمون» للإنكار المتضمن للتوبيخ، وللرد على المقلدين.

٢٩ ـ ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي: العدل والاعتدال في الأمور كلها، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط فيها، والوسط في اللباس الذي يُعبد الله تعالى فيه، أن يكون حلالاً نظيفاً لائقاً بحال لابسه في الناس، ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي: قل لهم أيها الرسول أمر ربي بالقسط فأقسطوا وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد.

وإقامة الشيء: إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه، كإقامة الصلاة، وإقامة الوزن بالقسط، و«الوجه» حسي ومعنوي ـ فقوله تعالى: «فول وجهك شطر المسجد الحرام» من الأول وقوله: «فأقم وجهك للدين حنيفاً» من الثاني، والمراد به توجه القلب وصحة القصد، فإن الوجه يطلق على الذات، والوجه هنا من الثاني، وإن ورد عن بعضهم تفسيره بالأول أيضاً، وجعله بعضهم بمعنى التوجه إلى الكعبة في كل صلاة في كل مسجد أينما كان. والمعنى: أعطوا توجهكم إلى الله تعالى عند كل مسجد تعبدونه فيه حقه، من صحة النية وحضور القلب، وصرف الشواغل سواء كانت العبادة طوافاً أو صلاة أو ذكراً أو فكراً، «وادعوه» وحده «مخلصين له الدين» بأن لا تشوبوا دعاءكم ولا غيره من عبادتكم له بأدنى شائبة من الشرك الأكبر، وهو التوجه بالعبادة إلى غيره من خلقه المكرمين، كالملائكة والرسل والصالحين، ولا إلى ما وُضع للتذكير بهم من الأصنام ولا من الشرك الأصغر، وهو الرياء وحب اطلاع الناس على عبادتكم والثناء عليكم بها، والتنويه بذكركم فيها.

﴿كما بدأكم تعودون﴾ هذا تذكير بالبعث والجزاء على الأعمال ودعوة إلى الإيمان به في إثر بيان أصل الدين، ومناط الأمر فيه والنهي، الوارد في سياق أصل تكوين البشر، واستعدادهم للإيمان والكفر، والخير والشر، وما للشيطان في ذلك من إغواء الكافرين الذين يتولونه، وعدم سلطانه على المؤمنين الذين يتولون الله ورسوله. وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز فإنها دعوى متضمنة للدليل بتشبيه الإعادة بالبدء فهو يقول: كما بدأكم ربكم خلقاً وتكويناً بقدرته، تعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين:

٣٠ ــ ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ أي: فريقاً هداهم في الدنيا ببعثة الرسل، فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده وفريقاً حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان، وإعراضهم عن طاعة الرحمن، وكل فريق يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، ومعنى « حقت عليهم الضلالة » ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية، لا أنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها،يدل على هذا تعليلها على طريق الاستئناف البياني بقوله تعالى:

﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء: أنهم أطاعوهم في كل ما يزينونه لهم من الفواحش والمنكرات، كأنهم ولوهم أمورهم من دون الله الذي يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والعدوان، ويحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين من الشبهات.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ

ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

«يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» روى مسلم في صحيحه والنسائي والبيهقي في سننها ومخرجو التفسير المأثور عن ابن عباس: أن النساء كن يطفن بالبيت عراة، إلا أن تجعل المرأة على فرجها خرقة، تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كُلُّه وما بدا منه فلا أُحِلُّه

وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: كان الناس[1] يطوفون بالبيت عراة يقولون: لا نطوف في ثياب أذنبنا فيها، فجاءت امرأة فألقت ثيابها فطافت، ووضعت يدها على قُبُلها وقالت البيت المذكور فنزلت هذه الآية، والروايات في هذا المعنى كثيرة عن ابن عباس وتلاميذه وغيرهم من مفسري السلف، وفي بعضها عنه: أنهم كانوا يطوفون بالليل عراة، وأكثرها مطلقة.

وجملة القول: أن هذه الآيات كلها نزلت مبطلة لتلك الضلالة الجاهلية الفاحشة، ومقررة لوجوب اتخاذ الملابس للستر ولزينة التجمل وإظهار نعمة الله على عباده، قال عز وجل:

٣١ ـ ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ «الزينة»: ما يزين الشيء أو الشخص، فهي إسم مِنْ «زانه يزينه زَيناً، ضد شانه ـ أي: عابه ـ يشينه شيناً» وأخذها عبارة عن التزين، لأنه إنما يحصل بأخذ ما يزين واستعماله والمراد بها هنا الثياب الحسنة المعتادة بدليل القرينة والإضافة وسبب نزول الآيات ـ وإلا فأنواع الزينة في الدنيا كثيرة ومنها المال والبنون ـ فلا يدخل فيها ما هو خاص بالنساء من الحلي والحلل التي يتحببن بها إلى أزواجهن، وقد تكون شاغلة عن العبادة، وأقل هذه الزينة ما يدفع عن المرء أقبح ما يشينه بين الناس، وهو ما يستر عورته وقد اقتصر بعضهم على هذا لأجل جعل الأمر للوجوب وإنما يجب لصحة الصلاة والطواف ستر العورة فقط على ما جرى عليه جمهور الفقهاء على اختلافهم في تحديد العورة وقالوا: إن

(١) لم تكن هذه عادة العرب كافة، بل كان يفعل ذلك الـحُمُس فقط.

ما زاد على ذلك من التجميل بزينة اللباس اللائق عند الصلاة ـ ولا سيما صلاة الجمعة والجماعة ـ وفي العيدين سنة لا واجب.

﴿وكلوا واشربوا﴾ والمعنى: خذوا زينتكم عند المساجد وأداء العبادات، وكلوا من الطيبات، واشربوا الماء وغيره من الأشربة النافعة المستلذات، ﴿ولا تسرفوا﴾ فيها ولا تعتدوا، بل الزموا الاعتدال ﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ أي: إن ربكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم لمنفعتكم، لا يحب المسرفين في أمرهم، بل يعاقبهم على الإسراف، بقدر ما ينشأ عنه من المفاسد والمضار، فالنهي راجع إلى الثلاثة كما يؤخذ من أكثر الروايات، أي: لا تسرفوا في هذه الأشياء ولا في غيرها، ويؤيده تعليل النهي بأنه تعالى لا يحب جنس المسرفين، أي: لانهم يخالفون سننه في فطرتهم، وشريعته في هدايتهم، بجنايتهم على أنفسهم في ضرر أبدانهم، وضياع أموالهم، وغير ذلك من مضار الإسراف الشخصية والمنزلية والقومية. أخرج عبد بن حميد والنسائي وابن ماجه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مَخِيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

وجملة القول: أن الطعام والشراب ضرورة بشرية حيوانية، ولكن ضل فيها فريقان من البشر في كل أمة من الأمم ـ فريق البخلاء والغلاة في الدين الذين يتركون الأكل والشرب من الطيبات المستلذة النافعة بخلاً وشحاً، أو يحرمونها على أنفسهم تحريماً دائماً أو في أيام أو أشهر مخصوصة تقرباً إلى الله تعالى بتعذيب النفس وإضعاف الجسم، وفريق المترفين المسرفين في اللذات البدنية الذين جعلوا جل همهم من حياتهم التمتع باللذات، فهم يأكلون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام، بل هم أضل منها في تمتعهم، لأنها تقف عند حاجة فطرتها دونهم، فلا تَعْدُوا فيها داعية غريزتها التي تحفظ بها حياتها الفردية والنوعية، وأما المترفون من الناس فإنهم يسرفون في ذلك فيأكلون قبل تحقق الجوع ويشربون على غير ظمأ، ويتجاوزون قدر الحاجة في الأكل والشرب كما يتجاوزونه في غيرهما، ويستعينون على ذلك بالتوابل والمحرضات للشهوة فيصابون من جراء ذلك

بتمدد المعدة، وسوء الهضم وفساد الأمعاء من التخمة، وغير ذلك من الأمراض.

٣٢ - ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟﴾.

حرمت العرب في جاهليتها زينة اللباس في الطواف تعبداً وقربة، وحرم بعضهم أكل بعض الطيبات من الأدهان وغيرها في حال الإحرام بالحج كذلك، وحرموا بعض الحرث والأنعام، وحرَّم من الوثنيين وأهل الكتاب كثيراً من الطيبات والزينة كذلك. فجاء دين الفطرة الجامع بين مصالح البشر في معاشهم ومعادهم، المطهر المربي لأرواحهم وأجسادهم، ينكر هذا التحكم والظلم للنفس، فالاستفهام في قوله تعالى «قل من حرم» إلخ إنكاري يدل على أن هذا التحريم من وساوس الشياطين، لا مما أوحاه تعالى إلى من سبق من المرسلين، أي: لم يحرمه أحد منهم، ولم يجعل سبحانه حق التبليغ عنه لغيرهم، وإضافة الزينة إلى الله تعالى يؤذن باستحسانها والمنة بها، وإخراجها للناس عبارة عن خلق موادها لهم وتعليمهم طرائق صنعها، بما أودع في فطرهم من حبها، وفي عقولهم من الاستعداد للإبداع فيها، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وأكثر للمنعم شكراً، وأوسعهم بسننه وآياته علمًا و«الطيبات من الرزق»: هي المستلذات من الأطعمة والأشربة أي: التي ليست من الخبائث بشرط أن تكون حلالاً.

﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي: قل أيها الرسول لأمتك: هي، أي: الزينة والطيبات من الرزق، ثابتة للذين آمنوا بالأصالة والاستحقاق في الحياة الدنيا، ولكن يشاركهم غيرهم فيها بالتبع لهم وإن لم يستحقها مثلهم، حال كونها خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها غيرهم لأن الكفرة يوم القيامة في النار يعذبون.

﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ أي: من شأنهم العلم بأمثال هذه الأحكام وحِكمها ولو بعد خطابهم بها، والمعنى: أن هذا التفصيل لحكم الزينة

والطيبات الذي ضل فيه أفراد وأمم كثيرة من البشر إفراطاً وتفريطاً، لا يعقله إلا القوم الذين يعلمون سنن الاجتماع وطبائع البشر ومصالحهم وطرق الحضارة الشريفة فيهم.

٣٣ ـ ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ هذا كلام مستأنف لبيان ما حرمه الله تعالى بعد إنكار أن يكون حرم الزينة والطيبات، لأن الحال تقتضي أن يسأل عنه. والمعنى: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين وغيرهم من أهل الملل الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا على الله بزعمهم أنه حرم على عباده ما أخرج لهم من نعم الزينة والطيبات من الرزق، وكذا لمن اتبعك من المؤمنين: إنما حرم ربي في كتبه على ألسنة رسله، هذه الأنواع من أعمالهم الضارة التي يجنون بها على أنفسهم، فجعل تحريمها هو الدائم الذي لا يباح بحال من الأحوال كما يدل عليه الحصر بـ «إنما». وهي الفواحش الظاهرة والباطنة.

فالفواحش جمع «فاحشة» وهي الفعلة أو الخصلة التي فحش قبحها في الفطر السليمة والعقول الراجحة التي تميز بين الحسن والقبيح والضار والنافع،وكانوا يطلقونها على الزنا واللواط والبخل الشديد وعلى القذف بالفحشاء والبذاء المتناهي في القبح.

و «الإثم» في اللغة: هو القبيح الضار، فهو يشمل جميع المعاصي، الكبائر منها كالفواحش والخمر والصغائر كالنظر واللمس بشهوة لغير الحليلة وهو اللمم، ومنه قوله تعالى «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم»، فعطف الفواحش على كبائر الإثم لا على الإثم وهو من عطف الخاص على العام. وكذلك عطف البغي على الإثم هنا من عطف الخاص على العام. ومعنى «البغي» في أصل اللغة: طلب لما ليس بحق أو بسهل أو ما تجاوز الحد، وقالوا: بغي الجرح إذا ترامى إلى الفساد، أو تجاوز الحد في فساده.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾

٣٤ ـ ﴿ولكل أمة أجل﴾ أي: قل أيها الرسول: «إنما حرم ربي الفواحش» إلخ، دون ما حرمتم من النعم والمنافع بأهوائكم وجهالاتكم، وقل «لكل أمة أجل» أي: أمد مضروب لحياتها، مقدر فيما وضع الخالق سبحانه من السنن لوجودها، وهو على نوعين:

أحدهما: أجل من يبعث الله فيهم رسلاً لهدايتهم فيردون دعوتهم كبراً وعناداً في الجحود، ويقترحون عليهم الآيات فيعطونها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا بها فيكذبون فيهلكون، وبهذا هلك أقوام نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط وغيرهم. وهذا النوع من الهلاك كان خاصاً بأقوام الرسل أولي الدعوة الخاصة لأقوامهم. وقد انتهى ببعثة صاحب الدعوة العامة خاتم النبيين المخاطب بقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» لكن انتهاءه عند الله لا يمنع جعله إنذاراً لقومه خاصة بهلاكهم، إن أعطوا ما اقترحوه من الآيات إرضاء لعنادهم، ليعلم أهل البصيرة بعد ذلك أن منعهم إياه إنما كان رحمة بهم وبغيرهم.

والنوع الثاني: الأجل المقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة بالاستقلال، التي تنتهي بالشقاء والمهانة أو الاستعباد والاستذلال، إن لم تنته بالفناء والزوال، وهذا النوع منوط بسنن الله تعالى في الاجتماع البشري والعمران، وأسبابه محصورة في مخالفة هدي الآيات التي قبل هذه الآية، بالإسراف في الزينة والتمتع بالطيبات، وباقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس، وبخرافات الشرك والوثنية التي ما أنزل بها من سلطان، وبالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه لها من الأحكام، وذلك قوله تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وهذا النوع

من آجال الأمم ـ وإن عرفت أسبابه وسننه ـ لا يمكن لأحد أن يحدده بالسنين والأيام، وهو محدد في علم الله تعالى بالساعات، ولذلك قال: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ «الساعة» في اللغة: عبارة عن أقل مدة من الزمن، والساعة الفلكية اصطلاح وهي جزء من ٢٤ جزءاً من مجموع الليل والنهار. أي: فإذا جاء أجل كل أمة كان عقابهم فيه لا يتأخرون عنه أقل تأخر كما أنهم لا يتقدمون عنه إذا لم يجيء، أو لا يملكون طلب تأخيره كما أنهم لا يملكون طلب تقديمه.

٣٥ ـ ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والمعنى: إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم البشر، يتلون عليكم آياتي التي أنزلها عليهم في بيان ما أفرضه عليكم من الإيمان والأعمال الصالحة المصلحة، وما أحرِّمه عليكم من الشرك والرذائل والأعمال المفسدة، فمن اتقى ما نهيت عنه، وأصلح نفسه بما أوجبت عليه، فلا خوف عليهم مما يترتب على التكذيب والعصيان من عذاب الدنيا والآخرة ولا هم يحزنون عند الجزاء يوم القيامة ولا في الدنيا كحزن غيرهم.

٣٦ ـ ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ الاستكبار عن الآيات هو رفض قبولها كبراً وعناداً لمن جاء بها أن يكون إماماً متبوعاً للمستكبرين لأنهم يرون أنفسهم فوقه، أو أقوامهم فوق قومه، أو يحبون أن يُروا الناس ويوهموهم ذلك.

والمعنى: إن الذين كذبوا بآياتنا المنزلة على أحد من رسلنا واستكبروا عن اتباع من جاء بها حسداً له على الرياسة وتفضيلاً لأنفسهم عليه أو لقومهم على قومه فأولئك أصحاب النار الذين يخلدون فيها، لا كعصاة المؤمنين الذين يعذبون فيها زمناً معيناً على ذنوب اقترفوها.

وجملة القول في هاتين الآيتين أن جميع الرسل قد بلغوا أممهم أن اتباعهم في اتقاء ما يفسد فطرتهم من الشرك وخرافاته والرذائل والمعاصي، وفي إصلاح أعمالهم بالطاعات، يترتب عليه الأمن من الخوف من كل ما يتوقع والحزن على

كل ما يقع إما مطلقاً وإما بالنسبة إلى غير المؤمنين المتقين، وإن تكذيب ما جاؤوا به من آيات الله والاستكبار عن اتباعها يترتب عليه الخلود في النار فوق ما بين في آيات أخرى من سوء الحال في الدنيا، وقد سكت عن الجزاء الدنيوي هنا لأن الآية الأولى تدل عليه ولأنه لا يظهر للناس في كل وقت.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

٣٧ ــ ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر في الآيات السابقة ــ وهو كذلك ــ فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ما، بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه[1] أو حرم عليهم في الدين ما لم يحرمه، أو عزا إلى دينه أيَّ حكم لم ينزله على رسله، أو كذب بآياته المنزلة عليهم بالقول أو بما هو أدل منه وهو الاستكبار عن اتباعها، أو الاستهزاء بها، أو تفضيل غيرها عليها بالعمل.

﴿أولئك ينالهم نصيب من الكتاب﴾ في «الكتاب» وجهان، أحدهما: أنه كتاب الوحي الذي أنزل على الرسل، واللام للجنس، وهو ظاهر قول مجاهد في

(١) وإن أكثر البدع دخلت من هذا الباب.

تفسير نصيبهم منه: وهو ما وعدوا فيه من خير وشر، فإن الكتاب الإلهي هو الذي يتضمن الوعد على الأعمال، أي: والوعيد بدليل بيانه بالخير والشر. وهو عام يشمل جزاء الدنيا والآخرة وثانيهما: أنه كتاب المقادير الذي كتب الله فيه نظام العالم كله، ومنها أعمال الأحياء الاختيارية وما يبعث عليها من الأسباب وما يترتب عليها من المسببات، كالسعادة والشقاء والصحة والمرض إلخ، وعليه ابن عباس إذ قال في تفسير النصيب من الآية: ما قدر لهم من خير وشر. وفي رواية أخرى عنه: ما كتب عليهم من الشقاء والسعادة.

﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ أي: ينالهم نصيبهم الذي كتب لهم مدة حياتهم حتى إذا ما انتهى بانتهاء آجالهم، وجاءتهم رسلنا يتوفونهم، وهم الملائكة الموكلون بالتوفي أي: قبض الأرواح من الأجساد ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ أي: يسألهم رسل الموت حال كونهم يتوفونهم: أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله في حال الحياة؟ ادعوهم لينجوكم مما أنتم فيه الآن ﴿قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ أي: قالوا غابوا عنا فلا نرجوا منهم منفعة. واعترفوا بأنهم كانوا كافرين بدعائهم إياهم وزعمهم أنهم عنده تعالى كأعوان الأمراء والسلاطين ووزرائهم وحجابهم. جاهلين أن الله غني عن ذلك بإحاطة علمه وكمال قدرته وأن الملوك والأمراء لا يستغنون عن الأعوان والمساعدين لجهلهم بأمور الناس وعجزهم عن معرفتها وقضائها بأنفسهم.

٣٨ ـ ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ أي: يقول الله تعالى: أو أحد ملائكته بأمره يوم القيامة لهؤلاء الكافرين: ادخلوا مع أمم قد خلت ومضت من قبلكم من الجن والإنس في النار. أو ادخلوا في ضمن أمم مثلكم قد سبقتكم كائنة في دار العذاب، وقدم الجن لأن شياطينهم مُبْتَدِئُو الإضلال والإغواء لأبناء جنسهم وللإنس.

﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ أي: كلما دخلت جماعة منهم في النار واستقبلت ما فيها من الخزي والنكال، لعنت أختها في الدين والملة التي ضلت هي باتباعها والاقتداء بها في كفرها.

﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ أي: حتى إذا تتابعوا وأدرك بعضهم بعضاً فاجتمعوا كلهم فيها، قال أخرى كل منهم لأولاها ومقدميها، في الرتبة والرياسة، أو في الزمن، أي: لأجلها وفي شأنها ـ وإنما الخطاب لله عز وجل ـ: ربنا هؤلاء أضلونا عن الحق باتباعنا لهم وتقليدنا إياهم فيما كانوا عليه من أمر الدين وسائر الأعمال، فأعطهم ضعفاً من عذاب النار لإضلالهم إيانا فوق العذاب على ضلالهم في أنفسهم حتى يكون عذابهم ضعفين ضعفاً للضلال وضعفاً للإضلال.

﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ أي: يقول الله تعالى لهم لكل منهم ضعف من العذاب بإضلاله فوق عذابه على ضلاله، كما قال في آية أخرى «ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم» ولكن لا تعلمون كنه عذابهم.

٣٩ ـ ﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ هذا الجواب مبني على ما قبله من قول أخراهم، أو من جواب الله تعالى لهم، والمعنى على الأول: إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا نحن أضللناكم، فما كان لكم علينا بهذا أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا والذنب واحد، وقد اعترفتم بتلبسكم بالضلال المقتضي له، فذوقوا العذاب بكسبكم له مهما يكن سببه. وأما المعنى على الوجه الثاني: فأن يقال إذا كان الرب قد جعل لكل منا أو منا ومنكم ضعفاً من العذاب، فليس لكم علينا فضل يخفف به عنكم ما أوجبه عليكم، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون من الكفر والمعاصي مثلنا، فنحن لم نكن بمكرهين لكم على ذلك بل فعلتموه باختياركم، وإنما كان يكون لكم الفضل علينا لو اهتديتم باتباع الرسل وتركتمونا في ضلالنا وغوايتنا، ولا ينفعكم مضاعفة العذاب لنا إذا لم يخفف عنكم عذابكم فإن كلاً منا لا يشعر إلا بعذاب نفسه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا

يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾
لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

٤٠ ـ ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لمفسري السلف في تفتح أبواب السماء قولان لا يتنافيان أحدهما: أن معناه لا تقبل أعمالهم، ولا ترفع إلى الله عز وجل كما ترفع أعمال الصالحين كما قال تعالى: «والعمل الصالح يرفعه» قال ابن عباس: أي: لا يصعد إلى الله من عملهم شيء ـ وفي رواية عنه: لا تفتح لهم لعمل ولا دعاء. ومثله عن مجاهد وسعيد بن جبير. والثاني: أن أرواحهم لا تصعد إلى السماء بعد الموت. وروي عن ابن عباس والسدي وغيرهما، قال ابن عباس: عَيَّـر بها الكفار أن السماء لا تُفَتَّح لأرواحهم وتفتح لأرواح المؤمنين ومثل هذا التعبير بـ «السماء» معروف عند أهل الكتاب، وجاءت أخبار مرفوعة في قبول روح المؤمن ورد روح الكافر.

﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ المعنى: لا يدخلون الجنة حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجرم وهو الجمل الكبير، فيما هو مثلٌ في الضيق وهو ثقب الإبرة وذلك لا يكون، فالمراد تأكيد النفي أو تأبيده وسئل عنه ابن مسعود، رضي الله عنه، عن الجمل فقال: هو زوج الناقة.

﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي جنس المجرمين أي: الذين صار الإجرام وصفاً لازماً لهم،وأصل معناه: قطع الثمرة قبل بدو صلاحها،ثم توسع فيه فأطلق على كل إفساد، ولا سيما إفساد الفطرة بالكفر وما يترتب عليه من الخرافات والمعاصي وهو المراد هنا، وليس كل من أجرم كذلك فإن المؤمن إذا أجرم جرماً بثورة غضب أو نزوة شهوة فلا يلبث أن يندم ويتوب.

٤١ ـ ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾ «جهنم»: اسم لدار العذاب والشقاء. و «المهاد»: الفراش، و «الغواشي»: جمع غاشية، وهي

ما يغشى الشيء أي: يغطيه ويستره، ويناسب المهاد منها اللحاف، وبه قال ابن عباس هنا، فالغشاء ومنه «واستغشوا ثيابهم» والمراد أن جهنم مطبقة عليهم ومحيطة بهم كما قال تعالى: «إنها عليهم مؤصدة» وكما قال «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ أي: ومثل هذا الجزاء نجزي جنس الظالمين لأنفسهم وللناس بشرطه الذي ذكر في المجرمين آنفاً.

وأفادت الآيتان أن المجرمين والظالمين الراسخين في صفتي الإجرام والظلم: هم الكافرون، وأن المؤمنين لا يكونون كذلك، كما قال «والكافرون هم الظالمون» وهذا تحقيق القرآن والناس في غفلة عنه ولذلك خالفوه في عُرْفِهِ.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

من سنة القرآن الجمع بين الوعد والوعيد والثواب والعقاب يبدأ بأحدهما لمناسبة السياق قبله ويقفي عليه بالآخر، ولهذا عطف بيان جزاء السعداء على بيان جزاء الأشقياء، فقال:

٤٢ ــ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: والذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الأعمال الصالحات على الوجه الذي دعتهم إليه الرسل، وهي لا عسر فيها ولا حرج إذ ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: لا نفرض على المكلف إلا ما يكون في وسعه، وهو ما لا يضيق به ذرعه، ولا يشق عليه أداؤه، وهذه جملة معترضة هنا، وقد تقدم مثلها في آخر سورة «البقرة».

﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: أولئك الجامعون بين

الإيمان والأعمال التي تصلح بها نفس الإنسان، وتزكو فتكون أهلاً للنعيم والرضوان، هم أصحاب الجنة الذين يخلدون فيها أبداً.

٤٣ ـ ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي: ونزعنا ما كان في قلوبهم من حقد وضغن، مما يكون من عداوة أو حسد في الدنيا، فلا يدخلون الجنة وفي قلوبهم أدنى لوثة مما لا يليق بتلك الدار وأهلها، ويكون من أسباب تنغيص النعيم فيها، ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ فيرونها وهم في غرفات قصورهم تتدفق في جناتها وبساتينها فيزدادون حبوراً لا تشوبه شائبة كدر. وروي عن قتادة: أن علياً رضي الله عنه قال: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: «ونزعنا ما في صدورهم من غل».

﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي: ويقولون شاكرين لله بألسنتهم المعبرة عن غبطتهم وبهجتهم: الحمد لله الذي هدانا في الدنيا للإيمان الصحيح والعمل الصالح الذي كان هذا النعيم جزاءه، «وما كنا لنهتدي» أي: وما كان من شأننا ولا مقتضى بديهتنا أو فكرتنا أن نهتدي إليه بأنفسنا، «لولا أن هدانا الله» إليه بتوفيقه إيانا لاتباع رسله، ومعونته لنا عليها ورحمته الخاصة، علاوة على هداية فطرته التي فطرنا عليها وهداية ما خلق لنا من المشاعر والعقل، تالله ﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ فهذا مصداق ما وعدنا من الجزاء على التوحيد والعمل الصالح ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أي: ونودوا من قبل الرب تبارك وتعالى بأن قيل لهم: تلكم هي الجنة البعيدة المنال ـ لولا فضل ذي الجلال والإكرام ـ التي وعد بوراثتها الأتقياء، أورثتموها بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الصالحات.

والآية صريحة في كون الجنة تنال بالعمل، وفي معناها آيات كثيرة، وأما حديث أبي هريرة في الصحيحين: «لن يُدخل أحداً عملُه الجنةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمته» فمعناه: أن عمل الإنسان مهما يكن عظيمًا لا يستحق به الجنة لذاته، لولا رحمةُ

الله وفضله، إذ جعل هذا الجزاء العظيم على هذا العمل القليل، فدخول الجنة بالعمل دخول بفضل الله ورحمته، ولذلك قال ﷺ بعده: «فسددوا وقاربوا» أي: لا تبالغوا ولا تغلوا في دينكم، ولا تتكلفوا من العمل ما لا تطيقون.

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

بعد أن ذكر سبحانه النار وأهلها، والجنة وأهلها، بَيَّن لنا في هذه الآيات وما بعدها بعض ما يكون بين الفريقين ـ فريق الجنة وفريق السعير ـ من الحوار بعد استقرار كل منهما في داره، وتمكنه في قراره، فقال عز وجل:

٤٤ ـ ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً﴾ المعنى: أن أصحاب الجنة سوف ينادون أصحاب النار، حتى إذا ما وجُّهوا أبصارهم إليهم سألوهم سؤال تبجح وافتخار بحسن حالهم، وتهكم وتذكير بما كان من جناية أهل النار على أنفسهم بتكذيب الرسل، وتقرير لهم بصدق ما بلغوهم من وعد ربهم لمن آمن وأصلح بنعيم الجنة قائلين: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وها نحن أولاء فيه، فهل وجدتم ما وعد ربكم من آمن به وبما جاءت به رسله حقاً؟

﴿قالوا نعم﴾ أي: قال أهل النار: نعم قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً

﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ «التأذين»: رفعُ الصوت بالإعلام بالشيء، و«اللعنة»: عبارة عن الطرد والإبعاد مع الخزي والإهانة. أي: فكان عقب هذا السؤال والجواب الذي قامت به الحجة على الكافرين، أن أذن مؤذن قائلاً: لعنة الله على الظالمين لأنفسهم الجانين عليها بما أوجب حرمانها من النعيم المقيم، وارتكاسها في عذاب الجحيم، والظالمين للناس.

٤٥ ـ ﴿الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً﴾ أي: الذين يعرضون عن سلوك سبيل الله الموصلة إلى مرضاته وكرامته وثوابه ويضلون الناس عنها، ويمنعونهم من سلوكها، ويبغونها معوجة أو ذات عوج، أي: غير مستوية ولا مستقيمة حتى لا يسلكها أحد.

﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ أي: وهم على ضلالتهم وإضلالهم كافرون بالآخرة كفراً راسخاً قد صار صفة من صفاتهم، فلا يخافون عقاباً على إجرامهم فيتوبوا منه.

٤٦ ـ ﴿وبينهما حجاب﴾ أي: وبين الفريقين حجاب يفصل كلاً منهما عن الآخر ويمنعه من الاستطراق إليه. وهذا الحجاب بين الجنة والنار هو السور في قوله تعالى من سورة «الحديد» «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب» الآية، فإن الجنة في باطنه والنار من قبل ظاهره، أي: بالنسبة إلى ما يكون الناس عليه في موقف الحساب. روى البيهقي في الأسماء والصفات عن مقاتل في قوله «فضرب بينهم بسور له باب» قال: يعني بالسور حائطاً بين أهل الجنة وأهل النار له باب باطنه ـ يعني: باطن السور ـ فيه الرحمة مما يلي الجنة، وظاهره من قبله العذاب يعني جهنم، وهو الحجاب الذي ضرب بين أهل الجنة وأهل النار.

﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم﴾ «الأعراف» بصيغة الجمع: ضرب من النخل ويطلق على أعالي الأشياء وأوائلها وكل مرتفع من الأرض وغيرها، ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر على أعلى الرقبة عن

حـذيفة رضي الله عنه قال: الأعراف سور بين الجنة والنار، وفي رواية عن ابن عباس، رضي الله عنهما، مثله. أمـا أصحاب الأعـراف فقد اختلف المفسرون فيهم على أقوال عدها القرطبي وغيره اثني عشر قولاً أقواها: أنهم الذين ليسوا من الأخيار الذين رجحت حسناتهم فاستحقوا الجنة ولا من الأشرار الذين رجحت سيئاتهم فاستحقوا النار، بل تساوت حسناتهم وسيئاتهم ورجحه الجمهور كما سيأتي.

﴿ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم﴾ أي: نادوهم بقولهم سلام عليكم.

وقوله ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه في أصحاب الأعراف وسيأتي ما روي فيه، والثاني: أنه في أهل الجنة والجملة حالية على الوجهين أي: نادوهم مسلمين عليهم حال كونهم لم يدخلوها معهم وهم طامعون في ذلك، أو حال كون أهل الجنة لم يدخلوا الجنة بَعْدُ وهم يطمعون في دخولها لما بدا لهم من يسر الحساب، ولا سيما إذا كان ذلك بعد المرور على الصراط، وقد ورد في الآثار أن الناس يكونون في الموقف بين الخوف والرجاء لا تطمئن قلوب أهل الجنة حتى يدخلوها.

٤٧ ــ ﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾ أفاد هذا التعبير بالفعل المبني للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم، أي: حولت إلى الجهة التي تلقاهم وتبصرهم فيها ــ وإنما يكون ذلك عن غير توخ ولا رغبة، بل بصارف يصرفهم إليها أو بمقتضى سرعة تحولها من جهة إلى جهة ــ قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين حيث هم ولا حيث يكونون.

والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم، وكانوا موقوفين مجهولاً مصيرهم. روى ابن جرير عن شعبة أن حـذيفة رضي الله عنه ذكر أصحاب الأعراف فقال: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك

فقال لهم: فاذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم . وعن سعيد بن جبير أن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله «فمن ثقلت موازينه» الآيتين[1]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف، فوقفوا على الصراط ثم عرض أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة قالوا: سلام عليكم، وإذا صرفت أبصارهم إلى يسارهم رأوا أهل النار، فقالوا: «ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين» تعوذوا بالله من منازلهم قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذٍ نوراً وكل أمة نوراً. فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة. فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون «قالوا ربنا أتمم لنا نورنا» وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان في أيديهم فلم ينزع من أيديهم فهنالك يقول الله تعالى «لم يدخلوها وهم يطمعون» فكان الطمع دخولاً.

فهذا أوضح بيان مفصل للقول الذي اعتمده الجمهور، وللأثرين الموقوفين فيه قوة الحديث المرفوع، وظاهره أن هذا كله يقع بعد الموقف، وقبل أن يجعل هؤلاء الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم على الأعراف، فإن السور الذي فُسِّرت الأعراف به أو بأعاليه، يُضرب بعد ذهابهم من الموقف، يسيرون بنورهم إلى الجنة كما هو ظاهر آية سورة «الحديد» وقد ذكرناها عند تفسير كلمة «الأعراف» وفيه: أنه تعالى ذكر معرفتهم لأصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم، ونداءهم بالسلام على أهل الجنة بعنوان أنهم أصحاب الأعراف، ولا يصح هذا العنوان قبل وجودهم عليها إلا إذا ثبت أنهم يسمون أصحابها قبل ذلك، أو على التأويل بجعله من مجاز الأَوْل[2] كقوله «أعصر خمراً» ويجاب

---

(١) قوله: «الآيتين» أي: «الثامنة والتاسعة» من سورة «الأعراف» هذه.

(٢) قوله: «مجاز الأَوْل» أي: باعتبار ما يؤول إليه كما في الآية ــ «أعصر خمراً» ــ أي: عنباً يصير فيها بعد خمراً وهذا من المجاز المرسل.

عن تخصيص الرجال بالذكر بأنهم هم الذين يخاطبون أهل الجنة وأهل النار دون من معهم من النساء.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

٤٨ ـ ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ الظاهر أن هذا النداء يكون من بعضهم لمن كانوا يعرفونهم في الدنيا من المستكبرين بغناهم وقوتهم، المحتقرين لضعفاء المؤمنين لفقرهم وضعف عصبيتهم، أو لحرمانهم من عصبة تمنعهم وتذود عنهم، الذين كانوا يزعمون أن من أغناه الله تعالى وجعله قوياً في الدنيا هو الذي يعطيه نعيم الآخرة، إن كان هنالك آخرة ومنهم طغاة قريش الذين قاوموا الإسلام في مكة، واضطهدوا أهله، كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل. وقد ذكروا أنهم يعرفونهم بسيماهم الخاصة التي كانوا عليها في الدنيا أو بسيما المستكبرين إذ ورد ما يدل على أن لكل من تغلب عليهم رذيلةٌ خاصة صفةً وعلامةً تدل عليهم. والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع. أي: ما أغنى عنكم جمعكم للمال، واستكباركم على المستضعفين والفقراء من أهل الإيمان، وهو لم يمنع عنكم العذاب ولا أفادكم شيئاً من الثواب.

٤٩ ـ ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟﴾ أي: يشيرون إلى أولئك المستضعفين الذين كانوا يضطهدونهم ويعذبونهم في الدنيا، كآل ياسر وصهيب الرومي وبلال الحبشي. ويقولون لهم متهكمين بخزيهم وفوز من كانوا يحتقرونهم أهؤلاء الذين أقسمتم في الدنيا أن الله تعالى لا ينالهم برحمة لأنه لم يعطهم من الدنيا ما أعطاكم ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي:: قيل لهم من قبل الرحمن عز وجل: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم، ولا أنتم تحزنون من جراء شيء ينغص عليكم حاضركم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

٥٠ ــ ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ إفاضة الماء: صبه، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة، وما رزقهم الله يشمل الطعام وغير الماء من الأشربة، و «أو» في قوله «أو مما رزقكم الله» للتخيير، فهي لا تمنع الجمع بين الماء والطعام. والمعنى: أن أهل النار يستجدون أهل الجنة أن يُفيضوا عليهم من النعم الكثيرة التي يتمتعون بها من شراب وطعام، وقدموا طلب الماء لأن من كان في «سموم وحميم» يكون شعوره بالحاجة إلى الماء البارد أشد من شعوره بالحاجة إلى الطعام الطيب.

روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذا الاستجداء: ينادي الرجل أخاه فيقول يا أخي أغثني فإني قد احترقت فأفض علي من الماء، فيقال: أجبه، فيقول: إن الله حرمهما على الكافرين. وروي عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والبيهقي في شعب الإيمان أن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، شرب ماءً بارداً فبكى فسئل ما يبكيك؟ قال: ذكرت آية في كتاب الله «وحيل بينهم وبين ما يشتهون» فعرفت أن أهل النار لا يشتهون إلا الماء البارد وقد قال الله عز وجل «أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله» وروي أحمد عن سعد بن عبادة أن أمه ماتت فقال: يا رسول الله أتصدق عليها؟ قال: «نعم» قال: فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «سقي الماء»

﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ الحرام في اللغة: الممنوع، والتحريم ــ وهو: المنع ــ قسمان: تحريم بالحكم والتكليف كتحريم الله الفواحش والشكرات، وتحريم بالفعل أو القهر، كتحريم الجنة

وما فيها على الكافرين، أي: قال أهل الجنة جواباً عن هذا الاستجداء: إن الله قد حرم ماء الجنة ورزقها على الكافرين كما حرم عليهم دخولها، فلا يمكن إفاضة شيء منها عليهم فإن لهم النار وماءها الحميم، وطعامها من الضريع والزقوم.

وذكر أصحاب الجنة من وصف الكافرين الذي كان سبب هذا الحرمان، فقالوا:

٥١ ـ ﴿الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا﴾ أي: إنهم اتخذوا دينهم أعمالاً لا تزكي الأنفس، بل هي إما لهو، وهو ما يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة بالتلذذ بما تهوى النفس، وإما لعب، وهو ما لا تقصد منه فائدة صحيحة كأعمال الأطفال، وغرتهم الحياة الدنيا فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها ـ حراماً كانت أو حلالاً ـ لأنها مطلوبة عندهم لِذَاتها. وأما أهل الجنة فهم الذين سعوا لها سعيها بأعمال الإيمان التي تزكي الأنفس فلم يغتروا بالحياة الدنيا. بل كانت الدنيا عندهم مزرعة الآخرة لا مقصودة لذاتها. لذلك كانوا يقصدون بالتمتع بنعم الله فيها الاستعانةَ بها على ما يرضيه من إقامة الحق وعمل الخير والاستعداد للحياة الأبدية.

﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ هذا من قول الله عز وجل مرتب على ما قبله ترتب المسبب على السبب، والمراد بـ«اليوم» يوم الجزاء وهو محدود بالعمل الذي هو الجزاء وإن لم يعرف له مقدار، والمراد: نعاملهم معاملة المنسي الذي لا يفتقده أحد، كما جعلوا هذا ايوم منسياً، أو كالمنسي بعدم الاستعداد والتزود له، والظاهر أن الكاف هنا للتعليل كقوله «واذكروه كما هداكم» أي: لهدايته لكم ـ لا للتشبيه ـ على أنه يصح في هذه الجملة على حد المثل: الجزاء من جنس العمل ولكن لا يصح فيما عطف عليه من قوله: ﴿وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ بل يتعين فيه التعليل، فنسيان الله لهم، المراد به: حرمانهم من نعيم الجنة ـ معلول بنسيانهم لقاء يوم الجزاء. إذ المراد به ترك العمل له وبجحودهم بآيات الله الذي هو عبارة عن الكفر بدينه ورفض ما جاءت به رسله ظلماً وعلواً، فينطبق على سائر الآيات الناطقة بأن الجزاء في الدارين على الاعتقاد والعمل جميعاً.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

٥٢ ـ ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هـدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي: ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن، كامل التبيان، وهو القرآن. فصلنا آياته تفصيلاً على علم منا بما يحتاج إليه المكلفون من العلم والعمل، لتزكية أنفسهم وتكميل فطرتهم، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منارَ هداية عامة وسبب رحمة خاصة لقوم يؤمنون به إيمان إذعان يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهي عنه، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون بـه إذا لم يهتدوا بـه، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلاً لرحمته.

والتفصيل: عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولاً بعضها من بعض، بما يزيل الاشتباه، واختلاط بعضها ببعض في الإفهام، وليس معناه: ذكر كل نوع منها على حدته، ولا التطويل ببيان جميع فروعه، ففي القرآن تفصيل كل شيء نحتاج إليـه في أمر ديننـا: أسهب حيث ينبغي الإسهاب، وأوجز حيث يكفي الإيجاز.

٥٣ ـ ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي: ليس أمامهم شيء ينتظرونه في أمره إلا وقوع تأويله. وهو ما يؤول إليه ما أخبر به من أمر الغيب الذي يقع في المستقبل في الدنيا ثم في الآخرة. فالنظر هنا بمعنى الانتظار. وتأويل الكلام كتأويل الرؤيا هو عاقبتها، والمآل الذي يتحقق به المراد منها.

﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي: يوم يأتي كل تأويله

ونهايته في يوم القيامة، وتزول كل شبهة يقول الذين نسوه في الدنيا، أي: تركوه كالمنسي فلم يهتدوا به ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: بالأمر الثابت المتحقق فتمارينا به وأعرضنا عنه حتى جاء وقت الجزاء عليه ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾ أي: يتمنون أحد هذين الأمرين، فالاستفهام هنا للتمني، ويحتمل أن يكون على أصله فيقع قبل دخول النار، وبعد اليأس فيها من الشفعاء، حيث يقولون فيها كما في سورة «الشعراء» «فما لنا من شافعين ولا صديق حميم، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين» وإنما يتمنون الشفعاء أو يتساءلون عنهم أولاً لأن قاعدة الشرك الأساسية أن النجاة عند الله وكل ما يطلب منه إنما يكون بواسطة الشفعاء عنده. وعندما يتبين لهم الحق الذي جاءت به الرسل وهو أن النجاة والسعادة إنما تكون بالإيمان الصحيح والعمل الصالح، ويعلمون هنالك أن الشفاعة لله وحده، فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» يتمنون لو يردون إلى الدنيا، فيعملوا فيها غير ما كانوا يعملون في حياتهم الأولى، لأجل أن يكونوا أهلاً لمرضاته تعالى بأن يعملوا بما أمرتهم به رسله، عليهم السلام.

﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ هذا بيان من الله تعالى لحالهم وغاية تمنيهم يقول: قد خسروا أنفسهم في الدنيا بإفسادها وتدنيسها بالشرك والمعاصي، وعدم تزكيتها بالتوحيد والفضائل والأعمال الصالحات، فلم يكن لها حظ في الآخرة، ويومئذٍ يضل ويغيب عنهم ما كانوا يفترون من خبر الشفعاء كقولهم في معبوداتهم «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» فلم يكن لهم من عوض عن أنفسهم.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

٥٤ ـ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ «الرب»: هو السيد والمالك والمدبر المربي، وأما اسم الجلالة الأعظم «الله» فهو اسم لرب العالمين، خالق الخلق أجمعين، الذي ينفي الموحدون الحنفاء ربوبية غيره وألوهية سواه.

والسماوات والأرض: يطلقان في مثل هذا المقام على كل موجود مخلوق، أو ما يعبِّر عنه بعض الناس بالعالم العلوي والعالم السفلي. فالله تعالى بقوله يقول في هذه الآية للناس كافة: إن ربكم واحد، وهو الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهو المدبر لأمورهما وحده، فيجب أن تعبدوه وحده فلا يكون لكم إله غيره.

﴿ثم استوى على العرش﴾ أي: ثم إنه سبحانه وتعالى قد استوى بعد تكوين هذا الملك على عرشه كما يليق به، يدبر أمره، ويصرف نظامه حسب تقديره الذي اقتضته حكمته فيه كما قال في سورة «يونس» «إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه» «العرش» في الأصل: الشيء المسقف يُطلق على سرير الـمَلِك وكرسيه في مجلس الحكم والتدبير، ولم يشتبه على أحد من الصحابة معنى استواء الرب تعالى على العرش، إذ كانوا يفهمون أن استواءه تعالى على عرشه: عبارة عن استقامة أمر ملك السماوات والأرض له وانفراده هو بتدبيره. وأن الإيمان بذلك لا يتوقف على معرفة كنه ذلك التدبير وحقيقته مع إيمانهم بتنزيه الله تعالى عن صفات البشر وغيرهم من سائر الخلق.

وأخرج اللالكائي في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات أن ربيعة شيخ الإمام مالك سئل عن قوله ﴿استوى على العرش﴾ كيف استوى؟ فقال الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق. وأخرجا: أن مالكاً سئل هذا السؤال أيضاً فوجَدَ ـ أي: غضب ـ وَجْداً شديداً وأخذته الرُّحَضَاء ـ أي: العرق الشديد ـ، ولما سري عنه قال للسائل: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان

به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالاً، وأمر به فأخرج. وفي رواية أنه قال: «الرحمن على العرش استوى» كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف، و«كيف» عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة اهـ.

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره، أن للناس في هذا المقام مقالات كثيرة وقال: وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ـ مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه ـ وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» بل الأمر كما قال الأئمة، منهم نُعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري، قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت ما وردت به الآثار الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى اهـ.

﴿يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا﴾ المعنى: أن الله تعالى قد جعل الليل الذي هو الظلمة يَغْشَى النهار وهو ضوء الشمس على الأرض، أي: يتبعه ويغلب على المكان الذي كان فيه، ويستره حالة كونه يطلبه حثيثاً من قولهم: فرس حثيث السير، ومضى حثيثاً أي: مسرعاً، والمعنى: أنه يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، وهذا الطلب السريع يظهر أكمل الظهور بما ثبت من كون الأرض كروية الشكل تدور على محورها تحت الشمس، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائمًا والنصف الآخر مظلمًا دائمًا. ومسألة الليل والنهار معلومة بالقطع في هذا العصر فيمكن تحديد ساعات الليل والنهار في كل قطر، ومخاطبة أهله بالتلغراف بأن تسأل في نصف الليل من تعلم أن وقتهم نصف النهار مثلاً فيجيبوك بل البرقيات تطوف كل يوم مدن العالم المدني في الشرق والغرب مبينة ذلك.

﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ الأمر هنا أمر التكوين،

أو هو عبارة عن التصرف والتدبير، أي: وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونهن مذللات خاضعات لتصرفه منقادات لمشيئته.

﴿ألا له الخلق والأمر﴾ «ألا» أداة يفتتح بها القول الذي يُهْتَمُّ بشأنه، لأجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله، و«الخلق» في أصل اللغة: التقدير، واستعمل بمعنى الإيجاد بقَدَر، أي: ألا إن لله الخلق فهو الخالق المالك لذوات المخلوقات، وله فيها الأمر وهو التشريع والتكوين، والتصرف والتدبير فهو المالك والملك لا شريك له في شيء من ذلك.

﴿تبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين كلهم ومدبر أمورهم، والحقيق وحده بعبادتهم، فـ«تبارك» من مادة «البركة» وهي: الخير الكثير الثابت، فهي هنا تنبيه على ما في هذا العالم من الخيرات والنعم التي توجب له الشكر والعبادة على عباده دون ما عبدوه معه وليس لهم من الخلق ولا من الأمر شيء.

ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

٥٥ ـ ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ التضرع «تَفَعُّل» من الضراعة معناه: تكلفها، أو المبالغة فيها أو إظهارها واختاره «الراغب» أي: ادعوا ربكم ومدبر أموركم متضرعين مبتهلين إليه تارة، ومسرين مستخفين تارة أخرى، أو دعاء تضرع وتذلل وابتهال، ودعاء مناجاة وإسرار ووقار.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر ـ أي: الزائرون ـ وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن

يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: «ادعوا ربكم تضرعاً وخفية»، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فِعْلَه فقال: «إذ نادى ربه نداءً خفياً» اهـ. وقال ابن جريج: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة.

﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ في الدعاء، كما لا يحب ذلك في سائر الأشياء. والاعتداء: تجاوز الحدود فيها، وقد نهي عنه مطلقاً ومقيداً، إلا ما كان انتصافاً من معتد ظالم بمثل ظلمه، والعفو عنه أفضل، والاعتداء في كل شيء يكون بحسبه وذلك أن لكل شيء حداً من تجاوزه كان معتدياً «تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون».

وشر أنواع الاعتداء في الدعاء التوجه فيه إلى غير الله ولو ليشفع له عنده، لأن الحنيف من يدعو الله تعالى وحده، فلا يدعو معه غيره، كما قال: «فلا تدعوا مع الله أحداً» أي: لا مَلَكَاً ولا نبياً ولا ولياً.. ومن دعا غير الله فيما يعجز هو وأمثاله عنه من طريق الأسباب كالشفاء من المرض بغير التداوي، وتسخير قلوب الأعداء والإنقاذ من النار ودخول الجنة وما أشبه ذلك من المنافع ودفع المضمار، فقد اتخذه إلهاً لأن الإله هو المعبود، و«الدعاء هو العبادة» كما قال الرسول ﷺ فيما رواه أحمد وابن أبي شيبة وأصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن النعمان بن بشير وأبو يعلي عن البراء، رضي الله عنهما، والمعنى: أنه الركن الأعظم في العبادة على نحو: «الحج عرفة»[1].

ومن الاعتداء في الدعاء ما هو خاص باللفظ، كالتكلف والسجع والمبالغة في رفع الصوت، فقد صح النهي عن ذلك.

ومنها ما هو خاص بالمعنى، وهو طلب غير المشروع من وسائل المعاصي ومقاصدها كضرر العباد، وأسباب الفساد، وطلب المحال الشرعي أو العقلي، كطلب إبطال سنن الله في الخلق وتبديلها أو تحويلها، ومنه طلب النصر على

---

(١) قوله: «الحج عرفة» هذا حديث نبوي صحيح رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وغيرهم.

الأعداء، مع ترك وسائله كأنواع السلاح والنظام، والغنى بدون كسب، والمغفرة مع الإصرار على الذنب. والله تعالى يقول «فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً».

٥٦ ــ ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي: ولا تفسدوا في الأرض بعمل ضائر، ولا بحكم جائر، مما ينافي صلاح الناس في أنفسهم كعقولهم وعقائدهم وآدابهم الشخصية والاجتماعية، أو في معايشهم ومرافقهم من زراعة وصناعة وتجارة وطرق مواصلة ووسائل تعاون ــ لا تفسدوا فيها بعد إصلاح الله تعالى لها بما خلق فيها من المنافع، وما هدى الناس إليه من استغلالها والانتفاع بتسخيرها لهم، وامتنانه بها عليهم، بمثل قوله تعالى: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» ومن إقامة الحق والعدل والفضيلة فيها، فالإصلاح الأعظم إنما هو إصلاحه تعالى لحال البشر، بهداية الدين وإرسال الرسل، وإكمال ذلك ببعثة خاتم النبيين والمرسلين، الرحمة العامة للعالمين، فأصلح به عقائد البشر ببنائها على البرهان، وأصلح به أخلاقهم وآدابهم بما جمع لهم فيها بين مصالح الروح والجسد وما شرع لهم من التعاون والتراحم، وأصلح سياستهم ونوع الحكم بينهم بشرع حكومة الشورى المقيدة بأصول درء المفاسد وحفظ المصالح والعدل والمساواة.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أعاد الأمر بالدعاء بقيد آخر بعد أن وسط بينهما النهي عن الإفساد، للإيذان بأن من لا يعرف نفسه بالحاجة والافتقار إلى رحمة ربه الغني القدير وفضله وإحسانه، ولا يدعوه تضرعاً وخفية، ولا خوفاً من عقابه وطمعاً في غفرانه، فإنه يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح، إلا أن يعجز. والمعنى: وادعوه خائفين أو ذوي خوف من عقابه إياكم على مخالفتكم لشرعه المصلح لأنفسكم ولِذَات بينكم، وتنكبكم لسننه المطردة في صحة أجسامكم وشئون معايشكم ــ وهذا العقاب يكون بعضه في الدنيا وباقيه في الآخرة ــ وطامعين في رحمته وإحسانه في الدنيا والآخرة.

والقول الجامع في حال النفس عند الدعاء: أن تكون غارقة في الشعور بالعجز والافتقار إلى الرب القدير الرحيم، الذي بيده ملكوت كل شيء،

يصرف الأسباب، ويعطي بحساب وبغير حساب، فإن دعاء الرب الكريم بهذا الشعور، يقوي أمل النفس، ويحول بينها وبين اليـأس عند تقطع الأسباب، والجهل بوسائل النجاح، ولو لم يكن للدعاء فائـدة إلا هذا لكفى، فكيف وهو مخ العبادة ولبابها، وإجابته مرجوة بعد استكمال شروطه وآدابه، وأولها عدم الاعتداء فيه، فإن لم تكن بإعطاء الداعي ما طلبه، كانت بما يعلم الله أنه خير له منه.

﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ أي: إن رحمته تعالى الفعلية التي يعبر عنها بالإحسان قريبةٌ من المحسنين في أعمالهم المتقنين لها، لأن الجزاء من جنس العمل. فمن أحسن في العبادة نال حسن الثواب، ومن أحسن في أمور الدنيا نال حسن النجاح، ومن أحسن في الدعاء استجيب له، أو أعطي خيراً مما طلبه.

والإحسان مطلوب في كل شيء بهدي دين الفطرة الداعي لحسنتي الدنيا والآخرة. وجزائه الإحسان في كل شيء بحسبه. قال عز وجل: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟»، كما أن الإساءة محرمة في كل شيء وجزاؤها من جنسها. قال عز وجل: «ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» وقال الرسول ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته» رواه مسلم عن شداد بن أوس، رضي الله عنه، فالإحسان واجب في دين الإسلام حتى في قتال الأعداء، لأنه في حكمه من الضرورات التي تقدر بقدرها، ويتقى ما يمكن الاستغناء عنه من شرها، ومنه قوله تعالى: «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مَنّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها» أي: فإذا لقيتم أعداءكم الكفار في المعركة فقاتلوهم بضرب الرقاب لأنه أسرع إلى القتل وأبعد عن التعذيب بمثل ضرب الرأس مثلاً ـ وناهيك بتهشيم الرؤوس وتقطيع الأعضاء في عهد التنزيل الذي لم يكن فيه أطباء جراحة يخففون آلامها ـ حتى إذا ظهر لهم الغلب عليهم

بالإثخان فيهم فاتركوا القتل، واعمدوا إلى الأسر، ثم إما أن تمنوا على الأسرى بالعتق مَنّاً، وإما أن تفدوا بهم مَنْ أُسر منكم فداء.

وكذلك الإحسان في الحيوان والرفق به، ومنه ذبح البهائم للأكل فيجب أن يحسن فيها بقدر الطاقة حتى لا يتعذب الحيوان، ولهذا حرم الله الموقوذة وهي التي تضرب بغير محدد حتى تنحل قواها وتموت.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

بعد أن بين الله عز وجل أن رحمته العامة قريب من المحسنين في عبادتهم وفي سائر أعمالهم ذكرنا بما نغفل عنه كثيراً من التفكر والتأمل في أظهر أنواع هذه الرحمة وهو إرسال الرياح وما فيها من منافع الخلق، وإنزال المطر الذي هو مصدر الرزق، وسبب حياة كل حي في هذه الأرض، وما فيه من الدلالة على قدرته تعالى على البعث، وما يستحقه عليه من الحمد والشكر، فقال:

٥٧ ــ ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ «الريح»: الهواء المتحرك، وهي مؤنثة في الأكثر، وقد تذكّر بمعنى الهواء، والهواء من أعظم نعم الله تعالى على الأحياء، إذ وجوده شرط الحياة لحياة كل نبات وحيوان، فلو رفعه الله تعالى من الأرض لمات كل حيوان وإنسان في طرفة عين ولا تتم منافعه إلا بحركته التي يكون بها ريحاً. والرياح عند العرب أربع بحسب مهابها من الجهات الأربع: الشمال والجنوب وسميتا باسم جهة مَهَبِّهما، والثالثة «الصَّبا» وهي الشرقية، والرابعة «الدَّبور» وهي الغربية. ومن المأثور عن العرب: أن

الرياح تشترك في إثارة السحاب الممطر، فيقولون: إن الصبا تثيره، والشَّمال تجمعه والجنوب تُدِرُّه، والدَّبور تفرقه.

ويختلف تأثير الرياح في الأقطار باختلاف مواقعها منها، فالصبا والجنوب لا يأتيان بالمطر في القطر المصري لأن مهبهما الصحارى التي لا ماء فيها ولا نبات، وإنما تأتي به الشمال والدبور لأن مهبهما من جهة البحر المتوسط فيحملان بخار الماء منه ومن الأراضي الزراعية، وأكثرها في الوجه البحري، ويقرب منه في ذلك ديار الشام فإن أكثر ما يثير سحاب المطر فيها الدبور (الغربية) فإذا هبت الصبا (الشرقية) وغلبت انقشع السحاب وخفت رطوبة الجور.

﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا﴾ المعنى: أن الله المدبر لأمور الخلق، هو الذي يرسل الرياح بين يدي رحمته لعباده بالمطر، أي: قدامها، مبشرات بها وناشرات لأسبابها، حتى إذا حملت سحاباً ثقالاً ورفعته في الهواء ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي: سيرناه وسقناه بها إلى بلد ميت، أي: أرض لا نبات فيها، فإنما حياة الأرض بالنبات الحي فيها.

﴿فأنزلنا به الماء﴾ أي: فأنزلنا بالسحاب الماء،فالباء للآلة أو السببية أو بالبلد فتكون الباء للظرفية، أي: فيه، أو بالرياح، والمختار هنا كون الباء للسببية فإن الريح هي التي تثير السحاب من سطح البحر وغيره من المياه أو الأرض الرطبة وترفعه في الجو، وهي سبب تحول البخار إلى ماء بتبريدها له فبذلك يصير البخار ماء أثقل من الهواء فيسقط من خلاله إلى الأرض بحسب سنة الله في جاذبية الثقل. كما قال تعالى في سورة «الروم» «الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الوَدْق يخرج من خلاله» وفي سورة «النور» «ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله» «الوَدْق»:المطر، أي: يخرج من خلال السحاب وأثنائه. وكل ما ورد في القرآن من إنزال المال من السماء فمراد بالسماء فيه السحاب، لأن هذا التفصيل صريح في ذلك،والسماء:

إسم لكل ما علا الإنسان ويفسره القرائن، ومن الخطأ أن يظن أن الماء ينزل من السماء التي هي مسكن الملائكة على السحاب الذي هو كالغربال لها وإن قاله بعض المؤلفين فإن القرآن يصرح بخلافه، وما صرح به القرآن هو الذي أثبته العلم والاختبار والعرب تسمي السحاب سماء تسمية حقيقية، ثم أطلقت لفظ السماء على المطر نفسه، فكانت تقول: جاء مكان كذا في إثر سماء، وقال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وأما قوله تعالى في تتمة آية سورة «النور» التي ذكرنا أولها آنفاً «وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» ، فلا مانع من جعل السماء فيها عين السحاب، ولعل الأظهر أن يراد بها جهة العلو التي يكون فيها السحاب كقوله «فيبسطه في السماء كيف يشاء» وقوله «من جبال» بدل مما قبله. والمراد بالجبال: قطع السحاب التي تشبه الجبال شبهاً تاماً في عظمها وارتفاعها وشناخيبها وقللها، وقلما يوجد في الخلق تشابه كالتشابه بين السحاب والجبال. والمعنى: وينزل من السماء من سحب فيها كالجبال برداً عظيم الشأن في شكله وقوته وتأثيره فيمن يصيبه.

﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ المراد «بكل الثمرات» جميع أنواعها على اختلاف طعومها وألوانها وروائحها. وليس المراد: أن كل بلد ميت ينزل الله فيه الماء يخرج به جميع الثمرات التي خلقها في الأرض، فقد علم من الآية التالية ومن سنن الله تعالى في الأرض، ومن المشاهدة أن البلاد تختلف أرضها فيما تخرجه وفي الإخراج، فالاستغراق لا يصح إلا بالنسبة إلى أرض الله كلها. ويكفي في كل أرض أن تخرج أنواعاً مختلفة تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ورحمته وفضله وإحسانه. قال تعالى في سورة «الرعد»: «وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» .

﴿كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي: مثل هذا الإخراج لأنواع النبات من الأرض الميتة بإحيائها بالماء نخرج الموتى من البشر وغيرهم. فالقادر على هذا قادر على ذاك. لعلكم تذكرون هذا الشبه فيزول استبعادكم للبعث بعد الموت.

٥٨ ـ ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، أي: والبَـرِّ والفاجر ومعناه: أن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التي يخرج نباتها بسهولة، ويَنْمِي[1] بسرعة، ويكون كثير الغلة طيب الثمرة ومنها الخبيثة التربة كالحرة والسَّبخة التي لا يخرج نباتها على قلته وخبثه ـ إن أنبتت ـ إلا بعسر وصعوبة. وقوله: «والذي خَبُث» حذف موصوفة، أي: والبلد الذي خبث، وهو دون الخبيث في الخبث. فإن صيغة «فعيل» من الصيغ التي تدل على الصفات الكاملة الثابتة والنكد قد يكون فيما دون هذا من الخبث. ومن دقة البلاغة في هذين التعبيرين دلالتهما على الترغيب في طلب الرسوخ في صفات الكمال، وتجنب أدنى الخبث والنقص وبين ذلك درجات. روى أحمد والشيخان والنسائي من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هي قيعان لا تُـمسك ماء ولا تُنبت كلأ، فذلك مَثَل من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعَلَّـم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به» وقد فسر ﷺ القسم الأول وهو الذي نفع وانتفع بالهادي والمهتدي، والثالث الذي لم ينفع ولم ينتفع بالجاحد، وسكت عن الثاني وهو الذي انتفع غيره بعلمه من دونه، كالعالم الذي يعلم غيره ولا يعمل بعلمه المشبه بالأرض التي تمسك الماء ولا تنبت، وحاله معلومة بل له أحوال فمنه المنافقون ومنه المفرطون.

---

(١) قوله: «ويَنْمي» هو من «نمى» المقصور «نَماءً»، هذا هو المشهور عند العرب وربما جاء من باب «سَماَ» أي: «نما ينمو» وهو قليل عندهم خلافاً لما هو شائع في أيامنا.

﴿كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي: كذلك شأننا في هذا التصريف البديع المثال الموضح بالأمثال، نصرف الآيات الدالة على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جلية، تبين مرادنا لقوم يشكرون نعمنا، باستعمالها فيما تتم به حكمتنا فيستحقون مزيدنا منها وثوابنا عليها.

(قصص الرسل المشهورين مع أقوامهم)

هذا سياق جديد في قصص الأنبياء المرسلين المشهور ذكرهم في الأمة العربية والشعوب المجاورة لها قد سبق التمهيد له فيما تقدم من نداء الله تعالى بني آدم بقوله: «يا بني آدم إما يأتيكم رسل منكم» إلى آخر الآيتين ٣٥ و ٣٦ ومنه يعلم وجه التناسب واتصال الكلام، قال تعالى:

(قصة نوح عليه السلام)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

٥٩ ــ ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ بدأ الله تعالى هذه القصة بالقسم بتأكيد خبرها لأوَّل مَنْ وجِّه إليهم الخطاب بها وهم أهل مكة ومَنْ وراءهم من العرب، إذ كانوا ينكرون الرسالة والوحي، على كونهم أميين ليس عندهم من علوم الأمم وقصص الرسل شيء. إلا أن يكون كلمة في بيت شعر مأثور أو عبارة ناقصة من بعض أهل الكتاب حيث كانوا يلقونهم من بلاد العرب،

أو الشام أو ممن تهود أو تنصر منهم، ونوح أول رسول أرسله الله تعالى إلى قوم مشركين هم قومه، كما ثبت في حديث الشفاعة[1] وغيره، وأخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس: أن قوم نوح هم الذين صوروا بعض الصالحين منهم ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لإحياء ذكرهم والاقتداء بهم، ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم.

﴿فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ أي: فناداهم بصفة القومية مضافة إليه استمالة لهم، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، مع بيان أنه ليس لهم إله غيره يتوجهون إليه في عبادتهم.

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ هذا إنذار مستأنف علل به الأمر بعبادة الله تعالى وحده المستلزم لترك أدنى شوائب الشرك بها، وبيان لعقيدة البعث والجزاء وهي الركن الثاني من أركان الإيمان بعد التسليم بالرسالة. أي: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إذا لم تمتثلوا ما أمرتكم به، وهو يوم القيامة الذي يبعث الله تعالى فيه العباد ويجازيهم بإيمانهم وكفرهم وما يترتب عليهما من أعمالهم.

٦٠ ـ ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ «الملأ»: أشراف القوم، قال هؤلاء الملأ لنوح: إنا لنراك في ضلال عن الحق بين ظاهر بنهيك إيانا عن عبادة آلهتنا «وَدٍّ» و «سُواع» و«يغوث» و«يَعُوق» و«نَسْرٍ».

٦١ ـ ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾ ناداهم باسم القومية مضافة إليه ثانية تذكيراً لهم بأنه لا يريد بهم ولا لهم إلا الخير، ونفى أن يكون قد علق به أدنى شيء مما يسمى ضلالة، كما أفاد التنكير في سياق النفي والتعبير بالمرة الواحدة أو الفعلة الواحدة من الضلال، فبالغ في النفي كما بالغوا في الإثبات.

---

(١) قوله: «كما ثبت في حديث الشفاعة وغيره»، أي: الذي رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً وفيه: أن الناس يوم الحشر يأتون نوحاً فيقولون: «يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض» إلخ. وروى مسلم وأبو داود والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً مثله.

﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: لست بمنجاة من الضلال الذي أنتم فيه فقط، بل أنا رسول من رب العالمين إليكم، ليهديكم باتباعي سبيل الرشاد، وينقذكم على يدي من الهلاك الأبدي بالشرك وما يلزمه من الخرافات والمعاصي المدنسة للأنفس المفسدة للأرواح.

٦٢ ـ ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ في العقائد، وأهمها التوحيد المطلق الذي بدأ به، ويتلوه الإيمان باليوم الآخر وبالوحي والرسالة وبالملائكة والجنة والنار وغير ذلك، وفي الآداب والحكم والمواعظ والأحكام العملية من عبادات ومعاملات ولو آمنوا به وأطاعوه لما كان لهم بد من كل ذلك.

﴿وأنصح لكم﴾ «النُّصح»: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه.. وهو من قولهم: نصحت لكم الود أي: أخلصته، وناصح العسل خالصه، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح مقصوداً بها جانبه لا غير، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله ورسله، عليهم السلام، فالأصل في النصيحة أن يقصد بها صلاح المنصوح له لا الناصح، فن كان له فائدة منها وجاءت تبعاً فلا بأس، وإلا لم تكن النصيحة خالصة، وفي الحديث عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ قيل: إن هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، والظاهر عندي أنها حالية. أي: أبلغكم ما أرسلني الله تعالى به إليكم من علم وحكم، وأنصح لكم بما أعظكم به من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وأنا في هذا وذاك على علم من الله أوحاه إلي لا تعلمون منه شيئاً فإذا نصحت لكم وأنذرتكم عاقبة شرككم فإنما أنصح لكم عن علم يقين لا تعلمونه.

٦٣ ـ ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم؟﴾ الهمزة في أول الجملة للاستفهام الإنكاري، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدَّر

بعد الهمزة والمعنى: أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم؟ ﴿لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ أي: لأجل أن يحذركم عاقبة كفركم ويعلمكم بما أعد الله عليه من العقاب بما تفهمونه منه لأنه منكم، ولأجل أن تتقوا بهذا الإنذار ما يسخط ربكم عليكم من الشرك في عبادته، والإفساد في أرضه، وليعدَّكم بالتقوى لرحمة ربكم المرجوة لكل من أجاب الدعوة واتقى.

٦٤ ـ ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ فكذبوه وأصر على ذلك جمهورهم، فأنجيناه من الغرق والذين سلكهم معه في الفلك من المؤمنين به «وما آمن معه إلا قليل»، كما قال تعالى في قصته المفصلة في سورة «هود»، أو المعنى: أنجيناه وأنجيناهم حال كونهم معه في الفلك، أي: السفينة ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أي: وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان بسبب تكذيبهم، ولماذا كذبوا؟ إنهم ما كذبوا إلا لعمى في بصائرهم حال دون اعتبارهم وفهمهم لدلالة تلك الآيات على توحيد الله وقدرته على إرسال الرسل وحكمة ربوبيته في ذلك، و«عمون» جمع «عَمٍ»، وهو ذو العمى.

(قصة هود عليه السلام)

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ
وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى
رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً

فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

كانت عاد قوم هود، عليه السلام، أصحاب أوثان يعبدونها فدعاهم إلى عبادة الله وأمرهم أن يوحدوه وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا ذلك وكذبوه «وقالوا من أشد منا قوة» وكانت منازلهم بالأحقاف، والأحقاف: الرمل فما بين عُـمان إلى حضرموت باليمن. وكانوا مع ذلك قد أفسدوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله.

قال تعالى في بيان قصتهم:

٦٥ ـ ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ معطوف على قوله «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه» أي: وأرسلنا إلى عاد أخـاهم في النسب هوداً، كما يقال في أخوة الجنس كله يا أخا العرب، وللدين أخوة روحية كأخوة الجنس القومية والوطنية، وحكمة كون رسول القوم منهم أن يفهمهم ويفهم منهم.

﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ تقدم معناه في قصة «نوح» آنفاً في تفسير الآية «٥٩».

﴿أفلا تتقون﴾ أي: أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه؟ والاستفهام للإنكار، واستبعاد عدم الإيمان والإذعان، بعد أن كان من عقابه تعالى لقوم نوح ما كان. وفي سورة «هود» قال لهم: «أفلا تعقلون» وهو دليل على أنه قال هذا وذاك في وقت واحد أو في وقت بعد وقت.

٦٦ ـ ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة﴾ و «السفاهة»: خفة الحلم وسخافة العقل، وتنكيرها لبيان نوعها أو المبالغة بعظمها، أي: قالوا إنا لنراك في سفاهة غريبة، أو تامة راسخة تحيط بك من كل جانب، بأنك لم تثبت على دين آبائك وأجدادك، ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ أي: في دعوى الرسالة عن الله تعالى، أكدوا ظنهم الآثم، كما أكدوا ما قبله من تسفيههم الباطل، وهو يتضمن تكذيب كل رسول إذ عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين وجعلوه واحداً منهم. والظن هنا على معناه، فلو قالوا: إنهم يعلمون ذلك لكانوا كاذبين على أنفسهم فيما يحكمون من اعتقادهم. وأما حكمهم عليه بالسفاهة فكان على اعتقاد باطل منهم، ولذلك عبروا عنه بالرؤية التي بمعنى الاعتقاد.

٦٧ ـ ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي: ليس بي أدنى شيء من ضروب السفاهة وشوائبها، ولكني رسول من رب العالمين، والله أعلم حيث يجعل رسالته وهي أمانة عنه، فلا يختار لها إلا أهل الحصافة برجحان العقل وسعة الحلم وكمال الصدق، وإلا لفات ما يقصد بها من الحكمة ولم تقم بها لله الحجة.

٦٨ ـ ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ بيان لوظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيها، أي: أبلغكم التكاليف التي أرسلت بها والحال أنني أنا لكم ناصح فيما أبلغكم إياه وأدعوكم إليه لأن فيه سعادتكم، أمين على ما أقول فيه عن الله تعالى، فإنني لا أكذب عليكم، فكيف أكذب على ربي عز وجل؟

٦٩ ـ ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ تقدم مثله من قول نوح في الآية «٦٣» ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾ أي: واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح وزادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة. أو زادكم بسطة في خلق أبدانكم، إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء

الأبدان. ﴿فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ أي: فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك إلا إذا عبدتموه وحده ولم تشركوا بعبادته أحداً.

٧٠ ـ ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟﴾ المراد من المجيء: الإتيان بالرسالة حسب دعواه الصادقة في نفسها الكاذبة في ظنهم الآثم، والمعنى: أجئتنا لأجل أن نعبد الله وحده من الأصنام.

﴿فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ أي: فجئنا بما تعدنا به من العذاب على ترك الإيمان بك والعمل بمقتضى توحيدك إن كنت من الصادقين في إنذارك، أو في أنك رسول من رب العالمين.

٧١ ـ ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ يطلق «الرجس» على القبيح المستقذر حساً أو معنى، وبمعنى «الرِّجز» وهو العذاب أو سيئته. وقوله: «وقع» مجاز عبر به عن المتوقع لتحققه وقربه، وعطف الغضب على الرجس لبيان أن الرجس قد أريد به الانتقام الحتم والعياذ بالله من غضبه.

﴿أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان﴾ أي: أتخاصمونني وتمارونني في أسماء وضعتموها أنتم وآباؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولا هدى منكم ولا منهم، لمسميات اتخذوها فاتخذتموها آلهة زاعمين أنها تقربكم إلى الله زلفى وتشفع عنده لكم ما أنزل الله من حجة ولا برهان يصدق زعمكم، ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: فانتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم: «فائتنا بما تعدنا» إني معكم من المنتظرين ولكنني أنا موقن وأنتم مرتابون، وجاد وأنتم هازلون.

٧٢ ـ ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا﴾ أي: فلما جاء أمرنا أنجينا هوداً والذين معه من المؤمنين برحمة عظيمة من لدنا لا يقدر عليها غيرنا ﴿وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ أي: استأصلناهم بريح عاتية «تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم».

(قصة صالح عليه السلام)

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

٧٣ ــ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب والوطن صالحاً. سئل الإمام عبد الله بن أبي ليلى عن اليهودي والنصراني يقال له أخ؟ قال: الأخ في الدار. واستدل بالآية. رواه أبو الشيخ. و «ثمود»: قبيلة من العرب يمنع من الصرف بإرادة القبيلة إذ يجتمع فيه العلمية والتأنيث، ويصرف بتأويل الحي أو باعتبار الأصل فإنه علم لمذكر، وكانت مساكنهم الحِجْر ــ بكسر المهملة ــ بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى، وهي معروفة إلى الآن. ﴿قد جاءتكم آية من

ربكم﴾ أي: قد جاءتكم آية عظيمة القدر، ظاهرة الدلالة على ما جئتكم به من الحق، فتنكير الآية للتعظيم والتفخيم ـ وقوله «من ربكم» للإعلام بأنها ليست من فعل صالح ولا مما ينالها كسبه عليه السلام، وكذلك سائر ما يؤيد الله تعالى به الرسل من خوارق العادات.

﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي: هذه ناقة الله تعالى، أضافها إلى اسمه الكريم تعظيمًا لشأنها، وقيل: لأنه خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وصفاتها، وقيل: لأنه لم يكن لها مالك.

والمعنى: أشير إليها حالة كونها آية لكم خاصة لكم. ثم بين معنى كونها آية بقوله:

﴿فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ ومثله في سورة «الشعراء» إلا أنه وصف العذاب بالعظيم فهو أليم وعظيم ـ وفي «هود» إلا أنه وصف العذاب بالقريب، وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم إياها بسوء، وكذلك كان،وفي سورة «القمر» «ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر» ، وفسره قوله تعالى في سورة «الشعراء» « هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » ، وهو قبل الوعيد على مسها بسوء،و«الشِّرب» بكسر المعجمة: ما يُشْرب. وفي سورة «الشمس» « كذبت ثمود بطغواها، إذا انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها، فكذبوه فعقروها » إلخ فدل مجموع الآيات على أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، ولا في أكلها ولا في شربها، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان ماء قليلاً، فكانوا يشربونه يوماً وتشربه هي يوماً.

٧٤ ـ ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوَّأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا﴾ أي: وتذكَّروا إذ جعلكم الله تعالى خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس، وبوأكم في الأرض أي: أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومنازل لكم، تتخذون من سهولها قصوراً زاهية، ودوراً عالية، بما حذقتم بإلهامه تعالى من فنون الصناعة، كضرب الآجُرِّ واللبن والجص، وهندسة البناء ودقة النجارة، وتنحتون الجبال أي: بعضها كما قال في

آية أخرى «من الجبال» بيوتاً بما علمكم من فن النحت، وآتاكم من القوة والصبر، قيل: إنهم كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل، ولم تكن القصور فيها متينة ولا الطرق مرصوفة، بحيث يرتاح ساكنها في أيام الأمطار الشديدة.

﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي: فتذكروا نعم الله تعالى عليكم في ذلك كله واشكروها له بتوحيده وإفراده بالعبادة واستعمالها فيما فيه صلاحكم ولا تستبدلوا الكفر بالشكر فتعثوا في الأرض مفسدين.

٧٥ ـ ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟﴾ مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم، وإلى كل دعوة إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم، وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون، والأغنياء المترفون الذين يشق عليهم أن يكونوا مرؤوسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الأسراف الضار، وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال. وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح في قولهم للمؤمنين منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قيل: إن السؤال للتهكم والاستهزاء، ولا مانع من جعله استفهاماً حقيقياً إذ سألوهم عن العلم بأنه مرسل لارتيابهم في اتباعهم إياه عن علم برهاني، وتجويزهم أن يكون عن استحسان ما وتفضيل له عليهم، واختيار لرياسته على رياستهم.

﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ أي: إنا بما أرسل به دون ما يخالفه من الشرك والفساد مصدقون بأنه جاء به من عند الله تعالى ومذعنون له بالفعل. فإن الإيمان هو التصديق الذي يجزم به العقل، ويطمئن به القلب، وتخضع له الإرادة، وتعمل بهديه الجوارح، وكان مقتضى مطابقة الجواب للسؤال أن يقولوا نعم، أو نعلم أنه مرسل من ربه، أو إنا برسالته عالمون. ولكنهم أجابوا بما يستلزم هذا المعنى ويزيد عليه، وهو أنهم عالمون بذلك علماً يقيناً إذعانياً له السلطان

على عقولهم وقلوبهم، إذ آمنوا به إيماناً صادقاً كاملاً صار صفة من صفاتهم الراسخة التي تصدر عنها أعمالهم، وما كل من يعلم شيئاً يصل علمه إلى هذه الدرجة، بل من الناس من يعلم الشيء بالبرهان، وهو ينفر منه بالوجدان، فيجحده ويحاربه وهو موقن به استكباراً عنه أو حسداً لأهله كما قال تعالى في هؤلاء «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلواً».

٧٦ ـ ﴿قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون، لأنه يتضمن إثبات أصل الرسالة له، ولو قالوه لكان شهادة منهم على أنفسهم بأنهم جاحدون للحق على علم لمحض الاستكبار.

٧٧ ـ ﴿فعقروا الناقة﴾ أصل «العَقْـر» الجرح، وعَقْـر الإبل قـطع قوائمها، وكانوا يعقرون البعير قبل نحره ليموت في مكانه ولا يَنِدِّ، ثم صار يستعمل بمعنى النحر وهو طعنه في المكان المعروف من حلقه بالمنحر. أسند القعر إلى هؤلاء المستكبرين الكافرين وقيل: إلى جميع الكفار من القبيلة ـ والمتعاطي له واحد منهم ـ لأنه حصل بتواطئهم ورضاهم كما قال في آية «القمر»: «فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر»، وفي حديث البخاري مرفوعاً «فانتدب لها رجل ذو عز ومنعة في قومه كأبي زمعة» ومثل هذا من أعمال الأمم ينسب إليها في جملتها، كما أنها تعاقب عليها في جملتها، ولو بقي الصالحون فيها لأصابهم العذاب «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب» وقد روي عن قتادة أن عاقر الناقة قال: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين. فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول نعم، وعلى الصبي.. حتى رضوا أجمعين فعقروها.

﴿وعتوا من أمر ربهم﴾ أي: تمردوا مستكبرين عن امتثال أمر ربهم.

﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾ نادوه باسمه تهويناً لشأنه، وتعريضاً بما يظنون من عجزه، وقالوا: ائتنا بما أوعدتنا به من العذاب ولا تزال مصراً عليه، ومعلقاً له على مس الناقة بسوء ـ إن كنت من المرسلين

من عند الله تعالى وتدعي أن وعيدك تبليغ عنه ، واستعمل الوعد في الشر لأنه عام .

٧٨ ـ ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ الرجفة: المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب وفي سورة «هود» « فأخذ الذين ظلموا الصيحة » ونحوه في سورة «القمر». وقد اختلف المفسرون في تفسير اللفظين والجمع بينهما فقيل: الصيحة صيحة جبريل رجفت منها قلوبهم، وقيل: بل الرجفة الزلزلة أخذتهم من تحتهم، والصيحة من فوقهم والصحيح أنها الصاعقة، وهي الأصل كما ورد في سورة «حم السجدة ـ فصلت» وفي سورة «الذاريات» فالأول قوله تعالى: « فأخذتهم صاعقة العذاب الهون » والثاني: «فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون» ولنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان، ترجف من وقعها الأفئدة وتضطرب أعصاب الأبدان، وربما اضطربت الأرض وتصدع ما فيها من بنيان .

﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ المعنى: أنهم لم يلبثوا وقد وقعت الصاعقة بهم أن سقطوا مصعوقين، وجثموا هامدين خامدين، و «أصبحوا» إما بمعنى صاروا، وإما بمعنى دخلوا في وقت الصباح، أي: حال كونهم جاثمين.

٧٩ ـ ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ في سورة «هود» أن صالحاً، عليه السلام، أمهل قومه ثلاثة أيام يتمتعون فيها بعد عقر الناقة، فلما انتهت أنجاه الله تعالى ومن معه من المؤمنين برحمة منه، وأنزل العذاب بالباقين الظالمين بعد إنجائه، وإنما يكون الإنجاء من عذاب صيحة الصاعقة الطاغية المتجاوزة للحد المعتاد، بالبعد عن المكان الذي تقع فيه. وفي هذه الآية أنه تولى عنهم عقب هلاكهم كما يدل عليه العطف بالفاء. والمعهود في مثل هذا أن تتقدم هذه الآية على ما قبلها في الذكر، كتقدم مدلولها بالفعل فيكون المعنى: أنه تولى عنهم وقال لهم ما قال وبعد ذلك أخذتهم الرجفة، ولكن عهد في كلام العرب ترك الترتيب بين المعاني لنكت في الكلام ولا سيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة أو ما يقرب منها في

الظهور، وجعل بعضهم الآيتين هنا من هذا القبيل، بناء على أن ما تضمنته الآية من إعذار صالح إلى قومه بإبلاغهم الرسالة ومحضهم النصيحة إنما يكون قبل التولي والإنصراف عنهم، أو عنده ولكن في حال حياتهم.

وهذا وإن كان هو الأصل الذي سبق مثله في قصتي نوح وهود إلا أن مثله جائز أن يكون بعد الموت، وله طريق مسلوك، وأسلوب معهود، وآخر مروي مأثور.

فالمعهود عند العرب كما يقوله المتحسر على من مات جانياً على حياته بالسكر ونحوه، المعزي لنفسه بأنه لم يقصر في دفع الضرر عنه، والمتحزن لعدم قبوله ما بذل من النصح له: ألم أنهك عن هذه المسكرات؟ ألم أحذرك عاقبة هذه المخدرات فماذا أفعل إذا كنت تفضل لذة الساعات والأيام، على هناء المعيشة المعتدلة في عشرات الأعوام؟ ونحو هذا مما يقال في أحوال الحزن المختلفة خطاباً للموتى بحسب أحوالهم بل عهد منهم مخاطبة الديار، والطلول والآثار.

وأما المأثور فهو ما ورد من نداء النبي ﷺ لبعض قتلى المشركين ببدر بعد دفنهم في القليب: «يا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» قال أبو طلحة الأنصاري راوي هذا الحديث فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ ـ أو فيها ـ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» رواه البخاري وغيره من طريق قتادة عن أبي طلحة الأنصاري، رضي الله عنه، ثم قال: قال قتادة أحياهم الله حتى أسمعهم قوله ﷺ توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً اهـ.

قال العلماء: ومثل هذا مما خص الله به الأنبياء.

(قصة لوط عليه السلام)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

خير ما يعرف به لوط عليه السلام، أنه ابن أخي إبراهيم خليل الرحمن، صلى الله على نبينا وعليهما وسلم، وكانت مساكن قومه في قرى خمسة أكبرها «سذوم» وفيها كان يسكن لوط، عليه السلام، وهي التي كانت تعمل الخبائث، ولا يعلم أحد الآن أين كانت تلك القرى من جوار بحر لوط إذ لم يوجد من الآثار ما يدل عليها، وكانت عمورة تلي سدوم في الكبر وفي الفساد، وهما اللتان يحفظ اسمهما الناس إلى الآن.

واسم «لوط» مصروف وإن كان أعجمياً لكونه ثلاثياً ساكن الوسط «كنوح»، قال تعالى:

٨٠ ــ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة؟﴾ أي: أرسلناه في الوقت الذي أنكر على قومه فعل الفاحشة فيما بلغهم من دعوى الرسالة، وقيل: إن لوطاً منصوب بفعل مقدر، أي: واذكر لوطاً إذ قال لقومه موبخاً لهم: أتفعلون الفعلة البالغة منتهى القبح والفحش؟ ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ بل هي من مبتدعاتكم في الفساد، فأنتم فيها قدوة سوء، فعليكم وزرها ومثل أوزار من يتبعكم فيها إلى يوم القيامة، لأنها فساد مخالف لمقتضى الفطرة ولهداية الدين معاً، وقوله: «من أحد» يفيد تأكيد النفي وعمومِهِ المستغرق لكل البشر على الظاهر المتبادر، وإن كان اللفظ يَصْدُق بعالمي زمانهم.

٨١ ــ ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ الإتيان: كناية عن الاستمتاع الذي عهد بمقتضى الفطرة بين الزوجين تدعو إليه الشهوة ويقصد به النسل، وتعليله هنا بالشهوة وتجنب النساء بيان لخروجهم عن مقتضى الفطرة، وما اشتملت عليه هذه الغريزة من الحكمة التي يقصدها الإنسان العاقل والحيوان الأعجم. فسجل عليهم بابتغاء الشهوة وحدها أنهم

أخس من العجماوات وأضل سبيلاً، فإن ذكورها تطلب إناثها بسائق الشهوة لأجل النسل الذي يحفظ به نوع كل منها، ألا ترى أن الطير والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء المساكن الصالحة لنسلها في راحته وحفظه مما يعدو عليه ــ من عش في أعلى شجرة أو «وَكْنٍ» في قُلَّة جبل أو جحر في باطن الأرض، وهؤلاء المجرمون لا غرض لهم إلا إرضاء حس الشهوة وقضاء وطر اللذة.

ومن قصد الشهوات لذاتها تمتعاً بلذاتها، دون الفائدة التي خلقها الله تعالى لأجلها، فقد جنى على نفسه غائلة الإسراف فيها، فانقلب نفعها ضراً وصار خيرها شراً، بجعل الوسيلة مقصداً وصيرورة الإسراف فيه خُلُقاً، إذ الفعل يكون حينئذ عن داعية ثابتة لا عن علة عارضة، فلا يزال صاحبه يعاوده حتى يكون ملكة راسخة له، فتكرار العمل يكوّن الملكة، والملكة تدعو إلى تكرار العمل والإصرار عليه.

﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: لستم تأتون هذه الفاحشة المرة بعد المرة بعد ندم وتوبة عقب كل مرة، بل أنتم مسرفون فيها وفي سائر أعمالكم لا تقفون عند حد الاعتدال في عمل من الأعمال، ففي سورة «العنكبوت» مكان هذه الآية ــ وما قبلَها عَيْنُ ما قبلها ــ «إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر» وفي سورة «الشعراء» مكان هذا الإضراب هنا «بل أنتم قوم عادون» أي: متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة، فهو بمعنى الإسراف، وفي سورة «النمل»: «بل أنتم قوم تجهلون»، وهو يشمل الجهل الذي هو ضد العلم والجهل الذي هو بمعنى السفه والطيش، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل والنفس، بجمعهم بين الإسراف والعدوان والجهل، فلا هُم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجناية على النسل وعلى الصحة وعلى الفضيلة والآداب العامة، ولا غيرها من منكراتهم ــ فيجتنبوها أو يجتنبوا الإسراف فيها ــ ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك.

وما كان العلم بالضرر وحده ليصرف عن السوء والفساد، إذا حرم صاحبه الفضائل ومكارم الأخلاق، بل الفضائل الموهوبة بسلامة الفطرة، عرضة للفساد بسوء القدوة، إلا إذا رسخت بالفضائل المكسوبة بتربية الدين،

فإننا نعلم أن هذه الفاحشة فاشية بين أعرف الناس بمفاسدها ومضارها في الأبدان والأنفس ونظام الاجتماع من المتعلمين على الطريقة المدنية العصرية، حتى الباحثين في الفلسفة منهم، فقد بلغني عن بعضهم أنه قال لأخدانه: إن هذه الفعلة لا تحدث نقصاً في النفس الناطقة!! ونقول يا لها من فلسفة فاسقة!! أليسوا يستخفون بها من الناس حتى أشدهم استباحة للشهوات كالإفرنج لكي لا ينتقصوهم ويمتهنوهم؟ بلى، ولكن قد يجهل كثير من الأحداث الذي يُخدعون عن أنفسهم بهذه الفاحشة أنهم يصابون بداء «الأُبنة»[1]، حتى إذا كبر أحدهم وصار لا يجد من الفساق من يرغب في إتيانه للاستمتاع به يبحث هو في الخفاء عمن يؤجر نفسه لهذا العمل من تحوت الفقراء وأراذل الخدم، فيجعل له جعلاً أو راتباً على إتيانه، وهو لا يلبث أن يعاف هذا المنكر أو يعجز عن إرضاء صاحبه، المهين عنده المحترم عند من لا يعرف حاله، فينشد المأبون غيره، ولا يزال يذل ويخزي في مساومة أفراد هذه الطبقة السفلى على نفسه حتى يفتضح أمره في البلد ويشتهر بل يشهر بين سائر طبقات الناس. أفنسي من ذكرنا من فلاسفة الفسق هذا الخزي؟ أم يرون أنه لا يدنس النفس الناطقة بنقص؟ فقبح اللواطة وفحشها ليس بكونها لذة بهيمية كما قيل، إذ اللذة البهيمية لا قبح فيها لذاتها، لأنها مقتضى الفطرة ومبدأ حكمة بقاء النسل، بل فحشها باستعمالها بما يخالف مقتضى الفطرة وحكمتها، وبما يترتب عليها من المضار البدنية والاجتماعية والأدبية الكثيرة.

٨٢ ـ ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: وما كان جواب قومه عن هذا الإنكار والنصيحة شيئاً مما يدخل في باب الحجة ولا الاعتذار، ولا غير ذلك مما اعتيد في الجدال، ما كان إلا الأمر بإخراجه هو ومن آمن معه من قريتهم، وتعليل ذلك بأنهم أناس يتطهرون ويتنزهون عن مشاركتهم في رجسهم، فلا سبيل إلى معاشرتهم

---

(١) قوله: «الأبنة» ـ بضم الهمزة هي العيب ـ والمأبون: هو الرجل المصاب بمرض «الشذوذ الجنسي» بكونه مفعولاً به.

ولا مساكنتهم مع هذه المباينة، فإن الناقص يستثقل معاشرة الكامل الذي يحتقره. وفي سورة «الشعراء» أنهم أنذروه هذا الإخراج، إذا هو لم ينته عن الإنكار.

٨٣ ـ ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي: فأنجيناه وأهل بيته الذين آمنوا معه، ولذلك استثنى منهم امرأته فإنها لم تؤمن به بل خانته بولاية قومه الكافرين الفاسقين عليه، فكانت من جماعة الغابرين أي: الهالكين أو الباقين الذين نزل بهم العذاب في الدنيا ويليه عذاب الآخرة.

٨٤ ـ ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: أرسلنا عليهم مطراً عجيباً أمره، وهو الحجارة التي رُجموا بها.

﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الخطاب لكل من يسمع القصة أو يقرؤها من أهل النظر والاعتبار، والمراد أن يعلم أن عاقبة القوم المجرمين لا تكون إلا وبالاً وعقاباً، فإن الأمم تعاقب على ذنوبها في الدنيا قبل الآخرة باطراد.

وقد أجمع العلماء على أن اللواطة من كبائر المعاصي لأن الله تعالى سماها فاحشة وخبيثة وقد وردت عدة أحاديث في لعن فاعلها عند النسائي وابن حبان وصححه الطبراني والبيهقي وصحح بعضها الحاكم، وهي على كل حال يؤيد بعضها بعضاً في أمر قطعي بالنص معلوم من الدين بالضرورة. وروى الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط» صححه الحاكم وقال الترمذي حسن غريب.

(قصة شعيب عليه السلام)

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَٱصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

«شعيب»: من أنبياء العرب المرسلين واسمه مرتجل، وقيل: مصغر «شَعْب» بفتح المعجمة أو كسرها، وما قيل من حظر تصغير أسماء الأنبياء لا يدخل فيه الوضع الأول،بل المراد به تصغير الاسم المعروف بما يوهم الاحتقار كأن تقول في شعيب «شعيعيب» بناء على أنه غير مصغر في الأصل، وقصد الاحتقار لا يقع من مؤمن. قال الألوسي: و«مدين» عَلَمٌ لابن إبراهيم الخليل عليه السلام، ومُنع صرفُه للعلمية والعُجمة، ثم سميت به القبيلة، وقيل: هو عربي اسم لماء كانوا عليه، وقيل: اسم بلد ومنع من الصرف للعلمية والتأنيث فلا بد من تقدير مضاف حينئذٍ اهـ. والراجح من هذه الثلاثة الأقوال هو الأول.

قال الله تعالى:

٨٥ ــ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ لم يُذكر هنا ولا في سورة أخرى آيةٌ كونية معينة لشعيب، عليه السلام، وقد قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة ومعناه: أن كل نبي مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر بدلالة مثله. فلا بد أن يكون له آية دالة على صدقه تقوم بها الحجة عليهم، والمعروف من أحوال الأمم القديمة أنها لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات، ولو لم تكن البينة التي أيد الله تعالى بها

شعيباً، عليه السلام، ملزمة للحجة قاطعة لألسنة العذر ومكابرة الحق لما ترتب عليها قوله:

﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ فإن عطف هذا الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنياً على ما هو سبب له، وهو البينة على صدقة ووجوب طاعته.

بدأ الدعوة بالأمر بالتوحيد في العبادة لأنه أساس العقيدة وركن الدين الأعظم، وقفى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، والنهي عن بخس الناس أشياءهم إذا اشتروا، لأن هذا كان فاشياً فيهم أكثر من سائر المعاصي، فكان شأنه معهم كشأن لوط، عليه السلام، إذ بدأ بنهي قومه عن الفاحشة السوءى التي كانت فاشية فيهم.

كان قوم شعيب من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون حقهم أو يزيدون عليه، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم يخسرون الكيل والميزان أي: ينقصونه، فيبخسونهم أشياءهم، وينقصونهم حقوقهم، والبخس أعم من نقص المكيل والموزون فإنه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، وكل من البخسين فاش في هذا الزمان، فأكثر التجار باخسون مطففون مخسرون، فيما يبيعون وفيما يشترون، وأكثر المشتغلين بالعلم والأدب وكتابة السياسة بخاسون لحقوق صنفهم، وينكرون على غيرهم ما أعطاه الله بباعث البغي والحسد والغرور.

وجملة «ولا تبخسوا الناس أشياءهم» تشعر بأنهم كانوا يتواطؤون على هضم الغريب وبخسه، وإن كانت تشمل بخس الأفراد بعضهم أشياء بعض، وهضم الشعب في جملته أشياء الغرباء الذين يعاملونهم، فقد روي أنهم كانوا إذا دخل الغريب يأخذون دراهمه ويقولون هذه زيوف، فيقطعونها ثم يشترونها منه بالبخس يعني النقصان.

﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ تقدم نص هذه الجملة في الآية «٥٦» من هذه السورة خطاباً لأمتنا ففسرناها بما يناسب المقام. ونقول فيما يناسب المقام هنا: إن الإفساد في الأرض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام. وإصلاحُها: هو ما يصلح به أمرها وحال أهلها من العقائد الصحيحة المنافية لخرافات الشرك ومهانته، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس من أدران الرذائل، والأعمال الفنية المرقية للعمران وحسن المعيشة.

﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ الإشارة إلى كل ما تقدم من أمر ونهي، أي: هو خير لكم في دينكم ودنياكم لا تكليف إعنات، فربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم ولا ينهاكم إلا عما هو ضار بكم، وهو على كل حال غني عنكم، ولو شاء لأعنتكم، ولكنه رحيم لا يفعل ذلك، وإنما تتحقق لكم خيرية ما ذكر إن كنتم مؤمنين بوحدانيته وصفاته تعالى وبرسوله وما جاءكم به عنه سبحانه من الدين والشرع.

٨٦ ـ ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾ قلنا: إنه عليه السلام قد بدأ بدعوتهم إلى توحيد العبادة لأنه ركن الدين الأعظم الذي هدمته الوثنية، وثنى بالأوامر والنواهي المتعلقة بحالهم الغالبة عليهم. والحاصل أنه نهاهم هنا عن ثلاثة أشياء، أولها: قعودهم على الطرقات التي توصل إليه يخوفون من يجيئه ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته، وثانيها: صدهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين، وثالثها: ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها..

﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم

فيه قليلي العدد، فكثركم الله تعالى بما بارك في نسلكم، فاشكروا له ذلك بعبادته وحده واتباع وصاياه في الحق والعدل وترك الفساد في الأرض.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ من الشعوب المجاورة لكم، كقوم لوط وقوم صالح وغيرهم، وكيف أهلكهم الله تعالى بفسادهم، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك.

٨٧ ـ ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ أي: إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلني الله به إليكم من التوحيد والعبادة، والأحكام، وبعضكم لم يؤمن به بل أصروا على شركهم وإفسادهم، فستكون عاقبتكم كعاقبة من قبلكم، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بالفعل، وهو خير الحاكمين لأنه يحكم بالحق والعدل، لتنزهه عن الباطل والجور، فإن لم يعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم، فسيرون ما يحل بهم. فالأمر بالصبر تهديد لهم ووعيد.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هاتان الآيتان وما بعدهما تتمة قصة شعيب، عليه السلام، مبدوأة بجواب قومه له عما أمرهم به من البر ونهاهم عنه من المنكرات والآثام.

٨٨ ـ ﴿قال الملأ الذي استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين

آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أي: قال أشراف قومه وأكابرهم الذين استكبروا عن الإيمان له وعتوا عما أمرهم به ونهاهم عنه اتباعاً لأهوائهم ـ وقد استضعفوه ـ: نُقْسم لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا الجامعة أو من بلادنا كلها، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما ندين به من تقاليدنا الموروثة عن آبائنا، والمعنى: نُقسم ليكونن أحد هذين الأمرين: إخراجكم أو عودتكم في الملة. فاختاروا لأنفسكم ﴿قال أولو كنا كارهين؟﴾ يعني: أنعود في ملتكم على كل حال من الأحوال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها وما يترتب عليها من الفساد في الدنيا والعذاب في الأخرة؟ فالاستفهام للإنكار و «لو» للغاية، أو: أتأمروننا أن نعود فيها وتهددوننا بالنفي من وطننا والإخراج من ديارنا إن لم نفعل ولو كنا كارهين لكل من الأمرين؟ فالاستفهام للتعجب من صنيعهم واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة، ووجه كل من الإنكار والتعجب جهل هؤلاء الملأ بكنه الدين الحق والملة الصحيحة.

٨٩ ـ ﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ هذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين وأولاهما بالرفض والكراهة، والمعنى: ما أعظم افتراءنا على الله تعالى إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا الصراط المستقيم، ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ هذا رفض آخر للعود في ملتهم، مؤكَّد أبلغ التأكيد والمعنى: ليس من شأننا أن نعود فيها في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله ربنا، المتصرف في جميع شؤوننا، فهو وحده القادر على ذلك لا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن أيضاً، لأننا موقنون بأن ملتكم باطلة ضارة مفسدة، وملتنا هي الحق، التي بها صلاح الناس وعمران الأرض، والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره، وإنما ذلك بيد مقلّب القلوب سبحانه ورهن مشيئته ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ فعنده من العلم بأسباب الإيمان والكفر والهدى والضلال والصلاح والفساد ما ليس عندكم ولا عند أحد من الخلق، ومشيئته تجري بحسب علمه وحكمته في خلقه.

ثم أكد شعيب عليه السلام ذلك كله بقوله: ﴿على الله توكلنا﴾ أي:

إليه وحده وكلنا أمرنا، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا من المحافظة على الدين الذي شرعه لنا، فهو يكفينا أمر تهديدكم، وكل ما لم يجعله في استطاعتنا من جهادكم.

والخلاصة: أنه عليه السلام بدأ جوابه للملأ من قومه بالتعجب من تهديدهم وإنذارهم، وإقامة الأدلة الدينية والعقلية على امتناع عودهم إلى ملة الكفر باختبارهم. وعدم استطاعة أحد على إجبارهم عليه غير الله تعالى الفعال لما يريد، والاستدلال على أن هذا مما لا يريده.

وثنى ببيان توكلهم على الله تعالى الذي يكفي من توكل عليه ما أهمه وهو فرق كسبه واختياره، فتجتمع له العناية الكسبية والوهبية.

ثم ثلث بالدعاء الذي لا يكون شرعياً مرجوّ الإجابة إلا بعد القيام بما في الطاقة من العمل الكسبي، والتوكل القلبي، فقال:

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ المعنى: ربنا احكم وافصل بيننا وبين قومنا بالحق الذي مضت به سنتك في التنازع بين المرسلين والكافرين، وبين سائر المحقين، المصلحين، والمبطلين المفسدين في الأرض، وأنت خير الحاكمين، لإحاطة علمك بما يقع به التخاصم وتنزهك عن الظلم، واتباع الهوى في الحكم.

ولما يئس الملأ من قوم شعيب من عودته في ملتهم، وعلموا أنه ثابت على مقارعتهم، خافوا أن يكثر المهتدون به من قومهم، فحذروهم ذلك بما حكاه الله تعالى عنهم، بقوله:

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

٩٠ ـ ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون﴾ هذا عطف على «قال الملأ الذين استكبروا» وليس جواباً لشعيب، عليه السلام، ولا داخلاً في هذه المراجعة بينه وبينهم إذ لو كان كذلك لفصل ولم يعطف، بل ذلك ما قالوه له، والمناسب فيه وصفهم بالاستكبار فهو الذي جرأهم على تهديده وإنذاره الإخراج من قريتهم المشعر بأنهم هم أصحاب السلطان فيها، وهذا ما قالوه لقومهم إغواء لهم بصدهم عن الإيمان له، والأخذ بما جاء به، والمناسب فيه وصفهم بالكفر، فهو الحامل لهم عليه، سواء كان سببه الاستكبار عن اتباعه أو غيره، بل لو علم أولو الرأي من قومهم أن سبب صدهم عنه هو الاستكبار والعتو لما أطاعوهم، ولذلك عللوا لهم صدهم عنه بما يوهمهم أنه هو المصلحة لهم إذ قالوا لهم بصيغة القسم:لئن اتبعتم شعيباً إنكم في هذه الحالة لخاسرون، أي: خاسرون لشرفكم ومجدكم، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم، ومناط عزكم وفخركم، واعترافكم بأنهم كانوا كافرين ضالين وأنهم معذبون عند الله تعالى ، وخاسرون لثروتكم وربحكم من الناس بما حذقتموه من تطفيف الكيل والميزان وبخس الغرباء أشياءهم لابتزاز أموالهم، وأي خسارة أكبر من خسارة الشرف والثروة؟

٩١ ـ ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ والمعنى: فأخذتهم الزلزلة فأصبحوا في دارهم باركين على ركبهم أو منكبين على وجوههم ميتين.

٩٢ ـ ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ الآية بيان مستأنف من قبل الله عز وجل ناقض لقول الملأ من قوم شعيب لقومهم: «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون» وقولهم قبله: «لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا» كأن سائلاً يسأل عنهم باعتبار كل من الحالين كيف انتهى الأمر فيها وكيف كان عاقبة أهلها؟ فأجيب عن الأول بقوله: الذين كذبوا شعيباً وهددوه وأنذروه الإخراج من قريتهم قد هلكوا وهلكت قريتهم فحرموها كأن لم يقيموا ولم يعيشوا فيها مطلقاً.

وأجيب عن الثاني بقوله: الذين كذبوا شعيباً وزعموا أن من يتبعه يكون

خاسراً وأكدوا زعمهم بأقوى المؤكدات كانوا هم الخاسرين لما يعتزمون به من تقاليد ملتهم، ومن مالهم ووطنهم، ولما كانوا موعودين به من سعادة الدنيا والآخرة لو آمنوا دون الذين اتبعوه فإنهم كانوا هم الفائزين المفلحين، فالجملة تفيد حصر الخسار في المكذبين له بالنص، وتقتضي نفيه عن المتبعين له بالأوْلى.

٩٣ ـ ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾ المعنى: إنني يا قوم قد أبلغتكم رسالات ربي أي: ما أرسلني به إليكم من العقائد والمواعظ والأحكام والآداب، ونصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وإنذار عاقبة الكفر بها،«فكيف آسى» أي: أحزن الحزن الشديد«على قوم كافرين»أعذرت إليهم، وبذلت جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم، فاختاروا ما فيه هلاكهم، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

من سنة القرآن الحكيم أنه يبين العقائد بدلائلها، والأحكام مؤيدة بحكمها وعللها، والقصص مقرونة بوجوه العبرة والموعظة بها وسنن الاجتماع فيها، كما ترى في هذه الآيات التسع التي قفى بها على قصص القوم المهلكين.

قال تعالى:

٩٤ ـ ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ «القرية»: المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها التي يعبر عنها

في عرف هذا العصر بالعاصمة، وكان الأنبياء يبعثون في القرى الجامعة لأن سائر البلاد تتبع أهلها إذا آمنوا. و«البأساء»: الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر، و«الضراء»:ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه أو معيشته، والأخذ بها جعلها عقاباً، وقد تكون تجربة وتربية نافعة. والمعنى: ذلك شأن الرسل مع أقوامهم الهالكين، وما أرسلنا نبياً في قوم إلا وقد أنزلنا بهم الشدائد والمصائب بعد إرساله أو قُبيله لنعدّهم ونؤهلهم بها للتضرع وهو إظهار الضراعة، أي: الضعف والخضوع لنا، والإخلاص في دعائنا بكشفها،فـ«لعل» تفيد الإعداد للشيء وجعله مرجواً. ومما ثبت بالتجارب وتقرر عند علماء النفس والأخلاق أن الشدائد مما يربي الناس ويصلح من فسادهم، فالمؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته إلى ربه، والشدائد تذكره به، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها، فينقلب شاكراً بعد عودها، بل الكافر بالله عز وجل قد تنبه الشدائد والأهوال مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق في دماغه، وتذكره بما أودع في فطرته من وجود خالق للكون وأقداره.

٩٥ ـ ﴿ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي: ثم بلوناهم بضد ذلك فجعلنا الحالة الحسنة في مكان الحالة السيئة كاليسر بعد العسر، والغنى في مكان عن الفقر، والنصر عقب الكسر ﴿حتى عفوا﴾ أي: كَثروا ونموا ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ أي: وقالوا مع ذلك قولاً يدل على فساد فطرتهم، وانطماس بصيرتهم، وفقدهم الاستعداد للاتعاظ والاعتبار بأحداث الزمان، وتغير أحوال الإنسان، وتقلب شؤون العمران، قالوا: قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر، وتناوبهم ما ينفع وما يضر، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم فتلك عادة الزمان في أبنائه، فلا الضراء عقاب من الخالق الحكيم على معاصي تقترف ورذائل ترتكب، ولا السراء جزاء منه على صالحات تعمل، وفضائل تلتزم. والمراد أنهم جهلوا سنته تعالى في أسباب الصلاح والفساد في البشر وما يترتب عليهما من السعادة والشقاء المعبر عنها بقوله تعالى: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فلما ذكرهم رسلهم بها لم يتذكروا ولم يعتبروا، بل نسوا وأعرضوا وأنكروا.

﴿فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: فكان عاقبة ذلك أن أخذناهم بالعذاب فجأة وهم فاقدون للشعور بما سيحل بهم، لأنهم كانوا يجهلون سنن الله تعالى في الاجتماع البشري فلا هم عرفوها بعقولهم، ولا هم صدقوا الرسل في نُذُرهم.

٩٦ ـ ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾ أي: آمنوا بما دعاهم إليه رسلهم من عبادة الله وحده بما شرعه من الأعمال الصالحة واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد في الأرض بالظلم والمعاصي كارتكاب الفواحش، وأكل أموال الناس بالباطل ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ والمعنى: لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والأرض لم يعهدوها مجتمعة ولا متفرقة.

فإذا أريد ببركات السماء معارف الوحي العقلية، وأنوار الإيمان الروحانية، ونفحات الإلهامات الربانية، فالمعنى: أن فائدة الإيمان واتباع الرسل، عليهم السلام، تكون تكميل الفطرة البشرية، روحاً وجسداً، وغايته سعادة الدارين الدنيا والآخرة.

وإذا أريد ببركات السماء المطر وببركات الأرض النبات فالمعنى: أنها أبواب نعم تكون بركات لهم غير التي عهدوا في صفتها ونمائها وثباتها وحالتهم فيها وأثرها فيهم وبذلك تكون بركات.

﴿ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ من أعمال الشرك الخرافية والمعاصي المفسدة لنظام الاجتماع البشري، فكان أخذهم بالعقاب أثراً لازماً لكسبهم بحسب سنن الكون، وعبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

٩٧ ـ ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾.

٩٨ ـ ﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾.

٩٩ ـ ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

في هذه الآيات إنذار لأمة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصور النبوة إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها.

و «أهل القرى» فيها يراد به الجنس، أي: الأمم والشعوب.

والاستفهام فيها للتعجيب من أمر ليس من شأنه أن يقع من عاقل، ألاَ وهو الأمن من بأس الله وعذابه.

ومعنى «بياتاً» أي: ليلاً وقوله: «وهم نائمون» حال مبينة لغاية غفلتهم وكون الأخذ على غرَّة.

ومعنى: «ضحى» أي: وقت ضحوة النهار، والمراد بقوله: «وهم يلعبون» أعمال هؤلاء الجاهلين الغافلين التي لا فائدة منها لآخرتهم.

ومعنى «المكر» في الأصل هو: التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب ومنه الحسن والسيىء، والأكثر فيه أن يكون سيئاً كالشأن في غيره من الأمور التي يتحرى إخفاؤها، وذلك أن مكر الله تعالى ـ وهو تدبيره الذي يخفي على الناس ـ إنما يكون بإقامة سننه وإتمام حكمه، وكلها خير في أنفسها وإن قصَّر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم، ونعني بالجهل هنا الجهل بما يتعلق بصفات الله تعالى وسننه اغتراراً بالظواهر، كأن يغتر القوي بقوته، والغني بثروته، والعالم بعلمه والعابد بعبادته، فيخطىء تقديره ما قدره الله تعالى فيظن أن ما عنده يبقى، وما يترتب عليه من الآثار في ظنه لا يختلف.

والمعنى: أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتاً أو ضحى وهم غافلون أنهم أمنوا مكر الله بهم بإتيانهم من حيث لم يحتسبوا ولم يقدِّروا؟ إن كان الأمر كذلك قد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وإذا كان أمن العالم المدبِّر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلاً يورث الخسر، فكيف حال من يأمن مكر الله وهو مسترسل في معاصيه اتكالاً على عفوه ومغفرته ورحمته؟ قال تعالى «وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين»؟

فأعلم الناس بالله وأعبدهم له وأقربهم إليه هم أبعد خلقه عن الأمن من مكره، إذ لا يصح أن يأمن منه إلا من أحاط بعلمه تعالى ومشيئته، وليس هذا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، وقد كان أصلح البشر وخاتم الرسل ﷺ يكثر من الدعاء بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» رواه الترمذي وقد ذكر تعالى أن الراسخين في العلم يدعونه بقوله: «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

١٠٠ ــ ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يقال هداه السبيل أو الشيء وهداه له وهداه إليه إذا دله عليه وبينه له والمعنى: أكان مجهولاً ما ذكر آنفاً عن أهل القرى وسنة الله تعالى فيهم، ولم يبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرناً بعد قرن وجيلاً في إثر جيل أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم وهو أنهم خاضعون لمشيئتنا، فلو نشاء أن نصيبهم ونعذبهم بسبب ذنوبهم أصبناهم كما أصبنا أمثالهم من قبلهم بمثلها. وقوله تعالى ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ معطوف على «أصبناهم» لأنه بمعنى نصيبهم، إذ الكلام في الذين يرثون الأرض في العصر الحال أو المستقبل على الإطلاق وليس في قوم معينين طبع الله على قلوبهم بالفعل كما ظن الزمخشري وغيره فمنعوا هذا العطف وقالوا المعنى: ونحن نطبع على قلوبهم. والمراد أنه ينبغي لمن يستخلفهم الله في الأرض، ويرثون ما كان لمن قبلهم من الملك، أن يتقوا الله ولا يكونوا من المفسدين الظالمين، ولا من

المترفين الفاسقين، وأن يعلموا أن من المحتم عقاب الأمم على السيئات وقد خلت من قبلهم المثلات، فلم يكن ما حل بمن قبلهم من المصادفات، بل هو من السنن المطردة بالمشيئة والاختيار، فلا هوادة فيه ولا ظلم ولا محاباة. والناس في ذلك فريقان: فريق يصاب بذنبه، فيتعظ ويتوب إلى ربه، وفريق يصر عليه حتى يطبع على قلبه، ولا يستعمل الطبع على القلوب إلا في الشر والمراد به أنها وصلت من الفساد إلى حالة لا تقبل معها خيراً كالهدى والإيمان والعلم النافع الذي هو فقه الأمور ولبابها، وإنما يحصل الطبع بالإصرار على الشرور والمعاصي استحلالاً واستحساناً لها، حتى لا يعود في النفس موضع لغيرها، قال تعالى في اليهود «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً» أي: إلا قليلاً منهم وهم الذين لم يطبع على قلوبهم ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي: فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ لأن قلوبهم قد ملئت بما يشغلهم عنها، من آراء وأفكار وشهوات ملكت عليها أمرها، حتى صرفتهم عن غيرها، فجعلتهم من «الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً».

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

وجه الخطاب في هاتين الآيتين إلى النبي ﷺ لأجل تسليته وتثبيت فؤاده بما في قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن التي بين فقهها وما فيها من الحكم في الآيات السبع التي قبلها، قال تعالى:

١٠١ ـ ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ والمعنى: تلك القرى

التي بَعُدَ عهدها، وطال الأمد على تاريخها، وجهل قومك أيها الرسول حقيقة حالها، نقص عليك الآن بعض أنبائها، وهو ما فيه العبرة منها، ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كـذبوا من قبل﴾ أي: ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم، وبالآيات التي اقترحوها عليهم لإقامة حجتهم، بأن جاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم، فلم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كانوا كذبوا به من قبل مجيئها عند بدء الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده بما شرعه وترك الشرك والمعاصي.

﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ أي: مثل هذا الذي وصف من عناد هؤلاء وإصرارهم على ضلالهم، وعدم تأثير الدلائل والبينات في عقولهم، يكون الطبع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله حتى تستحوذ أوهامه على أفكارهم، ويملأ حب شهواته جوانب قلوبهم، ويصير وجداناً تقليدياً لهم، لا يقبلون فيه بحثاً، ولا يسمعون فيه نقداً، فيكون كالسكة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصهره وإذابته ثم جمدت فلا تقبل نقشاً ولا شكلاً آخر.

١٠٢ ـ ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهـد﴾ «العهد»: الـوصية بمعنى إنشائها وبمعنى متعلَّقها وهو ما يوصي به الموصي، يقال: «عهدت إليه بكذا» وصيتُه بفعله أو حفظه.

و «العهد» يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطري وشرعي وعرفي مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض في تعاهدهم وتعاقدهم لأنه جاء نكرة في سياق النفي مع تأكيد النفي بـ«مِنْ» كأنه قال: وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهداً مَّا يفون به ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي: وإن الشأن الذي وجدنا عليه أكثرهم هو التمكن من الفسوق، وهو الخروج عن كـل عهد فـطري وشرعي بالنكث والغدر، وغير ذلك من المعاصي. وإنما حكم على الأكثر لأن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهد الله عليه أو عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس، ومنهم من كان يفي ببعض ذلك حتى في حال الكفر إذ لا تتفق أفراد أمة كبيرة على الشر والباطل في كل شيء، وهذا من دقة القرآن في تحديد

الحقائق بالصدق الذي لا تشوبه شبهات المبالغة بما يسلب أحداً حقه أو يعطي أحداً غير حقه، وقد نوهنا بهذه الدقة من قبل، وغفل عنها بعض المفسرين فزعموا هنا أن المراد بالأكثر الكل في الكل.

(قصة موسى عليه الصلاة والسلام)

هو موسى بن عِمران، بكسر العين.

وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة أولها هذه السورة «الأعراف»، ومثلها في استقصاء قصته «طه» و«الشعراء»، وقد ذكر بعض العبر من قصته في سور أخرى كـ«يونس» و«هود» و«المؤمنون».

وسبب ذكره عليه السلام كثيراً، أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، من حيث أنه أوتي شريعة دينية دنيوية،وكوّن الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية[1]، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

(١) وأنه من الرسل أولى العزم وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

١٠٣ ــ ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه﴾.

هذه القصة معطوفة على جملة ما قبلها من القصص من قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً﴾ إلى قوله «وإلى مدين أخاهم شعيباً» والمعنى: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى بآياتنا التي تدل على صدقه فيما يبلغه عنا إلى فرعون وملئه. أما «فرعون» فهو لقب لملوك مصر القدماء كلقب «قيصر» لملوك الروم و«كسرى» لملوك الفرس الأولين و«الشاه» لملوك الإيرانيين في هذا العصر، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً. وقد أقام الله تعالى الحجة بآيات موسى على فرعون وملئه ﴿فظلموا بها﴾ أي: فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبراً وجحوداً، فكان عليهم إثم ذلك وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم، كما كان يكون لهم مثل أجورهم لو آمنوا بالتبع لهم.

وجملة القول: أن موسى عليه السلام كان مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل وإلى فرعون وملئه.

﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي: فانظر أيها الرسول، أو أيها السامع والتالي بعين العقل والفكر كيف كان عاقبة فرعون وملئه المفسدين في الأرض بالظلم واستعباد البشر حين جحدوا آيات الله وظلموا بها عملاً بمقتضى فسادهم. وهذا تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه تعالى من عاقبة أمرهم، إذ نصر عبده ورسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستضعف مستعبد لهم، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصولة وقوة، نصره عليهم أولاً بإبطال سحرهم وإقناع علمائهم وسحرتهم بصحة رسالته وكون آياته من الله تعالى، ثم نصره بإرسال أنواع العذاب على البلاد، ثم بإنقاذ قومه وإغراق فرعون ومن اتبعه من ملئه وجنوده.

بعد هذا التشويق والتنبيه قص تعالى علينا ما كان من مبدأ أمر أولئك المفسدين الذي انتهى إلى تلك العاقبة، فقال:

١٠٤ ــ ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾.

١٠٥ ـ ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ حاصل معنى الآية، أن موسى عليه السلام، قد بلّغ فرعون أنه رسول من رب العالمين كلهم ـ أي: سيدهم ومالكهم ومدبر جميع أمورهم ـ وأنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول على الله إلا الحق إذ لا يمكن أن يبعث الله رسولاً يكذب عليه، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، فهو حقيق بالصدق والتزام الحق في التبليغ عن ربه ومعصوم من الكذب والخطأ فيه، وشديد الحرص عليه بما له من الكسب والاختيار.

فاشتمل كلامه على عقيدة الوحدانية وهي: أن للعالمين كلهم رباً واحداً، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة في التبليغ والهداية.

وقد ناقشه فرعون البحث في وحدانية الربوبية العامة لله تعالى كما هو مبين في سورة «الشعراء»[1] فوصفه موسى بما يليق به تعالى ويوضح المعنى المراد في أجوبة عدة أسئلة أوردها عليه، وقد سأله وهارون عن ربهما في سياق سورة «طه»[2] وجاء فيما حكاه الله تعالى عنهما فيها ذكر البعث والجزاء.

فعُلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملأه أصول الايمان الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء.

ثم ذكر أن الله تعالى أيده ببينة تدل على صدقة في دعواه وتبليغه عنه ورتب عليه ما هو مقصود له بالذات أو بالقصد الأول فقال حكاية عنه: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن، ظاهرة الحجة في بيان الحق، فتنكير البينة للتفخيم، والتصريح بكون هذه البينة المعجزة من عند ربهم نص على أنهم مربوبون وأن فرعون ليس رباً

---

(١) قوله «سورة الشعراء»: أي: في قوله تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ الآية «٢٣» وما بعدها.

(٢) قوله: «سورة طه» أي في قوله تعالى: ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ الآية «٤٩» وما بعدها.

ولا إلهاً، وعلى أنها ـ أي: البينة ـ ليست من كسب موسى ولا مما يستقل به، عليه السلام،وبنى على هذا قوله «فأرسل معي بني إسرائيل» أي: بأن تطلقهم من أسرك، وتعتقهم من رق قهرك، ليذهبوا معي إلى دار غير ديارك، ويعبدوا فيها ربهم وربك.

١٠٦ ـ ﴿قال إن كنت جئت بآية﴾ أي: قال فرعون لموسى، عليه السلام: إن كنت جئت مصحوباً ومؤيداً بآية من عند من أرسلك كما تدعي ـ والشرط بـ «إن» في قوله: «إن كنت» يدل على الشك في مضمون الجملة الشرطية أو الجزم بنفيها ـ ﴿فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ فأتني بها بأن تظهرها لدي إن كنت من أهل الصدق الملتزمين لقول الحق، وهذا شك آخر في صدقه، بعد الشك في مجيئه بالآية.

١٠٧ ـ ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾.

أي فلم يلبث موسى أن ألقى عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون فإذا هي ثعبان ـ وهو الذكر العظيم من الحيات ـ مبين أي: ظاهر بين لا خفاء في كونه ثعباناً حقيقياً يسعى وينتقل من مكان إلى آخر تراه الأعين من غير أن يسحرها ساحر فيخيل إليها أنها تسعى كما سيأتي من أعمال سحرة فرعون.

١٠٨ ـ ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي: أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه بعد إلقاء العصا فإذا هي بيضاء ناصعة البياض تتلألأ للناظرين إليه وهم فرعون وملؤه أو لكل من ينظر، وقد وصف الله تعالى بياضها في «طه» و«النمل» و«القصص» بأنه «من غير سوء» أي: من غير علة كالبرص.

١٠٩ ـ ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾.

١١٠ ـ ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾.

لما أظهر موسى عليه السلام آية الله تعالى في مجلس فرعون، «قال الملأ من قوم فرعون» أي: أشراف قومه وأركان الدولة منهم «إن هذا لساحر

عليم» أي: رساخ في العلم كما تدل عليه صيغة «عليم» «يريد أن يخرجكم من أرضكم» أي: قد وجه إرادته لسلب ملككم منكم وإخراجكم من أرضكم بسحره بأن يستميل به الشعب المصري فيتبعه فينتزع منكم الملك ويستبد به دونكم، ويلي ذلك إخراج الملك وعظماء رجاله من البلاد لئلا يناوئوه لاستعادة الملك منه، وما قال الملأ من قوم فرعون هذا القول إلا تبعاً لقوله هو الذي حكاه تعالى عنه في سورة «الشعراء»: «قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون» أي: رددوا قوله وصار يلقيه بعضهم إلى بعض كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهاراً للموافقة عليه، وتعميمًا لتبليغه.

والأمر في قول فرعون لهم وقول بعضهم لبعض: ﴿فماذا تأمرون﴾ ليس هو المقابل للنهي بل هو بمعنى الإدلاء بالرأي في الشورى.

١١١ ـ ﴿قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين﴾ أي: قال الملأ لفرعون حين استشارهم بقوله «فماذا تأمرون؟» أرجه أي: ارجيء وأخِّر أمره وأمر أخيه ولا تفصل فيه بادي الرأي، وأرسل في مدائن ملكك رجالاً أو جماعات من الشرطة والجند حاشرين أي: جامعين سائقين للسحرة منها فالحشر: الجمع والسوق وإنما يوجد السحرة في المدائن الجامعة الآهلة بدور العلم والصناعة، فإن ترسلهم.

١١٢ ـ ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾ بفنون السحر ماهر فيها، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى فلا يفتتن به أحد.

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

١١٣ ـ ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ أي: وجاء فرعونَ السحرة الذين حشرهم له أعوانه وشرطته، فلما جاؤوا قالوا لفرعون: إن لنا لأجراً وجزاء عظيًما يكافيء ما يطلب منا من العمل العظيم إن كنا نحن الغالبين لموسى.

١١٤ ـ ﴿قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ أي: قال فرعون مجيباً لهم إلى ما طلبوا: نعم إن لكم لأجراً عظيًما وإنكم مع ذلك الأجر المالي أو المادي لمن المقربين من جنابنا السامي، فيجتمع لكم المال والجاه وذلك منتهى نعيم الدنيا ومجدها.

أكد لهم نيل ما طلبوه منه وما زادهم عليه تأكيداً بعد تأكيد لاهتمامه بهذا الأمر وخوفه من عاقبته.

١١٥ ـ ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين﴾ استئناف بياني كنظائره، أي: قال السحرة لموسى، عليه السلام، بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم، إما أن تلقي ما عندك أولاً أو نكون نحن الملقين لما عندنا من دونك. أما تخييرهم إياه فلثقتهم بأنفسهم واعتدادهم بسحرهم، أو إرهاباً له، وإظهاراً لعدم المبالاة به، مع العلم بأن المتأخر يكون أبصر بما تقتضيه الحال بعد وقوفه على منتهى شوط خصمه، وما قيل من أن علة التخيير مراعاة الأدب لا وجه له البتة، بل مقامهم بحضرة ملكهم الذي يدعي الألوهية والربوبية فيهم وما طلبوه منه وما وعدهم إياه كل ذلك يقتضي أن يحتقروا خصمه لا أن يتأدبوا معه كما يتأدب أهل الصناعة الواحدة بعضهم مع بعض إذا تلاقوا للمبارة.

١١٦ ـ ﴿قال ألقوا﴾ وفي سورة «طه»: «قال بل ألقوا» وهو أدل على رغبته عليه السلام في سبقهم للإلقاء والإيذان بعدم مبالاته بهم.

وقد قيل: كيف أمرهم موسى عليه السلام بإلقاء ما عندهم وهو من السحر المنكر؟.

وأجيب: بأنه لم يأمر بفعل السحر ابتداء وإنما أمر بأن يتقدموه فيما جاؤوا لأجله ولا بد لهم منه، وأراد التوسل به إلى إظهار بطلان السحر لا إثباته، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه، ولم يكن ثم وسيلة لإبطاله إلا ذلك، وقد صرح به فيما حكاه تعالى عنه في سورة «يونس»: «قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون»، ومثله توسل إبراهيم، صلى الله عليه وعلى نبينا وآلهما إلى إظهار حقيقة التوحيد لعبدة الكواكب من قومه لما رأى كُلًا من الكوكب والقمر والشمس بازغاً قال:«هذا ربي» ثم تعقبه بما يدل على كونه لا يصح أن يكون رباً وإسماعه إياهم بعد إبطال ربوبيتها كلِّها حقيقة التوحيد بقوله: «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين».

﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ أي: فلما ألقوا ما ألقوا من حبالهم وعصيهم سحروا أعين الناس الحاضرين، ومنهم موسى عليه السلام، ففي سورة «طه»: «فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى» و«استرهبوهم» أي:أوقعوا في قلوبهم الرَّهْب والخوف، كما قال تعالى «فأوجس في نفسه خيفة موسى، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى» وجاؤوا بسحر عظيم، أي: مظهره كبير وتأثيره في أعين الناس عظيم، قال الحافظ بن كثير: أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

١١٧ ـ ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف

ما يأفكون﴾ أي: أوحينا إليه بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها، فألقاها كما أُمر فإذا هي تلقف ما يأتون به من الإفك.

فرأى الناس أن الحبال والعصي التي ألقاها السحرة ليست إلا حبالاً وعصياً لا تسعى ولا تتحرك، وأن عصا موسى لم تزل حية تسعى، وهذا هو الذي مازَ الحق من الباطل، وعرفت به الآية الإلهية التي جاء بها موسى والحيلة الصناعية التي فعلها السحرة. وكل ما في الأمر أن عصا موسى أزالت هذا التخييل بسرعة وهو معنى «اللقف»، ولكن لا نعلم بم كان لها هذا التأثير لأنها آية إلهية حقيقة لا أمر صناعي حتى نعرف صفته وحقيقته. وقوله تعالى:

١١٨ ــ ﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ أظهر في هذا المعنى منه في ابتلاع العصا للحبال والعصي إذا فُسِّرت ألفاظه بمعانيها الحقيقية، فالذي بطل كان عملاً عملوه، وكيداً كادوه، وليس شيئاً مادياً أوجدوه، أي: فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره.

١١٩ ــ ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ أي: فغلب فرعون وملؤه في ذلك المجمع العظيم الذي كان في عيد لهم ويوم زينة من مواسمهم ضربه موسى موعداً لهم بسؤالهم كما بين في سورة «طه» «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى» لتكون الفضيحة ظاهرة مبينة لجماهير الناس، ولم يقل فغلبهم موسى لأن ذلك لم يكن بكسبه وصنعه «وانقلبوا» أي عادوا من ذلك المجمع «صاغرين» أذلة، بما رزئوا به من الخذلان والخيبة، أو صاروا صاغرين. وإنما خص هذا بفرعون وملئه دون السحرة لأنه تعالى بين ما كان من عاقبة أمرهم، بقوله:

١٢٠ ــ ﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ فسره الزمخشري في الكشاف بقوله: وخروا سجداً كأنما ألقاهم ملقٍ لشدة خرورهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا اهـ. والمراد أن ظهور بطلان سحرهم وإدراكهم فجأة لحقيقة آية

موسى عليه السلام، وعلمهم بأنها من عند الله تعالى لا صنع فيها لمخلوق قد ملأت عقولهم يقيناً وقلوبهم إيماناً فكان هذا اليقين في الإيمان البرهاني الكامل، والوجداني الحاكم على الأعضاء والجوارح، هو الذي ألقاهم على وجوههم سجداً لله رب العالمين، الذي بيده ملكوت الخلق أجمعين، ولم يبق في أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة، ولا سيما وقد ظهر لهم صغاره أمام هذه الآية.

١٢١ ــ ﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾.

١٢٢ ــ ﴿رب موسى وهارون﴾ الجملة إما بيان مستأنف وإما حال من السحرة أي: حال كونهم قائلين في سجودهم آمنا.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

بعدما كان من إيمان السحرة كان أول ما يخطر في البال ويتوجه إليه السؤال هو: ماذا فعل فرعون وما قال؟ وهاك البيان.

١٢٣ ــ ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم؟﴾ استفهام إنكاري توبيخي والمعنى: أآمنتم بموسى أو برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم وآمركم بذلك؟

وفي سورة «طه» «قال آمنتم له» والضمير فيه لموسى قطعاً لأن تعدية الإيمان باللام تضمين يفيد معنى الاتباع والخضوع، والمعنى: أآمنتم به متبعين له إذعاناً لرسالته قبل أن آذن لكم؟.

وقد بين فرعون علة إيمانهم بما ظنه أو أراد أن يعتقده قومه فيهم فقال مواصلاً تهديده:

﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن هذا الصنيع الذي صنعتموه أنتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكراً مكرتموه في المدينة بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته، وزاد في سورة «طه» «إنه لكبيركم الذي علمكم السحر» فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم ــ وهو ما كان اتهم به موسى وحده ــ ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء كما حكاه تعالى عن فرعون وملئه في سورة «يونس» ﴿فسوف تعلمون﴾ ما يحل بكم من العذاب، جزاء على هذا المكر والخداع، وبيَّن ذلك بقوله:

١٢٤ ــ ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ أي: أُقسم لأفعلن كذا وكذا في عقابكم والتنكيل بكم، وهو: قطع الأيدي والأجل من خلاف كأن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، ثم لأصلبن كل واحد منكم وهو على هذه الحالة المشوهة لتكونوا عبرة لمن تحدثه نفسه بالكيد لنا، أو بالخروج عن سلطاننا، والترفع عن الخضوع لعظمتنا.

ومن المعقول ما قاله بعض المفسرين: من كون اتهام فرعون للسحرة بالمكر والكيد له ولقومه، بتواطئهم مع موسى إنما كان تمويهاً على قومه المصريين لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، ويقع ما خافه وقدره واتهم به موسى عليه السلام، فهو على عتوه على الخلق، وعلوه في الأرض، قد خاف عاقبة إيمان الشعب، وافتقر على ادعائه الربوبية إلى إيهامهم بأنه لا ينتقم من السحرة إلا حباً فيهم، ودفاعاً عنهم، واستبقاء لاستقلالهم في وطنهم، ومحافظتهم على دينهم، وكذلك يفعل كل ملك وكل رئيس مستبد في شعب يخاف أن ينتقض عليه باجتماع كلمته على زعيم آخر بدعوة دينية أو سياسية وما من شعب عرف نفسه وحقوقه وتعارف بعض أفراده وتعاونوا على صون هذه الحقوق، إلا وتعذر استبداد الأفراد فيهم وإن كانوا ملوكاً جبارين.

وههنا يرد سؤال: ماذا كان من أمر السحرة عندما سمعوا هذا التهديد والوعيد؟ وبم أجابوا ذلك الجبار العنيد؟ وجوابه هنا في قوله تعالى:

١٢٥ ـ ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يجوز أن يكونوا قد عنوا بقولهم هذا أنفسهم وحدها وأرادوا أنهم لا يبالون ما يكون من قضائه فيهم وقتله لهم لأنهم راجعون إلى ربهم، راجون مغفرته ورحمته بهم، وحينئذٍ يكون تعجيل قتلهم سبباً لقرب لقائه، والتمتع بحسن جزائه. ويجوز أن يكونوا قد عنوا أنفسهم وفرعون جميعاً وأرادوا أننا وإياك سننقلب إلى ربنا، فلئن قتلتنا فما أنت بخالد بعدنا، وسيحكم عز وجل بعدله بينك وبيننا، وفيه تعريض بكذبه في دعوى الربوبية، وتصريح بإيثار ما عند الله تعالى على ما عنده من الشهوات الدنيوية، وفي سور «الشعراء» «قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين» وهو يؤيد المعنى الأول ولا ينافي الثاني لأنه يشمل الأول.

١٢٦ ـ ﴿وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ «النقمة»: العقوبة، أي: وما تهديدك إيانا بالعقوبة إلا لذلك. والظاهر أنه نفذ الوعيد بالانتقام بالفعل.

وقد ختم تعالى ما قصه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ أي: ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا إفراغاً بتثبيتك إيانا على الإيمان وتأييدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب، حتى لا يبقى في قلوبنا شيء من خوف غيرك، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك. وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون، وغير مطيعين له في قول ولا فعل. فجمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ

قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

خاف ملأ فرعون عاقبة تركه لموسى حراً مطلقاً في مصر فكلموه في ذلك وقد أخبرنا الله تعالى بما قالوه له وما أجابهم به وما كان من تأثير جوابه في موسى وقومه من نصحه لهم وما دار بين موسى وبينهم في ذلك، فقال:

١٢٧ ـ ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك؟﴾ أي: قالوا له أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين لتكون عاقبتهم أن يفسدوا قومك عليك في أرض مصر بإدخالهم في دينهم، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم، ويتركك مع آلهتك كالشيء المهمل، فيظهر للمصريين عجزك وعجزها، وقد رأيت ما كان من أمر إيمان السحرة ﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: قال مجيباً للملأ، سنقتل أبناء قومه تقتيلاً ما تناسلوا ـ فتعبيره بالتقتيل يدل على التكثير والتدريج ـ ونستبقي نساءهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ولادته حتى ينقرضوا ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ وإنا مستعلون عليهم بالغلبة والسلطان قاهرون لهم كما كنا من قبل فلا يستطيعون إفساداً في أرضنا، ولا خروجاً من حظيرة تعبيدنا.

ومن البديهي أن يخاف بنو إسرائيل هذا الوعيد وأن يطمئنهم موسى عليه السلام، وهو ما بينه تعالى بقوله:

١٢٨ ـ ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ أي: اطلبوا معونة الله تعالى وتأييده لكم على ما سمعتم من الوعيد واصبروا ولا تجزعوا، فإن سألتم لماذا وإلى متى؟ أقل لكم: إن الأرض لله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء يورثها

من يشاء من عباده لا لفرعون، ومراده عليه السلام: أن العاقبة ستكون لكم بإرث الأرض ولكن بشرط أن تكونوا من المتقين له تعالى بإقامة شرعه، والسير على سننه في نظام خلقه، وليس الأمر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوي على قوته والضعيف على ضعفه، أو أن الآلهة الباطلة ضمنت لفرعون بقاء ملكه، على عظمته وجبروته وظلمه.

ثم ماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه؟ وهل فهموها وقدروها قدرها؟ وبم أجابوه؟

١٢٩ ـ ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا﴾ يعنون أنهم لم يستفيدوا من إرساله لإنقاذهم من ظلم فرعون شيئاً فهو يؤذيهم ويظلمهم بعد إرساله كما كان يؤذيهم من قبله أو أشد.

﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ أي: قال موسى عليه السلام: إن المرجو من فضل ربكم أن يهلك عدوكم الذي سخركم وآذاكم بظلمه ويجعلكم خلفاء في الأرض التي وعدكم إياها ويمنعكم فرعون من الخروج إليها، فينظر سبحانه كيف تعملون بعد استخلافه إياكم فيها: أتشكرون النعمة أم تكفرون؟ وتصلحون في الأرض أم تفسدون؟ ليجازيكم في الدنيا والآخرة بما تعملون.

وقد عبر بـ«عسى» ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلوا ويتركوا ما يجب من العمل أو لئلا يكذبوه لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لملكه وقوته.

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

١٣٠ ـ ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون﴾ صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لامه لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه وكيف لا وهو من أظهر آياته سبحانه على تأييد رسله وقدرته على الإدالة للمظلومين المستضعفين من الأقوياء الظالمين.

وجملة معنى الآية: أنه تعالى أخذ آل فرعون بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله وعجز ملكهم الجبار المتغطرس وعجز آلهتهم ولعلهم إذا تذكروا اعتبروا واتعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه الأنفس إلى مرضاة رب العالمين والتضرع له دون غيره.

١٣١ ـ ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من خصب ورخاء وهو الغالب ﴿قالوا لنا هذه﴾ دون غيرنا ونحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أي: حالة تسوؤهم كجدب أو جائحة أو مصيبة أخرى في الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار كأخيه هارون أو جميع قومه، ويرون أنهم إنما أصيبوا بشؤمه وشؤمهم، ويغفلون عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى لأن هذا عندهم من الحقوق.

وأصل «يَطَّيروا»: «يتطيروا» فأدغمت التاء في الطاء وسبب استعمال «التطير» بمعنى التشاؤم: أن العرب كانت تتوقع الخير والشر مما تراه من حركة الطير حتى أنها تزجرها إذا لم تمر من تلقاء نفسها فإذا طارت من جهة اليمين تيمنت أي: رجت وقوع اليمن والبركة والخير، وإذا طارت من جهة الشمال تشاءمت وتوقعت الشر والمصيبة، ويسمى الطائر الأول «السَّانح» والآخر «البارح»، ثم إنهم سموا الشؤم «طيراً وطائراً» والتشاؤم «تطيُّراً»، ولذلك قال تعالى في رد خرافتهم:

﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ ابتدأ الرد عليهم بأداة الافتتاح «ألا» للاهتمام به إذ المراد بها توجيه ذهن القارىء لما يلقى بعدها

حتى لا يفوته شيء منه، أي: ألا فليعلموا أن الشؤم الذي نسبوه إلى موسى وعدوه من آثار وجوده فيهم هو عند الله تعالى لا عند موسى ومن معه، فهو تعالى قد جعل لكل شيء قدراً من حسنة وسيئة بمعنى: أنه وضع لنظام الكون سنناً تكون فيها المسببات على قدر الأسباب، ولكل منها حكم، فبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم، وهو امتحان واختبار لهم بما يسوؤهم، ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بني إسرائيل وطغيانهم وإسرافهم في كل أمورهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكم التصرف الرباني في الخلق ولا أسباب الخير والشر الصورية ولا المعنوية وكون كل شيء في هذا الكون بمشيئته تعالى وتدبيره.

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

١٣٢ ـ ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ «مهما»: اسم شرط يدل على العموم، والمعنى: إنك إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها، أي: تصرفنا بها بدقة ولطف في التأثير عما نحن عليه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك في خدمتنا وضرب اللَّبِنِ لمبانينا فما نحن لك بمصدقين، ولا لرسالتك بمتبعين.

١٣٣ ـ ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي: فأنزلنا عليهم هذه المصائب والنكبات حال كونها آيات بينات على صدق رسالة عبدنا موسى بأن توعدهم بها قبل وقوع كل واحدة منها تفصيلاً لا إجمالاً، لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل بأنها وقعت بأسباب لها لا دخل لرسالته فيها، فاستكبروا عن الإيمان به استكباراً، مع اعتقاد صحة رسالته وصدق دعوته

باطناً، وكانوا قوماً راسخين في الإجرام والذنوب،مصرين عليها فلا يهون عليهم تركها.

جاء في سورة «الإسراء»: أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات وقد عد هنا منها خمساً.

فأما «الطوفان» فمعناه في اللغة: ما طاف بالشيء وغشيه وغلب في الطوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض قال ابن كثير: اختلفوا في معناه فعن ابن عباس في روايات كثيرة: أنها الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم، وقيل غير ذلك.

وأما «الجراد» فهو معروف. وأما «القمل» بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة: فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة،وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة.

وأما «الضفادع»: فهي المعروفة لا خلاف فيها.

وأما «الدم»: ففسره زيد بن أسلم بالرعاف، وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان في مياه المصريين.

هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن[1] من الآيات التسع التي أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا

(١) قوله: «هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن من الآيات التسع إلخ»، أي: في هذه الآية من سورة «الأعراف»، أما الأربع الباقيات وهي: اليد، والعصا، وطمس الأموال، والسِّنين أي: القحط. فقد ذكرت في آيات أخرى.

عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

بعد بيان تلك الآيات ذكر ما كان من تأثيرها وتأويلها معطوفاً عليها، فقال عز وجل:

١٣٤ ـ ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ والمعنى: ولما وقع على فرعون وقومه ذلك العذاب المذكور في الآية السابقة فاضطربوا اضطراب الأَرْشِيَة ـ أي: حبال الدِّلاء ـ في البئر البعيدة القعر، وحاصوا حيصة الحُمُر، قالوا عند نزول كل نوع منه بهم: يا موسى ادع لنا ربك واسأله بما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لإنقاذ قومك ليعبدوه وحده، أو ادعه بالذي عهد به إليك أن تدعوه به فيعطيك الآيات ويستجيب لك الدعاء أن يكشف عنا هذا الرجز، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل قال تعالى:

١٣٥ ـ ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾ أي: فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه ومنتهون إليه في كل مرة منها، وهو عود الحال إلى ما كانت عليه، أو الأجل هو الغرق الذي هلكوا فيه، إذا هم ينكثون عهدهم ويحنثون في قسمهم في كل مرة. أي: فاجأوا بالنكث، وبادروا إلى الحنث، بلا روية ولا ريث. وأصل «النكث» في اللغة: نقض ما غُزل أو ما فُتِل من الحبال ليعود أنكاثاً وطاقات من الخيوط كما كان.

١٣٦ ـ ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي: فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لهم بأن أغرقناهم في اليم ـ وهو البحر ـ وعَلَّل هذا الانتقام كما علل أمثاله «بأنهم كذبوا بآيات الله» وتكرر هذا اللفظ في قصص الأنبياء من هذه السورة أكثر من غيرها فإن

تكذيب الواحدة كتكذيب الكثير ويقتضيه باتحاد العلة، كما أن تكذيب أحد الرسل كتكذيب الجميع.

وكذلك تكرر في القرآن كون الغفلة على الحق ودلائله من صفات الكفار. وأما جمع «الآيات» هنا فلأنها متعددة. والمعنى: أنهم كانوا يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ثم يكذبون حتى إذا انقضى الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم بسبب أنهم كذبوا بها كلها وكانوا غافلين عما تقتضيه وتستلزمه من عذاب الدنيا والآخرة.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

١٣٧ ـ ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ تعدد في القرآن التعبير عن استخلاف الله قوماً في أرض قوم بالإيراث، أي: وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون في مصر ـ بما تقدم بيانه ـ جميع الأرض التي باركنا فيها بالخصب والخير الكثير، مشارقها من حدود الشام، ومغاربها من حدود مصر، تحقيقاً لوعدنا: «ونريد أن نمنَّ على الذين استُضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».

روي عن الحسن البصري وقتادة أنهما قالا في تفسير «مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها»: هي أرض الشام.

﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ تمام الشيء وصوله إلى آخر حده، و«كلمة الله»: وعدُه لبني إسرائيل بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض.

والمعنى: نفذت كلمة الله ومضت على بني إسرائيل تامة كاملة بسبب

صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه إذ كان وعد الله تعالى إياهم بما وعدهم مقروناً بأمرهم بالصبر والاستعانة والتقوى له كما أمرهم نبيهم عليه السلام تبليغاً عنه تعالى.

وإذ كان قد تم وعد الله تعالى لهم بذلك ثم سلبهم الله تلك الأرض بظلمهم لأنفسهم وللناس فلم يبق من مقتضى الوعد أن يعودوا إليها مرة أخرى لأنه قد تم ونفذ صدقاً وعدلاً.

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ «التدمير»: إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر، و«العرش»: رفع المباني والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعرائش العنب، ومنه «عرش الملك».

والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولاً وبالذات: ماله تعلق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام، فالأول: كالمباني التي كانوا يبنونها للمصريين أو يصنعون اللبن لها، والثاني: كالمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة لإبطال آياته أو التشكيك فيها، وما ظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا أنفسهم، فقد أنذرهم موسى، عليه السلام، كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته فكذبوا بالآيات، وأصروا على الجحود والإعنات.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

١٣٨ ـ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ هذه الآية وما بعدها شروع في

قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل معطوفة على قصته مع فرعون وقومه على أكمل وجوه العبرة مع السلامة من لغو القصص والتاريخ.

أي: جعلناهم يجتازونه بعنايتنا وتأييدنا بغلق البحر لهم وتيسير السبل عليهم ﴿فأتوا﴾ عقب تجاوزهم إياهم ودخولهم في بلاد العرب من البر الآسيوي ﴿على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ يعبدونها، فماذا كان من شأنهم إذ رأوهم يعبدون غير الله تعالى كالمصريين الذين أنقذهم الله تعالى منهم، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم؟ هل استهجنوا شركهم وأنكروه كما هو الواجب عليهم والمعقول ممن رأى ما رأوا من سوء مصير المشركين، وحسن عاقبة الموحدين؟ الجواب: أنهم لم ينكروه بألسنتهم ولابقلوبهم، بل ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ حنيناً منهم إلى ما ألفوا في مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلها فعلم بهذا الطلب أنهم لم يكونوا فهموا التوحيد الذي جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين، لأن السحرة كانوا من العلماء فأمكنهم التمييز بين آيات الله تعالى التي لا يقدر عليها غيره وبين السحر الذي هو من صناعات البشر وعلومهم، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامة الجاهلين الذين بَلَّد الذلُّ أفهامهم، وإنما تبعوا موسى لإنقاذه إياهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم، لا لفهمهم حقيقة التوحيد بالآيات الدالة عليه ولذلك قيل: إنهم بعض القوم لا جميعهم.

فالتوحيد المحض الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقي إليه عرفان البشر؛ وهو المراد من قوله تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» على القول بأن اللام للغاية، وهو لا يقتضي حصوله لكل فرد منهم، ولو عقل جميع بني إسرائيل كنه التوحيد لما وقع من تبرمهم بالتكاليف وتمردهم على موسى، عليه السلام، ما قصه الله تعالى علينا في كتابه، وقد ابتلاهم الله تعالى ورباهم بالحسنات والسيئات، وحرم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، حتى انقرض ذلك الجيل الذي نشأ في حجر الوثنية، وشب أو اكتهل أو شاخ في ذل العبودية الفرعونية.

فماذا كان جواب موسى عليه السلام ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشيء، وهو يشمل كل ما يصلح له من

الجهل الذي هو فقد العلم، أوالجهل الذي هو سفه النفس وطيش العقل، وأهمه المناسب للمقام هنا جهل التوحيد وما يجب من إفراد الرب تعالى بالعبادة من غير واسطة.

وبعد أن ذكرهم بسوء حالهم من جهلهم وسفاهة أنفسهم بين لهم فساد ما طلبوه في نفسه، عسى أن تستعد عقولهم لفهمه واستبانة قبحه فقال بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل والدليل:

١٣٩ ـ ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: إن هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضي على ما هم فيه بالهلاك، بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، وباطل ما كانوا يعملون من الأصنام، وعبادة غير الله ذي الجلال والإكرام، أي: هالك وزائل لا بقاء له، فإنما بقاء الباطل في ترك الحق له أو بعده عنه، وهذا يتضمن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنية من تلك الأرض وكذلك كان.

١٤٠ ـ ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾ أي: قال لهم موسى أأطلب لكم معبوداً غير الله رب العالمين وخالق السماوات والأرض وكلِّ شيء، والحال أنه فضلكم على العالمين، بما جدد فيكم من التوحيد وهداية الدين، على ملة إبراهيم وسنة المرسلين؟ فماذا تبغون من عبادة غيره معه أو من دونه؟

والاستفهام في الآية للإنكار المشرب معنى التعجب.

١٤١ ـ ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ المعنى: واذكروا إذ أنجاكم الله تعالى بفضله، أو إذ أنجيناكم بإرساله تعالى إيانا لأجل ذلك وبما أيدنا به من الآيات، من آل فرعون حال كونهم يسومونكم سوء العذاب بجعلكم عبيداً مسخرين لخدمتهم كالبهائم فلا يعدونكم منهم، وخص بالذكر من هذا العذاب شر أنواعه بقوله: يقتلون ما يولد لكم من الذكور، ويستبقون نساءكم بترك الإناث لكم لتزدادوا ضعفاً بكثرتهن.

«وفي ذلكم» العذاب والانجاء منه بفضل الله عليكم، وتفضيله إياكم على أولئك العالين في الأرض وعلى غيرهم كسكان البلاد المقدسة التي سترثونها «بلاء من ربكم عظيم» أي: اختبار لكم منه ليس وراءه بلاء واختبار، فإن أجدر الناس بالاعتبار والاستفادة من أحداث الزمان، من يعطى النعمة بعد النقمة، وأحق الناس بمعرفة وحدانية الله تعالى وإخلاص العبادة له من يرى من آياته في نفسه وفي الآفاق ما يوقن به أنه لا يمكن أن يكون لغيره شركة فيه، أي: فكيف تطلبون بعد هذا كله ممن رأيتم هذه الآيات على يده وليس لها فيها أقل تأثير أن يجعل لكم إلهاً من أخس المخلوقات تجعلونه واسطة بينكم وبين الله تعالى وهو قد فضلكم عليها وعلى عابديها ومن هم أرقى منهم؟

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام، وقد بُدِىءَ الوحي المطلق إليه في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى

مصر، وإنما المذكور هنا بدء وحي كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بني إسرائيل من العبودية، وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات وأحكام المعاملات، والأمة المستعبدة للأجنبي لا تقدر على ذلك، ألم تر أن جميع أحكام المعاملات الدنيوية من شريعتنا المطهرة وأكثر أحكام العبادات لم تشرع إلا بعد الهجرة؟ قال تعالى:

١٤٢ ـ ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ هذا السياق معطوف على السياق الذي قبله المبدوء بقوله تعالى «وجاوزنا ببني إسرائيل البحر» الآيات و«واعدنا»: من المواعدة، فقيل: إنها هنا بمعنى الوعد، وقيل إن فيها معنى صيغة المفاعلة باعتبار أن الله تعالى ضرب لموسى، عليه السلام، موعداً لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة، فقبل ذلك ثم صعد جبل سيناء في أول الموعد وهبط في آخره، وفي سورة «البقرة» «وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة» وهو إجمال لما فُصِّل هنا من قبل، لأن الأعراف «مكية» و«البقرة» مدنية فهي متأخرة عنها في النزول والمراد بالليلة ما يشمل الليل والنهار في عرف العرب عند الإطلاق.

﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ يعني: أن موسى لما أراد الذهاب لميقات ربه استخلف عليهم أخاه الكبير هارون عليهما السلام، للحكم بينهم والإصلاح فيهم، إذ كانت الرياسة فيهم لموسى وكان هارون وزيره ونصيره ومساعده كما سأل ربه بقوله «واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري» وأوصاه بالإصلاح فيهم وفيما بينهم ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين في الأرض.

واتباع سبيل المفسدين: يشمل مشاركتهم في أعمالهم، ومساعدتهم عليها، ويشمل معاشرتهم والإقامة معهم في حال اقترافها، بعد العجز عن إرجاعهم عنها، ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام، كما وقع لهارون عليه السلام فيصح نهيهم عنه تحذيراً من وقوعهم فيه بضرب من

الاجتهاد كالذي وقع الاختلاف فيه بين موسى وهارون عليهما السلام، في قصة عجل السامري الذي حكاه تعالى عنه في سورة «طه» بقوله: «قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني؟ أفعصيت أمري؟ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي».

فالرسالة كانت لموسى بالأصالة ولهارون بالتبع ليكون وزيراً لا رئيساً، وموسى هو الذي أعطي الشريعة ـ التوراة ـ وكان هارون مساعداً له على تنفيذها في بني إسرائيل كما كان مساعداً له على تبليغ فرعون الدعوة وإنقاذ بني إسرائيل.

وقد روى الشيخان وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى» وذلك أنه استخلفه على المدينة في غزوة تبوك قبل خروجه فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقاله. وفي رواية لأحمد: أن علياً رضي الله عنه قال: رضيت رضيت. وإنما قال: في النساء والصبيان لأنه لم يتخلف عن الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك غير النساء والصبيان ومن في حكمهم من ضعيف ومريض إلّا من استأذن من المنافقين.

١٤٣ ـ ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك﴾ أي: ولما جاء موسى للميقات الذي وقتناه له للكلام وإعطاء الشريعة، وكلمه ربه عز وجل، من وراء حجاب بغير واسطة الملك، استشرفت نفسه الزكية العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية فقال: «رب أرني أنظر إليك» بأن تجعل لي من القوة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك ورؤيتك وكمال المعرفة بك بالقدر الممكن، أي: دون ما هو فوق إمكان المخلوقين من الإدراك والإحاطة المنفي بقوله تعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير».

﴿قال لن تراني[1] ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ أي: إنك لا تراني الآن، ولا فيما تستقبل من الزمان، ثم استدرك تبارك وتعالى على ذلك بما يدل على تعليل النفي، ويخفف عن موسى شدة وطأة الرد، بإعلامه ما لم يكن يعلم من سنته، وهو أنه لا يقوى شيء في هذا الكون على رؤيته تعالى في الدنيا. فقال: «ولكن انظر إلى الجبل» فإنني سأتجلى له فإن ثبت لدى التجلي وبقي مستقراً في مكانه فسوف تراني، لمشاركتك له في مادة هذا العالم الفاني، وإذا كان الجبل في قوته ورسوخه لا يثبت ولا يستقر لهذا التجلي لعدم استعداد مادته لقوة تجلي خالقه وخالق كل شيء فاعلم أنك لن تراني أيضاً وأنت مشارك له في كونك مخلوقاً من هذه المادة وخاضعاً للسنن الربانية في قوتها وضعف استعدادها وقبولها للفناء.

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى صعقاً﴾ المعنى: فلما تجلى ربه للجبل أقل التجلي وأدناه انهدَّ وهبط من شدته وعظمته وصار كالأرض المدكوكة، وسقط موسى على وجهه مغشياً عليه كمن أخذته الصاعقة، حصل هذا لموسى عليه السلام، والتجلي إنما كان للجبل دونه فكيف لو كان له؟

---

(١) قوله تعالى: ﴿قال لن تراني﴾، إن هذا النفي منصبٌّ على نفي الرؤية في الدنيا، لذلك لم تحصل رؤية الله تعالى لموسى ولا لغيره من الأنبياء في الدنيا رؤية بصرية، وكذلك لم يره سيدنا محمد ﷺ ببصره ليلة المعراج، على الصحيح، وما جاء في رؤيته ﷺ ربه تلك الليلة فهو محمول على رؤية الفؤاد أي: رآه بقلبه لا ببصره.

أما في الآخرة فإن المؤمنين يرون الله تعالى بأبصارهم، وقد تكلم المؤلف في هذه المسألة فأطال كثيراً حيث كتب ما يزيد على ستين صفحة في هذا الموضوع ثم لخص خلاصة ما استقر عليه حيث قال ص ١٧٧ ج ٩ من «تفسير المنار»:

«خلاصة الخلاصة: أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق، وأنها على أعلى وأكمل النعيم الروحاني الذي يرتقي إليه البشر في دار الكرامة والرضوان، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله تعالى في كتابه المجيد: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين﴾ وقوله في الحديث القدسي الذي رواه عنه رسوله ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه الشيخان. وأن هذا وذاك مما يدل على مذهب السلف الذي عبر بعضهم عنه بأوجز عبارة اتفق عليها جميعهم وهي: أنها رؤية بلا كيف»

ونقول: هذا هو الحق الذي عليه أهل الحق، ونحن منهم بفضل الله تعالى.

﴿فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ أي: فلما أفاق موسى من غشيه قال سبحانك أي: تنزيهاً لك وتقديساً عما لا ينبغي في شأنك مما سألتك. وأكثر مفسري أهل السنة يجعلون وجه التنزيه والتوبة أنه سأل الرؤية بغير إذن من الله تعالى، ونفي العلم إنما يصح عندهم بمعنى أن ما سأله غير ممكن أو غير واقع في هذه الحياة الدنيا، لا أنه غير ممكن في نفسه وغير واقع ألبتة ولا في الآخرة.

ومعنى «التوبة»: الرجوع، والمراد هنا الرجوع عما طلب إلى الوقوف مع الرب تعالى عند منتهى حدود الأدب. قال مجاهد: «تبت إليك» أن أسألك الرؤية «وأنا أول المؤمنين» قال ابن عباس ومجاهد: أي: من بني إسرائيل، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد، ذكرهما الحافظ ابن كثير وقال: وكذا قال أبو العالية. قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. قال: وهذا قول حَسَن له اتجاه. والتعبير بالإفاقة يدل على صحة تفسير ابن عباس والجمهور للصَّعق بالغشي وبطلان تفسير بعضهم له بالموت.

وخلاصة معنى الآية أن موسى عليه السلام، لما نال فضيلة تكليم الله تعالى له بدون واسطة، فسمع ما لم يكن يسمع قبل ذلك وهو من الغيب الذي لا شبه له ولا نظير في هذا العالم، طلب من الله تبارك وتعالى أن يمنحه شرف رؤيته وهو يعلم حتمًا أنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته التي منها كلامه عز وجل، فكما أنه سمع كلاماً ليس كمثله كلام بتخصيص رباني، استشرف لرؤية ذات ليس كمثلها شيء من الذوات، كما فهم من ترتيب السؤال على التكليم، فلم يكن عقل موسى ــ وهو في الذروة العليا من العقول البشرية بدليلي العقل والنقل ــ ما نعاً له من هذا الطلب، ولم يكن دينه وعلمه بالله تعالى وهما في الذروة العليا أيضاً مانعين له منه. ولكن الله تعالى قال له: «لن تراني» ولكي يخفف عليه ألم الرد ــ وهو كليمه الذي قال له في أول العهد بالوحي إليه «واصطنعتك لنفسي» ــ أراه بعينيه ومجموع إدراكه من تجليه للجبل بما لا يعلمه سواه أن المانع من جهته هو لا من جانب الجود الرباني، فنزه الله

وسبحه وتاب إليه من هذا الطلب فبشره الله تعالى بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه أي: دون رؤيته في الدنيا وأمره بأن يأخذ ما أعطاه، ويكون من الشاكرين له، بقوله:

١٤٤ ـ ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ «الاصطفاء»: اختيار صفوة الشيء وصَفْوه أي: خالصه الذي لا شائبة فيه وتعدية الاصطفاء هنا بـ «على» لتضمنه معنى التفضيل، فالمعنى: إني اصطفيتك مفضلاً إياك على الناس من أهل زمانك «برسالاتي» وجمعها باعتبار تعدد ما أُرسل به من العقائد والعبادات، والأحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية، واصطفيتك بكلامي أي بتكليمي لك بعد وحي الإلهام من غير توسط ملك وإن كان من وراء حجاب، وهو ماطلب رفعه لتحصيل الرؤية مع الكلام.

﴿فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ أي: فخذ ما أعطيتك من الشريعة ـ التوراة ـ وكن من الراسخين في الشكر لنعمتي بها عليك وعلى قومك، وذلك بإقامتها بقوة وعزيمة والعمل بها، وكذا لسائر نعمي، فإن حذف متعلَّق الشكر يدل على عمومه، كما أن صيغة الصفة منه تدل على التمكن منه والرسوخ فيه.

١٤٥ ـ ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ أي: إننا أعطيناه ألواحاً، كتبنا له فيها من كل نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيباً وترهيباً، وتفصيلاً لكل نوع من أصول التشريع وهي أصول العقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام، و «تفصيلها»: ذكرها معدودة مفصولاً بعضها من بعض.

وأما قوله تعالى: ﴿فخذها بقوة﴾ فهو مقول قول مقدر لأنه أمر لموسى والمعنى: كتبنا له في الألواح ما ذكر وقلنا له: خذها بقوة، أو وقلنا: له هذه رسالتنا أو وصايانا وأصول شريعتنا وكلياتها فخذها بقوة أي: حال كونك متلبساً بجد وعزيمة وحزم، أو أخذاً بقوة وعزم، وذلك أن المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة شديدةً مخالفة كل المخالفة لما نشأ عليه من الذل والعبودية لفرعون

وقومه والأنس بما كانوا عليه من الشرك والوثنية ومفاسدها، فإذا لم يكن المتولي تربية هؤلاء القوم والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد وعزم ثابت فإنه يعجز عن سياستهم وتربيتهم، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم.

﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ قيل: إن أحسن هنا بمعنى «ذي الحُسْن التام الكامل» وليس فيه معنى تفضيل شيء على آخر، وهو ما يعبرون عنه بقولهم: «اسم التفضيل على غير بابه» ـ أي: وأمر قومك بالاستمساك والاعتصام بهذه المواعظ والأحكام المفصلة في الألواح التي هي كاملة الحسن.

وقوله: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ استئناف لبيان عاقبة الذين فسقوا عن أمر الله وجحدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها، كأنه يقول: إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم ونصركم عليهم، وسيريكم ما حل بهم بعدكم من الغرق، أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التي وعدكم إياها وسينصركم عليهم بطاعتكم له وأخذكم ميثاقه بقوة.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

هذا بيان لسنته تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير من الرسل وورثتهم، وسببه الأول التكبر فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى لأجل اتباعه، فهم يكونون دائمًا من المكذبين بالآيات الدالة عليهم الغافلين عنها، وتلك حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه.

وإنما ذكرت هذه السنة العامة من أخلاق البشر بصيغة المستقبل لأعلام النبي ﷺ بأن الطاغين المستكبرين من مشيخة قومه لن ينظروا في آيات القرآن الدالة على صدقه ﷺ في دعوى الرسالة والدالة على وحدانية الله تعالى ولا في غيرها مما أيده ويؤيده به من آياته الكونية لتكبرهم في الأرض بالباطل، فوجهة نظرهم تنحصر في تفضيل أنفسهم عليه ﷺ بأنهم سادة قريش وكبراؤها وأغنياؤها وأقوياؤها فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سناً وقوة وثروة وعصبية، فقال تعالى:

١٤٦ ـ ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ والمعنى: سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق من قومك أيها الرسول ومن غيرهم في كل زمان ومكان، كما صرفت فرعون وملأه عن آياتي التي آتيتها رسولي موسى.

و«التكبر»: صيغة تكلف أو تكثر من الكبر الذي هو رفض الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوي نفسه بشخص.

والأصل الغالب في التكبر أن يكون بغير الحق وقد يُتَصَوَّر أن يكون بحق كالترفع عن المبطلين وإهانة الجبارين واحتقار المحاربين. فقوله تعالى «بغير الحق» يكون على هذا صلة للتكبر وهو قيد له، وإلا كان بياناً للواقع. أو المعنى: أنهم بتكبرون حالة كونهم منغمسين في الباطل فأمثال هؤلاء لا قيمة للحق عندهم فهم لا يطلبونه ولا يبحثون عنه.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ هذا إما عطف على جملة «سأصرف» أي: سأصرفهم عن آياتي المنزلة والكونية فينصرفون، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإما عطف على «يتكبرون» فيكون هو وما بعده بياناً لصفات المتكبرين وأحوالهم، وأولها: أنهم إن يروا كل آية من الآيات التي تدل على الحق وتثبت وجوده لا يؤمنوا بها، فإن كثرة الآيات بتعدد أنواعها وأفرادها إنما تفيد من كان طالباً للحق ولكنه جاهل أو شاك أو سيء الفهم، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها

فقد تظهر له دلالة غيره، وفي هذا إعلام للنبي ﷺ بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه إنما يقصدون التعجيز لا استبانة الحق بالدليل، فهم إن أجيبوا إلى طلبهم لا يؤمنون.

﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ «الرشد»: الصلاح والاستقامة، وضده «الغَيُّ» وهو الفساد، والمعنى: أن من صفة هؤلاء الذين مَرَنوا على الضلال واستمرؤوا مرعى الغي والفساد، أن ينفروا من الهدى والرشاد، فإن رأى أحدهم سبيله واضحة جلية لا يختار لنفسه جعلها سبيلاً له بإيثارها وتفضيلها على من هو عليه.

وما كل أحد يصل إلى هذه الدرجة من الغي، لأن من الناس من يسلك سبيل الغي على جهل، فإذا علم بما تنتهي به إليه من الفساد أي: لنفسه مخرجاً منها، تركها واختار سبيل الرشد عليها.

﴿وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾ وهذه الحالة شر مما قبلها فإن هذه إيجابية وتلك سلبية، بينهما حال أخرى وهي حال من ليس فيه من نور البصيرة وزكاء النفس ما يحمله على سلوك سبيل الرشد إذا رآه لضعف همته، ولكنه يكره الغي والفساد إذ لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة إلى تفضيله على الرشد وإيثار سبيله واختيارها لنفسه إذا رآها بحيث لا يصرفه عن الفساد إلا جهل بسبيله أو العجز عن سلوكها.

فمن اجتمعت له هذه الأحوال أو الصفات، فهو الذي أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فلم يبق له سبيل من أسباب الحق والرشد يسلكها، وقد علل ذلك سبحانه بقوله:

﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ يعني: أن الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على شيء مما ذكر طبعاً ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراهاً، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق، والصدود عن سبيله الموصلة إلى الرشد، وكانوا غافلين عنها دون أهوائهم لا يعطونها حقها

من النظر والتأمل والتفكر والتدبر، لاشتغالهم عن ذلك بأهوائهم، وعصبيتهم لأنفسهم ولآبائهم، وبذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى.

فالغفلة هنا هي الغفلة المانعة من أسباب العلم والفطنة، لا أي نوع من أنواع الغفلة، بل هي المبينة في قوله تعالى من أواخر هذه السورة «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون.

ثم قال تعالى:

١٤٧ ـ ﴿والذين كذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟﴾

«الآيات» المكذَّب بها في الآية التي قبل هذه بمعنى: الدلائل والبينات،من براهين عقلية نظرية كانت أوعلمية أو كونية، كآياته تعالى في الأنفس والآفاق، ومنها معجزات الأنبياء، عليهم السلام، وأظهرها وأقواها القرآن العظيم، من حيث هو دال على صدق النبي الأمي في دعوى الرسالة.

وأما الآيات المكذَّب بها المذكورة في هذه الآية فالظاهر المتبادر أنها الآيات المنزلة ــ من حيث اشتمالها على الهداية والإصلاح ــ بتزكية الأنفس من خرافات الشرك وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال.

والمعنى: والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى على رسلنا فلم يؤمنوا لهم ولا اهتدوا بها، وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال ــ على الخير بالثواب وعلى الشر بالعقاب فاتبعوا أهواءهم ــ لا يجزون هنالك إلا ما كان من تأثير أعمالهم في أرواحهم وأنفسهم، من حق وخير زكّاها وأصلحها، أو من باطل وشر دسّاها وأفسدها، إن الله لا يظلم الناس في الجزاء مثقال ذرة، وإنما مضت سنته بجعل الجزاء في الآخرة أثراً للعمل مرتباً عليه ترتب المسبب على السبب كأنه هو نفسه.

(قصة اتخاذ بني إسرائيل للعجل)

في أثناء مناجاة موسى عليه السلام لربه عز وجل في جبل الطور، اتخذ قومه من بني إسرائيل عجلاً مصوغاً من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كان رسخ في قلوبهم من فخامة مظاهر الوثنية الفرعونية في مصر، وقد ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ما قبلها من خبر المناجاة وألواح الشريعة لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك في الزمن، قال تعالى:

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

١٤٨ ــ ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾ «الـحُلي»: بالضم والتشديد جمع «حَلْيٌ» بالفتح والتخفيف، فهو كثُدِيّ جمعاً لـ«ثَدْي» والعجل: ولد البقرة، و«الجسد»: الجثة، وبدنُ الإنسان حقيقة ويطلق على غيره مجازاً وهناك أقوال أخرى كثيرة في معنى «الجسد»، وقوله «له خوار» يجوز أن تكون الهاء راجعة إلى العجل، وأن تكون راجعة إلى الجسد، و«الخوار»: صوت البقر، وهو بضم أوله كأمثاله من أسماء الأصوات مثل رُغاء الإبل، وثُغاء الغنم، ويُعار الـمَعْز، ومُواء الهر، ونُباح الكلب إلخ.

وعُلم من القصة في سورة «طه» أن السامري هو الذي أخذ منهم ما حملوه من أوزار زينة قوم فرعون، فألقاها في النار فصاغ لهم منها عجلاً، أي: تمثالاً له صورة العجل وبدنه وصوته، وإنما نسب ذلك هنا إليهم لأنه عمل برأي جمهورهم الذين طلبوا أن يكونوا لهم آلهة.

قال الحافظ ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في ذلك العجل هل صار لحمًا ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر؟ على قولين، والله أعلم اهـ.

روي القول الأول عن قتادة، وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، أنه خار خورة واحدة ولم يُـثَـنِّ. فمن قال: إنه حلت فيه الحياة عللوه بأن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر وفي رواية عند نزوله على موسى عليهما السلام، راكباً فرساً ما وطيء بها أرضاً إلا حلت فيها الحياة واخضر النبات فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف تمثال العجل فصار حيّاً له خوار، ولكن قال بعض هؤلاء: إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه كقول الآخرين الذين قالوا إنه لم يكن حياً، والروايات في حياته لا يصح منها شيء ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر.

ثم قال تعالى في بيان ضلالتهم، وتقريعهم على جهالتهم: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟﴾ أي: ألم يروا أنه فاقد لما يعرف به الإله الحق، وخاصة ماله من حق العبادة على الخلق، وفي سورة «طه» «أفلا يرون أنْ لا يرجِعُ إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً»، فالمراد بالقول: هداية الوحي، والمعنى: أنه ليس له من صفات الرب الإله هداية الإرشاد التي مرجعها صفة الكلام، ولا الضر والنفع اللذين هما متعلق صفتي القدرة والإرادة.

﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي: اتخذوه وهم يرون أنه لا يكلمهم بما فيه صلاحهم، ولا يهديهم لما فيه رشادهم، ولا يملك دفع الضر عنهم، ولا إسداء النفع إليهم، أي: إنهم لم يتخذوه عن دليل ولا شبهة دليل، بل عن تقليد

لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل «أبيس» من قبل، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد، وكانوا ظالمين لأنفسهم بهذا الاتخاذ الجهلي الذي يضرهم ولا ينفعهم بشيء.

١٤٩ ـ ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ يقال: «سُقط في يده، وأُسقط في يده» بضم أولهما على البناء للمفعول، أي: ندم، ويقولون: فلان مسقوط في يده وساقط في يده أي: نادم، وخُصَّت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى « ذلك بما قدمت يداك » أو لأن الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد كعضها والضرب بها على أختها ونحو ذلك، فقد قال سبحانه في النادم: «فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها»، والمعنى: أنهم لما اشتد ندمهم وحسرتهم على ما فعلوا ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي: وعلموا أنهم قد ضلوا بعبادة العجل أو تبين لهم ضلالهم به وتحقق بما قاله وفعله موسى حتى كأنهم رأوه رأي العين ﴿قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ أي: أقسموا أنه لا يسعهم بعد هذا الذنب إلا رحمة ربهم التي وسعت كل شيء، قائلين: لئن لم يرحمنا بقبول توبتنا والتجاوز عن جريمتنا ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ لسعادة الدنيا وهي الحرية والاستقلال في أرض الموعد، ولسعادة الآخرة وهي دار الكرامة والرضوان.

١٥٠ ـ ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ المعنى: أنه لما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هارون إذ رأى أنه ضعف في سياسته لهم، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم، حزيناً على ما وقع منهم من كفر الشرك، وإغضاب الله عز وجل ﴿قال بئسما خلفتوني من بعدي﴾ أي: بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الله تعالى، من بعد ما كان من شأني معكم أن لقنتكم التوحيد وكففتكم عن الشرك، وبينت لكم فساده وبطلانه وسوء عاقبة أمره، حين رأيتم القوم الذين يعكُفون على أصنام لهم من تماثيل البقر، فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي ولكنكم خلفتموني بضدها، إذ صنعتم لكم صنمًا كأصنام أولئك القوم، أو كأحد أصنام المصريين فعبده بعضكم، ولم يردعكم عن ذلك سائركم.

﴿أعجلتم أمر ربكم؟﴾ المعنى: أعجلتم عن أمر ربكم، وهو انتظار

موسى حافظين لعهده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم، فحدثتكم أنفسكم بموتي فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم. وروي: أن السامري قال لهم حين أخرج لهم العجل، ـ وقال: (هذا إلهكم وإله موسى) ـ «إن موسى لن يرجع وإنه قد مات».

وقال ابن كثير: وقوله «أعجلتم أمر ربكم» أي: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى.

﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾ أي: وطرح الألواح من يديه ليأخذ برأس أخيه مما كان من شدة غضبه لله تعالى وأسفه لما فعل قومه من الشرك، ولما ظن من تقصير أخيه، وأخذ بشعر رأس أخيه يجره إليه بذؤابته، إذ كان الواجب عليه في اجتهاد موسى أن يردعهم ويكفهم عن عبادة العجل إن قدركما فعل هو بتحريقه وإلقائه في اليم، وأن يتبعه إلى جبل الطور إن لم يقدر كما حكى الله تعالى عنه في سورة «طه» «قال يا هارون ما منعك إذ رأيتم ضلوا ألا تتبعني؟ أفعصيت أمري؟» والاجتهاد يختلف باختلاف أحوال المجتهدين، فالقوي الشديد الغضب للحق بالحق كموسى عليه السلام يشعر بما لا يشعر به من يغلب عليه الحلم ولين العريكة كهارون عليه السلام.

وقد بحث بعض المفسرين في إلقاء الألواح وما روي من تكسر بعضها هل يتضمن تقصيراً في تعظيم كلام الله تعالى؟ وكيف يمكن أن يقع مثل ذلك من الرسول المعصوم ولو في حال الغضب الشديد؟ بل توهم بعضهم أنه يتضمن في نفسه نوع إهانة للألواح فوجب بيان المخرج منه.

والمختار عندنا في الجواب عن هذه الأوهام: أن إلقاء الألواح لا يقتضي إهانة لها، كما أن إلقاء العصا لإقامة الحجة على السحرة لا يتضمن مثل ذلك، فالإلقاء في نفسه لا يقتضي ذلك لغة ولا عادة وإنما يقع ما يقع من مثل ذلك بقصد وهو ممتنع هنا قطعاً ــ وإن كان الغضب مظنة له ــ فعلم بهذا أن ما أطال به بعضهم لا طائل تحته ولا حاجة إليه.

وماذ كان جواب هارون عليه السلام؟ ﴿قال ابن أمَّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني﴾ والمعنى: يا ابن أمي

لا تعجل بمؤاخذتي وتعنيفي، فإنني لم آل جهداً في الإنكار على القوم والنصح لهم، ولكنهم استضعفوني فلم يرعَوُوا لنصحي ولم يمتثلوا أمري، بل قاربوا أن يقتلوني ﴿فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي: فلا تفعل بي من المعاتبة والإهانة ما يشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل، بأن تَلُزَّني بهم في قرن من الغضب والمؤاخذة فلست منهم في شيء، والظاهر أنه يعني بالأعداء والظالمين فريقاً واحداً وهم الذين عبدوا العجل، فأنكر عليهم فوجدوا عليه وكادوا يقتلونه.

أما ماذا كان من أثر هذا الاستعطاف في قلب موسى عليه السلام، فقد بينه الله تعالى بقوله:

١٥١ ــ ﴿قال: رب اغفر لي ولأخي﴾ أي: اغفر لي ما أغلظت عليه به من قول وفعل، واغفر له ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم، لما توقعه من الإيذاء حتى القتل، ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ التي وسعت كل شيء بجعلها شاملة لنا وجعلنا مغمورين فيها. وهو أبلغ من: «وارحمنا» ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ وهذا ثناء يدل على مزيد الثقة في الرجاء، والدعاء في جملته أقوى في استعتاب هارون من الاعتذار له، وأدل على تخييب أمل الأعداء في شيء مما يثير حفيظة الشماتة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

١٥٢ ــ ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في

الحياة الدنيا﴾ في هذه الآية وجهان: أحدهما، أنها كلام مستأنف لبيان ما استحقه القوم من الجزاء على اتخاذ العجل، قَفَّى به على ما كان من شأن موسى مع هارون عليهما السلام، في أمرهم، لأن من سمع ذاك أو قرأه تستشرف نفسه لمعرفة هذا، فهو إذاً مما أوحاه الله تعالى يومئذٍ إلى موسى عليه السلام، والمراد بالغضب الإلهي فيه ما اشترطه تعالى في قبول توبتهم من قتل أنفسهم، وكان ذلك بعد دعوة موسى إلى مناجاته في الجبل، و«الذلة»: ما يشعرون به من هوانهم على الناس وظنهم عند لقاء كل أحد أنه يتذكر برؤيتهم ما كان منهم فيحتقرهم.

﴿وكذلك نجزي المفترين﴾ أي: ومثل هذا الجزاء في الدنيا نجزي المفترين على الله تعالى في أزمنة الأنبياء، أو في كل زمان فهي لكل مفترٍ إلى يوم القيامة.

١٥٣ ـ ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾.

هذه الآية في حكم من تاب وقُبلت توبته، فدل على أن ما سبقها هو حكم من لم يتب أو من لم تقبل توبته.

والمعنى: إن الذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصي ثم تابوا ورجعوا من بعدها إلى الله تعالى، بأن رجع الكافر عن كفره وتركه وآمن بالله ورسوله، ورجع العاصي عن عصيانه وأخلص الإيمان وزكاه بالعمل بموجبه، إن ربك أيها الرسول من بعد تلك الجرائم، أو من بعدما ذكر من التوبة والإيمان الصحيح الباعث على العمل الصالح، لغفور لهم أي: لستور عليهم، محاء لما كان منهم، رحيم بهم أي: منعم عليهم بالجنة.

١٥٤ ـ ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ المعنى: أنه لما سكن غضب موسى باعتذار أخيه، ولجأ إلى رحمة الله وفضله يدعو ربه بأن يغفر لهما، عاد إلى الألواح التي ألقاها فأخذها، وفي نسختها ـ أي: ما نُسخ وكتب منها ـ هدى وإرشاد

من الخالق سبحانه للذين يرهبون ربهم ويخشون عقابه، أو يرهبون ما يغضب ربهم من الشرك والمعاصي.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

١٥٥ ـ ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلًا لميقاتنا﴾ المعنى: وانتخب موسى سبعين رجلًا من خيار قومه للميقات الذي وقته الله تعالى له، ودعاهم للذهاب معه إلى حيث يناجي ربه من جبل الطور.

﴿فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ أي: فلما أخذتهم رجفة الجبل وصعقوا، قال موسى: يا رب إنني أتمنى[1] لو كانت

(١) قوله: «يا رب إنني أتمنى الخ» لقد اعتبر المؤلف «لو» هنا للتمني، وهذا قليل في اللغة، فهي هنا: حرف امتناع لامتناع، أي: لو شئت إهلاكنا جميعاً لفعلت لكنك لم تهلكنا من قبل لأنك لم تشأ ذلك، فأعوذ بك أن تهلكنا الآن.

سبقتْ مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معي إلى هذا المكان، فأهلكتهم وأهلكتني معهم حتى لا أقع في حرج شديد مع بني إسرائيل، فيقولوا قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم، أي: وإذ لم تفعل من قبل فأسألك برحمتك أن لا تفعل الآن، وهذا مفهوم التمني، فقد أراده موسى ولا يبعد أن يكون قد نطق به إذا كانت لغته لا تدل عليه كلغتنا وكان من إيجاز القرآن الاكتفاء بذكر التمني الدال عليه.

﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ فيه دليل على أن عقلاء بني إسرائيل وأصحاب الروية منهم لم يعبدوه وإنما عبده السفهاء وهم الأكثرون.

﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«الفتنة»: الاختبار والامتحان مطلقاً أو بالأمور الشاقة، والباء في «بها» للسببية، أي: ما تلك الفعلة التي كانت سبباً لأخذ الرجفة إياهم إلا محنتك وابتلاؤك الذي جعلته سبباً لظهور استعداد الناس وما طويت عليه سرائرهم من ضلال وهداية، وما يستحقون عليه من عقوبة ومثوبة، وسنتك في جريان مشيئتك في خلقك بالعدل والحق، والنظام الحكيم في الخلق، تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك ولست بظالم لهم في تقديرك، وتهدي من تشاء ولست بمحاب لهم في توفيقك بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل ولك الخلق والأمر ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ أي: أنت المتولي لأمورنا، والقائم علينا بما تكتسب نفوسنا، فاغفر لنا ما تترتب عليه المؤاخذة والعقاب من مخالفة سنتك، أو التقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك وعبادتك، بأن تستر ذلك علينا، وتجعله بعفوك كأنه لم يصدر عنا، وارحمنا برحمتك الخاصة، فوق ما شملت به الخلق كلهم من رحمتك العامة، وأنت خير الغافرين حلمًا وكرماً وجوداً، فلا يتعاظمك ذنب، ولا يعارض غفرانك ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس، وأنت خير الراحمين رحمة وأوسعهم فيها فضلاً وإحساناً، فإن رحمة جميع الراحمين من خلقك، نفحة مفاضة على قلوبهم من رحمتك.

ودعاء موسى عليه السلام هنا لنفسه مع قومه بضمير الجمع قد اقتضاه مقام المناجاة والمعرفة الكاملة، ومن كان أعرف بالله وأكمل استحضاراً لعظمته، كان أشد شعوراً بالحاجة إلى مغفرته ورحمته.

١٥٦ ــ ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ أي: وأثبت وأوجب لنا برحمتك وفضلك حياة حسنة في هذه الدنيا من العافية وبسط الرزق، وعز الاستقلال والملك، والتوفيق للطاعة، ومثوبة حسنة في الآخرة بدخول جنتك ونيل رضوانك فهو كقوله تعالى فيما علمنا من دعائه «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» فإن ثمرة دين الله على ألسنة جميع رسله سعادة الدارين: الدنيا والآخرة ﴿إنا هُدنا إليك﴾ المعنى: إنا تبنا إليك مما فرط من سفهائنا من طلب الآلهة وعبادة العجل، وتقصير خيارنا في الإنكار عليهم، أو من تمرد المغرورين على شريعتك، وكفر نعمتك.

﴿قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي: قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصاً أُصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين، وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء في العالمين، وهذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق في الدنيا ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة».

وهنالك رحمة خاصة للمؤمنين يوم القيامة، يبذل ما شاء منها لمن شاء، وما كتابته تعالى الرحمة على نفسه إلا فضل منه ورحمة، وأما العذاب فلم يَرِدْ في الكتاب وفي خبر المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه، ولكن أثبته وتوعد به فكان لا بد من وقوعه.

﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ إلخ، أي: وإذ كان الأمر كذلك فسأكتب رحمتي كتبة خاصة، وأثبتها بمشيئتي إثباتاً لا يحول دونه شيء للذين يتقون الكفر والمعاصي والتمرد على رسولهم، ويؤتون الصدقة المفروضة التي تتزكى بها أنفسهم، وغيرها من أركان الدين.

وخص «الزكاة» بالذكر دون الصلاة وما دونها من الطاعات لأن فتنة

حب المال تقتضي: أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيـرها من الفرائض. وفيه إشارة إلى شدة حب اليهود للدنيا وافتتانهم بجمع المال ومنع بذله في سبيل الله.

وقوله تعالى «والذين هم بآياتنا يؤمنون» معناه: وسأكتبها كتبة خاصة للذين يصدقون بجميع آياتنا التي تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق اذعان، مبني على العلم والإيقان، دون التقليد للآباء،وعصبيات الأقوام.

١٥٧ ـ ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ والمعنى: أن كتابة الرحمة كَتْبَةً خاصة هي للمتصفين بما تقدم من الصفات،وللذين يتبعون الـرسول الموصوف بأنه النبي «الأمي» نسبة إلى «الأم»، والمراد بـه: الذي لا يقـرأ ولا يكتب، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميين، ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبياً أمياً غير نبينا ﷺ فهو وصف خاص لا يشارك محمداً ﷺ فيه أحد من النبيين.

والأمية آية من أكبر آيات نبوته، فإنه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة، وهي ما يصلح ما فسد من عقائد البشر وأخلاقهم وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم، فكان لها من التأثير في العالم ما لم يكن ولن يكون لغيره من خلق الله.

وصف الله الرسول الذي أوجب اتباعه على كل من أدركه من بني إسرائيل وغيرهم بصفات ونعوت:

أولها: «أنه هو النبي الأمي».

وثانيها: ما في قوله تعالى: ﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ ومعناه: الذي يجد بنو إسرائيل صفته ونعته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل بحيث لا يشكون أنه هو.

وثالثها ورابعها، قوله: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذا الأمر والنهي ما نصه: هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام، لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر.

وخامسها وسادسها، قوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ «الطيب»: ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة، ومن الأموال: ما أُخذ بحق وتراض في المعاملة. و«الخبيث»: من الأطعمة ما تمجه الطباع السليمة وتستقذره ذوقاً كالميتة والدم المسفوح، أو تصد عنه العقول الراجحة لضرره في البدن كالخنزير، أو لضرره في الدين كالذي يذبح للتقرب به إلى غير الله تعالى. والخبيث من الأموال: ما يؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والغلول والسرقة والخيانة والغصب كما قال: «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» الآية. وحرموا هم على أنفسهم طيبات أخرى لم يحرمها الله تعالى عليهم، وأحلوا لأنفسهم أكل أموال غير الإسرائيليين بالباطل، كما حكى الله تعالى عنهم بعد ذكر استحلال بعضهم أكل ما يأتمنهم عليه العرب «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون».

وسابعها قوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ «الأصر»: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه من الحراك لثقله، وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم. وكذلك «الأغلال» مَثَلٌ لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة أي: أنه جاء بالتيسير والسماحة كما قال ﷺ: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» والحديث رواه الشيخان وغيرهما.

﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ يطلق «التعزير» في اللغة على: الرد، والضرب، والمنع، والتأديب، والتعظيم، فهو من الأضداد، والأقرب إلى فقه اللغة ما حققه الزمخشري في الكشاف هنا قال: «وعزروه»: ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو.

والمعنى: «إن الذين آمنوا»، أي: يؤمنون بالرسول النبي الأمي عند مبعثه من قوم موسى ومن كل قوم، ويعزرونه بأن يمنعوه ويحموه من كل من يعاديه مع التعظيم والإجلال، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز، ونصروه باللسان والسنان، واتبعوا النور الذي أنزل مع رسالته وهو القرآن، أولئك هم المفلحون، أي: الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان،

دون سواهم من أهل كل زمان ومكان. فمنهم الفائزون بدون ما يفوز به هؤلاء، كأتباع سائر الأنبياء، ومنهم الخائبون المخذولون، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

١٥٨ - ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ هذا خطاب عام لجميع البشر من العرب والعجم، وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي بأمر الله تعالى ينبئهم به:أنه رسول الله تعالى إليهم كافة، لا إلى قومه العرب خاصة فهو كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً» وقوله «وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» أي: وأنذر به كلّ من بلغه من الثقلين، فمن قال إنه يؤمن برسالته إلى العرب خاصة لا يعتد بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامة القطعية كقوله تعالى «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» وقوله «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وهو يشمل عقلاء الجن.

وفي هذا المعنى أحاديث صحيحة ناطقة باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة كحديث جابر في الصحيحين وغيرهما قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة» وفي رواية «كافة».

ثم وصف الله عز وجل نفسه في هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وبالإحياء، والإماتة فقال: ﴿الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا

هو يحيي ويميت﴾ والمراد بملك السماوات والأرض: التصرف والتدبير في العالم كله، لما جرى عليه عرف البشر من أن السماوات هي العوالم التي تعلو هذه الأرض التي يعيشون فيها، وصاحب الملك والتصرف والتدبير فيهما هو ربهما رب العالمين، وهو واحد، ولو كان لغيره تصرف لتعارض مع تصرفه وفسد النظام العام، فإن وحدة النظام في جملة المخلوقات وعدم التفاوت والتعارض فيها دليل على وحدة مصدرها وتدبيرها، وإذا كان رب الخلائق واحداً، وجب أن يكون هو المعبود وحده لا إله إلا هو.

والتوحيد بقسميه: توحيد الربوبية بالإيمان، وتوحيد الألوهية بالإيمان والعمل أي: عبادة الله وحده، هما أصل الدين وأساسه.

وأما وصفه تعالى بالإحياء والإماتة وهو بعض تصرف الرب في خلقه فيتضمن عقيدة البعث بعد الموت.

﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ أي: فآمنوا يا أيها الناس من جميع الأمم بالله الواحد في ربوبيته وألوهيته الذي يحيي ويميت، وهذا أمر يتحدد كل يوم فتشاهدونه، ومثله البعث العام بعد الموت العام وخراب هذا العالم، وآمنوا برسوله المطلق، الممتاز بأنه النبيٍ الأمي الذي بعثه في الأميين ــ العرب ــ رسولاً إلى الخلق أجمعين، يعلِّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويطهرهم من خرافات الشرك والرذائل والجهل والتفرق والتعادي بعصبيات الأجناس واللغات والأوطان، ليكونوا بهدايته أمة واحدة يتحقق بها الإخاء البشري العام، وقد بشر به الأنبياء الكرام عليهم السلام، لأنه المتمم المكمل لما بعثوا به من هداية الأقوام، وأميته ﷺ من أعظم معجزاته، وأية آيةٍ على صحة دعوى الرسالة أقوى وأظهر من تعليم الأمي الذي لم يتعلم شيئاً لجميع الأمم، ما فيه صلاحهم وفلاحهم من العلوم والحكم؟

﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: يؤمن بما يدعوكم إلى الإيمان به من توحيد الله تعالى وكلماته التشريعية التي أنزلها لهداية خلقه، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته، وكلماته التكوينية التي هي مظهر إرادته وقدرته وحكمته.

وبعد أمرهم بالإيمان،أمرهم بالإسلام، فقال: ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ أي: واتبعوه بالإذعان الفعلي لكل ما جاءكم به من أمر الدين فعلاً وتركاً، رجاء اهتدائكم بالإيمان وباتباعه لما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة.

فثمرة الإيمان والإسلام اهتداء صاحبهما ووصوله بالفعل لسعادة الدارين ودليله الفعلي في الدنيا: أنه ما آمن قوم بنبي إلا وكانوا بعد الإيمان به خيراً مما كانوا قبله من هناء المعيشة والعزة والكرامة في دنياهم، وأظهر التواريخ وأقربها عهداً تاريخ الأمة المحمدية التي نالوا بها الملك العظيم والعز والسؤدد والغنى والحضارة، وأعجب منه أن يصل بهم الجهل إلى أن يعتقد كثير منهم في هذا العصر أن هداية الإسلام ـ التي سعدوا بها ثم شقوا بتركها ـ هي سبب هذا الشقاء الأخير لا تركها.

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

١٥٩ ـ ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي: ومن قوم موسى أيضاً جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذي جاءهم به من عند الله تعالى، ويعدلون به دون غيره إذا حكموا بين الناس، لا يتبعون فيه الهوى، ولا يأكلون السحت والرُّشا.

فالظاهر المتبادر:أن هؤلاء ممن كانوا في عصره وبعد عصره،حتى بعدما كان من ضياع أصل التوراة ثم وجود النسخة المحرفة،فإن الأمم العظيمة لا تخلو من أهل الحق والعدل. وهذا من بيان القرآن للحقائق، وعدله في الحكم على

الأمم، كقوله «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائمًا» الآية «٧٥» من«آل عمران».

١٦٠ ـ ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمما﴾ أي: وفرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، ومنهم الظالمون والفاسقون كما سيأتي بعد بضع آيات، قطعناهم فجعلناهم اثنتي عشرة قطعة، أي: فرقة تسمى «أسباطاً» أي: أمماً وجماعات يمتاز كل منها بنظام خاص في معيشته وبعض شؤونه، كما سيأتي قريباً في مشارب مائهم.

فالأسباط بيان للفرق والقطع التي هي أقسام بني إسرائيل، سميت بذلك كما سميت الفرق في العرب بالقبائل.

و «الأمم» بيان للمراد من معنى الأسباط الاصطلاحي. و «الأمة»:الجماعة التي تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد.

﴿وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً﴾ تقدم في الآية «٦٠» من سورة «البقرة» مثل هذا مع تفسيره وهو قوله تعالى: «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً»، فأفاد ما هنا أن قومه استسقوه، وما هنالك أنه استسقى ربه لقومه. وكلاهما قد حصل. والاستسقاء طلب الماء للسقيا.

وحاصل المعنى: وأوحينا إلى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم بأن اضرب بعصاك الحجر، فضربه فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عيناً من الماء بعدد أسباطهم ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي: قد عرف أناس كل سبط المكان الذي يشربون منه، إذ خص كل منهم بعين لا يأخذ الماء إلا منها لما في ذلك من النظام، واتقاء ضرر الزحام.

﴿وظللنا عليهم الغمام﴾ «الغمام»: السحاب، أو الأبيض، أو الرقيق منه، أي: وسخرنا لهم الغمام بلقي عليهم ظله فيقيهم لفح حرارة الشمس من

حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل. ولولا كثرة السحاب في التيه لأحرقتهم الشمس إذ لم يكن هنالك شجر يستظلون به.

﴿وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى﴾ «المن»: مادة بيضاء تنزل من السماء ـ الجو ـ كالطَّلِّ حلوةُ الطعم تشبه العسل، وإذا جفت تكون كالصُّمغ، وقد كثر نزوله على بني إسرائيل في التيه، و«السَّلوى» اسم طائر، جعله الله لهم بحيث يؤخذ باليد ولا يكلفهم عناء صيده.

﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم.

﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم، ولكن كان دأبهم ظلم أنفسهم دون ربهم الذي لا يناله تأثير أحد بظلم ولا غيره، فكانوا يجنون على أنفسهم بكفر النعم والجحود وغيرهما آناً بعد آن وجيلاً بعد جيل، فتقديم «أنفسهم» على «يظلمون» المفيد لقصر ظلمهم عليها، إنما هو لبيان أن كفرهم بنعمه تعالى يضرهم ولا يضره تعالى كما في الحديث القدسي الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر، رضي الله عنه، مرفوعاً: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» فقد جاء فيه قوله تعالى: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تقدم مثل هاتين الآيتين في سورة «البقرة» وهما الآيتان: «٥٨» و«٥٩» منها، ولكن بين ما هنا وما هنالك فروق في التعبير نبينها هنا فنقول:

قال تعالى هنا:

١٦١ ـ ﴿وإذ قيل لهم﴾ لأن القصة خطاب وُجِّه أولاً إلى أهل مكة، فالحكاية فيه عن بني إسرائيل حكاية عن غائب، والأصل أن يذكر ضميره فيه، ولذلك قال: «لهم».

وفي سورة «البقرة»: «وإذ قلنا» والمعنى واحد، إذ المعلوم أن القائل هو الله تعالى، وقد روعي هنالك السياق في خطاب بني إسرائيل إذ قبلها «وإذ فرقنا بكم البحر. . وإذ واعدنا موسى. . » فناسب أن يقول:«وإذ قلنا»ولم يقل فيها: «لكم» كما قال هنا:«لهم»، لأن القول كان لأجداد المخاطبين لا لهم أنفسهم.

قال ههنا: ﴿اسكنوا هذه القرية﴾ وفي سورة «البقرة»: «ادخلوا» والفائدة ههنا أتم، لأن السكنى تستلزم الدخول ولا عكس.

وقال ههنا: ﴿وكلوا منها حيث شئتم﴾ وفي سورة «البقرة» «فكلوا منها حيث شئتم رغداً» فعطف الأمر بالأكل هنالك بالفاء لأن بدءه يكون عقب الدخول كأكل الفواكه والثمرات التي كانت توجد في كل ناحية من القرية، والسكنى أمر ممتد يكون الأكل في أثنائه لا عقبه.

وقد وصف هنالك الأكل بالرغد وهو: الواسع الهنيء والتبشير به يناسب حال الدخول، إذ الأمر لدى الداخل مجهول.

وقال ههنا: ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً﴾ وقدم هنالك ما أَخَّر هنا وأَخَّر ما قدمه ـ أي: في الذكر ـ وهو لا يدل على طلب ترتيب بين الأمرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً، ولكن لو كان التعبير في الموضعين واحداً لفهم منه أن المقدم في الذكر أرجح أو أهم،ولو في الجملة كما هي القاعدة في التقديم لذاته، فكان الاختلاف دالاً على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه، لأن المراد منهما لا يقتضي ترتيباً بين ما دلت عليه كلمة:«حطة» وهو الدعاء بأن تُحطَّ عنهم أوزارهم وخطاياهم،وبين دخول باب القرية في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتنكيس الرؤوس شكراً لجلاله على نواله.

وقال ههنا: ﴿نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾ بدون واو على الاستئناف البياني، وهو جواب سؤال كأنه قيل: وماذا بعد المغفرة؟ أي: سنزيد المحسنين في عملهم جزاء حسناً على إحسانهم. وفي سورة «البقرة»: «وسنزيد» بالعطف، والمعنى واحد.

وقال ههنا:

١٦٢ ــ ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ وفيه زيادة «منهم» على مثله من سورة «البقرة»، وسببها الحاجة إلى ذكر ضمير المحكي عنهم لربط الكلام، وهذه الحاجة منتفية في سورة «البقرة».

وأما معنى تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم، فقد تقدم بيانه في تفسير الآية «٩٠» من سورة «البقرة» وملخصه: أنهم عصوا بالقول والفعل، وخالفوا الأمر مخالفة تامة لا تحتمل الاجتهاد ولا التأول، فلم يراعوا ظاهر مدلول لفظه، ولا فحواه والمقصد منه حتى كأن المطلوب منهم غير الذي قيل لهم.

وقيل ههنا: ﴿فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾ وقال هنالك: «فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون» فالاختلاف في ثلاثة مواضع:

أولها: بين الإرسال والإنزال، وهو لفظي: إذ الإرسال من فوق عين الإنزال.

ثانيها: بين المضمر «عليهم» والمظهر «على الذين ظلموا»، والمراد منهما أن ذلك الرجز عذاب كان خاصاً بالذين ظلموا، لا عاماً فحسن أن يقول في آية «الأعراف» «عليهم» لتصريحه بسببية الظلم بعده ولو قال: «فأرسلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون» لكان تكرار التعليل بالظلم منافياً للبلاغة، وهذا التكرار منتف في آية «البقرة» لأن التعليل فيها بالفسق لا الظلم.

ثالثها: بين «يظلمون» و«يفسقون»، وفائدته بيان أنهم كانوا جامعين

بين الظلم الـــذي هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو للغير. وبين الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة،ولو في غير الظلم للنفس أو للناس.

و «الرجز»: العذاب الذي تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس في شؤونهم ومعايشهم.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

١٦٣ ـ ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمعنى: واسأل بني إسرائيل عن أهل المدينة التي كانت حاضرة البحر أي: قريبة منه[1] راكبة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي: اسأل عن حالهم في الوقت الذي كانوا يعتدون في السبت، ويتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه ﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ أي: سمكهم، وقد أضيفت الحيتان إليهم لما كان من ابتلائهم بها، واحتيالهم على صيدها، وكانت تأتيهم ﴿يوم سبتهم﴾ أي: تعظيمهم للسبت، فهو مصدر «سبتت اليهود تَسْبِتُ»: إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة ﴿شُرَّعاً﴾ أي: ظاهرة على

(١) قوله: «أي: قريبة منه»، هذه القرية هي «إيلة» عند خليج العقبة.

وجه الماء كما روي عن ابنِ عباس، وفي رواية أخرى عنه ظاهرة من كل مكان وهي جمع «شارع»، كالرُّكَّع، السُّجَّد جمع «الراكع» و«الساجد» ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم﴾ أي: ولا تأتيهم يوم لا يعظمون السبت فعلاً وتركاً، وقيل: إنها اعتادت أنِ لا يتعرض أحد لصيدها يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتخفى في الأيام التي لا يسبتون فيها،لما اعتادت من اصطيادها فيها، فلما رأوا ظهورها وكثرتها في يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا.

﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ أي: مثل هذا البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم، أي: نختبرهم أو نعاملهم معاملة المختبر لحال من يريد إظهار كنه حاله، ليترتب الجزاء على عمله بسبب فسقهم المستمر عن أمر ربهم، واعتدائهم حدود شرعه.

١٦٤ ـ ﴿وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ أي: واسألهم عن حال أهل تلك القرية في الوقت الذي قالت أمة وجماعة منهم كيت وكيت.

تدل هذه الآية على أن الذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق: فرقة العادين التي أشير إليها في الآية الأولى، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان، ووعظوهم ليكفوا عنه وهي التي أشير إليها في هذه الآية. وفرقة اللائمين للواعظين التي قالت لهم: لِـمَ تعظون قوماً قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد، فهو إما مهلكهم بالاستئصال، أو بعذاب شديد دون الاستئصال؟ أو المعنى: مهلكهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة.

وأياً ما كان المراد فـ «أو» هنا هي المانعة للخلو من وقوع أحد الجزاءين.لا المانعة لجمعهما، فهي لا تنفي اجتماعهما. وفي الآية من الإيجاز البليغ ما لا يوجد نظيره في غير القرآن.

﴿قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ أي: قال الواعظون للائمين:

نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت عن المنكر، وقد أمرنا بالتناهي عنه، ورجاء في انتفاعهم بالموعظة، وحملها على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه أي: فنحن لم نيأس من رجوعهم إلى الحق يأسكم.

١٦٥ ـ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي: فلما نسي العادُون المذنبون، ما ذكرهم ووعظهم به إخوانهم المتقون، بأن تركوه وأعرضوا عنه حت صار كالمنسي في كونه لا تأثير له ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ أي: عن العمل الذي تسوء عاقبته، أي: أنجيناهم من العقاب الذي استحقه فاعلو السوء بظلمهم ﴿وأخذنا الذين ظلموا﴾ وحدهم ﴿بعذاب بئيس﴾ أي: شديد، من «البأس» وهو الشدة، أو «البؤس» وهو المكروه أو الفقر ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي: بسبب فسقهم المستمر، لا بظلمهم في الاعتداء في السبت فقط.

١٦٦ ـ ﴿فلما عتوْا عما نهوا عنه﴾ أي: فلما عتوا عن أمر ربهم عتو إباء واستكبار عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ هذا القول للتكوين أي: تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين أي: صاغرين أذلاء فكانوا كذلك.

قيل: إن هذا بيان وتفصيل للعذاب البئيس في الآية السابقة، وقيل: هو عذاب آخر، وإن الله عاقبهم أولاً بالبؤس والشقاء في المعيشة كما قال تعالى في بني إسرائيل: «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون» ولكن لم يزدهم البؤس والسوء إلا عتواً وإصراراً على الفسق والظلم فمسخهم مسخ خَلْقٍ وبدن فكانوا قردة بالفعل، أو مسخ خُلُق ونفس، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها وإفسادها لما تصل إليه أيديها. والأول قول الجمهور، والثاني قول مجاهد قال: مسخت قلوبهم فلم يُوَفَّقوا لفهم الحق.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ

فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ * وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

هذه الآيات خاتمة قصة بني إسرائيل في هذه السورة، وما سيأتي من نبأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها مَثَلٌ عام ليس فيه ما يدل على أنه كان منهم، كما روي عن بعض المفسرين فهو لا يدخل في قصتهم، قال تعالى:

١٦٧ ـ ﴿وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ المعنى: واذكر أيها الرسول الخاتم العام، إذ أَعْلَمَ ربك هؤلاء القوم المرة بعد المرة، أنه قد قضى في علمه وكتب على نفسه ليبعثن ويسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، أي: يريده ويوقعه بهم، عقاباً على ظلمهم وفسقهم وفسادهم، و«سوء العذاب»: ما يسوء صاحبه ويذله، وهو هنا سلب الملك، وإخضاع القهر.

ومصداق هذا وتفصيله على ما قررنا[1] قوله في أول سورة

---

(١) قوله: «ما قررنا قوله»: أي: ما كان يريد المؤلف رحمه الله أن يقوله في تفسيرها عندما سيبلغها في تفسيره، ولكنه توفي قبل ذلك كما بينا في المقدمة. ولعله كان وضع عناوين وزع بها تفسير الآيات ذات المعنى الواحد، وأدركته المنية قبل إتمام ذلك.

«الإسراء» «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُنّ عُلواً كبيراً ـ إلى قوله ـ ويتبروا ما علوْا تتبيراً» ثم قال «عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا» الآية، أي: وإن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الإفساد، عدنا إلى التعذيب والإذلال، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذي أقاموه بعد نجاتهم من السبي البابلي، وقهروهم واستذلوهم، ثم جاء الإسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال ولجؤوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين، ولم يفوا للنبي ﷺ بما عاهدهم عليه إذ أمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم، بل غدروا به وكادوا له، ونصروا المشركين عليه، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم فأجلى بعضهم وقتل بعضاً، وأجلى عمر من بقي منهم، ثم فتح عمر بلاد الشام بعضها بالصلح كبيت المقدس وبعضها عنوة، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة فيها إلى سلطة الإسلام العادلة، ولكنهم[1] ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ للأمم التي تفسق عن أمره وتفسد في الأرض، فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد قال تعالى: «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» أي أمرناهم بالحق والعدل، والرحمة والفضل، فعصوا وفسقوا عن الأمر، وأفسدوا وظلموا في الأرض، فحق عليهم القول بالعذاب فحل بهم الهلاك على الفور ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن تاب عقب الذنب، وأصلح ما كان أفسد في الأرض، قبل أن يحق عليه القول.

ثم بين تعالى كيف كان بدء إذلال اليهود بإزالة وحدتهم، وتمزيق جامعتهم فقال:

---

(١) قوله: «ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال» نقول: إنهم على الرغم من إقامة دولة لهم وملك وسلطان في فلسطين، فإنهم لا يزالون وسيظلون أذلة، فإن الإعلام الالهي في هذه الآية برهان على أن دولتهم مهما قامت وقويت فإن أمرها إلى زوال، وفي زمن ليس ببعيد بإذن الله تعالى حال رجوعنا للإسلام.

١٦٨ ــ ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً﴾ أي: وفرقناهم في الأرض حال كونهم أمماً بالتقدير، أو صيرناهم أمماً متقطعة، بعد أن كانوا أمة متحدة ﴿منهم الصالحون﴾ كالذين نهوا الذين اعتدوا في السبت عن ظلمهم، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى إلى عهد عيسى، عليهما السلام، والذين آمنوا بمحمد خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم وعلى آله وصحبه أجمعين ﴿ومنهم دون ذلك﴾ ومنهم ناس دون وصف الصلاح لم يبلغوه، وهم درجات أو دركات، منهم الغُلاة في الكفر والفسق، كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير حق، ومنهم السماعون للكذب الأكالون للسحت، إلى غير ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة في كل عصر، تفسد بالتدريج لا دفعة واحدة كما نراه في أمتنا الإسلامية.

﴿وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ أي: امتحناهم، وبلونا سرائرهم واستعدادهم، بالنعم التي تحسن وتقر بها الأعين، وبالنقم التي تسوء صاحبها، وربما حَسُنَتْ بالصبر والإنابة عواقبها ــ رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم، وينيبوا إلى ربهم، فيعود برحمته وفضله عليهم.

١٦٩ ــ ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ أي: فخلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح، والبر والفاجر، خلف سوء وبدل شر، قيل: «إن الخَلْف» بسكون اللام يغلب في الأشرار، وإنما يقال: في الأخيار «خَلَف» بالتحريك كـ «سلف» ﴿ورثوا الكتاب﴾ الذي هو التوراة عنهم، وقامت الحجة به عليهم، فماذا كان شأنهم؟ الجواب ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي: يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى، أي: هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا، والمراد به ما كانوا يأكلونه من السُّحت والرُّشا، والاتجار بالدِّين والمحاباة في الحكم والفتوى ﴿ويقولونَ سيغفر لنا﴾ أي: سيغفر الله لنا، ولا يؤاخذنا بما أذنبنا، فإننا شعبه الخاص، وسلائل أنبيائه، ونحن أبناؤه وأحباؤه، وما هذه الأقوال إلا أماني وغرور وأوهام ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ أي: يقولون ذلك والحال أنهم مصرون على ذنبهم، وإن يأتهم عرض آخر مثل الذي أخذوه أولاً بالباطل يأخذوه ولا يتعففون عنه، وإنما وعد الله في كتبه بالمغفرة للتائبين

الذين يتركون الذنوب ندماً وخوفاً من الله ورجاء فيه، ويصلحون ما كانوا أفسدوا. وقد ردَّ الله تعالى عليهم زعمهم بقوله: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ الاستفهام للتقرير، أي: قد أخذ عهد الله وميثاقه في كتابه بأن لا يقولوا عليه غير الحق الذي بينه فيه، فما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع إصرارهم على ذنوبهم على خلاف ما في الكتاب ﴿ودرسوا ما فيه﴾ أي: من تحريم أكل أموال الناس بالباطل والكذب على الله، كقولهم: إنه سيغفر لهم، وغير ذلك.

﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون؟﴾ أي: والدار الآخرة وما أعدَّه الله فيها للذين يتقون الرذائل والمعاصي، خير من الحطام الفاني من عرض الدنيا بالرشوة والسحت وغير ذلك، «أفلا تعقلون» ذلك وهو ظاهر جلي لا يخفى على عقل لم يطمسه الطمع الباطل في الحطام العاجل، فترجحون الخير على الشر، والنعيم العظيم الدائم على المتاع الحقير الزائل.

١٧٠ ـ ﴿والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة﴾ أي: والذين يستمسكون بعروة الكتاب الوثقى، ويعتصمون بحبله في جميع أحوالهم وأوقاتهم، وأقاموا الصلاة التي هي عماد الدين في أوقاتها ﴿إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي: إنا لا نضيع أجرهم لأنهم هم المصلحون، والله لا يضيع أجر المصلحين.

١٧١ ـ ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾ لعل حكمة ختم قصة بني إسرائيل بهذه الآية هنا، للتذكير ببدء حالهم في إنزال الكتاب عليهم في إثر بيان عاقبة أمرهم في مخالفته والخروج عنه، فإن في تلك الفاتحة إشارة إلى هذه الخاتمة، وذلك عندما أخذ عليهم الميثاق ليأخذن بالشريعة بقوة وعزم، فإنه رفع فوقهم الطور وأوقع في قلوبهم الرعب من خوف وقوعه بهم، فلا غَرْوَ إذا آل أمرهم إلى ترك العمل به بعد طول الأمد وقساوة القلوب، والأنس بالذنوب.

والمعنى: واذكر أيها الرسول النبي الأمي: إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل جبل

الطور أي: رفعناه، قال الجمهور: إنه اقتلعه وجعله فوقهم وإنما كان ذلك لإخافتهم لا لإظلالهم، وأما ظنهم أنه واقع بهم فإنما جاء من زلزلته واضطرابه.

﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقلنا لهم في تلك الحالة: خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوة عزيمة وعزم على احتمال مشاقه ﴿واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي: واذكروا ما فيه من الأحكام أوامرها ونواهيها، أو اعملوا به لئلا تنسوه، فإن ذلك يُعِدُّكم للتقوى ويجعلها مرجوةً لكم.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

هذه الآيات بدء سياق جديد في شؤون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع في فطرتهم وركب في عقولهم من الاستعداد للإيمان به وتوحيده وشكره، في إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب في قصة بني إسرائيل. قال تعالى:

١٧٢ ـ ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم﴾ المعنى: واذكر أيها الرسول في إثر ذكر أخذ ميثاق الوحي على بني إسرائيل خاصة، ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم على فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم صبغة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أنَّ كلَّ فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث هو الأول والآخر، وهو المستحق للعبادة وحده، ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا﴾ أي: أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة على نفسه بما أودعه في فطرته واستعداد عقله

قائلاً قول إرادة، وتكوين. لا قول وحي، وتلقين: «ألست بربكم؟» فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال، لا بلسان المقال: بلى أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا. فهو من قبيل قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء: «فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين»، وهذا النوع من التعبير والبيان يسمى في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلى أساليب البلاغة وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة.

ثم بيَّنَ سبحانه سبب هذا الإشهاد وعلته، فقال:

﴿أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ أي: فعلنا هذا منعاً لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة، بأن تقولوا إذا أنتم أشركتم به: إنا كنا غافلين عن هذا التوحيد للربوبية وما يستلزمه من توحيد الإلهية بعبادة الرب وحده، والمراد أنه تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بالجهل.

١٧٣ ـ ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم﴾ جاهلين ببطلان شركهم، فلم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ باختراع الشرك فتجعل عذابنا كعذابهم، مع عذرنا بتحسين الظن بهم، والمراد أن الله تعالى لا يقبل منهم الاعتذار بتقليد آبائهم وأجدادهم، كما أنه لم يقبل منهم الاعتذار بالجهل، بعدما أقام عليهم من حجة الفطرة والعقل.

١٧٤ ـ ﴿وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أي: ومثل هذا التفصيل البليغ، نفصِّل لبني آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم، ولعلهم يرجعون بها عن جهلهم وتقليدهم.

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، منها ما رواه أحمد ــ واللفظ له ــ عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم: أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي».

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ على ما أيدها به من الآيات العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها حافظاً لقواعدها وأحكامها، قادراً على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفاً لعلمه تمام المخالفة، فَسُلبها لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول، فأشبه الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض،أو كان في التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له كالثوب الخلق يلقيه صاحبه،والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة.

فحاصل معنى المثل: أن المكذبين بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه على إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه،لأن كلًّا منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص، قال تعالى:

١٧٥ ـ ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ إن هذا الذي آتاه الله آياته، المقصود بهذه الآيات من مبهمات القرآن، لم يبين الله ولا رسوله ـ في حديث صحيح[١] ـ اسمه ولا جنسه ولا وطنه، و«انسلاخه منها»:

---

(١) قوله: «ولا رسوله في حديث صحيح»، لقد اختلفت الروايات في تسمية هذا الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها إلخ. ففي بعضها: هو رجل من بني إسرائيل يدعى«بلعم أو بلعام بن باعوراء»، وفي بعضها: هو أمية ابن أبي الصَّلْت، وقيل: هو صيفي بن الراهب، =

تجرده وانسلاله منها وتركه إياها بحيث لا يلتفت إليها لاهتداء ولا اعتبار ولا عمل ﴿فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ أي: فترتب على انسلاخه منها باختياره أن لحقه الشيطان فأدركه وتمكن من الوسوسة، إذ لم يبق لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته، وأعقب ذلك أن صار من الغاوين أي: الفاسدين المفسدين.

١٧٦ ـ ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي: ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان، لفعلنا بأن نخلق له الهداية خلقاً، ونحمله عليها طوعاً أو كرهاً، فإن ذلك لا يعجزنا، وإنما هو مخالف لسنتنا.

﴿ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ أي: ولكنه اختار لنفسه التَّسَفُّل المنافي لتلك الرفعة، بأن أخلد ومال إلى الأرض وزينتها، وجعل كل حظه من حياته التمتع بما فيها من اللذائذ الجسدية، فلم يرفع إلى العالم العلوي رأساً، ولم يوجه إلى الحياة الروحية الخالدة عزماً، واتبع هواه في ذلك فلم يراع فيه الاهتداء بشيء مما آتيناه من آياتنا، وقد مضت سنتنا في خلق نوع الإنسان بأن يكون مختاراً في عمله، ليكون الجزاء عليه بحسبه، وأن نبتليه ونمتحنه بما خلقنا في هذه الأرض من الزينة والمستلذات ونولّي كل إنسان منهم ما تولى.

وحاصل معنى الشرط والاستدراك: أن من شأن من أوتي آيات الله تعالى أن ترتقي نفسه، وترتفع في مراقي الكمال درجته، لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بهذه النية، وأما من لم ينو ذلك ولم تتوجه إليه نفسه وإنما تلقى الآيات الإلهية اتفاقاً بغير قصد، أو بنية كسب المال والجاه، فلن يستفيد منها وسرعان ما ينسلخ منها أي: لو شئنا لرفعناه بها لأنها في نفسها هدى ونور، ولكن تعارض المقتضي والمانع وهو إخلاده إلى الأرض واتباع هواه.

= والصحيح في هذا الأمر هو ما ذهب إليه المؤلف، رحمه الله، فالآيات مثل عام ضربه الله لمن عُرِض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه، ينطبق على كل من كان كذلك، في كل زمان ومكان وما أكثر ما نجد منهم في أيامنا هذه ممن ضلوا على علم ففسدوا وأفسدوا. وقد مثلهم الله سبحانه بالكلاب زيادة في التنفير منهم ومن عملهم.

﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ «اللَّهث» بالفتح و «اللُّهاث» بالضم: التنفس الشديد مع إخراج اللسان، ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو العطش، وأما الكلب فيلهث في كل حال سواء أصابه ذلك أم لا، وسواء حملت عليه تهدده بالضرب، أم تركته وادعاً آمناً.

وهذا الرجل صفته كصفة الكلب في حالته هذه وهي أخس أحواله وأقبحها، والمراد والله أعلم: أنه كان من إخلاده إلى الأرض، واتباع هواه في أسوأ حال، خلافاً لما كان يبغي من نعمة العيش وراحة البال، فهو في هَمٍّ دائم مما شأنه أن يهتم به، ومما شأنه أن لا يهتم به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات، كدأب عباد الأهواء وصغار الهمم، تراهم كاللاهث من الإعياء والتعب، وإن كان ما يعنون به ويحملون همه حقيراً لا يُتْعِبُ ولا يُعيي، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه، بل يزيد طمعاً وتعباً كلما أصاب سعة وقضى إرباً.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي: ذلك الأمر البعيد الشأو في الغرابة هو مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين، والمقلدين الجاهلين، فكان مثلهم مثلَ الذي أوتي الآيات فانسلخ منها، وذلك لا يعيب الآيات، وإنما يعيب أهل الأهواء الذين حرمهم سوء اختيارهم الانتفاع بها، وكأيٍّ من إنسان حُرِمَ الانتفاع بمواهبه الفطرية بعدم استعماله إياها فيما يرفعه درجات في العلم والعمل، وكأي من إنسان استعمل حواسه في الضر، وعقله وذكاءه في الشر، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أي: فاقصص أيها الرسول قصص ذلك الرجل المشابهة حاله لحال هؤلاء المكذبين بما جئت به من الآيات البينات في مبدأ أمره وغايته، ومعناه وصورته، رجاء أن يتفكروا فيه فيحملهم سوء حالهم وقبح مثلهم، على التفكر والتأمل، فإذا هم تفكروا في ذلك تفكروا في المخرج منه، ونظروا في الآيات، وما فيها من البينات، بعين العقل والبصيرة، لا بعين الهوى والعداوة، ولا طريق لهدايتهم غير هذه.

١٧٧ ـ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ساء مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا في الأمثال، وقبحت صفتهم في الصفات، وما كانوا بما اختاروه لأنفسهم من الإعراض عن التفكر في الآيات، يظلمون أحداً وإنما يظلمون أنفسهم وحدها بحرمانها من الاهتداء بها، وبما يعقب ذلك من حرمان سعادة الدنيا والآخرة.

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

هاتان الآيتان مقررتان لمضمون المثل في الآيات قبلها وقد أجمل تعالى هذا المعنى في الآية الأولى وفصّله في الثانية بإيجاز بديع، فقال:

١٧٨ ـ ﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾ أي: من يوفقه الله سبحانه وتعالى لسلوك سبيل الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة وإرشاد الدين، فهو المهتدي الشاكر لنعمه تعالى الفائز بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ أي: ومن يخذله بالحرمان من هذا التوفيق فيتبع هواه وشيطانه في ترك استعمال عقله وحواسه في فقه آياته تعالى وشكر نعمه، فهو الضال الكفور الخاسر لسعادة الدنيا والآخرة، لأنه يخسر بذلك مواهب نفسه التي كان بها إنساناً مستعداً لسعادة فتفوته هذه السعادة فوتاً إضافياً في الدنيا وحقيقياً في الآخرة.

ثم فصل تعالى ما في هذه الآية من الإجمال بقوله:

١٧٩ ـ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ المعنى: نُقْسم أننا قد خلقنا وبثثنا في العالم كثيراً من الجن

والإنس سكنى جهنم والمقام فيها ـ أي: كما ذرأنا للجنة مثل ذلك ـ وهو مقتضى استعداد الفريقين فريق في الجنة وفريق في السعير.

وبماذا كان هؤلاء مُعَدِّين لجهنم دون الجنة وما صفاتهم المؤهِّلة لذلك؟

الجواب: ذلك بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها، أي: لا يفقهون بقلوبهم ما تصلح وتتزكى به أنفسهم من توحيد الله المطهر لها من الخرافات والأوهام، ومن المهانة والصغار، فإن من يعبد الله تعالى وحده عن إيمان ومعرفة تعلو نفسه، وتسمو بمعرفة ربه ربِّ العالمين، ومدبر الكون بتقديره وسننه، فلا تذل نفسه بدعاء غيره تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والاتكال عليه، بل يطلب كل ما يحتاج إليه من ربه وحده.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ أي: ولهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل والتفكر فيما يرون من آيات الله في خلقه، وفيما يسمعون من آيات الله المنزلة على رسله، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه، فيهتدوا بكل منها إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم.

﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات السلبية كالأنعام من إبل وبقر وغنم في كونهم لا حظَّ لهم من عقولهم ومشاعرهم إلا استعمالها فيما يتعلق بمعيشتهم في هذه الحياة الدنيا، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام، لأن هذه لا تجني على أنفسها بتجاوز سنن الفطرة وحدود الحاجة الطبيعية في أكلها وشربها ونزواتها، بل تقف فيه عند قدر الحاجة التي تحفظ بها الحياة الشخصية والنوعية، وأما عبيد الشهوات من الناس فهم يسرفون في كل ذلك إسرافاً يتولد منه أمراض كثيرة يقل فيهم من يسلم منها كلها، ومن الناس من يجاهد هذه الشهوات جهاداً يفرّط فيه بحقوق البدن فلا يعطيه الغذاء الكافي، ويقصر في حقوق الزوجية، أو يقطع على نفسه طريقها بالرهبانية فيجني على شخصه وعلى نوعه بالتفريط كما يجني عليهما عبيد اللذات بالإفراط، وهداية الإسلام تحظر هذا وذاك ﴿أولئك هم الغافلون﴾ أي: أولئك الموصوفون بكل ما ذكر هم الغافلون التامّو الغفلة عما فيه صلاحهم وسعادتهم في الحياتين الدنيا والآخرة جميعاً.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

١٨٠ ــ ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ المعنى: ولله دون غيره، جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني وأكمل الصفات، فادعوه أي: سَمُّوه واذكروه ونادوه بها لمجرد الثناء، وعند السؤال وطلب الحاجات.

وأسماء الله كثيرة وكلها «حسنى» بدلالة كل منها على منتهى كمال معناه.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة».

ورواه الترمذي والحاكم من طريق الوليد بن مسلم، وسردا فيه الأسماء التسعة والتسعين، ورواه غيرهما أيضاً من طريقه، وفي سرد الأسماء اختلاف في الروايات، وقد اختلف المحدثون في سرد الأسماء: هل هو مرفوع إلى النبي ﷺ أو هو مدرج في الحديث من بعض الرواة؟ والراجح: أنه مدرَج لا مرفوع، كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» وهذا سرد الأسماء في أمثل الطرق عن الوليد بن مسلم من جامع الترمذي كما قال الحافظ:

هو «الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف،

مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الوارث، الرشيد، الصبور».

أورد هذه الأسماء الحافظ ابن حجر في «الفتح» وذكر اختلاف الروايات فيها، وإنكار بعض كبار العلماء لرفعها كابن حزم والداودي والقاضي أبي بكر بن العربي، والأقوال في حصرها ومأخذها ثم قال:

وقد اختلف في هذا العدد هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذه العدة، أو أنها أكثر من ذلك، ولكن اختصت هذه لأن من أحصاها دخل الجنة، فذهب الجمهور إلى الثاني، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه، فقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه: أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين[1] وإنما المقصود من الحديث: أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ويؤيده قوله ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، الذي أخرجه أحمد وصححه ابن حبان: «أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو عَلَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك». ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ أي: ادعوه بها أيها المؤمنون، واتركوا وأهملوا بلا مبالاة جميع الذين يلحدون في أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن منهج الحق الوسط، إلى متفرق السُّبل من تحريف، أو تشبيه أو تعطيل، أو شرك أو تكذيب، أو زيادة أو نقصان، أو ما ينافي وصفها بالحسنى وهو منتهى الكمال، ذروا هؤلاء الملحدين ولا تبالوا بهم ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ أي: سيلقون جزاء عملهم عن قريب بعضهم في الدنيا قبل الآخرة، وإنما يعمهم جميعهم عقاب الآخرة، إلا من تاب منهم قبل الموت.

وأما «الإلحاد» فمعناه العام: الميل والأزورار عن الوسط حساً أو معنى.

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس، رضي الله عنه، «الإلحاد» التكذيب،

---

(١) ليس معنى هذا جواز إطلاق أي اسم عليه سبحانه وتعالى، بل لا يطلق عليه إلا ما ورد من طريق صحيح فلا يجوز إطلاق مثل: «مهندس الكون» على الله تعالى.

وقال في تفسيره هنا: اشتقوا «العُزّى» من العزيز و«اللات» من الله، وعن قتادة في تفسيره روايتان إحداهما: يُشركون، والثانية: يكذبون في أسمائه.

وملخص هذه الروايات: أن من الإلحاد في أسمائه تعالى التكذيب بها وإنكار معانيها وتحريفها بالتأويل ونحوه، وتسميته تعالى بما لم يسم به نفسه، وبما لا يليق بكماله وجلاله، وإشراك غيره به فيها.

وقد اتفق أهل الحق على أن أسماءه وصفاته تعالى توقيفية، ونصوا على إثبات كل ما ورد في الكتاب والأحاديث الصحيحة دعاء ووصفاً له، وإخباراً عنه، وعلى منع كل ما دل على منعه، ومنه كل ما يسمى إلحاداً في أسمائه، وكل ما أوهم نقصاً أو كان منافياً للكمال ولوصف الحسنى. وقد منع جمهور أهل السنة كل ما لم يأذن به الشارع مطلقاً، أي: ولو لم يوهم شيئاً لا يليق به تعالى.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾

بعد الانتهاء من قصة موسى مع قومه التي ختمت بها قصص الرسل من هذه السورة، بيَّن الله تعالى لنا في بضع آيات منها شيئاً من شؤون البشر العامة في الإيمان والشرك والهدى والضلال، وما لفساد الفطرة وإهمال مواهبها من العقل والحواس من سوء المآل، وأرشدنا في آخرها إلى ما يصلح فساد الفطرة من دعائه بأسمائه الحسنى، وإلى ما للإلحاد فيها من سوء الجزاء في العقبى. ثم قفى على هذه البضع الآيات، ببضع آيات أخرى في شأن الأمة المحمدية بدأها بوصف أمة الإجابة، وثنى بذكر المكذبين من أمة الدعوة، وثلَّث بتفنيد ما عرض لهم من الشبهة. فقال تعالى:

١٨١ ــ ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس»، وكلتاهما تفصيل لإجمال قوله تعالى: «من يهد الله فهو المهتدي» إلخ، بدأه ببيان حال من أضلهم وهم الذين أهملوا استعمال قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم في فقه آيات الله، وأنهم كثيرون، ولكنه ما سماهم «أمة» لأنهم لا تجمعهم في الضلال جامعة، ولأن الباطل كثير وسبله متفرقة. ثم ذكر هنا حال من هداهم الله تعالى وهو أنهم «أمة» أي جماعة كبيرة، مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة، يهدون بالحق وبه دون غيره يعدلون، فسبيلهم واحدة لأن الحق واحد لا يتعدد وهؤلاء هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

١٨٢ ــ ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ هؤلاء هم كفار قريش، الجاحدون والمبالغون في عداوة النبي ﷺ، فقد كانوا مغترين بكثرتهم وثروتهم، لا يعتدون به ولا بغيره ممن آمن به أولاً وأكثرهم من الضعفاء الفقراء فما زالوا يتدرجون في عداوتهم له وقتالهم إياه، حتى أظهره الله تعالى عليهم في غزوة بدر فلم يعتبروا، ثم زادهم عناداً ظهورهم في آخر معركة أُحد، وقال قائدهم أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر ــ إلى أن كان الفتح الأعظم.

فهذا كله «استدراج» بمعنى: التنقل في مدارج الغرور، وبمعنى: أَخْذ الله إياهم وإظهار رسوله ﷺ ومن اتبعه عليهم من حيث لا يعلمون سنته تعالى في هذا ولا ذاك.

١٨٣ ــ ﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾ أي: وأنا أُمهل هؤلاء المكذبين المستدرَجين في العمر، وأمد لهم في أسباب المعيشة والقدرة على الحرب، بمقتضى سنتي في نظام الاجتماع للبشر كيداً لهم ومكراً بهم، لا حباً فيهم ونصراً لهم، وإن تسأل عن كيدي، فهو «قوي متين»، قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه: «إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلته».

فمعنى هذا الإملاء: أن سنة الله تعالى في الأمم والأفراد قد مضت: بأن

يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، فالمخذول إذا بغى وظلم ولم ينزل به العقاب الإلهي عقب ظلمه، يزداد بغياً وظلمًا ولا يحسب للعواقب حساباً، فيسترسل في ظلمه إلى أن تحيق به عاقبة ذلك، بأخذ الحكَّام له، أو بتورطه في مهلكة أخرى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

١٨٤ ــ ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ «الجِنة» بالكسر: النوع الخاص من الجنون، فهو اسم هيئة، والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ، وهو داخل على فعل حُذِفَ للعلم به من سياق القول، والتقدير: أَكَذَّبوا الرسول ولم يتفكروا في حاله من أول نشأته، وفي حقيقة دعوته، ودلائل رسالته، وآيات وحدانية ربه، وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم وحكمته في ذلك؟

ألا فليتفكروا فالمقام مقام تفكر وتأمل، إنهم إن تفكروا أوشك أن يعرفوا الحق، وما الحق؟ إنه: «ما بصاحبهم من جنة» جملة مستأنفة لبيان «الحق» في أمر الرسول نفياً وإثباتاً، فهي نافية لما رموه به من الجنون كقوله تعالى: « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي: ليس بمجنون، ليس إلا منذراً ناصحاً ومبلغاً عن الله مبيناً، ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة،إذا لم تستجيبوا له، وتؤمنوا به.

ثم دعاهم بعد هذا إلى النظر والاستدلال العقلي، فقال:

١٨٥ ــ ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ «الملكوت»: الملك العظيم كما تدل عليه صيغة «فَعَلُوت»، والمراد بملكوت السماوات والأرض: مجموع العالم، لأن الاستدلال به على قدرة الله تعالى وصفاته ووحدانيته أظهر، فإن العالم في جملته لا يمكن أن يكون قديماً أزلياً، ولا نزاع بين علماء الكون في إمكانه ولا في حدوث كل شيء منه، وإنما يختلفون في مصدره ومم وجد. وهو لا يمكن أن يكون من عدم محض لأن العدم المحض لا حقيقة له في الخارج، بل هو أمر فرضي فلا يعقل أن يصدر،عنه وجود، ولا يمكن أن يكون بعضه قد أوجد البعض الآخر،وهذا بديهي ولذلك لم يقل به أحد، فلا بد له إذاً من خالق وهو الله واجب الوجود.

ومعنى الآية: أكذبوا الرسول المشهور بالأمانة والصدق، وقالوا: إنه لمجنون وهو المعروف عندهم بالروية والعقل، ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال في مجموع ملكوت السماوات والأرض على عظمته، والنظام العام الـذي قام بجملته، وما خلق الله من شيء في كل منهما وإن دق وصغر، وخفي واستتر، ففي كل شيء من خلقه له آية تدل على علمه وقدرته، ومشيئته وحكمته، وفضله ورحمته، وكونه لم يخلق شيئاً عبثاً، ولا يترك الناس سدى.

فالمجنون إذاً من يترك ما فيه سعادة الدنيا لا من يدعو إلى السعادتين. هذا ما دعاهم إليه صاحبهم بكتاب ربهم مؤيداً بالبراهين العقلية والعلمية، لعلهم يعقلون ويعلمون.

﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ أي: إن محمداً رسول الله ﷺ نذير مبين عن الله تعالى، وإنما أنذر الناس بهذا الحديث أي: القرآن، وهو أكمل كتب الله بياناً، وأقواها برهاناً، وأقهرها سلطاناً، فمن لم يؤمن به فلا مطمع في إيمانه بغيره ثم قال تعالى:

١٨٦ ــ ﴿من يضلل الله فلا هاديَ له﴾ هذا استئناف بياني مقرر لجملة هذا السياق،ومعنى الجملة: أن الله تعالى قد جعل هذا القرآن أعظم أسباب الهداية، وإنما جعله هدى للمتقين، لا للجاحدين المعاندين، وجعل الرسول المبلغ له أكمل الرسل وأقواهم برهاناً في حاله وعقله وأخلاقه وكونه أمياً، فمن فقد الاستعداد للإيمان والهدى بهذا الكتاب على ظهور آياته وقوة بيناته، وبهذا الرسول المتحدي به، فهو الذي أضله الله، أي: قَضَتْ سنته في نظام خلق الإنسان، وارتباط المسببات في أعماله بالأسباب، بأن يكون ضالاً راسخاً في الضلال، وإذا كان ضلاله بمقتضى سنن الله، فمن يهديه من بعد الله؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير سننه ولا تبديلها؟

﴿ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي: وهو تعالى يترك هؤلاء الضالين في طغيانهم حالة كونهم يعمهون فيه، أي: يترددون تردد الحيرة والغُـمَّة لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وفي هـذا بيان لسبب ضلالهم من

كسبهم، وهو «الطغيان»، أي: تجاوز الحد في الباطل والشر، من الكفر والظلم والفجور الذي ينتهي بالعمه وهو: التردد في الحيرة، والارتكاس في الغُـمَّة.

وقد علم مما قررناه أن إسناد الإضلال إلى الله تعالى ليس معناه أنه أجبرهم على الضلال إجباراً، وأعجزهم بقدرته عن الهدى فكان ضلالهم اضطراراً لا اختياراً، بل معناه: أنهم مارسوا الكفر والضلال وأسرفوا فيهما حتى وصلوا إلى حد العمه في الطغيان، ففقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ما يضادها من الهدى والإيمان.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

١٨٧ ــ ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ «الساعة» في اللغة: جزء قليل غير معين من الزمان، وتسمى ساعة زمانية، وقد استُعملت في القرآن منكَّرة بمعنى الساعة الزمانية، ومعرَّفة بالألف واللام العهدية بمعنى الساعة الشرعية، وهي ساعة خراب هذا العالم وموت أهل الأرض، وجُـمِـعَ بينهما في قوله تعالى: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة».

والغالب في استعمال القرآن التعبير بـ«بيوم القيامة» عن يوم البعث والحشر، الذي يكون بعد الموت، الذي يكون فيه الحساب وما يتلوه من الجزاء، والتعبير بـ«الساعة» عن الوقت الذي يموت فيه الأحياء في هذا العالم، ويضطرب نظامه ويخرب، فالساعة هي المبدأ والقيامة هي الغاية، ففي الأولى الموت والهلاك، وفي الآخرة البعث والجزاء.

«أيان مرساها» المعنى: يسألونك أيها الرسول عن الساعة قائلين أيان

مرساها أي: متى إرساؤها وحصولها واستقرارها؟ أو: يسألونك عنها من حيث مجيئها وثبوتها بالوقوع والحصول.

وفي السؤال عن زمن وقوعها بحرف الإرساء الدال على استقرار ما شأنه الحركة والجريان، أو الميدان والاضطراب، نكتة دقيقة هي في أعلى درج البلاغة، وهو: أن قيام الساعة عبارة عن انتهاء أمر هذا العالم وانقضاء عمر هذه الأرض، فعبر بإرسائها عن منتهى أمرها ووقوف سيرها.

﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ قل أيها النذير: إن علم الساعة عند ربي وحده، ليس عندي ولا عند غيري من الخلق شيء منه.

﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ هذا جواب عن طلب معرفة الوقت الذي يكون إرساؤها فيه، والمعنى: لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الله تعالى إلا هو، لا يعلم ذلك غيره تعالى.

ثم قفى على هذا الإيئاس من علم أمرها والإنباء بوقت وقوعها بقوله في تعظيم شأنها وسر إخفاء وقتها ﴿ثقلت في السماوات والأرض﴾ أي: ثقل وقعها وعظم أمرها في السماوات والأرض، على أهلهما من الملائكة والأنس والجن، لأن الله تعالى نبأهم بأهوالها ولم يشعرهم بميقاتها، فهم يتوقعون أمراً عظيمًا لا يدرون متى يفجؤهم وقوعه.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي: فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا إشعار وإنذار. وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين واللفظ للبخاري: «ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يَطْعَمُها» والمعنى: أنها تَبْغَتُ الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة..

فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم، فيلتزموا فيها الحق، ويتحروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال، والقيل والقال.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ يسألونك هذا السؤال كأنك حفي مبالِغ في سؤال ربك عنها، أو: يسألونك عنها كأنك حفي بهم كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم فـ«عنها» متعلق بـ«يسألونك» وجملة: «كأنك حفي» معترضة.

﴿قل إنما علمها عند الله﴾ هذا تكرار للجواب في إثر تكرار السؤال للمبالغة في التأكيد والإيئاس من العلم بوقت مجيئها، وتخطئة مَنْ يسألون عنه، وقد ذكر هنا اسم الجلالة للإشعار بأنه مما استأثر بعلمه لذاته، كما أشعر ما قبله بأنه من شؤون ربوبيته، وكل منهما مما يستحيل على خلقه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك، ولا أدب السؤال، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام، وإنما يعلم ذلك القليلون، وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها في كتاب الله تعالى وبالسماع من رسوله صلى الله عليه وسلم.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

هذه الآية من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ببيانها لحقيقة الرسالة وهدمها لقواعد الشرك ومباني الوثنية من أساسها، قال عز وجل:

١٨٨ ـ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ أي: قل أيها الرسول للناس فيما تبلغه من أمر دينهم، إنني لا أملك لنفسي ـ أي: ولا لغيري بالأَوْلى ـ جلبَ نفع مًّا في وقت مًّا، ولا دفع ضرر مًّا في وقت مًّا، فوقوع كلمتي «النفع والضر» نكرتين منفيتين يفيد العموم حسب القاعدة المعروفة، ونفي عموم الفعل يقتضي نفي عموم الأوقات له ﴿إلا ما شاء الله﴾ مِنْ نفع أقدرني على جلبه، وضر أقدرني على منعه وسخر لي أسبابها، أو إلا وقت مشيئته سبحانه أن يمكنني من ذلك. فالمعنى المراد هو بيان عجز المخلوق الذاتي وكون

كل شيء أوتيه فهو بمشيئة الله تعالى، لا يستقل العبد بشيء منه استقلالاً مطلقاً ولا هو يملكه بذاته لذاته، بل بمشيئة الله تعالى.

ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب، مستدلاً عليه بانتفاء أظهر منافعه القريبة، فقال:

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ الجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب، كأنه يقول: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب ــ وأقْرَبُهُ ما يقع في مستقبل أيامي في الدنيا ــ لاستكثرت من الخير، كالمال وأعمال البر التي تتوقف على معرفة ما يكون في المستقبل من عُسرة وغلاء ــ مثلاً ــ وتغير الأحوال، ولَـمَا مسَّني السوء الذي يمكن الاحتياط لدفعه بعلم الغيب.

ومن أمثلته في العبادة قوله ﷺ في حجة الوداع: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما أَهْديت ولولا أن معي الَهدْيَ لأحللت» رواه الشيخان وغيرهما يعني: لو أنه علم ﷺ ما يحصل من انفراده دون أصحابه بسوقه الهدي إلى الحرم من مشقة فسخهم الحج إلى عمرة دونه ــ إذ لا يباح الفسخ والتحلل بالعمرة لمن معه الهدي ــ لَـمَا ساق الهدي ليوافق الجمهور في تمتعهم بالعمرة إلى الحج.

ومن أمثلته في الإدارة وسياسة الحرب ما عاتبه الله تعالى عليه من الإعراض عن الأعمى والتصدي للأغنياء ومن أخذ الفداء من أسرى بدر، ومن الإذن بتخلف المنافقين في غزوة تبوك سنة العسرة، ولم أر أحداً نبه على هذا النوع من المفسرين.

﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ هذا بيان مستأنف لتعليل ما تقدم من نفي امتيازه ﷺ على البشر بملك النفع والضر من غير طرق الأسباب وسنن الله في الخلق، ونفي امتيازه عليهم بعلم الغيب، عللهما ببيان حصر امتيازه عليهم بالتبليغ عن الله عز وجل، والتبليغ قسمان: قسم مقترن بالتخويف من العقاب على الكفر والمعاصي وهو «الإنذار»، وقسم مقترن بالترغيب في الثواب على الإيمان والطاعة وهو «البشارة» أو «التبشير».

والتبشير لا يوجه إلى الكافرين والمجرمين بلقبهم إلا بأسلوب التهكم كقوله تعالى: «فبشرهم بعذاب أليم» على القول المشهور الذي عليه الجمهور.

وأما الإنذار فقد يوجه إلى المؤمنين المتقين على معنى أنهم هم الذين ينتفعون به وكقوله في سورة «يس» «إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم».

بناء على هذا قال بعض المفسرين: إن قوله تعالى «لقوم يؤمنون» متعلق بالوصفين على معنى: أن المؤمنين هم الذين ينتفعون بإنذاره فيزيدهم خشية لله واتقاء لما يسخطه وينتفعون بتبشيره فيزدادون شكراً له بعبادته وإقامة سننه.

وقال بعضهم: إنه متعلق بالثاني المتصل به ويدل على حذف مقابله فيما قبله، والتقدير: ما أنا إلا نذير للكافرين وبشير للمؤمنين.

وهنالك وجه ثالث، وهو: أن البشارة للمؤمنين خاصة لاتصالها بهم، والإنذار عام لهم ولغيرهم.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

١٨٩ ـ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ أي: خلقكم من جنس واحد أو حقيقة واحدة صورها بشراً سوياً هي آدم، عليه السلام ﴿وجعل منها

زوجها ليسكن إليها﴾ سكوناً زوجياً، أي: جعل لها زوجها من جنسها، فكانا زوجين ذكراً وأنثى، كما قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» كما أنه خلق من كل جنس وكل نوع من الأحياء زوجين اثنين، قال عز وجل: «ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون».

﴿فلما تغشاها﴾ «الغشاء»: غطاء الشيء الذي يستره من فوقه و«تغشاها»: أتاها وهو كناية نزيهة عن أداء وظيفة الزوجية، تشير إلى أن مقتضى الفطرة وأدب الشريعة فيها الستر، أي: فلما تغشى الزوجُ الذي هو الذكر الزوجَ التي هي الأنثى ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ أي: علقت منه، وهو الحَبَلُ، وهو يكون في أول العهد خفيفاً لا تكاد المرأة تشعر به، وثم تستدل عليه بارتفاع حيضتها ﴿فمرت به﴾ أي: فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق، أو استمرت في أعمالها وقضاء حاجتها من غير مشقة ولا استثقال ﴿فلما أثقلت﴾ أي: حان وقت ثقل حملها وقرب وضعها ﴿دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين﴾ أي: توجهاً إلى الله تعالى ربهما، يدعوانه فيما انحصر همهما فيه بعد تمام الحمل على سلامة، بأن يعطيهما ولداً صالحاً، أي: سوياً تام الخَلْق، يصلح للقيام بالأعمال البشرية النافعة.

دعواه مخلصين مقسمين له على ما وطنا عليه أنفسهما من الشكر له على هذه النعمة قائلين: لئن أعطيتنا ولداً صالحاً لنكونن من القائمين لك بحق الشكر قولاً وعملاً واعتقاداً وإخلاصاً.

١٩٠ ــ ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ أي: فلما أعطاهما ولداً صالحاً لا نقص في خلقه، ولا فساد في تركيبه، جعلا له شركاء في إعطائه أو فيما أعطاه بأن كان سبباً لوقوع الشرك منهما أو ظهور ما هو راسخ في أنفسهما منه.

﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ أي: تعالى شأنه عن شركهم، فإنه هو معطي النسل بما خلقه لكل من الزوجين من أعضاء، وقدر لهما في العلوق والوضع من أسباب لا فعل لغيره في ذلك البتة.

جاء في بعض الروايات أن المراد بقوله تعالى: «فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء» إلخ آدم وحواء، عليهما السلام، وهي روايات لا أصل لها يعتدُّ به، فالصحيح: أن المراد جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين فيكون المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً وجعلكم أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الأنثى، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت أي: من المشركين منهم، وهذا قول الحسن البصري رحمه الله، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري، رحمه الله، في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله «فتعالى الله عما يشركون» ثم قال ابن كثير: فذكره آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس.

ثم بين تعالى سخافة عقولهم وفساد آرائهم بهذا الشرك، فقال:

﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون﴾ الاستفهام للإنكار والتجهيل، أي: أيشركون به سبحانه وتعالى وهو الخالق لهم ولأولادهم ولكل شيء، ما لا يخلق شيئاً من الأشياء مهما يكن حقيراً كقوله تعالى: «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له» وليس قصارى أمرهم أن الخلق لا يقع منهم، بل هو يقع عليهم، فهم يُخلقون آناً بعد آن، ولا يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكاً للخالق القادر.

١٩٢ ـ ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي: المعبودون من دون الله تعالى على كونهم مخلوقين غير خالقين لشيء، لا يستطيعون لعابديهم نصراً على أعدائهم ولا يستطيعون لأنفسهم نصراً على من يعتدي عليها بإهانة لها، أو أخذ شيء من طيبها أو حليها، كما قال: «وإن يسلُبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب» أي: فهم يحتاجون إليكم في تكريمهم وأنتم لا تحتاجون إليهم، بل أنتم الذين تدفعون عنهم وتنصرونهم بالنضال دونهم.

١٩٣ ـ ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم﴾ أي: وإن تدعوهم إلى ما هو الهدى والرشاد في نفسه لا يتبعوكم، فلا هم ينفعونكم ولا هم ينتفعون منكم ﴿سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ أي: مستو عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذه الآيات تتمة لما قبلها من آيات التوحيد مقررة ومؤكدة لمضمونها، لأن توحيد العبادة ونفي الشرك فيها هو أُس الإسلام، ولا يتقرر في الأذهان، ويثبت في الجنان، ويكمل بالوجدان، إلا بتكرار الآيات فيه إثباتاً لمضمون كلمة «لا إله إلا الله». قال تعالى:

١٩٤ ـ ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ الدعاء مخ العبادة وركنها الأعظم، فلا يصح توحيد أحد لله إلا بدعائه وحده وعدم دعاء أحد معه، كما قال: «فلا تدعوا مع الله أحداً»، والمفسرون يقولون: إن الدعاء في مثل هذه الآيات معناه «العبادة» من باب تسمية الكل باسم الجزء، فصاروا يفسرون «تدعون» بتعبدون فضلَّ بعض العوام من القارئين وغيرهم في هذا التعبير، وظنوا أن المرء لا يكون عابداً لغير الله تعالى إلا إذا كان يصلي له الصلاة المعروفة ويصوم لأجله، وأنه لا ينافي توحيد الله تعالى أن يُدْعَى غيره معه.

والحق الذي لا معدل عنه: أن الدعاء هنا هو النداء لدفع الضر أو جلب النفع، الموجه إلى من يعتقد الداعي أن له سلطاناً يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه.

فيكون المعنى: إن الذين تدعونهم من دون الله هم عباد لله أمثالكم في كونهم مخلوقين لله تعالى، خاضعين لسننه في خلقه، وإذا كانوا أمثالكم امتنع عقلاً أن تطلبوا منهم ما لا تستطيعون نيله بأنفسكم ولا بمساعدة أمثالكم لكم وإنما يدعى لما وراء الأسباب المشتركة بين الخلق، الربُّ الخالق المسخر للأسباب، الذي تخضع لإرادته الأسباب وهو لا يخضع لها.

﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ أي: إن كنتم صادقين في زعمكم أنهم يقدرون على ما لا تقدرون عليه بقواكم البشرية، من نفع أو ضر بذواتهم، فادعوهم فليستجيبوا لكم بأنفسهم، أو ليحملوا الرب تبارك وتعالى على إعطائكم ما تطلبون منهم إن كنتم صادقين في قولكم «هؤلاء شفعاؤنا عند الله» وقولكم «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى».

ثم بين لهم أنهم أحط رتبة منهم لا أمثالاً لهم، فقال:

١٩٥ ـ ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها؟﴾ هذا تقريع موجه إلى الوجدان، في إثر احتجاج وُجِّهَ قبله إلى الجنان، والاستفهام فيه للإنكار، وهو خاص بالأصنام والأوثان، ومعناه: أنهم لفقدهم لجوارح الكسب، التي يناط بها في عالم الأسباب النفع والضر، قد هبطوا عن درجة مماثلتكم من كل وجه، فليس لهم أرجل يسعون بها إلى دفع ضر أو جلب نفع، وليس لهم أيد يبطشون بها فيما ترجون من خير أو تخافون من شر، وليس لهم أعين يبصرون بها حالكم، وليس لهم آذان يسمعون بها أقوالكم، ويعرفون بها مطالبكم، فأنتم تفضلونهم في الصفات والقوى التي أودعها الله في الخلق، فلماذا ترفعونهم عن مماثلتكم، وهم بدليل المشاهدة والاختبار دونكم؟ وها أنتم أولاء تستكبرون عن قبول الهدى والرشاد من الرسول وتعللون ذلك بأنه بشر مثلكم، فيقول بعضكم لبعض: «ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون» وتقولون: «لئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون».

أفتأبون قبول الحق والخير من مثلكم وقد فضله الله بالعلم والهدى عليكم، وهو لا يستذلكم بادعاء أنه ربكم أو إلهكم، ثم ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهية، مع انحطاطه وتسفله عن هذه المثلية؟

﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المرزوئين بعقولهم، المحتقرين لنعم الله تعالى عليهم، نادوا شركاءكم الذين اتخذتموهم أولياء، وزعمتم أنهم فيكم شفعاء ثم تعاونوا على كيدي جميعاً، واجمعوا مكركم الخفي لإيقاع الضر بي سريعاً، ﴿فلا تنظرون﴾ أي: فلا تؤخروني ساعة من نهار، بعد إحكام المكر الكُبَّار.

وحكمة مطالبتهم بهذا أن العقائد والتقاليد الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدان، حتى يتضاءل دونها كل برهان، ويظل صاحبها مع ظهور الدليل على بطلانها يتوهم أنها تضر وتنفع، وتقرب من الله وتشفع، فطالبهم بأمر عملي يستل هذا الوهم من أعماق قلوبهم، ويمتلَّخ الشعور به من خبايا صدورهم، وهو أن ينادوا هؤلاء الشركاء لإبطال دعوة الداعي إلى الكفر بها إثباتاً لعجزها.

١٩٦ ـ ﴿إن وليـي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ أي: أن ناصري ومتولي أمري هو الله الذي نزل علي هذا الكتاب الناطق بوحدانيته في ربوبيته، وبما يجب من عبادته ودعائه في المهمات والملمات وحده، وبأن عبادة غير باطلة، وأن دعاء هذه الأوثان هزء باطل، وسخف لا يرضاه لنفسه إلا جاهل سافل، وهو يتولى نصر الصالحين من عباده، وهم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة السالمة من الخرافات والأوهام، والأعمال التي تصلح بها الأفراد وشؤون الجماعات، فينصرهم على الخرافيين الفاسدي العقائد والمفسدين في الأعمال «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال».

١٩٧ ـ ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي: وأما الذين تدعونهم لنصركم ولغير النصر من منافعكم ودفع الضر عنكم، فهم عاجزون لا يستطيعون أن ينصروكم، ولا أن

ينصروا أنفسهم على من يحقر أمرهم، أو يسلبهم شيئاً مما وضع من الطيب أو الحلي عليهم، وقد كسر إبراهيم ﷺ الأصنام فجعلهم جذاذاً فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم، ولا أن ينتقموا منه لها.

وبعد أن نفى قدرتهم على النصر، قفى عليه بنفي قدرتهم على الإرشاد إليه، فقال:

١٩٨ ـ ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا﴾ أي: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تنتصرون به من أسباب خفية أو جلية لا يسمعوا دعاءكم مطلقاً، فكيف يستجيبون لكم؟ على أنهم لو سمعوا لما استجابوا لعجزهم عن الفعل، كفقدهم للسمع ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أي: وهم فاقدون لحاسة البصر كفقدهم لحاسة السمع، وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضع لهم من الأعين الصناعية، والحدق الزجاجية أو الجوهرية، وجعلها موجهة إلى الداخل عليها كأنها تنظر إليه، وهم لا يبصرون بها لأن الإبصار لا يحصل بالصناعة، بل هو من خواص الحياة التي استأثر الله سبحانه بها، وإذا كانوا لا يسمعون دعاء ولا نداء من عابدهم ولا من غيره، ولا يبصرون حاله وحال خصمه، فأنى يرجى منهم نصره وشد أزره؟

وفي الآية وجه آخر ذهب إليه بعضهم وهو: أن الخطاب فيها للرسول ﷺ وللمؤمنين بناء على أن الكلام في الأصنام قد تم فيما قبلها وعاد الكلام في عابديها، أي: وإن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء الأغبياء من المشركين، الذين لم يعقلوا هذه الحجج والبراهين، إلى هدى الله وهو التوحيد والإسلام لا يسمعوا دعوتكم سماع فهم واعتبار، وتراهم أيها الرسول ينظرون إليك وهم لا يبصرون ما أوتيت من سمت الجلال والوقار، الذي يميز به صاحب البصيرة بين أولي الجد والعزم والصدق في القول والفعل، وبين أهل العبث والهزل، ولقد كان بعض ذوي الفطرة السليمة ينظر إلى النبي ﷺ فيعرف من شمائله وسيماه في وجهه، أنه حر صادق، فيقول: والله ما هذا الوجه وجه كاذب.

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾

١٩٩ ــ هذه الآية بيان لأصول الفضائل الأدبية وأساس التشريع، الذي تقرر فيما قبلها من الآيات بأبلغ التوكيد. يأمر الله تعالى فيها بثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية.

الأصل الأول: «العفو»، وهو يطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه، وعلى السهل الذي لا كُلفة فيه، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون إحفاء ومبالغة في الطلب، وهذه المعاني متقاربة وهي وجودية، ومن معانيه السلبية: «إزالة الشيء» كعفت الرياح الآثار، أو إزالة أَثَره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب، فمعاني العفو الوجودية والعدمية كلها إحسان ورفق.

وقد ورد عن مفسري السلف في تفسير العفو هنا أقوال كلها ترجع إلى هذه المعاني، فرواية العَوْفي عن ابن عباس في تفسير «خذ العفو»: خذ ما عفا لك من أموالهم ــ أي: ما فضل وما أتوك به من شيء. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وبذلك قال السدي، وزعم أنها نسخت بآية الزكاة، وفي رواية الضحاك عنه: أنفق الفضل، ومثلها عن سعيد بن جبير. وفي عدة روايات عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عمه عبد الله بن الزبير أن معناها: خذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك، وبه قال مجاهد. وروي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن العفو هنا الصفح عن المشركين وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف، وهذا ضعيف لأن العفو لم يطلب. وأحسن الزمخشري في تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة، فقال: «العفو» ضد «الـجَهد»، أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم، وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة، ولا تداقّهم، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى ينفروا.

والمختار عندنا أن «العفو» يشمل هذا وذاك، فالمراد به: أن من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه: اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس.

الأصل الثاني: «الأمر بالمعروف» وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه

بالمعروف وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه وهو اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس وكل ما ندب الشرع إليه من المحسَّنات ونهى عنه من المقبحات.

الأصل الثالث: «الإعراض عن الجاهلين»: وهم السفهاء، بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أوقى لأذاهم من الإعراض عنهم.

وإنما يجب الإعراض عن السفهاء لأنهم لا يطلبون الحق إذا فقدوه، ولا يأخذون فيما يخالف أهواءهم إذا وجدوه، ولا يرعون عهداً، ولا يحفظون وداً، ولا يشكرون من النعمة إلا ما اتصل مدده، فإذا انقطع عاد الشكر كفراً، واستحال المدح ذماً.

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن: قال علماؤنا هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها، ولا فضيلة إلا شرحتها، ولا أكرومة إلا افتتحتها، وأخذت الكلمات الثلاث أقسام الإسلام الثلاثة: فقوله: «خذ العفو» تولَّى بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف وقوله: «وأمر بالعرف» تناول جميع المأمورات والمنهيات، وأنهما ما عرف حكمه، واستقر في الشريعة موضعه، واتفقت القلوب على علمه، وقوله: «وأعرض عن الجاهلين»: تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتى للعبد به كل مراد في نفسه وغيره. ولو شرحنا ذلك على التفصيل لكان أسفاراً اهـ.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

بين الله تعالى في الآية التي قبل هذه الآيات أفضل ما يعامل البشر به بعضهم بعضاً من الوصايا الثلاث التي لا يمكن شرح التعامل بها تفصيلاً إلا بسفر كبير، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد إليهم

سبيلاً، ثم قفى عليها بهذه الآيات الثلاث في الوصية باتقاء إفساد الشيطان، أي: جنسه لجنس البشر، والمراد هنا الشياطين المستترة وهم شياطين الجن، فقال تعالى:

٢٠٠ ـ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾ المراد من نزغ الشيطان: إثارته داعية الشر والفساد في النفس، بداعية غضب أو شهوة حيوانية أو معنوية بحيث تتقحم بصاحبها إلى العمل بتأثيرها كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع، وغلب استعماله في الشر فقط.

وملخص ما يجب اعتقاده في هذا المقام: أنه ثبت في وحي الله تعالى إلى رسله أن في عالم الغيب خلقاً خفياً اسمه الشيطان لا تدركه حواسنا، له أثر في أنفسنا، فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي وسواساً ونزغاً ومساً، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره.

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام، بهذا العالم الغيبي المعادي لنا، الضار بأرواحنا، أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنها، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج، وخروج الصحة عن الاعتدال فنبادر إلى علاجه، فمتى فطنا بميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل عالجناه بما وصفه الله تعالى لنا من العلاج في هذه الآية وهو قوله عز وجل: ﴿فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ أي: فالجأ إلى الله وتوجه إليه ليعيذك من شَرَكِ هذا النزغ فلا يحملنك على ما يزعجك إليه من الشر.

إلجأ إلى الله بقلبك، وعبر عن ذلك بلسانك، فقل: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، إنه تعالى سميع لما تقول عليم بما تتوجه إليه، فهو يصرف عنك تأثير نزغه بتزيين الشر. ومن المجرب أن الالتجاء إلى الله تعالى وذكره بالقلب واللسان، يصرف عن القلب وسوسة الشيطان.

والخطاب في هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع والتأديب موجه إلى كل مكلف.

ثم بين تعالى وجه سلامة من يستعيذ من وسوسة الشيطان لإزالة جهل من لم يعلمه أو من لم يفقهه فقال:

٢٠١ ـ ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾، ومعنى الآية: «إن الذين اتقوا» وهم خيار المؤمنين الذي وُصفوا في أول سورة «البقرة»، «إذا مسهم» أي: ألم أو اتصل بهم طيف أو «طائف من الشيطان» ليحملهم وسوسته على المعصية أو ينزغ بينهم لإيقاع البغضاء والتفرقة، «تذكروا» الاستعاذة به والالتجاء إليه في الحفظ منه، وقال بعضهم تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، وقال آخرون: تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن، ـ ومآل الأقوال كلها واحد ـ «فإذا هم مبصرون»، أي: فإذا هم أولو بصيرة وعلم يربأ بأنفسهم أن تطيع الشيطان، فهو إنما تأخذ وسوسته الغافلين عن أنفسهم لا يحاسبونها على خواطرها، الغافلين عن ربهم لا يراقبونه في أهوائها وأعمالها، ولا شيء أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب، ومراقبته في السر والجهر، فذكر الله تعالى بأي نوع من أنواعه يقوي في النفس حب الحق ودواعي الخير، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر، حتى لا يكون للشيطان مدخل إليها، فهو إنما يزين لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأي نوع منها. فإن وجد بالغفلة مدخلاً إلى قلب المؤمن المتقي لا يلبث أن يشعر به لأنه غريب عن نفسه، ومتى شعر ذكر فأبصر فخنس الشيطان وابتعد عنه وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب.

٢٠٢ ـ ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾ «الغي»: الفساد. و «المد والإمداد»: الزيادة في الشيء من جنسه.

والمعنى مع سابقه: أن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد، تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا، وإن زلوا تابوا وأنابوا، وأن إخوان الشياطين ـ وهم الجاهلون غير المتقين ـ يتمكن الشياطين من أهوائهم، فيمدونهم في غيهم وفسادهم لأنهم لا يذكرون الله تعالى إذا شعروا في أنفسهم

بالنزوغ إلى الشر والباطل والفساد في الأرض، ولا يستعيذون به سبحانه من نزغ الشيطان ومسه فيبصروا ويتقوا، إما لأنهم لا يؤمنون بالله، وإما لأنهم لا يؤمنون بأن للإنسان شيطاناً من الجن يوسوس إليه ويغـريه بـالشر، ثم لا يقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم، فلذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسي والواعظ القلبي. وفي هذا التفسير عود الضمير إلى الشيطان بالجمع لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم وهو استعمال عربي معروف ومنه «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» . وقيل: إن الضمير يعود إلى الجاهلين أي: وإخوان أولئك الجاهلين من الإنس وهم شياطينهم يمدونهم في غيهم وفسادهم، فيكونون أعواناً لشياطين الجن في ذلك.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

٢٠٣ ـ ﴿وإذا لم تأتهم﴾ أيها الرسول ﴿بآية﴾ قرآنية بأن تراخى نزول الوحي زمناً ما ﴿قالوا لولا اجتبيتها﴾ أي: لولا افتعلت نظمها وتأليفها واخترعتها من تلقاء نفسك، أو إذا لم تأتهم بآية مما اقترحوا عليك قالوا: هلا جباها الله لك بأن مكنك منها فاجتبيتها وأبرزتها لنا ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلـيّ من ربي﴾ فما أنا بمبتدع ولا مجتبٍ لشيء من آيات القرآن بعلمي وبلاغتي، بل أنا عاجز عن مثله كعجزكم وعجز سائر الإنس والجن.

أو: ما أنا بقادر على إيجاد الآية الكونية التي تقترحونها لتؤمنوا وإنما أنا متبع لما يوحى إلـيّ فضلاً من ربي علـيّ أن جعلني المبلّغ عنه ،وما علـيّ إلا البلاغ المبين ﴿هذا بصائر من ربكم﴾ أي: هذا القرآن الذي أوحاه إلـيّ بصائر وحجج ناهضة من ربكم، يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق، إذ هي أدل عليه مما تطلبون من الآيات الكونية ﴿وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي: وهو هدى كامل يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ورحمة في الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

٢٠٤ ـ ﴿وإذا قرىء القرآن فاستعموا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾.

هذه دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، وهي الاستماع له إذا قرىء والإنصات مدة القراءة. و«الاستماع» أبلغ من السمع لأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، و«السَّمع» ما يحصل ولو بغير قصد، و«الإنصات»: السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلاً عن الإحاطة بكل ما يقرأ. فمن استمع وأنصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر، وهو الذي يرجى أن يرحم.

وتستحب القراءة بالترتيل والتغني بالنغم المفيد للتأثير والخشوع من غير تكلف صناعي. وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن» ـ زاد غيره في رواية ـ «يجهر به» رواه الشيخان و«أَذِنَ» هنا بمعنى استمع أو سمع. ومصدره «أَذَناً» بفتحتين، وروي أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم والبيهقي عن فضالة بن عبيد مرفوعاً: «لله أشد أذَناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته» و«القينة»: الأمة المغنية، وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

ويستحبُّ البكاء مع القراءة والخشوع وإلا فالتباكي والتخشع، وأن يستعيذ بالله قبلها ويدعو الله في أثنائها بحسب معاني الآيات كسؤال الرحمة عند ذكرها والاستعاذة من العذاب عند ذكره. وكان أنس بن مالك رضي الله عنه، يجمع أهله وولده عند ختم القرآن، فاستَحَبُّوا الاقتداء به.

واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه مع التدبر بنية الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وينمي وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره، وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار، ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته، وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس «وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون».

وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن وتلاوته والعمل به.

ثم بعد الأمر بالاستماع والإصغاء لتلاوة القرآن، في سياق حصانة الأنفس من مس الشيطان، أمرنا تعالى بالذكر العام الشامل للقرآن تلاوة وتدبراً ولغيره فإن كل نوع من أنواع ذكره تعالى حصن للنفس وتزكية لها، فقال:

٢٠٥ ـ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخفية ودون الجهر من القول﴾ أي: واذكر ربك الذي خلقك ورباك بنعمه في نفسك، بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وآياته، وفضله عليك وحاجتك إليه متضرعاً له خائفاً منه راجياً نعمه، واذكر بلسانك مع ذكره في نفسك ذكراً دون الجهر برفع الصوت من القول، وفوق التخافت والسر، بل ذكراً قصداً وسطاً ـ كما قال في آخر سورة «الإسراء» «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً» ولا تحصل فائدة الذكر باللسان إلا مع ذكر القلب وهو ملاحظة معاني القول.

وبعد أن بين تعالى صفة الذكر والذاكر بَيَّنَ وقته، فقال: ﴿بالغدو والآصال﴾ «الغُدُوّ»: أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس و«الآصال» جمع «أصيل» وهو: العَشِيّ من وقت العصر إلى غروب الشمس، وخُصَّ هذان الوقتان بالذكر لأنهما طرفا النهار، ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديراً بأن يرحمه الله تعالى فيما بينهما، وأهم الذكر فيهما صلاتا

الفجر والعصر اللتان تحضرهما ملائكة الليل وملائكة النهار ويشهدان عند الله تعالى بما وجدا عليه العبد كما ورد[1] في الصحيح . .

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ عن ذكره تعالى في سائر الأوقات.

ثم عزز عز وجل هذا الأمر وهذا النهي بما يُعَدُّ خير أسوة للإنسان، وهو التشبه والمشاركة لملائكة الرحمن، فقال:

٢٠٦ ـ ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي: إن ملائكة الله المقربين الذين هم عنده كحملة عرشه والحافين به، ومن شاء تقدس وتعالى بهذه العندية الشريفة التي لا يعلمها سواه، وهم أعلى مقاماً من الموكلين بالمخلوقات وتدبير نظامها كالسحاب والمطر والريح والجنة والنار.

إن هؤلاء المقربين العالين عنده لا يستكبرون عن عبادته كما يستكبر عنها هؤلاء المشركون الذين عد بعضهم السجود لله تعالى حطة وضعة لا تحتمل ﴿ويسبحونه﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه وجلاله من اتخاذ الند والشريك والظهير والمساعد على الخلق والتدبير ﴿وله يسجدون﴾ أي: وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحداً، فيجب أن يكون لكل مؤمن أسوة حسنة بخواص ملائكته، وأقرب المقربين عنده، تبارك وتعالى.

هذا وقد شرع الله تعالى لناالسجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها إرغاماً للمشركين واقتداء بالملائكة العالين، ومثلها آيات أخرى بمعناها في الجملة، وهذه هي الأولى في ترتيب المصحف.

(خلاصة سورة الأعراف)

بينت آيات سورة الأعراف مسائل كثيرة في العقائد والتشريع والسنن الكونية وشؤون الأمم نذكر فيما يلي طرفاً منها:

---

(١) قوله: «كما ورد في الصحيح» وهو ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون».

(١) دعاء الله وحده وإخلاص الدين له وتخصيصه بالعبادة،وكون الإخلال بذلك شركاً وكفراً بالله تعالى.

(٢) إنكار الشرك وإقامة الحجة على أهله وإثبات التوحيد وكونه مقتضى الفطرة.

(٣) بيان أن شارع الدين هو الله رب العالمين، فيجب اتباع ما أنزله ولا يجوز اتباع أولياء من دونه في العقائد ولا العبادات، ولا التحليل والتحريم الديني.

(٤) حظر القول على الله بغير علم بتشريع أو غيره.

(٥) كون جميع ما يشرعه الله تعالى حسناً في نفسه،وتنزيهه عن الأمر بالقبيح.

(٦) الكلام في رحمة الله تعالى ومغفرته ومنه قرب رحمته من المحسنين.

(٧) أسماء الله الحسنى والأمر بدعائه بها وعدم الإلحاد فيها.

(٨) الأمر بذكر الله تضرعاً وخيفة سراً وجهراً، وكونه غذاء الإيمان، والأمر بعبادته وتسبيحه والسجود له وحده.

(٩) الأمر بالاستماع لقراءة القرآن والإنصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به.

سورة الأنفال

(مدنية، خمس وسبعون آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال ـ في غزوة بدر ـ «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا» فأما المشيخة ـ أي: المشايخ ـ فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: إنا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت:

١ ـ ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ «الأنفال» جمع: «نَفَل» بالتحريك وهو في

أصل اللغة من النَّفْل ـ بفتح وسكون ـ أي: الزيادة عن الواجب، ومنه صلاة النفل.

والمعنى: يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هي؟ أللشبان أم للمشيخة؟ ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ أي: قل لهم الأنفال لله يحكم فيها بحكمه وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى، وقد قسمها ﷺ بالسواء. ﴿فاتقوا الله﴾ في المشاجرة والخلاف والتنازع ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي: أصلحوا نفس ما بينكم، وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الإسلام، وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأَثَرة والتفوق، وبالإيثار أيضاً. فإصلاح ذات البين واجب شرعاً تتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها وتحفظ به وحدتها ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في الغنائم وفي كل أمر ونهي وقضاء وحكم، فالله تعالى يطاع لذاته لأنه رب العالمين ومالك أمرهم، والرسول يطاع في أمر الدين لأنه مبلغ له عن الله تعالى ومبين لوحيه فيه بالقول والفعل والحكم. وهذه الطاعة له تعبدية لا رأي لأحد فيها وتتوقف عليها النجاة في الآخرة والفوز بثوابها.

ولأئمة المسلمين منهم من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وإدارة الأمور العامة وقيادة الجند، ما كان له ﷺ منه مقيداً بعدم معصية الله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي: فامتثلوا الأوامر الثلاثة فإن الإيمان يقتضي ذلك كله لأن الله تعالى أوجبه.

ثم وصف الله المؤمنين بما يدل على هذا ويثبته فقال:

٢ ـ ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين الكاملي الإيمان مطلقاً، ليعلم منه أن تلك الأمور الثلاثة ـ أي: تقوى الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله ـ هي بعض شأنهم، وقد بين صفاتهم هنا بصيغة الحصر التي يخاطب بها من يعلم ذلك أو ينزل منزلة العالم به الذي لا ينكره وهي «إنما»، ووصفهم بخمس صفات:

الصفة الأولى: قوله «الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» «الوجل»: استشعار الخوف. يعني: ما يجعل القلب يشعر به بالفعل والمراد بذكر الله: ذكر القلب لعظمته وسلطانه وجلاله، أو لوعيده ووعده، ومحاسبته لخلقه، وغير ذلك من صفاته وأفعاله، سواء صحبه ذكر اللسان أم لا، وأعظم ذكر اللسان مع القلب ترتيل القرآن بالتدبر فلا ذكر يَبُثُّ الوجل في القلب كتلاوة كلام الله عز وجل، «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد».

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ أي: إذ تليت عليهم آياته المنزلة على خاتم أنبيائه ﷺ زادتهم إيماناً أي: يقيناً في الإذعان، وقوة في الاطمئنان، وسعة في العرفان، ونشاطاً في الأعمال.

ويطلق « الإيمان » في عرف الشرع على مجموع العلم والاعتقاد والعمل بموجبه، وعلى كل منهما والقرائن تعينٍ المراد.

والصحيح أن الإيمان يزيد وينقص وأن زيادة الإيمان ثابتة بنص هذه الآية وآيات أخرى كقوله تعالى في سورة «آل عمران» في وصف الذين استجابوا لله والرسول إذ دعاهم إلى القتال بعدما أصابهم القرح في غزوة أُحد: «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» وعليه جمهور السلف. بل حكى الإجماع عليه الشافعيُّ وأحمد وأبو عبيد كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يتوكلون على ربهم وحده، لا يتوكلون على غيره ولا يفوِّضون أمورهم إلى سواه عز وجل كما أفاد تركيب الجملة. وعن ابن عباس قال: لا يرجون غيره. والتوكيل أعلى مقامات التوحيد، فإن من كان موقناً بأن ربه هو المدبر لأموره وأمور العالم كلها لا يمكن أن يكل شيئاً منها إلى غيره.

ولما كان من المعلوم من الشرع والطبع والعقل بالضرورة أن للإنسان

كسباً اختيارياً كلفه الله العمل به، وأنه سيجازى على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن الله تعالى في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقداً أن الأسباب ـ ما يعقل منها كالإنسان وما لا يعقل ـ لم تكن أسباباً إلا بتسخير الله تعالى، وأن ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسباباً وعلمه ذلك. وأما ما لا يُعْرَفُ له سبب يُطْلَبُ بـه فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده، وإليه يتوجه وإياه يدعو فيما يطلبه منه، وأما ترك الأسباب وتنكب سنن الله تعالى في الخلق، وتسمية ذلك توكلاً فهو جهل بالله وجهل بدينه، وجهل بسننه التي أخبرنا بأنها لا تتبدل ولا تتحول.

٣ ـ الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ تقدم تفسير هذه الجملة في أول سورة «البقـرة» وفي تفسير آيـات أخرى في معنـاها، وملخصها: ان إقامة الصلاة عبارة عن أدائها مقوَّمة كاملة في صورتها وأركانها الظاهرة، من قيام وركوع وسجود وقراءة وذكر، وكاملة في معناها وروحها الباطنة من خشوع وحضور، وتدبر واتعاظ بتلاوة القرآن،وهذه الإقامة هي التي يستفيد صاحبها بها ما جعله الله تعالى ثمرة للصلاة من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

الصفة الخامسة، قوله تعالى: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي: وينفقون بعض ما رزقهم الله في وجوه البر، من زكاة مفروضة لإقامة دولة الإسلام، وغير ذلك من النفقات الواجبة والمندوبة للأقربين والمعوزين ومصالح الأمة.

والتعبير بالإنفاق أعم من التعبير بالزكاة.

٤ ـ ﴿أولئـك هم المؤمنون حقـاً﴾ أي: أولئك المـوصوفـون بتلك الصفات كلها هم دون سواهم ـ ممن لم يتصف بها ـ المؤمنون إيماناً حقاً، أو حق الإيمان الذي لا نقص فيه، ذلك بأن الإيمان حق الإيمان هو ما أعقبه التصديقُ الإذعاني بأعمال القلوب والجوارح وبذل المال في سبيل الله عز وجل.

ثم بينّ تعالى جزاء هؤلاء المؤمنين الكملة فقال: ﴿لهم درجات عند

ربهم﴾ «الدرجات»: منازل الرفعة ومراقي الكرامة، وكونها عند الرب تعالى تنبيه إلى عظم قدر هذه الدرجات وتكريم لأهلها، فإن الله تعالى فضل بعض الناس، ورفعهم على بعض درجةً أو درجات في الدنيا وفي الآخرة ﴿ومغفرة ورزق كريم﴾ معناه: ولهم مغفرة من الله لذنوبهم ورزق كريم في الجنة، و «الكريم» تصف به العرب كل شيء حسن في بابه لا قُبْحَ فيه ولا شكوى منه.

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

ههنا بُدئت قصة غزوة بدر الكبرى التي كانت أول مظهر لوعد الله تعالى بنصر رسوله والمؤمنين على المشركين، بذكر خروج النبي ﷺ من بيته في المدينة، وكراهة فريق من المؤمنين لخروجه.

٥ ــ قال تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ أي: إن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية، وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها، والذين كانوا يرون أنهم أحق بها وأهلها، فهي كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين في الظاهر، وكون تلك الطائفة هي المقاتلة في الواقع، والحال أن كثيراً من المؤمنين لكارهون لذلك لعدم استعدادهم للقتال.

(خبر معركة بدر الكبرى)

ولا يظهر المعنى تمام الظهور في الآيات إلا ببيان ما وقع من ذلك، وأَجمعه رواية محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن

عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس، كُلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سُقْتُ من حديث بدرٍ قالوا:

لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام، ندب المسلمين إليهم وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنْفِلَكموها» فانتدب الناسَ فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فَحَذِرَ عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى «برك الغماد»[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من

---

(١) «بَرك» بفتح الباء وعليه الأكثر، وقد كسرها بعضهم. و«الغُماد» بكسر الغين وضمها، والكسر أشهر، وهو موضع في أقصى اليمن، أو هو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر.

عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: «أجل»، فقال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت بـه هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لَصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء[1]، ولعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله. فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، ثم وقعت المعركة وكان ما كان من نصر الله تعالى لهم وإمدادهم بالملائكة كما سيأتي في الآيات التالية.

٦ ــ ﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين﴾ قال بعض العلماء: إن هذه الآية نزلت في مجادلة المشركين للنبي ﷺ في أمر الدين والتوحيد. وهي بهم أليق، ولكن ما قبلها وما بعدها في بيان حال المؤمنين، وما كان من هفوات بعضهم التي محصهم الله بعـدها دليل على كونها فيهم وفاقاً لأبي جعفر ابن جـريـر الذي رد ذلك القول وأيده فيه ابن كثير، وذكر أن مجاهداً فسر «الحق» هنا بالقتال وكذا ابن إسحاق وعلل الجدال فيه بقوله: كراهيةً للقاء المشركين وإنكاراً لمسير قريش حين ذُكروا لهم، حيث صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها، وضعفهم وقوتها، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها، وطفقوا يعتذرون للنبي ﷺ اعتذارات جدلية بأنهم لم يخرجوا إلا للعير، ولم يذكر لهم قتالاً بدليل عدم أمرهم بالاستعداد للقتال، ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدال فيه وجه ما، فإنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعد الله تعالى، فلم يبق لجدالهم وجه إلا الجبن والخوف من القتال، ولذلك قال: ﴿كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ أي: كأنهم من فرط جزعهم ورعبهم يساقون إلى الموت سوقاً لا مهرب منه لظهور أسبابه، حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم،

---

(١) «صبر وصدق» كل منهما بضمتين جمع: «صبور وصدوق».

وهي ما ذكرنا من التفاوت بين حالهم وحال المشركين في العَدد والعُدد والخيل والزاد، ولكن الله تعالى وعد رسوله والمؤمنين الظفر بهم، وهذا دليل قطعي لا يتخلف عند المؤمن الموقن، وما تلك إلا أسباب عادية كثيرة التخلف، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وهكذا أنجز الله وعده وكان الظفر التام للمؤمنين، وقد بين تعالى ذلك كله بقوله:

٧ ــ ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ وإحدى الطائفتين: العير أو النفير ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي: وتحبون وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة ــ وهي العير ــ تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوكة: الحِدَّة والقوة. وإنما عبر عنها بهذا التعبير للتعريض بكراهتهم للقتال، وطمعهم في المال، ﴿ويريد الله أن يحق الحق بكلماته﴾ أي: ويريد الله بوعده غير ما أردتم، يريد أن يحق الحق الذي أراده بكلماته المنزلة على رسوله، أي: وَعْدُه لكم إحدى الطائفتين مبهمةً وبيانها له معينة مع ضمان النصر له ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ المعاندين له من مشركي مكة وأعوانهم باستئصال شأفتهم ومحق قوتهم، فإن دابر القوم آخرهم الذي يأتي من دبرهم ويكون من ورائهم، ولن يصل إليه الهلاك إلا بهلاك مَنْ قبله من الجيش، وهكذا كان الظفرُ ببدر فاتحةَ الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة.

قال في الكشاف: يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسَفْسَاف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأموالكم، والله عز وجل يريد معالي الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق وعلو الكلمة والفوز في الدارين، وشتان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزكم وأذلهم، وحصل لكم من المنافع بذلك ما لا تعارض أدناه العيُر وما فيها.

٨ ــ ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ أي: وعد بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة، ليحق الحق أي: يقرَّه ويثبته لأنه الحق ــ وهو الإسلام ــ ويبطل الباطل أي: يزيله ويمحقه ــ وهو الشرك ــ ﴿ولو كره

المجرمون﴾ أولو الاعتداء والطغيان من المشركين. وإحقاق الحق وإبطال الباطل لا يكون باستيلائهم على العير، بل بقتل أئمة الكفر والطاغوت من صناديد قريش المعاندين الذين خرجوا إليكم من مكة ليستأصلوكم.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يده وجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه

وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى:

٩ ــ ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ الآية. والاستغاثة: طلب الغَوث والإنقاذ من الهلكة ﴿فاستجاب لكم أني ممدكم﴾ أي: بأني ممدكم ومغيثكم ﴿بألف من الملائكة مردفين﴾ أي: يردفونكم، أو يردف بعضهم بعضاً ويتبعه.

١٠ ــ ثم بين تعالى أن هذا الإمداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية فقال: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم﴾ أي: وما جعل عز شأنه هذا الإمداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما وعدكم ﴿ولتطمئن به قلوبكم﴾ أي: تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم، فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان. فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، – وسيأتي في مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ــ ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية، فهو عز وجل الفاعل للنصر مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية، إذ هو المسخر لها، وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ عزيز: غالب على أمره، حكيم: لا يضع شيئاً في غير موضعه.

١١ ــ ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ هذه منة أخرى من مننه تعالى على المؤمنين، التي كانت من أسباب ظهورهم على المشركين، وهي إلقاؤه تعالى النعاس عليهم حتى غشيهم، أي: غلب عليهم تأميناً لهم من الخوف الذي كان يساورهم. روى أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي رضي الله عنه، قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح»، وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام، ولكن قد ينعس، والنعاس فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم، فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كله، فمتى زال كان نوماً ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز

الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ وهذه منة ثالثة منه عز وجل على المؤمنين، كان لها شأن عظيم في انتصارهم على المشركين، روى ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جرير عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أن المشركين غلبوا المسلمين في أول أمرهم على الماء، فظمىء المسلمون وصلوا مجنبين محدثين، وكان بينهم رمال، فألقى الشيطان في قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادي ماءً فشرب المسلمون وتطهروا وثبتت أقدامهم ـ أي: على الرمل اللين لتلبده بالمطر ـ وذهبت وسوسته.

هذا أثبت وأوضح وأبسط ما ورد في المأثور عن هذا المطر في بدر، ولولا هذا المطر لما أمكن المسلمين القتال لأنهم كانوا رجالة ليس فيهم إلا فارس واحد هو المقداد كما تقدم وكانت الأرض دهاساً تسيخ فيها الأقدام أو لا تثبت عليها.

١٢ ـ ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ المعنى: أنه يثبت الأقدام بالمطر في وقت الكفاح الذي يوحي فيه ربك إلى الملائكة آمراً لهم أن يُثَبِّتُوا به الأنفس، والمعية في قوله: «أني معكم» معية الإعانة كقوله: «إن الله مع الصابرين» ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي: الخوف الذي يملأ القلب، والتعبير: بإلقاء الرعب وبقذف الرعب في القلب للإشعار بأنه يُصَبُّ في القلوب دفعة واحدة ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ أي: فاضربوا الهام وافلقوا الرؤوس، أو اضربوا على الأعناق، واقطعوا الأيدي ذات البنان التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره، وهو متعين في حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين، فإذا لم يسبق هذا إلى قطع يده قطع ذلك رأسه.

و«البنان» جمع «بنانة» وهو: أطراف الأصابع.

١٣ ـ ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي: ذلك الذي ذكره كله من تأييده تعالى للمؤمنين وخذلانه للمشركين، بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله أي: عادوهما فكان كل منهما في شق غير الذي فيه الآخر، فالله هو الحق والداعي إلى الحق، ورسوله هو المبلغ عنه الحق، والمشركون على الباطل

وما يترتب عليه من الشرور والخرافات ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ أي: فإن عقاب الله شديد، وبالاعتداء على أوليائه أولاً بمحاولة ردهم عن دينهم بالقوة والقهر وإخراجهم من ديارهم ثم اتباعهم إلى مهجرهم يقاتلونهم فيه.

١٤ ــ ﴿ذلكم فذوقوه﴾ الخطاب للمشركين المنكسرين في غزوة بدر، أي: لمن بقي منهم من الأسرى والمهزومين، والمعنى: الأمر ذلكم فذوقوا هذا العقاب الشديد وهو الانكسار والانهزام مع الخزي والذل أمام فئة قليلة العدد والعُدَدِ من المسلمين، ﴿وأن للكافرين عذاب النار﴾ هذا عطف على ما قبله أي: والأمر المقرر مع هذا العقاب الدنيوي، أن للكافرين عذاب النار في الآخرة، فمن أصر منكم على كفره عُذِّب هنالك فيها، وهو شر العذابين وأدومها.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

١٥ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي: إذا لقيتموهم حال كونهم زاحفين زحفاً لقتالكم كما كانت الحال في غزوة بدر، فإن الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فَثَقِفُوهم في بدر ﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي: فلا تولوهم ظهوركم وأقفيتكم منهزمين منهم، وإن

كانوا أكثر منكم عدداً وعُدَداً، وإذا كان التزاحف من الفريقين أو كان الزحف من الفريقين أو كان الزحف من المؤمنين فتحريم الفرار والهزيمة أولى.

١٦ ـ ﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ عبر بلفظ تولية الدبر في وعيد كل فرد كما عبر به في نهي الجماعة، لتأكيد حرمة جريرة الفرار من الزحف، وكون الفرد فيها كالجماعة، وآثر هذا اللفظ مفرداً وجمعاً على لفظ الظَّهر والأقفية زيادة في تشنيعها، لأنه لفظ يكنى به عن السوأة أي: وكل من يولهم يوم إذ تلقونهم دبره ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾ أي: إلا متحرفاً لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه، أو متحرفاً لضرب من ضروبه رآه أبلغ في النكاية بالعدو، كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه فينفرد عن أشياعه فيكرّ عليه فيقتله ﴿أو متحيزاً إلى فئة﴾ أي: منتقلاً إلى فئة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه، لينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم، فصاروا أحوج إليه ممن كان في حيزهم ﴿فقد باء بغضب من الله﴾ أي: فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله عليه ﴿ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ومأواه الذي يلجأ إليه في الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير جهنم.

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي، وقد جاء التصريح بذلك في أحاديث أصحها عن أبي هريرة مرفوعاً عند الشيخين: «اجتنبوا السبع الموبقات» أي: المهلكات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتوليّ يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد قيد[1] بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين.

---

(١) قوله: «وقد قيد بعض العلماء هذا» الخ... ما ذكره العلماء من قيود وشروط لاعتبار التولي من الزحف محرماً وكبيرة من كبائر الذنوب، يقوم على أساس اعتبار العَدد، وذلك لأن عدد الجيش كان في الماضي هو المعتبر والمحسوب لإحراز النصر في الغالب والظاهر، ولكن: في عصرنا تغيّرت الأحوال بسبب تطور آلات الحرب والقتال في البر والبحر والجو، فلم يبق لعدد الجند ما كان له في الماضي من أهمية وتأثير، وخلاصة ما نريد أن نقوله في هذا المجال: =

قال الشافعي رحمه الله تعالى: إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة. وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ولا يستوجبون السخط عندي من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة، وروى هو وابن أبي شيبة عن ابن عباس قال: «مَنْ فر من ثلاثة فلم يفر، ومَنْ فر من اثنين فقد فر».

١٧ ـ ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ أي: ها أنتم أولاء قد انتصرتم عليهم على قلة عددكم وعُدَدِكُمْ وكثرتهم واستعدادهم، وإنما ذلك بتأييد الله تعالى لكم، وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذريع بمحض قوتكم واستعدادكم المادي، ولكن الله قتلهم بأيديكم بما كان من تثبيت قلوبكم وبإلقائه الرعب في قلوبهم، والمؤمن أجدر بالصبر ـ الذي هو الركن الأعظم للنصر ـ من الكافر، لأنه أقل حرصاً على متاع الدنيا، وأعظم رجاء بالله والدار الآخرة كما قال تعالى: «ولا تهنوا في ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا ترجون».

ثم التفت عن خطاب المؤمنين المقاتلين بأيديهم، والمجندلين لصناديد المشركين بسيوفهم، إلى خطاب قائدهم وهو الرسول ﷺ المؤيد منه تعالى بالآيات ومنها أنه رمى المشركين[1] يومئذ بقبضة من التراب قائلاً: «شاهت

= أنه عند الكلام في الفرار من الزحف في أيامنا ينبغي أن نأخذ بالاعتبار تبدُّل أساليب القتال وتطور المعدات والأسلحة، وأن لا يكون الحكم بجواز الفرار أو عدمه مبنياً على العدد فحسب، بل لا بد من مراعاة العُدَّة القتالية نوعاً وكمّاً. مع التأكيد على أنه يجب على المسلمين أن يملكوا أحدث الآلات الحربية وأقواها في كل عصر مهما تطورت، لحماية الإسلام وصون الأمة والنفوس، وإن لم يفعلوا ذلك فهم آثمون.

(١) قوله: «ومنها أنه رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب إلخ» ثم قوله بعد ذلك: «وروى مثل هذه الرمية في غزوة حنين».

ونقول: تحقيق القول في هذه المسألة: أن النبي ﷺ تناول كفاً من حصباء الأرض يوم بدر ورمى بها في وجوههم وقال: «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا شُغِل بعينه فانهزموا، وقد روى ذلك الطبراني بإسناد حسن والواقدي والطبري. =

الوجوه» فأعقبت رميته هزيمتهم، وروي حصول مثل هذه الرمية في غزوة «حُنين» ﴿وما رميت إذ رميت﴾ أي: وما رميت أيها الرسول أحداً من أولئك المشركين، في الوقت الذي رميت فيه تلك القبضة من التراب بإلقائها في الهواء فأصابت وجوههم، فإن ما أوتيته كأمثالك من البشر من استطاعة على الرمي لا يبلغ هذا التأثير الذي هو فوق الأسباب الممنوحة لهم ﴿ولكن الله رمى﴾ وجوههم كلهم بما أوصل التراب الذي ألقيته في الهواء إليها..

وأما قوله تعالى: ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ فهو معطوف على تعليل مستفاد مما قبله، أي: إنه فعل ما ذكر لإقامة حجته وتأييد رسوله، «وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً»، بالنصر والغنيمة وحسن السمعة. و«البلاء»: الاختبار بالحسن أو بالسيء كما قال تعالى في بني إسرائيل: «وبلوناهم بالحسنات والسيئات». وختم الآية بقوله: ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي: إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة المؤمنين مع الرسول ربهم، ودعائهم إياه وحده، عليم بصدقهم وإخلاصهم، وبما يترتب على استجابته لهم من تأييد الحق الذي هم عليه وخذلان الشرك، كما أنه سميع لكل نداء وكلام، عليم بالنيات الباعثة عليه، والعواقب التي تنشأ عنه، وبكل شيء.

١٨ ــ ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ أي: الأمر في المؤمنين وفائدتهم مما تقدم هو ذلكم الذي سمعتم، ويضاف إليه تعليل آخر وهو أن الله تعالى موهن كيد الكافرين، أي: مضعف كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ والمؤمنين، ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح قبل أن تقوى وتشتد.

١٩ ــ ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ قيل: إن الخطاب للكفار، ذَكَر خذلانهم وإضعاف كيدهم، ثم التفت عنه إلى تذكيرهم وتوبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان

= أما حصول هذه الرمية وقوله ﷺ عندها «شاهت الوجوه» يوم حنين، فقد رواه مسلم في صحيحه. ولا تعارض بين الروايتين، إذ لا مانع من أن يكون ﷺ فعل ذلك مرتين، أما قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت﴾ فهو إشارة إلى رمية بدر، لأن سياق الآيات فيها.

أقطع للرحم وأتى بما لا يعرف فأَحِنْه الغداة» أي: أهلكه فكان ذلك استفتاحاً منه. رواه أحمد، ورواه النسائي والحاكم في المستدرك وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم. وفي رواية: أن أبا جهل قال حين التقى الجمعان: «اللهم رب ديننا القديم ودين محمد الحديث، فأيُّ الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم».

فالفتح هو نصر النبي ودينه وأتباعه ﴿وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ أي: وإن تنتهوا عن عداوة النبي ﷺ وقتاله فالانتهاء خير لكم، لأنكم لا تكونون إلا مغلوبين مخذولين، والخيرية في هذه الحالة بالإضافة إلى الاستمرار على العدوان والقتال، ويحتمل أن يراد به الانتهاء عن الشرك فتكون الخيرية على حقيقتها وكمالها ﴿وإن تعودوا نعد﴾ أي: وإن تعودوا إلى مقاتلته نعد لما رأيتم من الفتح له عليكم، حتى يجيء الفتح الأعظم الذي يذل فيه شرككم، وتدول الدولة للمؤمنين عليكم ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾ أي: ولن تدفع عنكم جماعتكم من المشركين شيئاً من بأس الله وبطشه ولو كثرت عدداً، فالكثرة لا تكون سبباً للنصر، إلا إذا تساوت مع القلة في الثبات والصبر، والثقة بالله عز وجل ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ بالمعونة والولاية والتوفيق فلا تضرهم قلتهم.

وقيل: إن الخطاب في قوله: «إن تستفتحوا» وما بعده للمؤمنين كسابقه ولاحقه والمعنى: إن تستنصروا ربكم وتستغيثوه عند شعوركم بالضعف والقلة فقد جاءكم النصر، وإن تنتهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يأمر به الرسول ومجادلته في الحق بعدما تبين فهو خير لكم. وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تهييج العدو، ولن تغني عنكم كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر، فها نحن أولاء قد نصرناكم على قلتكم وضعفكم.

وهذا أقوى من كل ما رأيناه في تصوير المعنى فأكثر ما قالوه ظاهر التكلف، ولولا السياق لكان المعنى الأول أرجح لأنه أظهر.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

٢٠ ـ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ ذكرت هذه الطاعة في الآية الأولى من هذه السورة وأعيدت هنا ليعطف عليها قوله: ﴿ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون﴾ أي: ولا تتولوا وتعرضوا عن الرسول ﷺ والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصَرّح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصره، والمراد بالسماع هنا سماعُ الفهم والتصديق والإذعان الذي هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا: «سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، والموصوفين بقوله عز وجل: «فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب»، ثم قرر هذا المعنى وبين مقابله بقوله:

٢١ ـ ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ وهم فريقان:

الأول: الكفار المعاندون من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، وأمثالهم من الكفار المعاندين والمقلدين.

الثاني: المنافقون الذين قال تعالى في بعضهم: «ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً؟» وتقدم في سورة «الأعراف» من صفات أهل النار في الدنيا: «ولهم آذان لا يسمعون بها» مع آيات أخرى، والمراد في هذا كله: أنهم لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل.

٢٢ ـ ثم علل الأمر والنهي بقوله: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ «الدواب» جمع دابة وهو: كل ما يدب على الأرض قال في سورة «النور»: «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه

ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع» وقلما يستعمل هذا اللفظ في الإنسان وحده، وإنما يغلب في الحشرات ودواب الركوب.

والمعنى: إن شر ما يدب على الأرض في حكم الله الحق هم الأشرار من البشر، «الصم» الذين لا يلقون السمع لمعرفة الحق والاعتبار بالموعظة الحسنة، فكانوا بفقد منفعة السمع كالذين فقدوا حاسته، «البكم» الذين لا يقولون الحق، كأنهم فقدوا قوة النطق، «الذين لا يعقلون» أي: فقدوا فضيلة العقل الذي يميز بين الحق والباطل، ويفرق بين الخير والشر، إذ لو عقلوا لطلبوا، ولو طلبوا لسمعوا وميزوا، ولو سمعوا لنطقوا وبينوا، وتذكروا وذكروا، كما قال تعالى: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»، فهم لفقدهم منفعة العقل والسمع والنطق كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى.

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

٢٣ ـ ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي: ولو علم الله فيهم استعداداً للإيمان والهدى ببقية من نور الفطرة، لم تطفئها مفاسد التربية وسوء القدوة، لأسمعهم بتوفيقه وعنايته الكتاب والحكمة سماع تفقه وتدبر، ولكنه علم أنه لا خير فيهم لأنهم ممن أحاطت بهم خطاياهم وختم على قلوبهم ﴿ولو أسمعهم﴾ وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لتولوا﴾ عن القبول والإذعان لما فهموا ﴿وهم معرضون﴾ والحال أنهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به كراهة وعناداً للداعي إليه، لا تولياً عارضاً موقتاً، وفرق عظيم بين التولي العارض لصارف موقت، وتولي الإعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحق وقبول الخير فقداً تاماً.

والآية نص في أنه تعالى لم يُسْمِعْهم أي: لم يوفقهم للسماع النافع لأن الباعث عليه هو ما في الفطرة من نور الحق المحبب للنفس في الخير، وقد فقدوا ذلك بإفسادهم لفطرتهم، وإطفائهم لنور الاستعداد للحق والخير الذي يذكيه سماع الحكمة والموعظة الحسنة.

وأما المسلمون في هذه البلاد[1] فأكثرهم اليوم يسمعون القارىء يتلو القرآن فلا يستمعون له ولا يشعرون بأنهم في حاجة إلى سماعه، وأكثر الذين يستمعون له وينصتون يقصدون بذلك التلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغمات، ومنهم من يقصد بسماعه التبرك فقط، ومنهم من يحضر الحفاظ لتلاوته عنده في ليالي رمضان لأن ذلك من شعائر أكابر الوجهاء، وإنما تكون التلاوة في حجرة البواب أو غيره من الخدم، وإذا سمعت بعض السامعين للتلاوة يقول: الله الله، أو غير ذلك من كلمة مفردة أو مركبة أو صوت لا معنى له فإنما ينطق به إعجاباً بنغمة التالي، حتى إنهم لينطقون عند سماعه ببعض الأصوات التي تخرج من أفواههم عند سماع الغناء.

دُعيت مرة إلى حفلة عرس فإذا أنا بقارىء يتلو بالنغم والتطريب وبعض الحاضرين يهتز وينطق بتلك الحروف المعتادة في مجالس الغناء ويستعيدون بعض الجمل أو الآيات كما يستعيدون المغني على سواء وكان القارىء يتلو تلك الوصايا الصادعة من سورة الإسراء وما يتلوها من وصف القرآن وهدايته ومواعظه وتوبيخ المعرضين عنه كقوله تعالى: «ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً» إلى قوله: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً، نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً».

فلما سمعت مُكَاءَ أولئك السفهاء ــ أي: صغيرهم ــ وأصواتهم المنكرة

---

(١) قوله: «وأما المسلمون في هذه البلاد» إلى آخر هذا المقطع المنتهي مع أول الآيات التالية، نقول: ليس الشيء الذي يستنكره المؤلف مما ذكره حاصلاً في مصروحدها، بل عمت هذه البلوى، وانتقلت إلى غيرها من بلاد المسلمين، فصاروا يفعلون الشيء ذاته من صياح وصراخ واهتزاز عند سماع النغم بتلاوة الآيات، ولقد آثرنا إبقاء هذا المقطع مما ذكره المؤلف ــ رحمه الله ــ كما هو لما فيه من فوائد.

عند سماع هذه الحكم الروائع، والمواعظ الصوادع، لم أملك نفسي أن صحت فيهم صيحة مزعجة ووقفت على الكرسي الذي كنت جالساً عليه ووبختهم توبيخاً شديداً، مبيناً لهم ما يجب من الأدب والخشوع والخشية عند سماع القرآن ولا سيما أمثال هذه الآيات، وتلوت عليهم قوله تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»، فسكنوا وسكتوا إلا واحداً منهم أخذته العزة بالإثم، ولكنه صار يتظاهر بأنه يهتز متخشعاً، ويهمهم معتبراً متدبراً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

٢٤ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ أي: إذا علمتم ما فرضنا عليكم من الطاعة، وشأن سماع التفقه من الهداية، وقد دعاكم الرسول بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم، فأجيبوا الدعوة بعناية وهمة، وعزيمة وقوة، فهو كقوله تعالى: «خذوا ما آتيناكم بقوة»، والمراد بالحياة هنا: حياة العلم بالله تعالى وسننه في خلقه، وأحكام شرعه الواردة في كتابه وسنة نبيه، والحكمة والفضيلة والأعمال الصالحة التي تكمل بها الفطرة الإنسانية في الدنيا، وتستعد للحياة الأبدية في الآخرة. وقيل: الحياة هي القرآن ولا شك أنه ينبوعها الأعظم، الهادي إلى سبيلها الأقوم، مع بيانه من سنة الرسول وهديه الذي أمرنا بأن يكون لنا فيه أسوة حسنة، ويدل عليه اقتران طاعته بطاعة الله تعالى. والجدير بالبيان هنا: أن طاعته ﷺ واجبة في حياته

وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه الله تعالى به، كبيانه لصفة الصلوات وعددها، والمناسك ومقادير الزكاة وغير ذلك.

وأما من يقولون: إن النبي ﷺ إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده، فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الإسلام، بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى ويجب التأسي به في كل زمان إلى يوم القيامة ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ هذا تنبيه لأمرين عظيمين أمرنا الله أن نعلمهما علمًا يقيناً إذعانياً، لما لهما من الشأن في مقام الوصية بالاستجابة لدعوة الحياة الإنسانية العليا التي فيها سعادة الدنيا والآخرة، الأول: أن من سنة الله في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه، الذي هو مركز الوجدان والإدراك ذي السلطان على إرادته وعمله، وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه، إذا غفل عنها وفرط في جنب ربه، كما أنه أرجى ما يرجوه المسرف عليها إذا لم ييأس من روح الله فيها، فهذه الجملة أعجب جمل القرآن ولعلها أبلغها في التعبير، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية، وعلم الصفات الربانية، وعلم التربية الدينية، التي تعرف بدقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء، فبينا زيد من الناس يسير على سبيل الهدى، إذا بقلبه قد تقلب بعصوف هوى جديد، يميل به عن الصراط المستقيم، من شبهة تزعزع الاعتقاد، أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد، فيطيع هواه، ويتخذه إلهه من دون الله على أنه مختار، فلا جبر ولا اضطرار.

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه، أنه كان منهمكاً في شهواته ولهوه، تاركاً لهداه وطاعة ربه، فنزل يوماً في زورق مع خلان له في نهر دجله للتنزه ومعهم النبيذ والمعازف، فبينا هم يعزفون ويشربون، إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة «إذا الشمس كورت» فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة، فاستمع له وأنصت، حتى إذا بلغ قوله تعالى: «وإذا الصحف نشرت» امتلأ قلبه خشية من الله، فأخذ العود من العازف فكسره وألقاه في دجلة، وثنى بنبذ قناني النبيذ وكؤوسه فيها، وصار يردد الآية، وعاد إلى منزله تائباً من كل معصية، مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة.

فتذكير الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الإنسان، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الإرادات والأعمال، وأمره إيانا بأن نعلمها علم إيقان وأذعان، يفيدنا فائدتين هما: أن لا يأمن الطائع المشمِّر من مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه، وأن لا ييأس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله، فيسترسل في اتباع هواه، حتى تحيط به خطاياه. ومن لم يأمن عقاب الله، ولم ييأس من رحمة الله، يكون جديراً بأن يراقب قلبه، ويحاسب نفسه على خواطره، ويعاقب نفسه على هفواته، لتظل على صراط العدل المستقيم، متجنبة الإفراد والتفريط، ويتحرى أن يكون دائمًا بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات، ويساعدنا على ذلك الأمر الثاني: وهو تذكر حشرنا إليه عز وجل ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، ومجازاته إيانا عليها إما بالعذاب الأليم، وإما بالنعيم المقيم، وهذا منه مقتضى الفضل وذلك أثر العدل.

ومن تفسير القرآن بالقرآن في تقليب القلوب قوله تعالى من سورة «الأنعام»: «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون» قال الراغب: تقليب الله القلوب، صَرْفُها من رأي إلى رأي.

وروى البخاري وأصحاب السنن ــ إلا أبا داود ــ من حديث عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: كانت يمين النبي ﷺ «لا ومقلب القلوب» وفي رواية له عنه: أكبرُ ما كان النبي ﷺ يحلف «لا ومقلب القلوب» وفي معناه أحاديث أخرى عند ابن ماجه وغيره.

بعد هذه الأوامر والنواهي الخاصة بأعمال الناس الاختيارية الشخصية، وما يخشى أن تؤدي إليه مما يحرمهم من الهداية الخصوصية أمرهم باتقاء نوع من أنواعٍ الفتن الاجتماعية التي تكون تبعة عقوبتها مشتركة بين المصطلي بناره فعلاً، وبين المؤاخذ به لتقصيره في درئه، وإقراره على فعله، تعالى:

٢٥ ــ ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ أي: واتقوا وقوع الفتن التي من شأنها أن تقع بين الأمم، في التنازع

على مصالحها العامة من الملك والسيادة، أو التفرق في الدين والشريعة، فإن العقاب على ذنوب الأمم أثر لازم لها في الدنيا قبل الآخرة.

فعن عدي بن عميرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة» أخرجه أحمد بسند حسن، وهو عند أبي داود من حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدي، وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره.

وهذه الروايات متفقة صحيحة المعاني، فهي عامة إلى يوم القيامة، لأنها بيان لسنة من سنن الله تعالى في الأمم والملل كما بينا. وأما فتنة عثمان فكانت أول هذه الفتن التي اختلفت فيها الآراء فاختلفت الأعمال من أهل الحل والعقد، فخلا الجو للمفسدين من السَّبَأيين وأعوانهم من زنادقة اليهود والمجوس وغيرهم، وأعقبت فتنة الجمل وصفين، ثم فتنة ابن الزبير مع بني أمية ثم قتلهم الحسين، رضي الله عنه، الخ. ولو تداركوها كما تدارك أبو بكر، رضي الله عنه، الردة لما كانت فتنة تبعتها فتن كثيرة لا يزال المسلمون مصابين بها ومعذبين بعذابها، وأكبرها فِتَن الخلافة والملك، وفِتَن افتراق المذاهب. ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لمن خالف سننه في الأمم والأفراد التي لا تبديل لها ولا تحويل، ولمن خالف هداية دينه المزكية للأنفس وقطعيات شرعه المبنية على درء المفاسد والمضار وحفظ المصالح والمنافع. وهذا العقاب منه ما يقع في الدنيا والآخرة ومنه ما يقع في إحداهما فقط، سواء كان للأفراد أو للأمم، وعقاب الأمم المذكور في هذه الآية مطرد في الدنيا، وأول من أصابه من أمتنا الإسلامية أهل القرن الأول الذين كانوا خيرها بل خير الأمم كلها ولكنهم لما قصروا في درء الفتنة الأولى عاقبهم الله عليها عقاباً شديداً كما تقدم آنفاً، وهكذا تسلسل العقاب في كل جيل وقع فيه ذلك، ثم امتزجت الفتن المذهبية بالفتن السياسية الخاصة بالخلافة والسلطان، ولهذا كانت فتنة الخلاف بين أهل السنة والشيعة

أشد مصائب هذه الأمة وأدومها، فزالت الخلافة التي تنازعوا عليها، وتنافسوا فيها، وتقاتلوا لأجلها، ولم تزل الفتنة تزداد قوة وشباباً.

٢٦ ـ ﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ قيل: إن الخطاب للمهاجرين يذكرهم بما كان من ضعفهم وقلتهم بمكة، وقيل: إنه للمؤمنين كافة في عهد نزول السورة يذكرهم بما كان من ضعفهم في جزيرتهم بين الدول القوية من الروم والفرس، ولا مانع فيه من إرادة هذا وذاك معاً. فقوله تعالى: ﴿تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ أي: تخافون من أول الإسلام إلى وقت الهجرة أن يتَخَطَّفكم مشركو قومكم من قريش وغيرها من العرب، أي: أن ينتزعوكم بسرعة فيفتكوا بكم، كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم وتتخطفهم الأمم من أطراف جزيرتهم. قال تعالى في أهل الحرم: «أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم؟» ﴿فآواكم﴾ يا معشر المهاجرين إلى الأنصار ﴿وأيدكم﴾ وإياهم ﴿بنصره﴾ في هذه الغزوة وسيؤيدكم على الروم وفارس وغيرهم كما وعدكم في كتابه بالإجمال وبينه لكم الرسول ﷺ بالتصريح ﴿ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ هذه الثلاث وغيرها من نعمه، فيزيدكم من فضله كما وعدكم بقوله: «وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد».

ومن العبرة في الآيات: أنها حجج تاريخية اجتماعية على كون الإسلام إصلاحاً أورث ويورث من اهتدى به سعادة الدنيا، والسيادة والسلطان فيها قبل الآخرة، ولكن أعداءه قد شوهوا تاريخه، وصدوا الناس عنه بالباطل، وإن أهله قد هجروا كتابه وتركوا هدايته وجهلوا تاريخه، ثم صاروا يقلدون أولئك الأعداء في الحكم عليه، حتى زعموا أنه هو سبب جهلهم وضعفهم وزوال ملكهم الذي كان عقوبة من الله تعالى لخلفهم الطالح على تركه، بعد تلك العقوبة لسلفهم الصالح على الفتنة بالتنازع على ملكه.

فإلى متى، إلى متى أيها المسلمون[1]؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) لقد قال المؤلف ذلك عام ستة وأربعين وألف للهجرة. وها نحن بعد سبعة =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

في عدة روايات عن عبد الله بن قتادة والزهري والكلبي والسُّدي وعكرمة: أنها نزلت في أبي لبابة، رضي الله عنه، فإنه كان حليفاً لبني قريظة من اليهود، فلما خرج إليهم النبي ﷺ بعد إجلاء إخوانهم من بني النضير، أرادوا بعد طول الحصار أن ينزلوا من حصنهم على حكم سعد بن معاذ، وكان من حلفائهم من قبل غدرهم ونقضهم لعهد النبي ﷺ، فأشار إليهم أبو لبابة بأن لا يفعلوا وأشار إلى حلقه يعني: أن سعداً يحكم بذبحهم، فنزلت الآية. قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله.

فشد نفسه على سارية من المسجد وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي ـ فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له: قد تيب عليك، فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده.

ومهما يكن سبب النزول فالآية عامة تشمل كل خيانة ولذلك فسر ابن عباس خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته، و«الأمانة» بكل ما ائتمن الله عليه العباد بأن لا ينقضها، رواه عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

٢٧ ـ والمعنى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله﴾ تعالى بتعطيل فرائضه أو تعدي حدوده وانتهاك محارمه التي بينها لكم في كتابه ﴿والرسول﴾

= وخمسين عاماً: في العام الثالث من المائة الرابعة والألف نكرر القول ذاته قائلين: إلى متى، إلى متى أيها المسلمون؟ «ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق»؟

ويبدو أن في الأفق خيطاً من الأمل، نرجو أن يكون بداية فجر للإسلام جديد.

بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم، أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ أي: ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية ولا سيما الحربية، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية، فقد ورد في الحديث: «المجالس بالأمانة» رواه الخطيب من حديث علـيّ، رضي الله عنه، وحسَّنوه وأبو داود عن جابر، رضي الله عنه، بزيادة «إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام أو فرج حرام أو اقتطاع مال بغير حق» وهو حسن أيضاً، وروى أحمد وأبو داود والترمذي ــ وحسَّنه من حديث جابر أيضاً: «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة» ورواه أبو يعلى عن أنس، رضي الله عنه، وصححه السيوطي في الجامع الصغير. فإفشاء السر خيانة محرمة ويكفي في العلم بكونه سراً القرينة القولية كقول محدثك: هل يسمعنا أحد؟ أو الفعلية كالالتفات لرؤية من عساه يجيء. وآكد أمانات السر وأحقها بالحفظ ما يكون بين الزوجين.

والخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين، وقال أنس بن مالك: قلما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا عهد له، ولا دين لمن لا عهد له» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه. وروى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» زاد مسلم «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» وقد ورد في الأحاديث إطلاق الأمانة على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان، وليس المراد بهذا الحصر، بل كل ما يجب فهو أمانة، وكل حق مادي أو معنوي يجب عليك أداؤه إلى أهله فهو أمانة.

وأما قوله: ﴿وأنتم تعلمون﴾ فمعناه: والحال أنكم تعلمون مفاسد الخيانة وتحريم الله تعالى إياها، وسوء عاقبة تلك المفاسد في الدنيا والآخرة، أو تعلمون أن ما فعلتموه خيانة لظهوره، وأما ما خفي عنكم حكمه فالجهل له عذر إذا لم يكن مما علم من الدين بالضرورة أو مما يعلم ببداهة العقل،

أو استفتاء القلب، كفعلة أبي لبابة التي كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد، ولذلك فطن لها قبل أن يبرح موقفه.

ولما كان حب الأموال والأولاد مزلة في الخيانة أعلمنا به عقب النهي عنها فقال:

٢٨ ـ ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ «الفتنة»: هي الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه، أو قبوله أو إنكاره، فتكون في الاعتقاد والأقوال والأفعال والأشياء. يمتحن الله المؤمنين والكافرين، والصادقين والمنافقين، ويحاسبهم ويجزيهم بما يترتب على فتنتهم من اتباع الحق والباطل، وعمل الخير أو الشر، وفتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تخفى على ذي فهم إلا أن الأفهام تتفاوت في وجوهها وطرقها، فأموال الإنسان عليها مدار معيشته وتحصيل رغائبه وشهواته، ودفع كثير من المكاره عنه، فهو يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال، ثم أنه يتكلف العناء في حفظها، وتتنازعه الأهواء المتناوحة في إنفاقها، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقاً مقدرة وغير مقدرة، ومعينة وغير معينة، ومحصورة وغير محصورة، كالزكاة ونفقات الأزواج والأولاد وغيرهم، وكفارات بعض الذنوب المعينة من عتق وصدقة ونسك وغير ذلك. ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب غير المعينة، ويترتب عليه شيء عظيم من الأجر والثواب. والضابط لجميع أنواع البذل من صفات النفس «السماحة والسخاء» وهما من أركان الفضائل، والضابط لجميع أنواع الإمساك «البخل» وهو من أمهات الرذائل، ولكل منهما درجات ودركات.

وأما الأولاد فهم ثمرة الفؤاد وأفلاذ الأكباد، وحبهم يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والآباء، يحملها على بذل كل ما يستطاع بذله في سبيلهما من مال وصحة وراحة وغير ذلك، بل إن حب الولد قد يحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهم والإنفاق عليهم وتأثيل الثروة لهم. ففتنة الأولاد لها جهات كثيرة فهي أكبر من فتنة الأموال وأكثر تكاليف مالية ونفسية وبدنية، فالرجل يكسب الحرام ويأكل أموال الناس بالباطل لأجل أولاده كما يفعل ذلك

لكبائر شهواته، فإذا قلت شهواته في الكبر فصار يكفيه القليل من المال يقوى في نفسه الحرص على شهوات أولاده، وفتنة الأموال قد تكون جزءاً من فتنة الأولاد، فتقديمها وتأخير فتنة الأولاد من باب الانتقال من الأدنى إلى الأعلى.

فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بكسب المال من الحلال، وإنفاقه في سبيل الله من البر والإحسان، واتقاء الحرام من الكسب والإنفاق، واتقاء خطر الفتنة الثانية من جهة ما يتعلق منها بالمال وغيره مما يشير إليه الحديث، وبما أوجب الله على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنيبهم أسباب المعاصي والرذائل، قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً».

وقد عطف على هذا التحذير قوله: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ لتذكير المؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنتين، وهو إيثار ما عند الله عز وجل من الأجر العظيم، لمن راعى على أحكام دينه وشرعه في الأموال والأولاد، ووقف عند حدوده.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

هذه الآية آخر وصايا المؤمنين في هذا السياق وهي أعمها، والأصل الجامع لها ولغيرها، فالتقوى هي الشجرة، والفرقان هو الثمرة. والمراد بالفرقان هنا: العلم الصحيح والحكم الحق فيها، ولذلك فسروه بالنور، وذلك أن الفصل والتفريق بين الأشياء والأمور في العلم هو الوسيلة للخروج من حيز الإجمال إلى حيز التفصيل.

وكما يكون الفرقان في مسائل العلوم وموادها، من طبيعية وعقلية ولغوية يكون أيضاً في الأحكام والشرائع وفي الحكم بين الناس في المظالم والحقوق، وفي الحروب، وقد أطلق الفرقان على أشهر الكتب الإلهية وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وغلب على القرآن قال تعالى: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» لأن كلام الله تعالى يفرق في العلم والاعتقاد بين الإيمان

والكفر والحق والباطل، وفي الأحكام بين العدل والجور، وفي الأعمال بين الصحيح والفاسد والخير والشر.

۲۹ ـ فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ معناه: إن تتقوا الله في كل ما يجب أن يُتّقى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سننه في نظام خلقه، يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى ملكة من العلم والحكمة تفرقون بها بين الحق والباطل، وتفصلون بين الضار والنافع، وتميزون بين النور والظلمة، وتفرقون بين الحجة والشبهة. وهذا النور في العلم لا يصل إليه طالبه إلا بالتقوى. ومن ثم كانت ثمرة التقوى العامة الكاملة هنا: حصول ملكة الفرقان التي يفرق صاحبها بنوره بين الأشياء التي تعرض له، من علم وحُكم وعمل، فيفصل فيها بين ما يجب قبوله وما يجب رفضه، وبين ما ينبغي فعله وما يجب تركه، وتنكير «الفرقان» للتنويع التابع لأنواع التقوى كالفتن في السياسة والرياسة، والحلال والحرام، والعدل والظلم، فكل متق لله في شيء يؤتيه الله فرقاناً فيه، ﴿ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم﴾ أي: ويمحو بسبب هذا الفرقان وتأثيره ما كان من تدنيس سيئاتكم لأنفسكم، فتزول منها داعية العود إليها المؤدي إلى الإصرار المهلك، ويغفرها لكم بسترها وترك العقاب عليها ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ ومن أعظم فضله أن جعل هذا الجزاء العظيم بقسميه السلبي والإيجابي جزاء للتقوى وأثراً لها.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

هاتان الآيتان وما بعدهما تذكير للنبي ﷺ بما كان من حاله وحال قومه في مكة، وقد حَسُن هذا التذكير بذلك في أول العهد بنصره تعالى له على أولئك الجاحدين المعاندين، الصادين عن سبيل الله تعالى وعن اتباع رسوله بالقوة القاهرة:

۳۰ ـ قال عز وجل: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ أي: واذكر أيها

الرسول في نفسك، ما نقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك، لأنه حجة لك على صدق دعوتك، ووعد ربك بنصرك، اذكر ذلك الزمن القريب الذي يمكر بك فيه الذين كفروا من قومك في وطنك، بما يريدون فيما بينهم بالسر من وسائل الإيقاع بك ﴿ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ فأما «الإثبات» فالمراد به: الشد بالوَثاق، والإرهاق بالقيد، والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام.

وأما «القتل»: فالمكر فيه طريقته وصفته الممكنة التي لا يكون ضررها فيهم عظيمًا وهو ما بينته الرواية الآتية عنهم.

وأما «الإخراج» فهو النفي من الوطن وقد تم التشاور بينهم في الأمور الثلاثة بدار الندوة عقب موت أبي طالب وخديجة، رضي الله عنها، وكان الخروج للهجرة في الليلة التي أجمعوا فيها أمرهم على قتله ﷺ كما يأتي بيانه.

وأما قوله تعالى: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ فهو بيان لحالتهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين، بعد التذكير بشرّ ما كان منها في مكة، ولذلك لم يقل: «ويمكرون بك» أي: وهكذا دأبهم معك ومع من اتبعك من المؤمنين، يمكرون بكم ويمكر الله لكم بهم كما فَعَلَ من قبلُ إذ أحبط مكرهم، وأخرج رسوله من بينهم، إلى حيث مهد له في دار الهجرة، ووطن السلطان والقوة، «والله خير الماكرين» لأن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله، وخذل للباطل وإذلال لأهله، وإقامة للسنن، وإتمام للحكم، وقد بينا حقيقة المكر في اللغة في مواضع أخرى وخلاصته: أن المكر هو التدبير الخفي لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب، ووقاية الممكور له من المكروه كذلك. والغالب في عادات البشر أن يكون المكر فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل، ولذلك تأول المفسرون ما أسند إلى الله تعالى منه فقالوا في مثل هاتين الآيتين: إنه أسند إلى الله تعالى من باب المشاكلة بتسمية تخييب سعيهم في مكرهم أو مجازاتهم إليه باسمه، والحق أن «المكر» منه الخير والشر والحسن والسيء ــ كما قال تعالى: «استكباراً في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله».

وأما قصة مكرهم الذي ترتب عليه هجرة المصطفى وظهور الإسلام

وخذلان الشرك ففيها روايات أوفاها رواية ابن إسحاق في سيرته وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وأبو نعيم والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس، رضي الله عنه، بألفاظ متقاربة ننقل ما أورد السيوطي في الدر المنثور منها عنه قال:

إن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، واعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، سمعتُ بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل فوالله ليوشكن أن يؤاتيكم في أمركم بأمره.

فقال قائل: احبسوه في وَثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير ونابغة فإنما هو كأحدهم، فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله ليخرجن رائد من محبسه لأصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يُخرجوكم من بلادكم، فانظروا في غير هذا الرأي.

فقال قائل: فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وأين وقع، وإذا غاب عنكم أذاة استرحتم منه، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب لتجتمعن إليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق والله فانظروا رأياً غير هذا، فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي لا أرى غيره، قالوا: وما هذا؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً وسطاً شاباً نهداً، ثم يُعطى كلُّ غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل ــ أي: الدية ــ واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، القولُ ما قال الفتى لا أرى غيره. وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له.

فأتى جبريل، عليه السلام، رسول الله ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأمرهم بالهجرة، وأنزل بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه: «وإذ يمكر بك الذين كفروا» الآية، اهـ وسائر خبر الهجرة معروف.

ثم ذَكَرَ تعالى مكابرة من مكابرات هؤلاء المشركين المعاندين الماكرين، قالها بعضهم فأعجبت أمثاله منهم، فرددوها فعزيت إليهم على الاطلاق وهي:

٣١ ـ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ المنزلة في القرآن، الذي يعجز عن مثله الثقلان ﴿قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ نقل هذا القول جمهور رواة التفسير المأثور عن النضر بن الحارث من بني عبد الدار، وعلل هذه الدعوى الكاذبة بما هو أكذب منها وهو قوله: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: قصصهم وأحاديثهم التي سطرت في الكتب على علاتها وما هو بوحي من عند الله تعالى. جمع «أُسطورة».

وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

بعد أن بين تعالى مكر قريش بالنبي ﷺ بين ما يدل على أن سببه الجحود والعناد فقال:

٣٢ ـ ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ في صحيح البخاري: أن قائل هذا أبو جهل. قال الحافظ ابن حجر في شرحه من «الفتح»: الظاهر أنه أبو جهل وإن كان هذا القول نسب إلى جماعة فلعله بدأ به ورضي الباقون فنسب إليهم، وقد روى الطبراني من طريق ابن عباس: أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث قال: فأنزل الله «سأل سائل بعذاب واقع» وكذا قال مجاهد وعطاء والسدي ولا ينافي ذلك ما في الصحيح لاحتمال أن يكونا قالاه ولكن نسبته إلى أبي جهل أولى، وعن قتادة قال: قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها، ا هـ.

والمعنى: اللهم إن كان هذا القرآن وما يدعو إليه هو الحق منزلاً من عندك ليدين به عبادك كما يدعي محمد فافعل بنا كذا وكذا، أي: إنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله، بل يفضلون على اتباعه الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء أو بعذاب أليم آخر يأخذهم، ومن هذا الدعاء علم أن كفرهم عناد وكبرياء وعتو وعلو في الأرض، لا لأن ما يدعوهم إليه باطل أو قبيح أو ضار، روي أن معاوية، رضي الله عنه، قال لرجل من «سَبَأ»: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة؟ فقال الرجل: أجهل من قومي قومُك حين قالوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء» ولم يقولوا: فاهدنا له ا هـ. قال تعالى رداً عليهم:

٣٣ ــ ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ أي: وما كان من شأن الله تعالى وسنته، ولا من مقتضى رحمته ولا حكمته، أن يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم، وهو إنما أرسلك رحمة للعالمين ونعمة، لا عذاباً ونقمة، بل لم يكن من سنته أيضاً أن يعذب أمثالهم من مكذبي الرسل وهم فيهم بل كان يخرجهم منهم أولاً كما قال ابن عباس ﴿وما كان الله معذبهم﴾ هذا النوع من العذاب السماوي الذي عذب بمثله الأمم فاستأصلهم أو مطلقاً ﴿وهم يستغفرون﴾ أي: في حال هم يتلبسون فيها باستغفاره تعالى بالاستمرار، روى الشيخان من حديث أنس قال أبو جهل: «اللهم إن كان هذا هو الحق» ــ الآية ــ فنزلت: «وما كان الله ليعذبهم» إلى قوله: «وما لهم أن لا يعذبهم الله» الآية، قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث من «الفتح»: روى ابن جرير من طريق زيد بن

رومان: أنهم قالوا ذلك، ثم لما أمسوا ندموا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» وقيل: المراد استغفار من كان بين أظهرهم حينئذ من المؤمنين، قاله الضحاك وأبو مالك ويؤيده ما أخرجه الطبري: أن رسول الله ﷺ كان بمكة فأنزل الله: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» ثم خرج إلى المدينة فأنزل الله «وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» وكان من بقي من المسلمين بمكة يستغفرون، فلما خرجوا أنزل الله: «وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام» الآية ـ التالية ـ.

٣٤ ـ وأما قوله تعالى: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ أي: وماذا ثبت لهم مما يمنع تعذيبهم بما دون عذاب الاستئصال. والحال أنهم يمنعون المسلمين من دخول المسجد الحرام ولو للنسك. والمنع كان واقعاً منذ الهجرة، فما كان يقدر مسلم أن يدخل المسجد الحرام، فإن دخل مكة عذبوه إذا لم يكن فيها من يجيره. والمراد بالعذاب هنا: عذاب بدر إذ قتل صناديدهم ورؤوس الكفر فيهم، وقال الحافظ ابن حجر: العذاب الذي وعدهم به هو فتح مكة ﴿وما كانوا أولياءه﴾ أي: مستحقين الولاية عليه لشركهم ومفاسدهم فيه، كطوافهم فيه عراة الأجسام رجالاً ونساء وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء ونُدخل من نشاء فقال تعالى: ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾ للشرك وسائر الفساد والظلم، وهم المسلمون الصادقون وقد وُجدوا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أنه لا حقَّ لهم في الولاية على هذا البيت، ولا سيما بعد ظهور الإسلام، ووجود أولياء الله الموحدين الصالحين.

ثم عطف على الحكم عليهم ما هو حجة على صحته وهو بيان حالهم في أفضل ما بني البيت لأجله وهو الصلاة، إذ كان سوء حالهم في الطواف عراة معروفاً لا يجهله أحد، أو في العبادة الجامعة للطواف والصلاة فقال تعالى:

٣٥ ـ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ أي: بيت الله المعروف بالكعبة. روي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: كانت

قريش تطوف بالبيت عراة تصفِّر وتصفِّق. وقال: «المكاء»: الصفير، و«التصدية» التصفيق، وقال: كان أحدهم يضع يده على الأخرى ويصفر، وروي عنه: أن الرجال والنساء منهم كانوا يطوفون عراة مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون. ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فسر الضحاك «العذاب» هنا بما كان من قتل المؤمنين لبعض كبرائهم وأسرهم لآخرين منهم يوم بدر، أي: وانهزام الباقين مكسورين مدحورين. وفيه إشارة إلى قولهم: «أو ائتنا بعذاب أليم» كأنه يقول: فذوقوا العذاب الذي طلبتموه، وما كان لكم أن تستعجلوه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

نزل هذا في استعداد قريش لغزوة بدر وما سيكون من استعدادهم لغيرها بعدها. ويشمل اللفظ بعمومه ما سيكون مثل ذلك من الكافرين في كل زمن. ذكر رواة التفسير عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أن هذه الآية الأولى نزلت في أبي سفيان وما كان من إنفاقه على المشركين في بدر ومن إعانته على ذلك في غزوة أحد وغيرها، وقال سعيد بن جبير: إنه استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب.

٣٦ ـ ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ أي: عن الإسلام واتباع خاتم الرسل، عليه الصلاة والسلام، ﴿فسينفقونها﴾ في سبيل الشيطان صداً وفتنة وقتالاً ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ ندماً وأسفاً، لذهابها سدى، وخسرانها عبثاً، إذ لا يطيعهم ممن أراد الله هدايتهم أحد ﴿ثم

يغلبون﴾ المرة بعد المرة، وينكسرون الكرة بعد الكرة ﴿والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ أي: يساقون يوم القيامة إليها دون غيرها هذا إذا أصروا على كفرهم حتى ماتوا عليه، فيكون لهم شقاء الدارين وعذابهما.

ومن العبرة في هذا للمؤمنين أنهم أولى من الكفار ببذل أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لأن لهم بها من حيث جملتهم سعادة الدارين.

٣٧ ـ ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ يعني: أن الله تعالى كتب النصر والغلب والفوز لعباده المؤمنين المتقين، والخذلان والحسرة لمن يعاديهم ويقاتلهم من الكافرين وجعل هذا جزاء كل من الفريقين ما داما على حالهما، فإذا غيرا ما بأنفسهما غير الله ما بهما.

جعل هذا جزاءهما في الدنيا وجعل جهنم للكفار وحدهم في الآخرة، لأجل أن يميز الكفر من الإيمان، والحق والعدل من الجور والطغيان، فلن يجتمع في حكمه سبحانه الضدان، ولا يستوي في جزائه النقيضان «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث».

﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا﴾ أي: ويجعل سبحانه الخبيث بعضه منضمًا متراكباً على بعض بحسب سنته تعالى في اجتماع المتشاكلات، وانضمام المتناسبات، وائتلاف المتعارفات واختلاف المتناكرات، يقال: «رَكَمه» إذا جمع بعضه إلى بعض ومنه «سحاب مركوم» ﴿فيجعله في جهنم﴾ يجعل أصحابه فيها يوم القيامة ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ التامو الخسران وحدهم لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

لما بين الله تعالى حال الكفار الذين يصرون على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وقتال رسوله والمؤمنين، وما لهم في الدنيا والآخرة، قفى عليه ببيان حكم الذين يرجعون عنه ويدخلون في الإسلام، لأن الأنفس صارت تتشوف إلى هذا البيان، وتتساءل عنه بلسان الحال أو المقال، فقال:

٣٨ ـ ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء الكفار أي: لأجلهم وفي شأنهم إن ينتهوا عما هم عليه من عداوتك وعنادك بالدخول في الإسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ منهم من ذلك ومن غيره من الذنوب، يغفر الله ذلك في الآخرة فلا يعاقبهم على شيء منه، ويغفر لهم الرسول والمؤمنون ما يخصهم من إجرامهم فلا يطالبون قاتلاً منهم بدم، ولا سالباً أو غانماً بسلب أو غنم، روى مسلم من حديث عمرو بن العاص، رضي الله عنه، قال: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: أبسط يدك أبايعك، فبسط يمينه فقبضتُ يدي، قال: «مالك؟» قلتُ: أردت أن أشترط قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟» ﴿وإن يعودوا﴾ إلى العداء والصد والقتال ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ أي: تجري عليهم سنته المطردة في أمثالهم من الأولين الذين عادوا الرسل وقاتلوهم، وقال مجاهد: في قريش وغيرها يوم بدر والأمم قبل ذلك.

٣٩ ـ ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ أي: وقاتلهم حينئذٍ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين، حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الإيذاء كما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان في مكة حتى أخرجوكم منها لأجل دينكم، ثم صاروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة، وحتى يكون الدين كله لله أي: حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

هذا هو التفسير المتبادر[١] من اللفظ بحسب اللغة العربية وتاريخ ظهور الإسلام.

---

(١) قوله: «هذا هو التفسير المتبادر من اللفظ» اعتمد المؤلف هذا المعنى في تفسير الآية =

وروي عن ابن عباس تفسير «الفتنة» بالشرك، قال ابن كثير: وكذا قال أبو العالية ومجاهد والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم، أقول: وعليه جمهور مؤلفي التفاسير المشهورة من الخلف، قالوا: وقاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام.

﴿فإن انتهوا﴾ أي: فإن انتهوا عن الكفر وعن قتالكم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ فيجازيهم عليه بحسب علمه.

٤٠ ـ ﴿وإن تولوا﴾ وأعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ أي: فأيقنوا أن الله تعالى

= بناء على فهمه لقوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ الآية «٢٥٧» من سورة «البقرة» بأنه يعني: أن يكون الناس أحراراً في الدين لا يُكره أحد على تركه إكراهاً، ويقول: ولكن المسلمين إنما يقاتلون لحرية دينهم، وإن لم يكرهوا عليه أحداً من دونهم،

هذا ما قاله في معرض تفسير الآية التي هنا وهذا ما لا نوافقه عليه، واستدل على ذلك بأن زوال الأديان الباطلة لم يحصل حتى الآن مما يؤكد أن المراد بـ«الفتنة» الفتنة في الدين وليس الشرك، ونحن لا نوافقه على ذلك كما قلنا، لأن استدلاله ضعيف إذ عدم زوال الأديان الباطلة لا يؤثر في معنى الآية، فنحن مأمورون بالجهاد في سبيل ذلك في كل زمان حتى تتحقق هذه الغاية، فإن تحققت على أيدينا فذلك فضل من الله علينا، وإن لم يتحقق ذلك في أيامنا نكون قد قمنا بواجبنا وما فرضه الله علينا، فالرسول ﷺ جاهد مع أصحابه من أجل نشر الإسلام وإدخال الناس فيه وتوفي ﷺ والإسلام لم يبارح جزيرة العرب، ثم جاء الخلفاء الراشدون من بعده ففتح الله على أيديهم ما شاء من البلاد، وحمله المسلمون بعدهم إلى أرض أخرى لم تكن تعرفه من قبل، ولو بقي المسلمون على هذه السبيل لكانت رقعة الإسلام أوسع، ولكن قصَّروا في بعض الأجيال، فتوقف الفتح وانتشر الشرك وزاد الضلال.

فنحن نأخذ في تفسير هذه الآية بما قاله الجمهور فهو الحق والصواب، وقد زدنا هذه المسألة بياناً في تعليقنا على أقوال المؤلف في تفسيره قوله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾ الآية «٢٥٦» من سورة «البقرة» الجزء الأول ص ٢٤٨، فارجع إليه ففيه فوائد.

هو ناصركم ومتولي أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخافوا فهو ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾ هو فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره.

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

٤١ ـ ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ هذا عطف على الأمر بالقتال وما يتعلق به في الآيتين اللتين قبل هذه الآية، والجمهور على أن هذه الآية نزلت في غزوة بدر. ومعنى الآية: واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتم من الكفار المحاربين، فالحق الأول الواجب فيه أن خمسه لله تعالى يصرف فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة إلى الإسلام، وعمارة الكعبة وكسوتها وإقامة شعائره تعالى، وللرسول يأخذ كفايته منه لنفسه ـ ونسائه وكان يمونهن إلى سنة ـ ولذي القربى، أي: أقرب أهله وعشيرته إليه نسباً وولاء ونصرة وهم الذين حرمت عليهم الصدقة، ويلي ذوي القربى المحتاجون من سائر المسلمين، وهم: اليتامى والمساكين وابن السبيل.

﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ الواحد القهار، الفاعل المختار ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ الكامل في عبوديتنا محمد ﷺ من الآيات البينات، والملائكة المثبتين لكم في القتال، والنصر المبين على الأعداء ﴿يوم الفرقان﴾ الذي فرقنا به بين الإيمان

وأهله وبين الكفر وأهله وهو يوم بدر ﴿يوم التقى الجمعان﴾ جمع المؤمنين وجمع المشركين في الحرب والنزال، أي: إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إيقان وإذعان، وقد شاهدتم ذلك بالعيان، فاعلموا أن ما غنمتم من شيء قلَّ أو كثر فأن لله خمسه لأنه هو مولاكم وناصركم، كما أنه مالك أمركم في سائر شؤونكم، وللرسول الذي هداكم به وفضلكم على غيركم إلخ فيجب أن ترضوا بحكم الله في الغنائم كغيرها وبقسمة رسوله ﷺ فيها.

وفيه أن الإيمان يقتضي الإذعان النفسي والعمل. قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه: كانت ليلة الفرقان التي التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ فكان مما شهدتم من تصريف قدرته بقضائه وقدره مع تأييد رسوله وإنجاز وعده له، أن نصركم على قلتكم وجوعكم وضعفكم على ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر من الأقوياء كما تقدم في تفسير أوائل السورة.

٤٢ ــ ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾ «العُدوة» جانب الوادي والمعنى: إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا في ذلك اليوم في الوقت الذي كنتم فيه مرابطين بأقرب الجانبين من الوادي إلى المدينة، وفيه الماء ونزل المطر فيه دون غيره كما تقدم مع بيان فوائده، والأعداء في الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام ﴿والركب أسفل منكم﴾ المراد بالركب: العير التي خرج المسلمون للقائها إذ كان أبو سفيان قادماً بها من الشام أو أصحابها وهو اسم، أي: والحال أن الركب في مكان أسفل من مكانكم وهو ساحل البحر وقد ذكر هذا لأنه هو السبب لالتقاء الجمعين في ذلك المكان، ولو علم المسلمون أن أبا سفيان أخذ العير في ناحية البحر لتبعوها وما التقوا هناك بالكفار ولا تَعَيَّنَ عليهم القتال كما تقدم بيانه، ولذلك قال: ﴿ولو تواعدتم

لاختلفتم في الميعاد﴾ أي: ولو تواعدتم أنتم وهم التلاقي للقتال هنالك لاختلفتم في الميعاد، لكراهتكم للحرب على قلتكم، وعدم إعدادكم شيئاً من العدة لها، وانحصار همكم في أخذ العير ﴿ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي: ولكن تلاقيتم هنالك على غير موعد ولا رغبة في القتال، ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه وحكمته أنه واقع مفعول لا بد منه، وهو القتال المفضي إلى خزيهم ونصركم عليهم، وإظهار دينه وصدق وعده لرسوله.

﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيّ عن بينة﴾ أي: فعل ذلك ليرتب على قضاء هذا الأمر أن يهلك من هلك من الكفار عن حجة بينة مشاهدة بالبصر على حقية الإسلام، بإنجاز وعده تعالى للنبي ﷺ ومن معه، ويحيا من حيّ من المؤمنين عن بينة قطعية حسية كذلك فيزدادوا يقيناً بالإيمان، ونشاطاً في الأعمال ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوال أهل الإيمان والكفر، ولا من عقائدهم وأفعالهم، فهو يسمع ما يقول كل فريق من الأقوال الصادرة عن عقيدته، والأعذار التي يعتذر بها عن تقصيره في أعماله، عليم بما يخفيه ويكنه من ذلك وغيره، فيجازي كلاً بحسب عمله.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

٤٣ - ﴿إذ يريكهم الله في منامكم قليلاً﴾ المعنى: إن الله تعالى أرى رسوله في ذلك اليوم أو الوقت رؤيا منامية مَثَّل له فيها عدد المشركين قليلاً فأخبر بها المؤمنين فاطمأنت قلوبهم، وقويت آمالهم بالنصر عليهم كما قال مجاهد، ﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ أي: أحجمتم ونكلتم عن لقائهم بشعور الجبن

والضعف ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي: ولو وقع بينكم النزاع وتفرق الآراء في أمر القتال، فمنكم القوي الإيمان والعزيمة يقول: نطيع الله ورسوله ونقاتل، ومنكم الضعيف الذي يثبط عن القتال بمثل الأعذار التي جادلوا بها الرسول كما تقدم في قوله تعالى: «يجادلونك في الحق بعدما تبين» الآية.

﴿ولكن الله سلم﴾ أي: سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الكلمة وعواقب ذلك ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: عليم بما في القلوب التي في الصدور، من شعور الجبن والجزع الذي تضيق به فتنكل عن الإقدام على القتال، ومن شعور الإيمان والتوكل الذي يبعث فيها طمأنينة الشجاعة والصبر فيحملها على الإقدام، فيسخر لكل منها الأسباب التي تفضي إلى ما يريده منها.

٤٤ ـ ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ الخطاب هنا للمؤمنين كافة والرسول ﷺ معهم، فالمعنى: وفي ذلك الوقت الذي يريكم الله الكفار عند التلاقي معهم قليلاً، ويثبتكم بملائكته، ويقللكم في أعينهم لقلتكم بالفعل، ولما كان عندهم من الغرور والعجب. حتى قال أبو جهل: إنما أصحاب محمد أَكَلَةُ جزور. أي: كانوا يأكلون في كل يوم جزوراً. ومعنى التقليل: ليقدم كل منكم على قتال الآخر، هذا الفريق واثقاً بنفسه، وهذا متكلاً على ربه واثقاً بوعده، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم، فيقضي بإظهاركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً، فهيأ له أسبابه وقدرها تقديراً.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ فلا ينفذ شيء في العالم إلا ما قضاه تعالى وقدر أسبابه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

٤٥ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ هو النداء الإلهي السادس للمؤمنين في هذه السورة، وهو في إرشادهم إلى القوة المعنوية للمقاتلين التي هي السبب الغالب للنصر والظفر. و«الفئة»: الجماعة وغلّبت في جماعة المقاتلين. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار ـ وكذا البغاة ـ في القتال فاثبتوا لهم ولا تفروا من أمامهم.

﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: وأكثروا من ذكر الله في أثناء القتال وتضاعيفه، اذكروه في قلوبكم بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سننه، واذكروه أيضاً بألسنتكم موافقة لقلوبكم بمثل التكبير الذي تستصغرون بملاحظة معناه كل ما عداه والدعاء والتضرع إليه عز وجل مع اليقين بأنه لا يعجزه شيء.

﴿لعلكم تفلحون﴾ هذا الرجاء منوط بالأمرين كليهما، أي: إن الثبات وذكر الله تعالى هما السببان المعنويان للفلاح والفوز في القتال في الدنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة.

٤٦ ـ ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ أطيعوا الله في هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح في القتال وفي غيرها، وأطيعوا رسوله فيما يأمر به وينهى عنه من شؤون القتال وغيرها من حيث أنه هو المبين لكلام الله الذي أنزل إليه على ما يريده تعالى منه والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، ومنه ولاية القيادة العامة في القتال، فطاعة القائد العام هي جماع النظام الذي هو ركن من أركان الظفر، فكيف إذا كان القائد العام رسول الله المؤيد من لدنه بالوحي والتوفيق؟

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ هذا النهي ملازم للأمر بالثبات وكثرة الذكر، وللأمر بطاعة الله والرسول، ومتمم للغرض منه، فإن الاختلاف والتنازع مدعاة الفشل، وهو: الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر وأما قوله تعالى:

«وتذهب ريحكم» فمعناه: تذهب قوتكم وترتخي أعصاب شدتكم فيظهر عدوكم عليكم.

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ أي: واصبروا على ما تكرهون من شدة وما تلاقون من بأس العدو، واستعداده وكثرة عدده وغير ذلك إن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد، وربط الجأش والتثبيت، ومن كان الله معه فلا يغلبه شيء، فالله غالب على أمره وهو القوي العزيز الذي لا يغالب.

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بما أمر به من جلائل الصفات وأحاسن الأعمال، التي جرت سنته بأن تكون سبب الظفر في القتال، ونهاهم عن التنازع نهاهم عما كان عليه خصومهم من مشركي مكة حين خرجوا لحماية العير من الصفات الرديئة، ذكر لهم بعض أحوالهم القبيحة، فقال:

٤٧ ــ ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس﴾ المعنى: امتثلوا ما أمرتم به من الفضائل وانتهوا عما نهيتم عنه من الرذائل، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن التي استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوة ونِعَم

لم يستحقوها، أو كفروا نعمة الله مرائين للناس بها، ليعجبوا بهم ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة والمنعة ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي: والحال أنهم يصدون بخروجهم عن سبيل الله وهو الإسلام، يحمل الناس على عداوة الرسول ﷺ والإعراض عن تبليغ دعوته وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حِلْف أو جوار ﴿والله بما يعملون محيط﴾ علمًا وسلطاناً فهو يجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

٤٨ ـ ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ أي: واذكر أيها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته وقال لهم بما ألقاه في هواجسهم: لا غالب لكم اليوم من الناس لا أتباع محمد الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب، فأنتم أعز نفراً وأكثر نفيراً وأعظم بأساً، وإني مع هذا ـ أو والحال إني ـ مجير لكم.

﴿فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ أي: فلما قرب كل من الفريقين المقاتلين من الآخر، وصار بحيث يراه ويعرف حاله، وقبل أن يلقاه في المعركة نكص أي: رجع القهقرى وتولى إلى الوراء. ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم وتركه إياهم وشأنهم وهو: ﴿وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله﴾ أي: تبرأ منهم وخاف عليهم، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة وقوله: ﴿والله شديد العقاب﴾ يجوز أن يكون هذا من كلامه، ويجوز أن يكون مستأنفاً.

لقد كان وقت تغرير الشيطان بالمشركين، وإيهامهم أنه لا غالب لهم من الناس في ذلك اليوم هو بعينه وقت تعجب المنافقين ومرضى القلوب في الدين من إقدام هذا العدد القليل من المؤمنين على قتال ذلك العدد الكثير من المشركين الذي يفوقه ثلاثة أضعاف ولا ينقصه من الاستعداد للحرب شيء، فذلك قوله تعالى:

٤٩ ـ ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾ «المنافقون»: هم الذين يظهرون الإسلام ويسرون الكفر، و«الذين في قلوبهم

مرض»: هم ضعاف الإيمان، تثور بهم الشكوك والشبهات تارة فتزلزل اعتقادهم، وتسكن تارة فيكونون كسائر المسلمين، وهل يميز أهل اليقين من الضعفاء إلا الامتحان بمثل هذه الشدائد؟

ولم ير المنافقون ومرضى القلوب علةً يعللون بها هذا الإقدام من المؤمنين الصادقين إلا الغرور بالدين وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يكونوا ممن شهد بدراً بل من المنافقين ومرضى القلوب الذين كانوا في المدينة، وقال مجاهد: هم فئة من قريش ـ سمَّاهم ـ لما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: غر هؤلاء دينهم حتى قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: يكل إليه أمره مؤمناً إيمان إذعان واطمئنان أنه هو حسبه وكافيه وناصره ومعينه، وأنه قادر لا يعجزه شيء، عزيز لا يغلبه ولا يمتنع عليه شيء أراده ﴿فإن الله عزيز حكيم﴾ أي: فهو تعالى يكفيهم ما أهمهم، وينصرهم على أعدائهم، وإن كثر عددهم، وعظم استعدادهم، لأنه عزيز غالب على أمره، حكيم يضع كل أمر في موضعه.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

٥٠ ـ ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ هذا بيان لبعض

مضمون قوله تعالى في الآية التي قبل الأخيرة «والله شديد العقاب» ومعناه: ولو رأيت أيها الرسول ـ أو الخطاب لكل من سمعه أو يتلوه ـ إذ يتوفى الذين كفروا من قتلى بدر وغيرهم ملائكة العذاب حالة كونهم ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ أي: ظهورهم وأقفيتهم بجملتها ـ وهو ضرب من عالم الغيب بأيدي الملائكة فلا يقتضي أن يراه الناس الذين يحضرون وفاتهم كما أنهم لا يسمعون كلامهم عندما يقولون لهم: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ لو رأيت ذلك لرأيت أمراً عظيمًا، يرد الكافر عن كفره والظالم عن ظلمه، إذا هو علم عاقبة أمره. والمراد بعذاب الحريق عذاب النار الذي يكون بعد البعث.

٥١ ـ ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي: ذلك العذاب الذي ذقتم وتذوقون بسبب ما كسبت أيديكم في الدنيا فقدمتموه إلى الآخرة من كفر وظلم، وهو يشمل القول والعمل سواء كان من عمل الأيدي أو الأرجل أو الحواس أو تدبير العقل، كل ذلك ينسب إلى عمل الأيدي توسعاً وتجوزاً، وأصله أن أكثر الأعمال البدنية تزاول بها ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي: وبأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، فيكون ذلك العذاب ظلمًا منه على تقدير عدم وقوع سببه من كسب أيديكم، ولكن سبب ذلك منكم ثابت قطعاً، كما أن وقوع الظلم منه لعبيده منتف قطعاً، فتعين أن تكونوا أنتم الظالمين لأنفسكم قطعاً، فلوموها فلا لوم لكم إلا عليها، وفي الحديث القدسي الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» إلخ رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

٥٢ ـ ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم﴾ أي: دأب هؤلاء وشأنهم الثابت لهم، و«الدأب»: الاستمرار على الشيء، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم من الفراعنة وسائر الملوك العتاة وأقوام الرسل في التاريخ، وقد فسره بقوله تعالى: ﴿كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم﴾ ولم يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، ونصر رسله والمؤمنين بهم عليهم، على ما بين الفريقين من تفاوت في العدد والعُدَد وسائر الأسباب فكما كان دأبهم واحداً كانت سنة

الله فيهم واحدة فنصره تعالى لرسوله والمؤمنين في بدر هو مقتضى تلك السنة ﴿إن الله قويٌّ شديد العقاب﴾ لمن يستحق عقابه، ولكن لكل شيء عنده أجلاً، قال ﷺ :« إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلتـه» رواه الشيخان والترمذي وابن ماجه من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

٥٣ ـ ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أي: ذلك الذي ذكر من أخذه تعالى لقريش بكفرها لنعم الله التي أتمها ببعثة خاتم رسله منهم، كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم، مؤيد بأمر آخر يتم به عدله تعالى وحكمته، وهو أنه لم يكن من شأنه ولا مقتضى سنته أن يغير نعمة ما أنعمها على قوم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة ﴿وأن الله سميع عليم﴾ سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم، محيط بما يكون من كفرهم للنعمة فيعاقبهم عليه.

٥٤ ـ ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ الآية السابقة المماثلة «٥٢» بيان كفرهم بآيات الله وهو جحد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة إلخ وفي تعذيب الله إياهم في الآخرة. وهذه الآية في تكذيبهم بآيات ربهم من حيث أنه هو المربي لهم بنعمه، ولهذا ذكر فيها اسم «الرب» مضافاً إليهم بدل اسم الجلالة هناك، فيدخل في ذلك تكذيب الرسل ومعاندتهم وإيذاؤهم وكفر النعم المتعلقة ببعثتهم والسابقة عليها، وفي الجزاء على ذلك بعذاب الدنيا ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ وحاصل المعنى: أن ما يحفظه التاريخ من وقائع الأمم من دأبها وعادتها في الكفر والتكذيب والظلم في الأرض، ومن عقاب الله إياها هو جار على سنته تعالى المطردة في الأمم، ولا يظلم تعالى أحداً بسلب نعمة ولا إيقاع نقمة، وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وفسادهم وظلمهم لأنفسهم، وهذا هو المطرد في كل الأمم في جميع الأزمنة.

وأما عقاب الاستئصال بعذاب سماوي فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل وأنذروهم العذاب إذا كفروا بها ففعلوا.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

الآيات الثلاث الأولى، بيان حال فريق معين من الكفار الذين عادوا النبي ﷺ وقاتلوه، بعد بيان حال مشركي قومه في قتالهم له في بدر، والمراد بهذا الفريق «اليهود» والآية الرابعة في حكم أمثال هؤلاء الخونة والخامسة في تهديدهم وتأمين الرسول ﷺ من عاقبة كيدهم، قال تعالى:

٥٥ ـ ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أي: إن شر ما يدب على وجه الأرض عند الله، أي: في حكمه العدل على الخلق، هم الكفار الذين جمعوا مع أصل الكفر الإصرار عليه والرسوخ فيه، بحيث لا يُرجى إيمانهم في جملتهم أو إيمان جمهورهم، لأنهم بين رؤساء حاسدين للرسول ﷺ ومعاندين له، جاحدين بآيات الله المؤيدة لرسالته على علم كما قال تعالى فيهم «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» وبين مقلدين جامدين على التقليد لا ينظرون في الدلائل والآيات، ولا يبحثون في الحجج والبينات، حتى حملهم على نقض العهود ونكث الأيمان بحيث لا حيلة في الحياة معهم أو في جوارهم حياة سلم وأمان كما ثبت بالتجربة.

عبر عنهم «بالدواب» وهو اللفظ الذي غلب استعماله في البهائم ذوات الأربع أو فيما يركب منها، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضل من عجماوات الدواب لأن فيها منافع للناس وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم، فإنهم لشدة تعصبهم لجنسهم قد صاروا أعداء لسائر البشر.

وقال: «فهم لا يؤمنون» لأن كلمة: «كفروا» لا تقتضي الثبات على الكفر

دائمًا فعطف عليها الإخبار بأن كفرهم دائم لا يرجعون عنه في جملتهم، حتى ييأس الرسول والمؤمنون مما كانوا يرجون من إيمانهم، وهذا لا ينافي وقوع الإيمان من بعضهم وقد وقع، وهذا الخبر من أنباء الغيب.

ثم أيأسهم من ثباتهم على السلم الواجب عليهم بمقتضى العهد، بعد إيئاسهم من اهتدائهم إلى الإسلام، فقال:

٥٦ ــ ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون﴾ وقد كان النبي ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليها عهداً أقرهم فيه على دينهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم فنقض كل منهم عهده، وإنما قال «ينقضون» بفعل الاستقبال، مع أنهم كانوا قد نقضوه قبل نزول الآية، لإفادة استمرارهم على ذلك، وأنه لم يكن هفوة رجعوا عنها وندموا عليها كما سيأتي عن بعضهم، بل إنهم ينقضونه «في كل مرة» وإن تكرر، وهو يصدق على عهود طوائف اليهود الذين كانوا حول المدينة في جملتهم وهم ثلاث طوائف كما سيأتي، ويصدق على بني قريظة وحدهم، وكانوا أشدهم كفراً، فقد روي أنه تكرر عهده ﷺ وأعانوا عليه بالسلاح في يوم بدر ثم قالوا نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالؤا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم بين تعالى حكمهم بقوله لرسول ﷺ:

٥٧ ــ ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ المعنى: فإن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتصادفهم في الحرب ظاهراً عليهم ﴿فشرِّد بهم من خلفهم﴾ أي: فنكل بهم تنكيلاً يكونون به سبباً لشرود من وراءهم من الأعداء، وتفرقهم كالإبل الشاردة النادة اعتباراً بحالهم. والمراد بمن خلفهم: يهود المدينة وكفار مكة وأعوانهم من مشركي القبائل الموالية لهم، فإنهم هم الذين تواطؤا مع اليهود الناكثين لعهده ﷺ على قتاله.

﴿لعلهم يـذكـرون﴾ أي: لعـل من خلفهم من الأعـداء يتعــظون ويعتبرون، فلا يقدمون على القتال ولا يعود المعاهَدُ منهم لنقض العهد ونكث الأيمان.

وهذا الإرشاد الحربي في استعمال القسوة مع البادئين بالحرب والناقضين فيها لعهود السلم والتنكيل بالبادئين بالشر لتشريد من وراءهم متفق عليه بين قواد الحرب في هذا العصر، ولكنهم يقصدون مع ذلك الانتقام وشفاء ما في الصدور من الأحقاد، والسعي لإذلال العباد، والتمتع بالغنائم من مال وعقار، دون الموعظة والتربية بالاعتبار.

ثم بين تعالى حكم من لا ثقة بعهودهم من الكفار الذين يخشى منهم نقضها عند ما تسنح لهم غرة فقال:

٥٨ ــ ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ أي: وإن تتوقع من قوم خيانة بنقض عهدك معهم، بأن يظهر لك من الدلائل والقرائن ما ينذر به، فاقطع عليهم طريق الخيانة لك قبل وقوعه، بـأن تنبذ إليهم عهدهم، أي: تعلمهم بفسخه وعدم تقيدك به ولا اهتمامك بأمرهم فيه، أنبذه إليهم على سواء، أي: على طريق سوي واضح لا خداع فيه ولا استخفاء ولا خيانة ولا ظلم. وقال البغوي: أعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء، فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب معهم اهـ.

وأما الذين ينقضون العهد بالفعل فلا حاجة إلى نبذ المسلمين عهدهم إليهم بل يناجزون الحرب عند الإمكان كما فعل النبي ﷺ حين نقضت قريش عهد الحديبية بينه وبينهم بمظاهرة بكر على خزاعة الذين كانوا في ذمته ﷺ.

والحكمة في هذا النبذ لعهد من ذكر بل العلة له أن الإسلام لا يبيح لأهله الخيانة مطلقاً، فكيف تقع من أكمل البشر الذي كان يلقبه أهل وطنه منذ تمييزه بالأمين، ثم بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق ﷺ وذلك قوله تعالى: ﴿إن

الله لا يحب الخائنين﴾ بنقض عهودهم مع الناس ولا بغير ذلك، فالخيانة مبغوضة عند الله بجميع صورها ومظاهرها.

ثم أنذر الله تعالى أولئك الخائنين بالفعل ما سيحل بهم، فقال:

٥٩ ـ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا﴾ أي: ولا يحسبن حاسب أو أحد أن الذين كفروا قدسبقونا بما ذكر من نقضهم للعهد، ومظاهرتهم لأهل الشرك في الحرب، أو لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقونا ونجوا من عاقبة خيانتهم وشرهم، وقد علل هذا النهي بقوله عز وعلا:

﴿إنهم لا يعجزون﴾ أي: إنهم لا يعجزون الله تعالى بمكرهم وخيانتهم لرسوله بمساعدة المشركين عليه، بل هو سيجزيهم ويسلط رسوله والمؤمنين عليهم، فيذيقونهم عاقبة كيدهم.

وفي هذه الآية دليل على أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع المحالفين من أعدائه المخالفين له في الدين، وما حرمه من الخيانة لهم فيها، وما شرعه من العدل والصراحة في معاملتهم ـ ليس عن ضعف ولا عن عجز، بل عن قوة وتأييد إلهي، وقد نصر الله تعالى المسلمين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم.

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

٦٠ ـ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ «الإعداد»: تهيئة الشيء للمستقبل، و «رباط الخيل»: حبسها واقتناؤها.

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب بأمرين: أحدهما: إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة، وثانيهما: مرابطة فرسانهم في ثغور بلادهم وحدودها وهي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد، والمراد أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة.

وهذان الأمران هما اللذان تعول عليهما جميع الدول الحربية إلى هذا العهد التي ارتقت فيه الفنون العسكرية وعتاد الحرب إلى درجة لم يسبق لها نظير بل لم تكن تدركها العقول ولا تتخيلها الأفكار.

ومن المعلوم بالبداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه، وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثاً، وإطلاق الرمي في الحديث يشمل كل ما يرمىٰ به العدو من سهم، أو قذيفة منجنيق، أو طيارة أو بندقية أو مدفع أو غير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفاً في عصره ﷺ فإن اللفظ شمله. ولفظ الآية أدل على العموم لأنه أَمْرٌ بالمستطاع موجه إلى الأمة في كل زمان ومكان، كسائر خطابات التشريع ومن قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها والبنادق والدبابات والطيارات والمناطيد وإنشاء السفن الحربية بأنواعها ومنها الغواصات التي تغوص في البحر، ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب، وقد ورد أن الصحابة استعملوا المنجنيق مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر وغيرها. وكل الصناعات التي عليها مدار المعيشة من فروض الكفاية كصناعات آلات القتال.

﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ أي: أعدوا لهم ما استطعتم من القوة

الحربية الشاملة لجميع عتاد القتال، ومن الفرسان المرابطين في ثغوركم وأطراف بلادكم، حالة كونكم ترهبون بهذا الإعداد، أو بالمستطاع من القوة والرابط، عدوَّ الله الكافرين به وبما أنزله على رسوله، وعدوكم الذين يتربصون بكم الدوائر ويناجزونكم الحرب عند الإمكان.

﴿وآخرين من دونهم﴾ أي: وترهبون به أناساً من غير هؤلاء الأعداء المعروفين، أو من ورائهم ﴿لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ أي: لا تعلمون الآن عداوتهم، أو لا تعرفون ذواتهم وأعيانهم بل الله يعلمهم وهو علام الغيوب. قال مجاهد: هم بنو قريظة، وعزاه البغوي إلى مقاتل وقتادة أيضاً، وقيل: غيرهم، والأحسن: أنه عام فيهم وفي غيرهم من الأقوام الذين أظهرت الأيام بعد ذلك عداوتهم للمسلمين في عهد الرسول ومن بعده كالروم والفرس، بل قال بعضهم ما معناه: إنه يشمل من عادى جماعة المسلمين وأئمتهم من المسلمين أنفسهم وقاتلهم كالمبتدعة الذين خرجوا على الجماعة وقاتلوهم أو أعانوا أعداءهم عليهم.

ثم إنه تعالى حض في هذا المقام على إنفاق المال وغيره مما يعين على القتال فقال: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم﴾ أي: ومهما تنفقوا من شيء نقداً كان أو غيره، قليلاً كان أو كثيراً في إعداد المستطاع من القوة والمرابطة في سبيل الله، يعطكم الله جزاءه وافياً تاماً ﴿وأنتم لا تظلمون﴾ أي: والحال أنكم لا تنقصون من جزائه شيئاً، أو لا يلحقكم في هذه الحالة ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم، لأن القوي المستعد لمقاومة المعتدين بالقوة قلما يعتدي عليه أحد، فإن اعتدى عليه فقلما يظفر به المعتدي وينال منه ما يعد به ظالماً له، فأنتم ما ظلمتم بإخراجكم من دياركم وأموالكم إلا لضعفكم.

ولما كان السلم هو المقصود الأول كما أفاد مفهوم الآية السابقة، أكده بمنطوق الآية اللاحقة، فقال تعالى:

٦١ ــ ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ أي: وإن مالوا عن جانب الحرب إلى جانب السِّلم، خلافاً للمعهود منهم في حال قوتهم، فاجنح لها أيها

الرسول لأنك أولى بالسَّلم منهم. وعبر عن جنوحهم بـ «إن» التي يعبر بها عن المشكوك في وقوعه أو ما من شأنه ألا يقع للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً لاختياره لذاته، وأنه لا يؤمَنُ أن يكون جنوحهم إليه كيداً وخداعاً ولذلك قال: ﴿وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ أي: اقبل منهم السلم وفوض أمرك إلى الله تعالى، فلا تخف كيدهم ومكرهم وَتَوسُّلَهم بالصلح إلى الغدر، كما فعلوا بنقض العهد، إنه عز وجل هو السميع لما يقولون، العليم بما يفعلون، فلا يخفى عليه ما يخفى عليك من ائتمارهم وتشاورهم، ولا من كيدهم وخداعهم.

قيل: إن الآية خاصة بأهل الكتاب لأنها نزلت في بني قريظة الذي نقضوا العهد كما تقدم في أول هذا السياق، ويرد التخصيص قبوله صلوات الله وسلامه عليه الصلح من المشركين في الحديبية، وترك الحرب إلى مدة عشر سنين مع ما اشترطوا فيه من الشروط الثقيلة التي كرهها الصحابة رضوان الله عليهم أول الأمر.

وقيل: إنها عامة ولكنها نسخت بآية السيف، لأن مشركي العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام، وروي القول بنسخها عن ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة. نقله ابن كثير وتعقبه بقوله: وفيه نظر أيضاً لأن آية «براءة» فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم اهـ.

وقد يقال في الجواب أيضاً: إن المشركين لم يثبت أنهم جنحوا إلى السلم وأباه عليهم النبي ﷺ بل أجابهم إليه في الحديبية كما تقدم آنفاً، ثم ظلوا يقاتلونه إلى ما بعد فتح مكة عاصمة دينهم ودنياهم كما فعلوا في الطائف، إلى أن ذهبت ريحهم، وكُسرت شوكة زعمائهم، وصار سائر العرب يدخلون في دين الله أفواجاً، وتم ما أراد الله من إسلام أهل جزيرة العرب إلا قليلاً من أهل الكتاب، لأجل أن يكون مهد الإسلام حصناً ومَأْرَزاً للإسلام.

ثم بين تعالى معنى أمره بالتوكل في حال قبول السلم إن جنحوا إليه على خلاف المعهود منهم اختياراً، فقال:

٦٢ ـ ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ بجنوحهم للسلم، ويفترضوه لأجل الاستعداد للحرب، أو انتظار غِرَّة تمكنهم من أهل الحق ﴿فإن حسبك الله﴾ أي: كافيك أمرهم من كل وجه.

ثم بين تعالى أن هذه الكفاية بالتأييد الرباني وأن منه تسخير المؤمنين للرسول ﷺ، وجعلهم أمة متحدة متآلفة متعاونة على نصره، فقال: ﴿هو الذي أيدك بنصره﴾ بتسخير الأسباب، وما هو وراء الأسباب من خوارق العادات كالملائكة التي ثبتت القلوب في يوم بدر ﴿وبالمؤمنين﴾ من المهاجرين والأنصار.

٦٣ ـ ﴿وألف بين قلوبهم﴾ أي: بعد التفرق والتعادي الذي رسخ بالحرب الطويلة والضغائن الموروثة، وجمعهم على الإيمان بك، وبذل النفس والنفيس في مناصرتك.

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾ يعني: أنه لولا نعمة الله عليهم بالإيمان وأخوته التي هي أقوى عاطفة ومودة من أخوة الأنساب والأوطان، لما أمكنك يا محمد أن تؤلف بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية، ولو أنفقت جميع ما في الأرض من الأموال والمنافع في سبيل هذا التأليف. ﴿ولكن الله ألف بينهم﴾ بهدايتهم إلى هذا الإيمان بالفعل، الذي دعوتهم إليه بالقول. وهذا ثناء من الله عز وجل على صحابة رسوله، تفند مطاعن الرافضة الضالة الخاسرة فيهم.

﴿إنه عزيز حكيم﴾ أي: الغالب على أمره الذي لا يغلبه خداع الخادعين، ولا كيد الماكرين «الحكيم» في أفعاله كنصره الحق على الباطل.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ

يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

٦٤ ـ ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أي: إن الله تعالى هو كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيره، وكاف لمن أيدك بهم من المؤمنين، فالـحَسْبُ في تلك الآية كفاية خاصة به ﷺ في حال خاصة، وفي هذه كفاية عامة له ولمن اتبعه من المؤمنين في كل حال، من قتال أو صلح يفي به العدو أو يخون، وفي غير ذلك من الشؤون.

ويحتمل أن يكون العطف على معنى: وحَسْبُكَ من اتبعك من المؤمنين، أي: فإنه ينصرك بهم. ولكن مقتضى كمال التوحيد هو المعنى الأول، وهو كفاية الله تعالى له ولهم كما قال تعالى في المؤمنين «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل».

٦٥ ـ ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ المعنى: يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه. لدفع عدوان الكفار، وإعلاء كلمة الحق والعدل وأهلها، على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ هذا شرط بعنى الأمر والمعنى: إن يوجد منكم عشرون صابرون، يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم مائتين من الذين كفروا، المجردين من هذه الصفات ﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ معنى هذا التعليل: أن هذه النسبة العَشْرية بين الصابرين منكم وبينهم، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب، وما يجب أن تكون وسيلة له من المقاصد العالية، وما يقصد بها من سعادة الدنيا والآخرة، ومرضاة الله عز وجل وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والآداب العالية ومن كون غاية القتال عند المؤمن إحدى الحسنيين: النصر والغنيمة الدنيوية، أو الشهادة والسعادة الأخروية، وغير ذلك مما مر أكثره في هذا السياق.

والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم.

وهكذا كان المسلمون في قرونهم الأولى والوسطى بهداية دينهم على تفاوت علمائهم وحكامهم في ذلك، حتى إذا ما فسدوا بترك هذه الهداية التي سعدوا بها في دنياهم زال ذلك المجد والسؤدد، ونزع منهم أكثر ذلك الملك.

وبعد أن بين الله تعالى هذه المرتبة العليا للمؤمنين التي ينبغي أن تكون لهم في حال القوة وهو ما يسمى بالعزيمة قفى عليه ببيان ما دونها من مرتبة الضعف وهي ما يسمى الرخصة، فقال:

٦٦ ـ ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ المعنى: أن أقل حالة للمؤمنين مع الكفار في القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين، والألفُ على الألفين، وأن هذه الحالة رخصة خاصة بحال الضَّعف، كما كان عليه المؤمنون في الوقت الذي نزلت هذه الآيات وهو وقت غزوة بدر، فقد تقدم أن المؤمنين كانوا لا يجدون ما يكفيهم من القوت، ولم يكن لديهم إلا فرس واحد، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب، ومع هذا كله كانوا أقل من ثلث المشركين الكاملي العدة والأهبة. ولما كملت للمؤمنين القوة، كما أمرهم الله تعالى أن يكونوا في حال العزيمة، كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر وينتصرون عليهم، وهل تم لهم فتح ممالك الروم والفرس وغيرهم إلا بذلك؟ ومعنى: «بإذن الله» أي: بإقداره وتوفيقه ومعونته.

وذهب بعض المفسرين إلى أن آية العزيمة من هاتين الآيتين وهي الآية «٦٥» منسوخة بآية الرخصة التي بعدها بدليل التصريح بالتخفيف فيها، ولكن الرخصة لا تنافي العزيمة ولا سيما وقد عللت هنا بوجود الضَّعْف والظاهر أن الآيتين نزلتا معاً. وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » شَقَّ ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف،

فقال: «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين» فاستدلوا بهذا الحديث على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار وتحريم الفرار عليه منهما سواء طلباه أو طلبهما.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

روى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ـ والتفصيل لأحمد ـ قال: لما أسروا الأسارى، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» فقال: لا والله لا أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل ـ أي: أخيه ـ فيضرب عنقه، وتمكني من فلان ـ أي: نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه، ومَكِّن فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلتُ. فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» شجرة قريبة منه ـ وأنزل الله عز وجل:

٦٧ ـ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أي: ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى

يتردد أمره فيهم بين المن والفداء، إلا بعد أن يثخن في الأرض، أي: حتى يعظم شأنه فيها ويغلظ ويكثف، بأن تتم له القوة والغلب، فلا يكون اتخاذه الأسرى سبباً لضعفه أو قوة أعدائه، وهو في معنى قول ابن عباس رضي الله عنه: حتى يظهر على الأرض، وقول البخاري: حتى يغلب في الأرض. وفسره أكثر المفسرين بالمبالغة في القتل وروي عن مجاهد.

﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ والمعنى: تريدون أيها المؤمنون عرض الدنيا الفاني الزائل وهو المال الذي تأخذونه من الأسرى فداء لهم، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقي بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ما عملتم بها، ومنه الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة بقصد الإثخان في الأرض، والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل، ﴿والله عزيز حكيم﴾ فيحب للمؤمنين أن يكونوا أعزة غالبين، «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» كما يحب لهم أن يكونوا حكماء ربانيين، يضعون كل شيء في موضعه. وإنما يكون هذا بتقديم الإثخان في الأرض والسيادة فيها على المنافع العريضة بمثل فداء أسرى المشركين وهم في عنفوان قوتهم وكثرتهم.

٦٨ ــ ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أي: لولا كتاب من الله سبق في علمه الأزلي، أو في أم الكتاب يقتضي أن لا يعذبكم في هذا الذنب، أو أن لا يعذبكم عذاباً عاماً، والرسول فيكم، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم، لمسكم فيما أخذتم من الفداء عذاب عظيم، أي: بسببه كحديث الصحيحين «دخلت النارَ امرأةٌ في هرة» إلخ أي: بسببها إذ حبستها حتى ماتت.

ويجوز أن يكون المراد بالكتاب الذي سبق: ما قضاه الله تعالى وقدره من أعمار هؤلاء الأسرى وإيمان أكثرهم.

ثم إنه تعالى أباح لهم أكل ما أخذوه من الفداء، وعدَّه من جملة الغنائم التي أباحها لهم، فقال:

٦٩ ـ ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ أي: وإذ كان الله تعالى قد سبق منه كتاب في أنه لا يعذبكم أو يقتضي أن لا يعذبكم بهذا الذنب الذي خالفتم به سنته وهدي أنبيائه، فكلوا مما غنمتم من الفدية حالة كونه حلالاً بإحلاله لكم الآن، طيباً في نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالميتة ولحم الخنزير، واجعلوا باقيه في المصالح التي بينت لكم في قسمة الغنائم ﴿واتقوا الله﴾ قال ابن جرير في تفسير هذه الجملة: وخافوا الله أن تعودوا أن تفعلوا في دينكم شيئاً بعد هذا مِنْ قبل أن يُـحَلَّ لكم ﴿إن الله غفور رحيم﴾ قال ابن جرير: غفور لذنوب أهل الإيمان من عباده، رحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها اهـ.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

هاتان الآيتان متمتان للكلام في أسرى بدر، بأمر النبي ﷺ بترغيبهم في الإسلام، ببيان ما فيه من خيري الدنيا والآخرة، وبتهديدهم وإنذارهم عاقبة بقائهم على الكفر وخيانته ﷺ ويتضمن ذلك البشارة بحسن العاقبة والظفر له ولمن اتبعه من المؤمنين، قال تعالى:

٧٠ ـ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ أي: قل للذين في تصرف أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ إن كان الله تعالى يعلم أن في قلوبكم إيماناً كامناً بالفعل، أو بالاستعداد الذي سيظهر في إبانه، أو كما يدعي بعضكم بلسانه، والله أعلم بما في قلوبكم ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: يعطكم عندما تُسلمون، ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فيه من الغنائم وغيرها من نعم الدين التي وعدهم الله بها ﴿ويغفر لكم﴾ أي: ما كان من الشرك وما ترتب عليه من السيئات ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب

من كفره رحيم بالمؤمنين. والمراد بهذه الرحمة الخاصة التي تشمل سعادة الآخرة، وأما الرحمة العامة فقد وسعت كل شيء. وهذا ترغيب لهم في الإسلام ودعوة إليه، وعدم عدهم مسلمين بما قاله بعضهم، ولذلك قال:

٧١ ـ ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ بما يظهر بعضهم من الميل إلى الإسلام، أو دعوى إبطان الإيمان، أو الرغبة عن قتال المسلمين من بعد، وهذا مما اعتيد من البشر في مثل تلك الحال، فلا تخف ما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال ﴿فقد خانوا الله من قبل﴾ باتخاذ الأنداد والشركاء له، وبغير ذلك من الكفر بنعمه ثم برسوله.

وقال بعض المفسرين: إن خيانتهم لله تعالى هي ما كان من نقضهم لميثاقه الذي أخذه على البشر، بما ركب فيهم من العقل وما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ﴿فأمكن منهم﴾ أي: فمكنك أنت وأصحابك منهم، بنصره إياك عليهم ببدر على التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم، وعدد أصحابك وعددهم، وكذلك يمكنك ممن يخونك من بعد، كما مكنك ممن خانه من قبل ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بما سيكون من أمرهم، حكيم في نصر المؤمنين وإظهارهم عليهم.

ويؤخذ من الآيتين ما يجب على المؤمنين من ترغيب الأسرى في الإيمان، وإنذارهم عاقبة خيانتهم إذا ثبتوا على الكفر والطغيان، وعادوا إلى البغي والعدوان، وفيه بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة في كل قتال يقع بينهم وبين المشركين، ما داموا قوامين بأسباب النصر المادية والمعنوية، العلمية والعملية التي تقدم بيانها في هذه السورة.

وقد ورد من التفسير المأثور في معنى الآيتين ما يحسن نشره لما فيه من إيضاح المعنى، وما كان من سيرة الرسول ﷺ في مسألة فداء الأسرى.

روى البخاري في مواضع من صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ في ترك فداء عمه العباس رضي الله عنه، وكان في أسرى المشركين يوم بدر، فقالوا: إئذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه؟ فقال ﷺ: «والله لا تذرون منه درهماً»، وقد عَنَوا

بقولهم «ابن أختنا العباس» جدتَه أم عبد المطلب فهي أنصارية من بني النجار، لا أم العباس نفسه فإنها ليست من الأنصار. وإنما وصفوه بكونه ابن أختهم ولم يصفوه بكونه عمه ﷺ لئلا يكون في هذا الوصف رائحة مِنّةٍ على رسول الله ﷺ ولم يأذن ﷺ لهم في محاباته لأنه عمه، بل ساوى بينه وبين سائر الأسرى، بل ورد أنه أخذ منه أكثر مما أخذ من غيره.

قال الحافظ ابن حجر بعد إيراد ما ذكر: وذكر موسى بن عقبة: أن فداءهم كان أربعين أوقية ذهباً، وعند أبي نعيم في «الدلائل» بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كان فداء كل واحد أربعين أوقية، فجعل على العباس مائة أوقية، وعلى عَقيل[1] ثمانين فقال له العباس: أللقرابة صنعت هذا؟ قال فأنزل الله تعالى: «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم» إلخ فقال العباس: وددت لو كنتَ أخذتَ مني أضعافها لقوله تعالى: «يؤتكم خيراً مما أخذ منكم» اهـ. أي: قال ذلك بعد إسلامه وما أعطاه ﷺ من بعض الغنائم كما نص عليه في بعض الروايات.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة الجامعة لأهم قواعد السياسة في الحرب والسلم والأسرى والغنائم، بما يناسبها من القواعد في ولاية المؤمنين بعضهم لبعض، بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزمهما من الأعمال ومن المحافظة على الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد معقوداً غير منبود، فقال:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ

---

(١) هو عقيل ابن أبي طالب وكان مع معاوية طوال حياته، رضي الله عنهما.

فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

كان المؤمنون في عصر النبي ﷺ أربعة أصناف: هم المهاجرون الأولون والأنصار، والمؤمنون الذين لم يهاجروا، والمؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية، وقد بين في هذه الآيات حكم كل منها ومكانتها، فقال:

٧٢ ــ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ هذا الصنف الأول، وهو الأفضل الأكمل. وقد وصفهم بالإيمان، والمراد به الإيمان بكل ما جاء به محمد ﷺ من توحيد الله تعالى وتنزيهه، ووصفه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ومن عالم الغيب كالملائكة والبعث والجزاء، ومن الوحي والكتب المنزلة وغير ذلك من العقائد والعبادات والآداب والحلال والحرام، والأحكام السياسية والمدنية.

ثم وصفهم بالمهاجرة من ديارهم وأوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين إرضاء لله تعالى ونصراً لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم وصفهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم قال ﴿والذين آووا ونصروا﴾ وهذا هو الصنف الثاني في الفضل كالذكر، وصفهم بأنهم الذين آووا الرسول ومن هاجر إليهم من أصحابه الذين سبقوهم بالإيمان، ونصروهم، ولولا ذلك لم تحصل فائدة الهجرة. ولم تكن مبدأ القوة والسيادة. فالإيواء يتضمن معنى التأمين من المخافة، إذ المأوى هو الملجأ والمأمن. وقد كانت «يثرب» مأوى وملجأ للمهاجرين شاركهم أهلها في أموالهم

وآثروهم على أنفسهم، وكانوا أنصار الرسول ﷺ يقاتلون من قاتله ويعادون من عاداه ولذلك جعل الله حكمهم وحكم المهاجرين واحداً في قوله ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ أي: يتولى بعضهم من أمر الآخرين أفراداً أو جماعات ما يتولونه من أمر أنفسهم عند الحاجة من تعاون وتناصر في القتال، وما يتعلق به من الغنائم وغير ذلك، لأن حقوقهم ومرافقهم ومصالحهم مشتركة، حتى إن المسلمين يرثون من لا وارث له من الأقارب ويجب عليهم إغاثة المضطر وكفاية المحتاج منهم، كما أنه يشترط فيمن يتولى أمورهم العامة أن يكون منهم.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ وهذا هو الصنف الثالث من أصناف المؤمنين، وهم المقيمون في أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم ـ وهي دار الحرب والشرك ـ بخلاف من يأسره الكفار من أهل دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار، ويجب على المسلمين السعي في فكاكهم بما يستطيعون من حول وقوة باتفاق العلماء، وكان حكم غير المهاجرين أنهم لا يثبت شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم، ولا إلى تنفيذ هؤلاء لأحكام الإسلام فيهم، والولاية حق مشترك على سبيل التبادل.

ولكن الله خص من عموم الولاية المنفية الشامل لما ذكرنا من الأحكام شيئاً واحداً، فقال: ﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر﴾ فأثبت لهم من ولاية أهل دار الإسلام حق نصرهم على الكفار إذا قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم، وإن كانوا لا ينصرون أهل دار الإسلام لعجزهم. ثم استثنى من هذا الحكم حالة واحدة، فقال: ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ يعني: إنما يجب عليكم أن تنصروهم إذا استنصروكم في الدين، على الكفار الحربيين دون المعاهَدين، فهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود والمواثيق.

﴿والله بما تعملون بصير﴾ لا يخفي عليه شيء منه، وسيجازيكم به.

ثم قال عز وجل:

٧٣ ـ ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ أي: في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين وإن كانوا مللاً كثيرة يعادي بعضها بعضاً، ولما نزلت هذه الآية بل السورة لم يكن في الحجاز منهم إلا المشركون واليهود، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبي ﷺ والمؤمنين.

وقيل: إن الولاية هنا ولاية الإرث، وجعلوه في الأصل في عدم التوارث بين المسلمين والكفار، وبإرث ملل الكفر بعضهم لبعض، ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ أي: إن لم تفعلوا ما ذكر، وهو ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض، وتناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم. ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضي عهدهم أو يُنْبَذَ إليهم على سواء، يقع من الفتنة والفساد الكبير في الأرض ما فيه أعظم الخطر عليكم، بتخاذلكم وفشلكم وظفر الكفار بكم، واضطهادكم في دينكم.

٧٤ ـ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ هذا تفضيل للصنفين الأولين من المؤمنين على غيرهم، وشهادة من الله تعالى للمهاجرين الأولين والأنصار بأنهم هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله، دون من لم يهاجر من المؤمنين وأقام بدار الشرك وأعاد وصفهم الأول لأنهم به كانوا أهلاً لهذه الشهادة وما يليها من الجزاء في قوله: ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي: لهم مغفرة من ربهم تامة ماحية لما فرط منهم ورزق كريم في دار الجزاء، أي: رزق حسن شريف بالغ درجة الكمال في نفسه وفي عاقبته، وهذه الشهادة المقرونة بهذا الجزاء العظيم ترغم أنوف الروافض وتُلْقِمُ كل نابح بالطعن في أصحاب الرسول ﷺ الحَجَرَ، ولا سيما زعمهم بأن أكثرهم قد ارتدوا بعده صلى الله عليه وسلم.

٧٥ ـ ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ هذا هو الصنف الرابع من المؤمنين في ذلك العهد، وهم من تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى وحكمهم أنهم يلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار فيما تقدم بيانه من أحكام ولايتهم وجزائهم. قال ابن جرير «فأولئك

منكم» في الولاية، يجب لكم عليهم من الحق والنصرة في الدين مثل الذي يجب لكم عليهم ولبعضكم على بعض.

﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ «أولو الأرحام»: هم أصحاب القرابة وهو جمع «رَحِم» ويسمى به الأقارب لأنهم في الغالب من رحم واحد، وفي اصطلاح علماء الفرائض: هم الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب، وهم عشرة أصناف: الخال والخالة، والجد للأم، وولد البنت، وولد الأخت، وبنت الأخ، وبنت العم، والعمة، والعم للأم، وابن الأخ للأم، ومن أدلى بأحد منهم وترى في كتب الفرائض ما يستحقه كل وارث منهم.

ثم ختم الله تعالى هذه السورة بقوله: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي: إنه تعالى شرع لكم هذه الأحكام، في الولاية العامة والخاصة والعهود وصلة الأرحام، وما قبلها مما سبق من أحكام القتال والغنائم وقواعد التشريع وسنن التكوين والاجتماع، وأصول الحكم المتعلقة بالأنفس ومكارم الأخلاق والآداب، عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية.

(خلاصة سورة الأنفال)

أي: ما فيها من الأصول الاعتقادية، والسنن الاجتماعية، وقواعد الشرع العملية من سياسية وحربية:

أولاً ــ بيان ولايته تعالى للمؤمنين ونصره لهم، وأنه تعالى وحده هو المشرع لعباده.

ثانياً ــ بيان عناية الله تعالى برسوله محمد ﷺ وإكرامه له وتشريفه إياه، وحفظه من مكر الكفار.

ثالثاً ــ بيان صفات المؤمنين الصادقين الذين يخشون الله وتخشع قلوبهم لذكره ويزدادون إيماناً إذا سمعوا آياته ويتوكلون على الله تعالى حق توكله، ويقيمون الصلاة على أتم وجه وأكمله، في أركانها وآدابها وسننها والخشوع والتدبر

فيها وينفقون في سبيل الله مما رزقهم الله من زكاة مفروضة وصدقات مستحبة مندوبة.

رابعاً ــ بيان أهم أحكام القتال والغنائم، وحال الكفار وما يصيبهم من رعب يلقيه تعالى في قلوبهم، وكذلك بيان عنادهم وإصرارهم على رفض الحق استكباراً وعلواً في الأرض.

خامساً ــ بيان القواعد العسكرية والسياسية وأهمها:

(أ) وجوب إعداد الأمة كل ما تستطيعه من قوة لقتال أعدائه.

(ب) أن يكون القصد الأول من إعداد هذه القوى إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الأمة أو مصالحها أو على أفراد منها أو متاع لها لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها، وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلح، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً، فقيد الأمر بإعداد القوى والمرابطة بقوله ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾.

(ج) إنفاق المال في سبيل الله لإعداد ما ذكر، إذ لا يتم بدون المال شيء منه.

(د) المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق في الحرب والسلم، وتحريم الخيانة فيه سراً أو جهراً، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية أو غيرها مطلقاً ومقيداً.

(هـ) ذكر الله تعالى عند لقاء العدو، وطاعة الله ورسوله وهي من أهم أسباب النصر، ووجوب الصبر والثبات أمام العدو، والتوكل على الله تعالى.

(و) اتقاء التنازع والتفرق في حال القتال لأنه سبب الفشل وذهاب القوة وأثناء البطر ومراءاة الناس في الحرب، وتحريم التولي يوم الزحف والوعيد عليه بشروطه.

(ز) إباحة الغنائم وبيان كيفية قسمتها ومستحقيها.

سورة التوبة

(مدنية، مائة وتسع وعشرون آية)

ولم تُكْتب البسلمة في أولها لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور. هذا هو المعتمد المختار في تعليله، وقيل: رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة، والمشهور: أنه لنزولها بالسيف ونبذ العهود.

وقد ورد لها أسماء كثيرة هي صفات لأهم ما اشتملت عليه، منها: سورة «الفاضحة» لما فضحته من سرائر المنافقين، وإنبائهم بما في قلوبهم من الكفر وسوء النيات.

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

من المشهور القطعي الذي لا خلاف فيه أن الله تعالى بعث محمداً رسوله وخاتم النبيين بالاسلام الذي أكمل به الدين، وجعل آيته الكبرى هذا القرآن المعجز للثقلين فقاومه المشركون وفتنوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصدهم عنه، وصدوه ﷺ عن تبليغه للناس بالقوة، ولم يكن أحد ممن اتبعه يأمن على نفسه من القتل أو التعذيب، إلا بتأمين حلف أو قريب. فهاجر من هاجر منهم المرة بعد المرة، ثم اشتد إيذاؤهم للرسول ﷺ حتى ائتمروا بحبسه الدائم أو نفيه أو قتله علناً في دار الندوة، ورجحوا في آخر الأمر قتله، فأمره الله تعالى بالهجرة، فهاجر ﷺ وصار يتبعه من قدر على الهجرة من أصحابه إلى حيث وجدوا من مهاجرهم بالمدينة المنورة أنصاراً لله ولرسوله يحبون من هاجر إليهم، ويؤثرونهم على أنفسهم، وكانت الحال بينهم وبين مشركي مكة وغيرهم من العرب حال حرب.

وقد عاهد ﷺ المشركين في الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيها منتهى التساهل، ودخلت «خُزاعة» في عهده ﷺ كما دخلت «بنو بكر» في عهد قريش، ثم عدا هؤلاء على أولئك وأعانتهم قريش بالسلاح فنقضوا عهدهم، فكان ذلك سبب عودة حال الحرب العامة معهم، وفتحِهِ ﷺ لمكة، الذي كسر شوكة الشرك وأذل أهله، ولكنهم ما زالوا يحاربونه حيث قدروا وثبت بالتجربة أنهم لا عهود لهم، ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم، فلا يمكن أن يعيش المسلمون معهم بحكم المعاهدات المرعية فيأمنوا شرهم وعدوانهم مع بقائهم على شركهم.

هذا هو الأصل الشرعي الذي بُني عليه ما جاءت به هذه السورة من نبذ عهودهم المطلقة، وإتمام مدة عهدهم المؤقتة لمن استقام منهم عليها، وأما حكمة ذلك فهي محو بقية الشرك من جزيرة العرب بالقوة وجعلها خالصة للمسلمين، قال تعالى:

١ ـ ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾، أي: هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، كما تقول

هذا كتاب من فلان إلى فلان. أسند التبري إلى الله ورسوله لأنه تشريع جديد شرعه الله تعالى وأمر رسوله بتبليغه وتنفيذه، وأسند معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذي عقده، لأنه إنما عقده بصفة كونه الإمام والقائد العام لهم، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه.

و«المعاهدة»: عقد العهد بين الفريقين على شروط يلتزمونها، وكان اللذان يتوليانها منهما يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر، وكانوا يؤكدونها ويوثقونها بالأيمان ولذلك سميت أيماناً كما قال تعالى في المشركين «إنهم لا أيمان لهم».

قال ناصر السنة البغوي في تفسير الآية: لما خرج النبي ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ فأمر الله عز وجل بنقض عهودهم، وذلك قوله عز وجل «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء»، يعني: أنه ﷺ إنما عمل في نبذ عهودهم بآية الأنفال التي تقدمت وليس تشريعاً جديداً لنبذ عهود المشركين مطلقاً.

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيرها: اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً فقال قائلون هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى: «فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم» ولما سيأتي في الحديث «ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته» وهذا أحسن الأقوال وأقواها وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد، اهـ.

٢ ـ ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ خطاب للمؤمنين مرتب على البراءة، مبين لما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برىء الله ورسوله من عهودهم، ويجوز أن يكون خطاباً للمشركين أنفسهم بطريق الالتفات. والسياحة في الأرض: الانتقال والتجوال الواسع فيها، والمراد من الأمر بالسياحة حرية السير والانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر، لا يعرض المسلمون لهم فيها

بقتال، فلهم فيها سعة من الوقت للنظر في أمرهم والتفكر في عاقبتهم، والتخير بين الاسلام، وبين الاستعداد للمقاومة والصدام، إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم. وهذا من رحمة هذا الدين، وإعذاره إلى أعدى أعدائه المحاربين، ولولاه لأمكن أن يقال إنه أخذهم على غرة، ودانهم بما كانوا يدينونه عند القدرة، فإن كان هذا من العدل، فأين ما امتاز به من الفضل؟

وهذه الأربعة الأشهر تبتدىء من عاشر ذي الحجة من سنة تسع وهو عيد النحر الذي بُلِّغوا فيه هذه الدعوة كما يأتي وتنتهي في عاشر ربيع الآخر من سنة عشر.

﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله﴾، أي: وكونوا على علم قطعي بأنكم لا تعجزون الله تعالى بسياحتكم في الأرض، ولا تجدون لكم مهرباً من رسوله وعباده المؤمنين إذا أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ولرسوله، بل هو يسلطهم عليكم، ويؤيدهم بنصره الذي وعدهم، كما نصرهم في كل قتال لكم معهم بدءاً أو انتهاء، والعاقبة للمتقين ﴿وأن الله مخزي الكافرين﴾، أي: واعلموا كذلك أن الله تعالى هو المخزي لجميع الكافرين، منكم ومن غيركم في معاداتهم وقتالهم لرسله وعباده المؤمنين، يخزيهم في الدنيا بذل الخيبة والفضيحة، ثم يخزيهم في الآخرة أيضاً.

٣ ـ ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، مصرِّحة بالتبليغ الصريح الجهري العام للبراءة من المشركين، أي: من عهودهم وسائر خرافات شركهم وضلالاته، ومبينة لوقته الذي لا يسهل تعميمه إلا فيه، ويوم الحج الأكبر هو يوم النحر على الصحيح. و«الأذان»: النداء الذي يطرق الآذان بالاعلام بما ينبغي أن يعلمه الخاص والعام.

ثم أكَّد ما يجب أن يبلِّغوه من ذلك بما أوجب أن يخاطَبُوا به من غير تأخير بقوله: ﴿فإن تبتم﴾، أي: قولوا لهم: فإن تبتم بالرجوع عن شرككم وما زينه لكم من الخيانة والغدر بنقض العهود، وقبلتم هداية الإسلام ﴿فهو خير لكم﴾

في الدنيا والآخرة لأن هداية الاسلام هي السبب لسعادتهما ﴿وإن توليتم﴾، أي: أعرضتم عن إجابة هذه الدعوة إلى التوبة ﴿فاعلموا أنكم غير معجزي الله﴾، أي: غير فائتيه بأن تفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله والمؤمنين بالنصر ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾. هذا خطاب للنبي ﷺ لأنه نبأ عن الغيب، الذي لا يمكن علمه إلا بوحي الله عز وجل.

ثم استثنى من هؤلاء الذين تبرأ من عهودهم، وأمر بوعيدهم وتهديدهم، وضرب لهم موعد الأربعة الأشهر، مَنْ حافظوا على عهدهم بالدقة التامة والإخلاص، فقال:

٤ ـ ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ قال الحافظ ابن كثير: هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر، يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته المضروبة. وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهِرْ على المسلمين، أي: يمالىء عليهم مَنْ سواهم، فهذا الذي يوفّى له بذمته وعهده إلى مدته اهـ.

وقال البغوي: المراد بهؤلاء الذين استثناهم الله تعالى «بنو ضَمْرَةَ» حي من كنانة.

والصواب أن هذا اللفظ عام، وتعيين المراد منه بأسماء القبائل لا يتعلق به عمل بعد ذلك الزمان.

والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقوداً، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته، وأن شرط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره، فإن نقض شيئاً ما من شروط العهد وأخلّ بغرض ما من أغراضه عد ناقضاً له، إذ قال

تعالى «ثم لم ينقصوكم شيئاً» ولفظ «شيء» أعم الألفاظ وهو نكرة في سياق النفي، فيصدق بأدنى إخلال بالعهد.

﴿إن الله يحب المتقين﴾، أي: لنقض العهود وإخفار الذمم، ولسائر المفاسد المخلة بالنظام، والعدل العام.

وقد ورد في تنفيذ أمر الله تعالى بهذه البراءة والأذان بها، أي: التبليغ العام العلني لها، أحاديث في الصحاح والسنن وكتب التفسير المأثور نقتصر على أمثلها وأثبتها.

فجملة تلك الروايات تدل على أن النبي ﷺ جعل أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج سنة تسع، وأمره أن يبلّغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يُمنعون منه بعد ذلك العام، ثم أردفه بعلي رضي الله عنه ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطائهم مهلة أربعة أشهر لينظروا في أمرهم وأن العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها. ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لمسألة نبذ العهود وما يتعلق بها من أول سورة براءة، وذلك لأن من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون مِنْ عاقدها أو أحد عصبته القريبة، وإن علياً كان مختّصاً بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبي بكر الذي كان يساعده على ذلك ويأمر بعض الصحابة كأبي هريرة بمساعدته.

ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما ــ عند الترمذي ــ «فقام عليٌّ أيام التشريق ينادي: ذمة الله وذمة رسوله بريئة من كل مشرك فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، ولا يَحُجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عُريان، ولا يدخل الجنة إلا كل مؤمن. فكان علي ينادي بها، فإذا بُحَّ قام أبو هريرة فنادى بها.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

هذا شروع في بيان ما يترتب على الأذان بنذ عهود المشركين، على الوجه الذي سبق تفصيله في الموقَّت منها وغير الموقت، وهو مفصل لكل حال يكونون عليها بعد هذا الأذان العام من إيمان وكفر، ووفاء وغدر، ينتهي بالآية الخامسة عشرة. و«انسلاخ الأشهر»: انقضاؤها والخروج منها.

و«الحرم» بضمتين جمع «الحرام» وهي: الأشهر التي حرم الله فيها قتالهم في الأذان الذي بينت الآية ما يترتب عليه من الأحكام بقوله: «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر»، أي: آمنين لا يعرض لكم أحد بقتال فيها، فالتعريف فيها للعهد، أو: هي الأشهر الحرم الأربعة التي كانوا يحرمون فيها القتال وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

٥ ـ قال تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، أي: فإذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرم عليكم قتال المشركين فيها، فاقتلوهم في أيِّ مكان وجدتموهم فيه، من حل وحرم، لأن الحالة بينكم وبينهم عادت حالة حرب كما كانت، وإنما كان تأمينهم مدة أربعة أشهر منحة منكم.

﴿وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾، أي: وافعلوا بهم كل ما ترونه موافقاً للمصلحة من تدابير القتال وشؤون الحرب المعهودة، وأهمها وأشهرها هذه الثلاثة، وأولها: أخذهم أُسارى، فكانوا يعبرون عن الأسر بالأخذ ويسمون الأسير «أخيذاً».

والثاني: الحصر، وهو حبس العدو حيث يعتصمون من معقل وحصن، بأن يحاط بهم ويمنعوا من الخروج والانفلات، إذا كان في مهاجمتهم فيه خسارة

كبيرة، أي: فاحصروهم إلى أن يسلموا أوينزلوا على حكمكم بشرط ترضونه أو بغير شرط.

والثالث: قعود المراصد أي: الرصد العام، وهو مراقبة العدو بالقعود لهم في كل مكان يمكن الإشراف عليهم ورؤية تجوالهم وتقلبهم في البلاد منه.

﴿فإن تابوا﴾، أي: فإن تابوا عن الشرك وهو الذي يحملهم على عداوتكم وقتالكم، بأن دخلوا في الإسلام ﴿وأقاموا الصلاة﴾ المفروضة معكم كما تقيمونها في أوقاتها الخمسة، وهي مظهر الإيمان، وأكبر أركانه المطلوبة في كل يوم من الأيام، ويتساوى في طلبها وجماعتها الغني والفقير، والمأمور والأمير، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة في أموال الأغنياء وهي الركن المالي الاجتماعي من أركان الإسلام، التي يقوم بها نظامه العام ﴿فخلوا سبيلهم﴾ فاتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم إذا كانوا مقاتِلين، وعن حصرهم إن كانوا محصورين، وعن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره حيث يكونون مراقَبين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سبق من الشرك وأعماله، ويرحمهم فيمن يرحم من عباده المؤمنين، لأن الاسلام يَجُبُّ ما قبله. وهذه الآية هي التي تسمى «آية السيف».

٦ ــ ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾ الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ، وهي مخصِّصة لما في قوله تعالى قبلها: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» من معنى العموم، فهي تستثني منهم من طلب منهم الأمان، ليعلم ما أنزله الله وأمر به من دعوة الإسلام، ذلك بأن بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغاً تاماً مقنعاً، ولم يسمعوا شيئاً من القرآن، أو لم يسمعوا منه ما تقوم به الحجة، وإنما أعرضوا وعادَوُا الداعي وقاتلوه لأنه جاء بتفنيد ما هم عليه من الشرك وما كان عليه آباؤهم منه، وإذ كان تبليغ الدعوة هو الواجب الأول والأهم المقصود من الرسالة وجب التبليغ قبله، وكف القتال عمن يُظهر الرغبة في سماع كلام الله تعالى للعلم بمضمونها، والوقوف على ما نهى وأمر، وبشر وأنذر، وتأمينه في مجيئه إلى الرسول ﷺ ثم العودة إلى دار قومه.

وبهذا يكون المشركون الذين بُلِّغوا نبذ عهودهم أو انتهاء مدتها ثلاثة أقسام: مُصِرٌّ على الشرك وعداوة المسلمين، ومسترشد طالب للعلم وسماع القرآن، وتائب يدخل في الإسلام.

ومعنى الجملة: وإن استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه، أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه، أو ليلقاك مطلقاً وإن لم يذكر سبباً، فيجب أن تجيره وتؤمنه لكي يسمع أو إلى أن يسمع كلام الله، فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع، فإذا اهتدى به وآمن عن علم واقتناع فذاك، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن به على نفسه، حيث لا يكون للمسلمين عليه سلطان قهر، إلى أن تعود حالة الحرب إلى ما كانت من غير عذر.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾، أي: ذلك الأمر بإجارة المستجير من المشركين ليسمع كلام الله، أو إلى أن يسمع كلام الله، بسبب أنهم قوم جاهلون لايدرون ما الكتاب وما الإيمان، فأعرضوا عن دعوة الإسلام بجهل وعصبية وكانوا مغترين بقوتهم، مصرين على جفوتهم.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

٧ ـ ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟﴾ هذا الاستفهام للإنكار المشرب لمعنى التعجب، والخطاب للمؤمنين الذين رسخ خُلُق الوفاء في قلوبهم، والمعنى: بأية صفة وأية كيفية يثبت للمشركين عهد من العهود عند الله يقره لهم في كتابه، وعند رسوله ﷺ يفي لهم به وتفون به اتباعاً له، وحالهم الذي بينته الآية التالية تأبى ثبوت ذلك لهم؟ ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾. ذكر أبو جعفر ابن جرير الطبري الروايات المختلفة في تفسير

هذه الآية، ومنها قول ابن اسحاق «كيف يكون للمشركين» الذين كانوا وأنتم على العهد العام،بأن لا تمنعوهم ولا يمنعوكم من الحرم ولا في الشهر الحرام «عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام» وهي قبائل بني بكر الذين كانوا دخلوا في عهد قريش وعقدهم يوم الحديبية، إلى المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نَقَضَها إلا هذا الحي من قريش وبنو الدِّئل مِنْ «بكر»، فأمر بإتمام العهد لمن لم يكن نقض عهده من بني بكر إلى مدته.

ثم قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال:هم بعض بني بكر من كنانة ممن كان أقام على عهده، ولم يكن دخل في نقض ما كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية من العهد مع قريش. وإنما قلت: إن هذا القول بالصواب لأن الله أمر نبيه والمؤمنين بإتمام العهد لمن كانوا عاهدوه عند المسجد الحرام ما استقاموا على عهدهم. وقد بينا أن هذه الأيات إنما نادى بها علي في سنة تسع من الهجرة وذلك بعد فتح مكة بسنة فلم يكن بمكة من قريش ولا من خزاعة كافر يومئذ بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فيؤمر بالوفاء له بعهده ما استقام على عهده، لأن مَنْ كان منهم من ساكني مكة كان قد نقض العهد وحورب قبل نزول هذه الآيات اهـ.

﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾، أي: فمهما يستقم لكم هؤلاء فاستقيموا لهم، أو فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم، إذ لا يجوز أن يكون الغدر ونقض العهد من قبلكم ﴿إن الله يحب المتقين﴾ الذين يجتنبون قطع ما أمر الله به أن يوصل وغير ذلك من محارمه، ومن أعظمها الغدر ونقض العهود.

٨ ــ ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّاً ولا ذمة؟﴾ المعنى: كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم عهد مشروع عند الله، مرعي بالوفاء عند رسوله، والحال المعهود منهم المعروف من أخلاقهم وأعمالهم، أنهم إن يظهروا عليكم في القوة والغلب لا يرقبوا فيكم «إلّاً»، أي: قرابة، ولا «ذمة»، أي: عهداً؟

وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار.

هذا أشهر الأقوال المأثورة في تفسير هاتين الآيتين هنا وهو مروي عن ابن عباس من عدة طرق عند ابن جرير وغيره.

﴿يرضونكم بأفواههم﴾، أي: يخادعونكم في حال الضعف، بما ينبذون به من الكلام العذب الذي يرون أنه يرضيكم، سواء كان عهداً أو وعداً أو يميناً مؤكّدة لها ﴿وتأبى قلوبهم﴾ المملوءة بالحقد والضغن أن تصدق أفواههم، فهم إن ظهروا عليكم نكثوا العهود، وحنثوا بالأيمان، وفتكوا بكم جهد طاقتهم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾، أي: خارجون من قيود العهود والمواثيق، متجاوزون لحدود الصدق والوفاء.

ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

هذا بيان مستأنف لمن عساه يستغرب من غلبة الفسق على أكثرهم ويسأل عن سببه، وجوابه:

٩ ـ ﴿اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً﴾، أي: إنهم استبدلوا بآيات الله الدالة على وجوب توحيده بالعبادة، وعلى بعثه للناس وجزائهم على أعمالهم، وعلى الوحي والرسالة وما فيها من الهداية، ثمناً قليلاً من متاع الدنيا وهوما هم فيه من أسباب المعيشة، وكثيره عند كبرائهم قليل بالنسبة إلى ما عند غيرهم من أمم الحضارة، وما عند أغنى هؤلاء قليل بالإضافة إلى ما وعد الله تعالى المؤمنين في الدنيا، وإن ما وعدهم به في الآخرة لهو خير وأبقى.

﴿فصدوا عن سبيله﴾ أي: فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس، وأعرضوا عن سبيل الله، وهو الإسلام وما يقتضيه من الوفاء بالعهود، وصدوا غيرهم وصرفوهم عنه أيضاً ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾، أي: إنهم ساء عملهم الذي كانوا يعملونه من اشتراء الكفر

بالإيمان والضلالة بالهدى، والصدود والصد عن دين الله وما جاء به رسوله من البينات والحق.

١٠ ــ ﴿لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة﴾، أي: من أجل هذا الكفر والصدود والصد عن الإيمان، لا يرعون في مؤمن يَظْهَرُون عليه ويقدرون على الفتك به قرابة تقتضي الود، ولا ذمة توجب الوفاء اتقاء للذم. ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ لحدود العهود من دونكم، والبادئون لكم بالقتال كما فعلوا فيما مضى، وكذلك يفعلون فيما يأتي، والعلة في اعتدائهم وتجاوزهم هو رسوخهم في الشرك، وكراهتهم للإيمان وأهله لا لكم وحدكم، فلا علاج لهم إذاً إلا الرجوع عن كفرهم والاعتصام معكم بعروة التوحيد والإيمان، وما تقتضيه من الأعمال الصالحة وفضائل الأخلاق.

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

هذا بيان لما سيكون من أمر هؤلاء المشركين بعد تلك العداوة للإسلام وأهله، وهو لا يعدو أمرين فصلهما تعالى وبيّن حكم كل منهما في هاتين الآيتين، فقال:

١١ ــ ﴿فإن تابوا﴾ عن شركهم وصدهم عن سبيل الله من آمن به بالفعل، ومن يريد الإيمان أو يتوقع منه، ﴿وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ بدخولهم في جماعة المسلمين الذي لا يتحقق بعد الشهادتين إلا بإقامة هذين الركنين من أركان الإسلام. ﴿فإخوانكم في الدين﴾، أي: فهم حينئذ إخوانكم في الدين لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، وبهذه الأخوة يهدم كل ما كان بينكم وبينهم من عداوة.

﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾، أي: ونبين الآيات المفصلة للدلائل،

الفاصلة بين الإيمان والكفر وبين الحق والباطل، والمفرقة بين الفضائل والرذائل، لقوم يعلمون وجوه الحجج البراهين، فهم الذين يعقلونها دون الجاهلين من متبعي الظنون والمقلدين.

١٢ ـ ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم﴾ هذا بيان للأمر الثاني من أحوال المشركين. والمعنى: وإن نكث هؤلاء المشركون ما أبرَمْته أيمانهم، أو ما أقسموا عليه أيمانهم من الوفاء بعد عهدهم الذي عقدوه معكم ﴿وطعنوا في دينكم﴾، أي: عابوه وثلبوه بالاستهزاء به وصد الناس عنه، ومنه الطعن في القرآن وفي النبي ﷺ كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم.

فهذا العطف بيان للواقع وإيذان بأن الطعن في الإسلام، ضرب من ضروب نكث الإيمان، ونقض السلم والولاء، كالقتال ومظاهرة الأعداء، فهو من عطف الخاص على العام.

﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم فهم أئمة الكفر، أي: قادة أهله وحملة لوائه.

﴿إنهم لا أيمان لهم﴾، أي: إن عهودهم كَلَا عهود، لأنها مخادعة لسانية لم يقصدوا الوفاء بها ﴿لعلهم ينتهون﴾، أي: قاتلوهم راجين بقتالكم إياهم أن ينتهوا عن كفرهم وشركهم، وما يحملهم عليه من نكث أيمانهم، ونقض عهودهم، والضراوة بقتالكم كلما قدروا عليه.

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

١٣ ـ ﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة﴾ هذا تحريض على قتالهم بأَوْجَهِ وُجوه الأدلة وأقواها، وأوضح

أساليب البيان وأسماها. فكان دليلاً على وجوبه، وأقام على هذا الوجوب ثلاث حجج:

أحدها: نكثهم لأيمانهم التي حلفوها لتأكيد عهدهم الذي عقدوه مع النبي ﷺ وأصحابه في الحديبية، أولعهدهم الذي عقدته أيمانهم، على ترك القتال عشر سنين يأمن بها الناس من الفريقين على أنفسهم ويكونون أحراراً في دينهم، فلم يلبثوا أن نكثوا بمظاهرة حلفائهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبي ﷺ كما تقدم.

ثانيها: همهم بإخراج الرسول ﷺ من وطنه، أوحبسه حيث لا يرى أحداً ولا يراه أحد حتى لا يبلغ دعوة ربه، أوقتله بأيدي عصبة مؤلفة من شبان بطون قريش كلها ليتفرق دمه في القبائل فتتعذر المطالبة به. ائتمروا فيما بينهم بذلك في دار ندوتهم فكان هو الحامل له على الخروج إلى دار الهجرة.

ثالثها: كونهم كانوا هم البادئين بقتال المؤمنين في بدر، إذ قالوا بعد العلم بنجاة العير التي كانوا خرجوا لانقاذها: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه ونقيم في بدر أياماً نشرب الخمر وتعزف على رؤوسنا القيان.

ثم قال بعد بيان هذه الحجج: ﴿أتخشونهم؟﴾ أي: أتتركون قتالهم خشية لهم وجبناً منكم؟ إن كانت الخشية هي المانعة لكم من قتالهم ﴿فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾ فإن المؤمن حق الإيمان لا يخاف ولا يخشى إلا الله تعالى، لعلمه بأنه هو الذي بيده ملكوت كل شيء.

ثم إنه بعد إقامة هذه الحجج البينة على وجوب قتالهم، ودحض شبهة المانع منه، صرح بالأمر الطعي به مع الوعد القطعي بإظهار المؤمنين عليهم أكمل الظهور وأتمه، فقال تعالى:

١٤ ــ ﴿قاتلوهم﴾، أي: باشروا قتالهم كما أمرتم فإنكم إن تقاتلوهم ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ بتمكينها من رقابهم قتلاً، ومن صدورهم ونحورهم طعناً، يعقبهم في قلوبهم يأساً، لا يدع في أنفسهم بأساً.

﴿ويخزهم﴾ بِذُلِّ الأسر والقهر والفقر لمن لم يُقتل منهم ﴿وينصركم عليهم﴾ أكمل النصر وأتمّه، بحيث لا يعود لهم بعد هذه المرة قوة ولا سلطان يعودون به إلى قتالكم، كما كان شأنهم بعد نصركم عليهم في بدر وغيرها ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ كان هؤلاء المشركون قد نالوا منهم ما نالوا في سلطانهم، فكان في صدورهم من موجدة القهر والذل ما لا شفاء له إلا بهذا النصر عليهم، وهؤلاء المؤمنون هم الذين غدر بهم المشركون كخزاعة والذين كانوا في دار الشرك عاجزين عن الهجرة.

١٥ ـ ﴿ويذهب غيظ قلوبهم﴾ الذي كان وقر فيها من غدر المشركين، ومِنْ ظلمهم لمن لم يكن له مجير من المسلمين، فشفاء الصدور بعز الإسلام بالنصر العام الشامل لهؤلاء ولغيرهم هو غير ذهاب ما في قلوبهم من الغيظ والحقد على من غدرهم وظلمهم.

﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ منهم فيوفقه للإيمان ويقبله منه ﴿والله عليم حكيم﴾ يعلم ما لا تعلمون من استعدادهم في حالهم ومستقبل أمرهم، ويشرع لكم من الأحكام فيهم ما تقتضيه حكمته في إقامة دينه وإظهاره على الدين كله.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

١٦ ـ ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ وشأنَكُم بغير امتحان ولا افتتان ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾، أي: والحال أنه لم يظهر فيكم إلى الآن ما يمتاز به أولئك الذين جاهدوا منكم في الله حق جهاده من المنافقين ومرضى القلوب ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسولـه ولا المؤمنين وليجـة﴾، أي: ولم يتخذوا لأنفسهم دخيلة وبطانة من المشركين الذين يحادون الله تعالى بالشرك به، ويحادون رسوله بالصد عن دعوته، ويقاتلون المؤمنين أنصار الله ورسوله، يُطْلِعُون أولئك الولائج على أسرار الملة، ويقفونهم على سياسة الأمة، كما فعل ويفعل المنافقون ومرضى القلوب فيكم. فهو بمعنى قوله تعالى: «يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر».

﴿والله خبير بما تعملون﴾، أي: عالم بخفايا ما تعملون الآن وبعد الآن محيط بدقائقه، والواو في الجملة حالية أي: أحسبتم وظننتم أن تتركوا قبل أن يتم هذا التمحيص والتمييز بين الذين صدقوا في جهادهم والكاذبين من فاسدي السريرة، ومتخذي الوليجة، والحال أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أمركم، وكيف ذلك والله خبير بما تعملون.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

١٧ ــ ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ المراد من المساجد جنسها الذي يصدق بأيِّ فرد من أفرادها و«عمارة المسجد» في اللغة: لزومه والإقامة فيه للعبادة، أو لخدمته بالترميم والتنظيف ونحوهما، وعبادة الله فيه، وزيارته للعبادة، ومنها الحج والعمرة.

ومعنى الجملة: ما كان ينبغي ولا يصح للمشركين ولا ذلك من مقتضى شركهم، أو الذي يشرعه أو يرضاه الله منهم، أو يقرهم عليه، أن يعمروا مسجد الله الأعظم وبيته المحرم بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة له والولاية عليه، ولا أن يزوروه حجاجاً أو معتمرين ولا شيئاً من سائر مساجده كذلك ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾، أي: ما كان لهم ذلك في حال كونهم كافرين شاهدين على أنفسهم بالكفر قولاً وعملاً لأن هذا جمع بين الضدين، فإن عمارة مساجد الله الحسية إنما تكون لعمارتها المعنوية بعبادته

فيها وحده، ولا تصح ولا تقع إلا من المؤمن الموحد له وذلك ضد الكفر به، وأيُّ كفر بالله أظهر وأشد من الشرك به ومساواته ببعض خلقه في العبادة؟

﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾، أي: أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله ﷺ، وقد حبطت أعمالهم التي يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وغيرهما من أعمال البر، كقِرَى الضيف وصلة الرحم، أي: بطلت ولم يبق لهم ثوابها.

﴿وفي النار هم خالدون﴾ أي: وهم مقيمون في دار العذاب التي تسمى النار دون غيرها، إقامة خلود وبقاء لكفرهم المحبط لأعمالهم الحسنة.

١٨ ـ ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾ بعد أن بَيَّن عدم استحقاق المشركين لعمارة مساجد الله أثبتها للمسلمين الكاملين، وجعلها مقصورة عليهم بالفعل لا بمجرد الشأن والاستحقاق، وهو الذي يقتضيه مقام الإيجاب، وهم الجامعون بين الإيمان بالله على الوجه الحق الذي بينه في كتابه من توحيده وتنزيهه واختصاصه بالعبادة والاستعانة والتوكل، والإيمان باليوم الآخر الذي يحاسب الله فيه العباد ويجزي كل نفس بما كسبت، وبَيْن إقامة الصلاة المفروضة بأركانها وآدابها وتدبر تلاوتها وأذكارها التي تكسب مقيمها مراقبة الله تعالى وحبه والخشوع له والإنابة إليه، وإعطاء زكاة الأموال من نقد وزرع وتجارة لمستحقيها وبين خشية الله دون غيره ممن لا ينفع ولا يضر كالأصنام وسائر ما عُبِد من دون الله خوفاً من ضرره أو رجاء في نفعه.

﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، أي: فأولئك الجامعون لهذه الخمس من أركان الإيمان والإسلام التي يلزمها سائر أركانها، هم الذين يرجون بحق الجزاء عليها بالجنة خالدين فيها، دون غيرهم من المشركين الجامعين لأضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله، الذين دنسوا مسجده الحرام بالأصنام، والاستقسام بالأزلام، وصدوا المسلمين عن الحج والاعتمار والصلاة فيه.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

روى مسلم وأبو داود وابن حبان وبعض رواة التفسير المأثور من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم. فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ــ وذلك يوم الجمعة ــ ولكن إذا صليتُ الجمعة دخلتُ على رسول الله ﷺ فاستفتيه فيما اختلفتم فيه. فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله جل شأنه:

١٩ ــ ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟﴾ مقتضى حديث النعمان بن بشير أن الخطاب هنا للمؤمنين الذين تنازعوا، أي: هذه الأعمال أفضل؟ والاستفهام فيه للإنكار ﴿لا يستوون عند الله﴾، أي: لا يساوي الفريقُ الأول الفريق الثاني في صفته ولا في عمله، في حكم الله ولا في مثوبته وجزائه عنده في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ إلى الحق في أعمالهم، ولا إلى الحكم العدل في أعمال غيرهم، أي: ليس من سنته في أخلاق البشر وأعمالهم، أن يكون الظالم مهدياً إلى الحق والعدل، لأنه جمع بين ضدين بمعنى النقيضين،

والقوم الظالمون أشد إسرافاً في الظلم من الأفراد، وأبعد عن الهدى بغرورهم بقوتهم وتناصرهم. ومن أقبح هذا الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت، وحفظ مفتاحه، وسقاية الحاج، على الإيمان بالله وحده المطهر للأنفس من خرافات الشرك وأوهامه، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذي يحبب إليها الحق والعدل، ويرغبها في الخير وعمل البر، ابتغاء رضوان الله لا للفخر والرياء، وعلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، لإحقاق الحق وإبطال الباطل وترقية شؤون البشر في مدارج العلم والعمل.

٢٠ ــ ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾، أي: أعظم درجة وأعلى مقاماً في الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة في جوار الله، من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم أفضل القربات بعد هداية الإسلام، ومن غيرهم من أهل البر والصلاح، الذين لم ينالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه المالي والنفسي.

﴿وأولئك هم الفائزون﴾، أي: وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم وحدهم الفائزون بمثوبة الله الفضلى وكرامته العليا.

وههنا تستشرف النفس لمعرفة هذا الفوز المجمل فبينه تعالى بقوله:

٢١ ــ ﴿يبشرهم ربهم﴾ في كتابه المنزل على لسان نبيه المرسل، ثم على لسان ملائكته عند الموت ﴿برحمة منه﴾، أي: رحمة عظيمة خاصة من لدنه عز وجل ﴿ورضوان﴾، أي: نوع من الرضى التام الكامل الذي لا يشوبه ولا يعقبه سخط، ﴿وجنات﴾ تجري من تحتها الأنهار في دار الكرامة وجوار الرحمن ﴿لهم فيها نعيم مقيم﴾، أي: لهم فيها نعيم عظيم خاص بهم دون من لم يؤمن ولم يهاجر هجرتهم ولم يجاهد جهادهم، مقيم دائم لا يزول على عظمه وكماله.

٢٢ ــ ﴿خالدين فيها أبداً﴾، أي: مقيمين في تلك الجنات إقامة دائمة

أبدية، ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾، أي: لأن ما عند الله تعالى من الأجر على الإيمان والعمل الصالح عظيم جداً، لا يقدر قدره غيره جل جلاله.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

٢٣ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾، أي: لا يتخذ أحد منكم أحداً من أب أو أخ ولياً له ينصره في القتال، أو يظاهر لأجله الكفار، بأن يتخذه بطانة ووليجة يُعْلمه بأسرار المؤمنين، وما يستعدون به لقتال المشركين، ﴿إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾، أي: إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان بالحب وما يقتضيه هذا الحب من قتال المؤمنين وعداوتهم.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾، أي: ومن يتولهم منكم والحال ما ذكر، فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم، العريقون في الظلم الراسخون فيه.

٢٤ ـ ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾.

وجّه الله عز وجل الخطاب في النهي عن الجريمة الكبرى ـ وهي: ولاية الكافرين المعادين لله ورسوله ـ إلى المؤمنين بعنوانهم مباشرة، ثم أمر رسوله ﷺ

أن يخاطبهم في أمر الجريمة الثانية والوعيد عليها على فرض وقوعها منهم وهي: تفضيل هذه الحظوظ والشهوات الدنيوية في الحب على حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله، فلا ريب أن من كان ما ذكر من الأصناف الثمانية كلها أو بعضها أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله فهو غير تام الإيمان أو غير صحيحه.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الذين يؤثرون حب القرابة والمنفعة العارضة، كالمال والتجارة، على حب الله ورسوله والجهاد المفروض في سبيله.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

هذه الآيات تذكير للؤمنين بنصر الله لهم على أعدائهم في مواطن القتال الكثيرة معهم، إذ كان عددهم وعتادهم قليلاً ويُرجى معه النصر بحسب الأسباب والعادة، ليتذكروا أن عنايته تعالى وتأييده لرسوله وللمؤمنين بالقوى المعنوية، أعظم شأناً وأدنى إلى النصر من القوة المادية، كالكثرة العددية وما يتعلق بها، وجعل هذا التذكير تالياً للنهي عن ولاية آبائهم وإخوانهم من الكفار، وللوعيد على إيثار حب القرابة والزوجية والعشيرة والمال والسكن على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، تفنيداً لوسوسة شياطين الجن والإنس ـ من المنافقين ومرضى القلوب ـ لهم، وتنفيرهم من القتال. قال عز وجل:

٢٥ ـ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة﴾ «المواطن»: جمع مَوْطن، وهي: مشاهد الحرب ومواقعها، ووصفها بالكثيرة لأنها تشمل غزوات النبي ﷺ وأكثر سراياه التي أرسل فيها بعض أصحابه ولم يخرج معهم.

ولا يطلق اسم «الغزوة» إلا على ما تولاه ﷺ بنفسه من قصد الكفار إلى حيث كانوا من بلادهم أو غيرها.

﴿ويوم حنين﴾، أي: ونصركم يوم حنين أيضاً، وهو واد قريب من الطائف.

﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾، أي: أنه نصركم في مواطن كثيرة ما كنتم تطمعون فيها بالنصر بمحض استعدادكم وقوتكم لقلة عددكم وعتادكم، ونصركم أيضاً في يوم حنين وهو اليوم الذي أعجبتكم فيه كثرتكم إذ كنتم اثني عشر ألفاً وكان الكافرون أربعة آلاف فقط، فقال قائلكم معبراً عن رأي الكثيرين الذين غرتهم الكثرة: لن نُغْلَب اليوم من قلة.

﴿فلم تغن عنكم شيئاً﴾، أي: فلم تكن تلك الكثرة التي أعجبتكم وغرتكم كافية لانتصاركم، بل لم تدفع عنكم شيئاً من عار الغَلَب والهزيمة ﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾، أي: ضاقت عليكم الأرض برحبها وسعتها فلم تجدوا لكم فيها مذهباً ولا ملجأً ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: وليتم ظهوركم لعدوكم مدبرين لا تلوون على شيء.

٢٦ ـ ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ «السكينة»: اسم للحالة والهيئة النفسية الحاصلة من السكون والطمأنينة، وهي ضد الاضطراب والانزعاج، والمعنى: أن الله تعالى أفرغ سكينته على رسوله بعد الذي حصل فثبت كالطود الراسي نفساً، ولم يزدد إلا شجاعة وإقداماً وبأساً، وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه، وقليل ما هم في ذلك الجيش ثم على سائر المؤمنين الصادقين فأذهب روعهم، وأزال حيرتهم واضطرابهم، وعاد إليهم ما كان زال أو زلزل من ثباتهم وشجاعتهم، ولا سيما عندما سمعوا نداءه ﷺ ونداء العباس يدعوهم إلى نبيهم بأمره.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ أي: وأنزل مع هذه السكينة جنوداً من الملائكة لم تروها بأبصاركم، وإنما وجدتم أثرها في قلوبكم، بما عاد إليها من ثبات

الجأش، وشدة البأس ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والأسر والسبي، وذلك منتهى الغَلَب والخزي ﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ في الدنيا بكفرهم ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه، ويدخل في هذا الجزاء من كان حاله مثل حال أولئك الكافرين في قتال من كان على هدي أولئك المؤمنين إلى يوم الدين.

٢٧ ـ ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ ثم يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام، «والله غفور» لمن يتوب عن الشرك والمعاصي «رحيم» بهم.

(الخروج إلى حنين وما حصل فيها)

قال الحافظ ابن حجر في أول الكلام على هذه الغزوة من «الفتح»: قال أهل المغازي خرج النبي ﷺ إلى حنين لست خلت من شوال. وقيل: لليلتين بقيتا من رمضان. وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها في عاشره. وكان السبب في ذلك أن مالك بن عوف النضري جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك الثقفيون وقصدوا محاربة المسلمين فبلغ ذلك النبي ﷺ فخرج إليهم»، اهـ.

وروى الشيخان وغيرهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب[1]

وروى مسلم من حديث سلمة بن الأكوع عن رسول الله ﷺ: أنه نزل عن البغلة يوم حنين ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به

---

(١) انتسب ﷺ إلى جده هنا لأنه المعروف عند القبائل، خلافاً لأبيه الذي مات شاباً.

وجوههم فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين.

وروى مسلم من حديث العباس رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُرْكض بغلته قِبَلَ الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أيْ عباس ناد أصحاب السَّمُرة» فقال عباس ـ وكان رجلاً صيتاً ـ فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله لكأن عطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس» ـ أي: اشتداد الحرب ـ قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حُصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا وربِّ محمد»، قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى أحدهم كليلاً وأمرهم مدبراً.

قال النووي رحمه الله في شرح كلمة العباس قال العلماء: في هذا الحديث دليل على أن فرارهم لم يكن بعيداً، وإنه لم يحصل الفرار من جميعهم، وإنما كانت هزيمتهم فجأة لانصبابهم عليهم دفعة واحدة ورشقهم بالسهام، ولاختلاط أهل مكة معهم ممن لم يستقر الإيمان في قلبه، وممن يتربص بالمسلمين الدوائر، وفيهم نساء وصبيان خرجوا للغنيمة.

وانتهت المعركة بهزيمة المشركين وانتصار المسلمين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ

بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

٢٨ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، أي: ليس المشركون كما تعلمون من حالهم إلا أنجاساً فاسدي الاعتقاد، يشركون بالله ما لا ينفع ولا يضر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدينون بالخرافات والأوهام، ولا يتنزهون عن النجاسات ولا الآثام، ويأكلون الميتة والدم من الأقذار الحسية، ويستحلون القمار والزنا من الأرجاس المعنوية. وقد تمكنت صفات النجس منهم حساً ومعنى حتى كأنهم عينه وحقيقته، فلا تمكنوهم بعد هذا العام أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم، فضلاً عن دخول البيت نفسه وطوافهم عراة فيه، وقيل: المراد بنجاستهم تلبسهم بها دائماً لعدم تعبدهم بالطهارة كالمسلمين، وقول الجمهور بأن المراد النجاسة المعنوية أظهر، والجمع بين القولين أولى لأنه أعم.

وأما القول بنجاسة أعيانهم فهو لا معنى له في لغة القرآن إلا قذاراتها الذاتية ونتنها، وذوات المشركين كذوات سائر البشر بشهادة الحس، ومن كابر شهادة الحس كابر دلالة النظر العقلي واللغوي بالأولى. فمن المعلوم القطعي لكل مطلع على السيرة النبوية وتاريخ ظهور الإسلام بالضرورة أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم ولا سيما بعد صلح الحديبية إذ امتنع اضطهاد المشركين وتعذيبهم لمن لا عصبية له ولا جوار يمنعه منهم، وكانت رسلهم ووفودهم ترد على النبي ﷺ ويدخلون مسجده، وكذلك أهل الكتاب كنصارى نجران واليهود، ولم يعامل أحداً منهم معاملة الأنجاس ولم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم، بل روي عنه ما يدل على خلاف ذلك مما احتج به الجمهور على طهارة أبدانهم من الأحاديث الصحيحة، ومنها أنه ﷺ توضأ من مزادة مشركة، وأكل من طعام اليهود، وربط ثمامة بن أثال وهو مشرك بسارية من سواري المسجد، ومنها إطعامه هو وأصحابه للوفد من الكفار ولم يأمر ﷺ بغسل الأواني التي كانوا يأكلون ويشربون فيها، وروى أحمد وأبو داود من

حديث جابر بن عبد الله قال كنا نغزو مع رسول الله ﷺ فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا.

﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ «العيلة»: الفقر والمراد بها ما يحدث إذا مُنِعَ المشركون من المجيء إلى مكة من قلة جلب الأرزاق إليها والمتاع بالتجارة، وما كانوا يسوقونه من الهدي للحرم ويتمتع به فقراؤه فأزال تعالى ما كانوا يخافون من العيلة بوعدهم بأن يغنيهم من فضله إن شاء، وفضله كثير، فقد صاروا بعد الإسلام ومنع المشركين من الحرم أغنى مما كانوا قبل ذلك، وقد جاءهم الغنى من طرق كثيرة، أسلم أهل اليمن فصاروا يجلبون لهم الميرة، بل أسلم أولئك المشركون ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم ولا من المسجد، ثم تفجرت ينابيع الغنى والثروة من كل جانب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾، أي: «عليم» بما يكون من مستقبل أمركم في الغنى والفقر، «حكيم» فيما يشرعه لكم من نهي وأمر.

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

٢٩ ـ ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب﴾.

وصف الله تعالى أهل الكتاب الذين بَيّن حكم قتالهم، بأربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه في داره، لأن إقرارهم على الاستقلال وحمل السلاح فيه يفضي إلى قتال المسلمين في دارهم، ومساعدة من يهاجمهم فيها كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي ﷺ إياهم.

فأما الإيمان بالله تعالى: فقد شهد القرآن بأن الفريقين من اليهود والنصارى فقدوه بهدم ركنه الأعظم وهو التوحيد الصحيح.

وأما اليوم الآخر: فالفريقان يخالفان فيه المسلمين فإنهم إنما يقولون بأن حياة الآخرة روحانية محضة يكون فيها أهلها من الناس كالملائكة، ونحن نؤمن بأن الإنسان يكون فيها إنساناً لا تنقلب حقيقته، بل يبقى مؤلفاً من جسد وروح، ويتمتع الكاملون الناجون بجميع نعيم الأرواح والأجساد.

وأما كونهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله: ففيه قولان للمفسرين. أحدهما: أن المراد به ما حرم في شرعنا واختاره الألوسي. والثاني: أنه ما حرم في شرعهم الذي جاء به موسى ونسخ بعضه عيسى عليهما السلام.

وأما كونهم لا يدينون دين الحق: فمعناه أنهم لا يدينون الله بدينه الحق الكامل الأخير، المكمِّل والمبين لما اختلفوا فيه من قبل، والناسخ لما لا يصلح للبشر منه فيما بعد، وهو الإسلام.

﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب، ينتهي بها إذا كان الغلب لنا، أي: قاتلوا من ذكر، يعطوكم الجزية، صادرة «عن يد» أي: قدرة وسعة، فلا يُظلمون ويُرهقون، والحال أنهم أذلاء لكسر شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم، وحريتهم في دينهم بالشروط التي تُعْقَد بها الجزية، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين، ويسمون «أهل الذمة» لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ

قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

٣٠ ــ ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ «عزير» هذا هو الذي يسميه أهل الكتاب «عزرا»، والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغروا بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه وعنهم أخذ المسلمون والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى معروف عند جميع الأمم. واليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيراً هذا، حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب «ابن الله» والذين قالوا هذا القول بعض يهود المدينة، كالذين قال الله فيهم «وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم» والذين قال فيهم: «لقد كفر الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» رداً على قوله تعالى: «من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً؟» ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا.

﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ هذا القول كان يقوله القدماء منهم ويقصدون به معنى مجازياً كالمحبوب والمكرم ثم سرت إليهم فلسفة اليهود في «كرشنا» وغيرهم من قدماء الوثنيين، ثم اتفقت عليه فرقهم المعروفة في هذه الأزمنة على أنه حقيقة لا مجاز وعلى أن «ابن الله» بمعنى «الله» وبمعنى «روح القدس» لأن هؤلاء الثلاثة عندهم واحد حقيقة لا مجازاً، هذا تعليم الكنائس الذي قررته المجامع الرسمية، بتأثير الفلسفة الرومية.

﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾، أي: ذلك الذي قالوه في عزير والمسيح،

هو قولهم الذي تلوكه ألسنتهم في أفواههم، ما أنزل به الله من سلطان، إذ ليس له مدلول في الوجود، ولا حقيقة في مدارك العقول.

﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: يشابهون ويحاكون فيه قول الذين كفروا من قبلهم، فقالوا هذا القول أو مثله، قيل: إن المراد بهم مشركو العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله. وقيل: إن المراد سلفهم الذين قالوا هذا القول قبلهم، وهذا مبني على أن الكلام في اليهود والنصارى الذين كانوا في عصر نزول القرآن، والراجح المختار: أن المراد بكل من اليهود والنصارى في الآية الجنس، وهو يصدق بوقوع ذلك من بعضهم في أي عصر كان، والمختار في مضاهأتهم للذين كفروا من قبلهم، يصدق في كل من وقع ذلك منهم والله أعلم بهم.

﴿قاتلهم الله﴾ هذه الجملة تستعمل في اللسان العربي للتعجب وللدعاء عليهم على أن المراد به اللعنة أو الهلاك. ﴿أنى يؤفكون﴾، أي: كيف يُصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق عز وجل ــ وهو الذي تجزم به العقول، والذي بلَّغه عن الله تعالى كل رسول، فهو جمع بين المعقول والمنقول ــ ويقولون هذا القول الذي لا يقبله عقل، ولم يصح به عن أنبياء الله ورسله نقل؟

٣١ ــ ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم﴾ «الأحبار» جمع «حَبْـر» وهو: العالم من أهل الكتاب، و«الرهبان» جمع «راهب» ومعناه في اللغة: الخائف، وهو عند النصارى: المتبتل المنقطع للعبادة. والمعنى: اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين فيهم أرباباً، بما أعطوهم من حق التشريع فيهم وأطاعوهم فيه، والنصارى اتخذوا رهبانهم أي: عُبَّادهم الذين يخضع العوام لهم أرباباً كذلك. والأظهر أن يكون المراد من الأحبار والرهبان جملة رجال الدين في الفريقين، أي: من العلماء والعباد، أي: اتخذ اليهود أحبارهم وربانيهم، والنصارى قسوسهم ورهبانهم أرباباً غير الله، بإعطائهم حق التشريع الديني لهم، وبغير ذلك مما هو حق الله تعالى.

روى الترمذي ــ وحسَّنه ــ وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه وغيرهم عن عدي بن حاتم رضي الله عنهم، قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» فقال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه».

ولبعض المفسرين أقوال في الآية جديرة بأن تنقل بنصها لما فيها من العبرة لأهل هذا العصر: قال العلامة الشيخ سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي في تفسير هذه الآية من كتابه «الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية» ــ أي ما يتعلق بأصول العقائد وأصول الفقه في القرآن ــ ما نصه: «أما المسيح فاتخذوه رباً معبوداً بالحقيقة. وأما الأحبار لليهود والرهبان للنصارى فإنما اتخذوهم أرباباً مجازاً، لأنهم أمروهم بتكذيب محمد ﷺ وإنكار رسالته فأطاعوهم، وغير ذلك مما أطاعوهم فيه فصاروا كالأرباب لهم بجامع الطاعة، والنصارى يزعمون أن المسيح قال لتلاميذه عند صعوده عنهم: ما حَلَلتموه فهو محلول في السماء، وما ربطتموه فهو مربوط في السماء. فمن ثَمَّ إذا أذنب أحدهم ذنباً جاء بالقربان إلى «البطرك» أو «الراهب» وقال: يا أبونا اغفر لنا، بناء على أن خلافة المسيح مستمرة فيهم، وأنهم أهل الحل والعقد في السماء والأرض على ما نقلوه عن المسيح، وهو من ابتداعاتهم في الدين».

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾، أي: اتخذوا ــ اليهودُ والنصارى ــ رؤساءهم أرباباً من دون الله تعالى، واتخذ النصارى المسيح رباً وإلهاً، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به عن الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً بما شرعه هو لهم، وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه ﴿لا إله إلا هو﴾ تعليل للأمر بعبادة إله واحد بأنه لاوجود لغيره في حكم الشرع، ولا في نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بمحض الهوى والجهل، إذ ظن هؤلاء الجاهلون أن لبعض المخلوقات من السلطان الغيبي والقدرة على الضر والنفع ﴿سبحانه عما يشركون﴾، أي: تنزيهاً له عن شركهم

في أولهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

٣٢ ـ ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾، أي: يريد اليهود والنصارى، أن يطفئوا نور الله الذي أفاضه على البشر بهداية دينه الحق الذي أوحاه إلى موسى وعيسى وغيرهما من رسله، ثم أتمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين محمد عليهم الصلاة والسلام، بالطعن في الإسلام والصد عنه بالباطل.

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ الذي أضافه إلى اسمه ببعثة محمد خاتم النبيين، ﷺ إلى الخلق أجمعين، مبيناً لهم كل ما يحتاجونه من أمر الدين، من عقائد وعبادات وآداب وتشريع سياسي وقضائي يجمع بين العدل والرحمة.

أتم الله تعالى ذلك كله على لسان خاتم النبيين، الذي أرسله رحمة للعالمين، وجعل آيته الكبرى علمية عقلية وهي هذا القرآن، وكفل حفظها إلى آخر الزمان، ﴿ولو كره الكافرون﴾ ذلك بعد إتمامه، كما كانوا يكرهونه من قبل عند بدء ظهوره، وجواب «لو» محذوف للعلم به مما قبله. فهم يكيدون له، ويفترون عليه، ويطعنون فيه وفيمن جاء به.

٣٣ ـ ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ هذا بيان مستأنف للمراد من إتمام نور الله عز وجل. وهو: أن الله الذي كفل إتمام هذا النور، هو الذي أرسل رسوله الأكمل الذي أخذ العهد على النبيين من قبل «ليؤمُننَّ به ولينصُـرُنَّه» إن جاء في زمن أحد منهم، أرسله بالهدى الأتم الأكمل، الأعم الأشمل، و«دين الحق» أي: الثابت المتحقق الذين لا ينسخه دين آخر ولا يبطله شيء آخر.

ثم بيّـن غاية إرسال خاتم النبيين والمرسلين بدين الحق أو علته بقوله: ﴿ليظهره على الدين كله﴾ يقال: «أظهره على الخبر» أطلعه عليه وأخبره به، ويقال: «أظهره على الشيء»: جعله فوقه مستعلياً عليه. والاستعلاء هنا بالعلم والـحُجَّة، أو السيادة والغلبة، أو الشرف والمنزلة، أو بها كلها، وهو المختار وإنْ كان الوعد يصدق ببعضها، و«الدين»: جنس يشمل كل دين.

وفي الضمير المنصوب هنا قولان:

أحدهما: أنه للرسول ﷺ وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والمعنى حينئذ: أنه تعالى يُظهر هذا الرسول أي: يطلعه على كل ما يحتاج إليه من هو مرسل إليهم من أمور الدين: عقائده وآدابه، وسياسته وأحكامه.

والقول الثاني: أن الضمير لـ «الدين الحق» الذي أرسل به ﷺ، ومعناه: أنه تعالى يعلي هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، والسيادة والسلطان.

أما ظهور الإسلام بالحجة والبرهان، فلا يختلف فيه عاقلان مستقلان، عرفاه وعرفا غيره من الأديان.

وأما ظهوره عليها بالعلم والعمران، والسيادة والسلطان، فالذي يتراءى للناس بادي الرأي في هذا الزمان، أنه معارض بما عليه دول الإفرنج واليابان، وضعف ما بقي من دول الإسلام.

ونجيب عن ذلك بأن ما عليه دول الافرنج واليابان وشعوبها ليس من تأثير أديانها في تعاليمها ولا في العمل بها، ولو كان كذلك لظهر عقب وجود الدين فيهم وأخذهم به. بل أن مدنيتهم الحاضرة وما بُنيت عليه من العلوم والفنون، لم يكن إلا من تأثير الحضارة الإسلامية والاقتباس من كتبها.

﴿ولو كره المشركون﴾ ذلك الإظهار، وفي الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه وإظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغم من أنوف جميع الكفار.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ

عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

تقدم في هذا السياق أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً فعبدوا غيره من دونه، وأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذي أفاضه على عباده برسالة محمد ﷺ وأن الله لا يريد إطفاءه بل يريد إتمامه وقد فعل، فناسب أن يبين مع هذا شيئاً من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، والأسباب التي تحملهم على محاولة إطفاء نور الله تعالى، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم، وذلك قوله عز وجل:

٣٤ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ استعمل «أكل الأموال» بمعنى: أخذها والتصرف فيها بوجوه الانتفاع، التي يُعَدُّ ما يبتاع بها للأكل أعم أنواع الاستعمال والتصرفات، وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحري الحق في عبارات الكتاب العزيز.

والمعنى العام لأكل أموال الناس بالباطل هو: أخذها بغير وجه شرعي يرضاه الله عز وجل، وهو أنواع:

منها: ما هو خاص بالنصارى بل ببعض فرقهم كالأرثوذكس والكاثوليك وهو ما يأخذونه جعلاً على مغفرة الذنوب أو ثمناً لها. ويتوسلون إليها بما يسمونه «سر الاعتراف» وهو أن يأتي الرجل أو المرأة القسيس أو الراهب المأذون له من الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب،فيخلو به أو بها، فيقص عليه الخاطيء ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها لأجل أن يغفرها له، لأن من عقائد الكنيسة أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله تعالى. وقد كان لبيع البابوات للغفران نظام متبع في القرون الوسطى للنصرانية،وكان الثمن يتفاوت

بقدر ثروة المشترين من الملوك والأمراء والنبلاء وكبار الأغنياء فمن دونهم، وكانوا يعطون بالمغفرة صكوكاً يحملونها ليلقوا الله تعالى بها.

ومنها: ما يتيسر لهم سلبه من أموال المخالفين لهم في جنسهم أو دينهم من خيانة وسرقة وغيرها كما قال تعالى «ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائمًا، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» يعنون أن الله حرم عليهم أكل أموال أخوانهم الإسرائيليين بالباطل دون الأميين وهم العرب وكذا سائر الطوائف.

ومنها: الرِّشوة، وهو ما يأخذ صاحب السلطة الدينية أو المدنية، رسمية أو غير رسمية، من المال وغيره، لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل.

ومنها: الربا وهو فاش عند اليهود والنصارى، واليهود أساتذة المرابين في العالم كله، وأحبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير أخوتهم الإسرائيليين، ويأكلونه معهم مستحلين له بنص في توراتهم المحرفة بدلاً من نهيهم عنه.

وأما صدهم عن سبيل الله: فهو منعهم الناس عن الإسلام، فإن «سبيل الله» في الدين: هي طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة التي ترضيه، ورأس معرفته التوحيد والتنزيه، وهم مشركون غير موحدين، ومشبهون غير منزهين، كما علم من الآيات السابقة من هذا السياق وغيره.

وأما طرق صدهم عن الإسلام فهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والإمكان، وقد انفرد النصارى بالعناية بهذا الصد من طريقي السياسة والدعوة معاً فهم لا يقنعون بصد أهل مللهم عن الإسلام، بل يصدون أهله عنه ويدعونهم إلى دينهم الملفق من الأديان الوثنية القديمة، وقسمت أممهم ودولهم البلاد الإسلامية إلى مناطق نفوذ دينية تبشيرية، تابعة لمناطق النفوذ السياسية الدولية، وقد اشتدت ضراوتهم بعد الحرب العامة بسلب البلاد الإسلامية ما بقي من استقلالها، وتعميم النصرانية في جميع أهلها، حتى جزيرة العرب

مهد الإسلام ومعقله، وعقدوا للتنصير عدة مؤتمرات دولية، وألفوا للتمهيد له كتباً كثيرة، وكان من أشد طرقهم في الصد عن الإسلام فظاعة وقبحاً وإهانة، الطعن في النبي الأعظم والقرآن، وشرها وأضرها تعليم المدارس التي يفسدون عقائد النشء الذي يتربى ويتعلم فيها، ولكن أكثر مسلمي الأمصار لا يعقلون كنه مفاسدها، وسوء عاقبتها في الدين والأدب وسياسة الأمة واستقلالها.

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ مقتضى السياق أن تكون هذ الجملة في الكثير من الأحبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وهو مروي عن معاوية رضي الله عنه، وعن أبي ذر رضي الله عنه: أنها فينا وفي أهل الكتاب جميعاً وهو المختار عندنا فإن اللفظ مطلق فيجب جريانه على اطلاقه وعمومه وأولئك الأحبار والرهبان يدخلون فيه أولاً وبالذات بدلالة السياق، لأنهم هبطوا في المطامع المادية إلى أسفل الدركات.

و«الكنز» في اللغة: جمع الشيء ورصه بعضه على بعض والمراد بالكنز هنا: خزن الدنانير والدراهم والامتناع عن انفاقها فيما شرعه الله من البر والخير، وسيأتي بيان مصارفها الشرعية في الآية «٦٠» من هذه السورة.

وظاهر قوله «ولا ينفقونها» أن الواجب إنفاقها كلها، وأن الوعيد موجه إلى من يبقى عنده شيئاً يزيد على حاجته منها، وهذا لا يصح في قواعد الشرع الإسلامي فإن الله وصف المؤمنين في كتابه بقوله: «ومما رزقناهم ينفقون» «والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم» وإنما قال بعض العلماء: إنه يجب التصدق بجميع ما أحرزه الإنسان من المال الحرام إذا تعذر رده إلى أصحابه، دون إنفاق جميع ما يملك من المال الحلال، ولو كانت الآية فيمن ذكر من أهل الكتاب كما قال معاوية لكان الأمر ظاهراً، وأما على القول الآخر فلا بد من الجمع بينها وبين الآيات المعارضة لها بحمل الإنفاق الوارد فيها على أداء الزكاة المفروضة. فقد أخرج ابن أبي شيبة في مسنده وأبو داود وأبو يعلى وابن أبي حاتم والحاكم ـ وصححه ـ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن

ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: لما نزلت هذه الآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده مالاً يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرِّج عنكم، فانطلق واتبعه ثوبان ـ مولاه ـ فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» فكبَّـر عمر رضي الله عنه.

وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «ما أُدي زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً» وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعاً مثله. قال البيهقي: والمحفوظ الموقوف. وأخر ابن عدي والخطيب عن جابر رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ «أيُّ مال أديت زكـاته فليس بكنـز» وأخرجـه ابن أبي شيبة عنه موقوفاً، وهو المحفوظ كما قال البيهقي. وأخرج غير واحد عن ابن عباس مثل قول ابن عمر وعن عمر أيضاً.

فجملة هذه الأخبار والآثار تدل على أن الكنز المتوعد عليه في هذه الآية هو ما لم تؤد زكاته كما نقـل الحافظ عن ابن عبد البر عن الجمهور، قال: ويشهد له حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إذا أديت زكـاة مالـك فقد قضيت ما عليك».

٣٥ ـ ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم﴾، أي: أخبرهم بعذاب أليم يصيبهم في ذلك اليوم الذي يحمى فيه على تلك الأموال المكنوزة في نار جهنم، أي: دار العذاب، بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية.

﴿فتكوى بها جباههم﴾ التي كانوا يستقبلون بها الناس منبسطة أساريرها من الاغتباط بعظمة الثروة، ويستقبلون بـها الفقراء منقبضـة من العبوس والتقطيب في وجوههم لينفروا ويحجموا عن السؤال ﴿وجنوبهم وظهورهم﴾ التي كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعاً واستلقاء، ويعرضون بها عن لقاء المساكين وطلاب الحاجات ازوراراً وإدباراً.

﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾، أي: تقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيهم: هذا العذاب الأليم الواقع بكم هو جزاء ما كنتم تكنزون في الدنيا، أو هذا الميسم الذي تكوون به هو المال الذي كنزتموه لأنفسكم لتنفرد بالتمتع به.

﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾، أي: ذوقوا وباله ونكاله، أو: وبال كنزكم له، وإمساككم إياه عن النفقة في سبيل الله.

وحاصل المعنى: أن ما كنتم تظنون من منفعة كنزه أنه لأنفسكم خاصة قد كان لكم خُلْفاً، وعليكم ضداً، فإنه صار في الدنيا لغيركم، وكان عذابه في الآخرة هو الخاص بكم، كدأب جميع أهل الباطل فيما زُيِّن لهم من الرذائل.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

٣٦ ـ ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض﴾. المراد: الشهور التي تتألف منها السنة القمرية وواحده «شهر» وهو اسم للهلال أو القمر من مادة «الشُّهرة» ومبلغ عِدتها: اثنا عشر شهراً فيما كتبه الله وأثبته من نظام سير القمر وتقديره منازل، منذ خلق السماوات والأرض إلى الآن، والمراد بـ «يوم خلق السماوات والأرض»: الوقت الذي خلقهما فيه.

﴿منها أربعة حرم﴾ واحدها «حَرَام» وهو من الحرمة، فإن الله تعالى كتب

وفرض احترام هذه الأشهر وتعظيمها، وحرم القتال فيها على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولي والعملي، ولكنها أخلت بالعمل اتباعاً لأهوائها كما يأتي بيانه في الكلام على النسيء في الآية التالية وهو الغاية لما في هذه الآية. وهذه الأشهر ثلاثة منها سَرْد وهي: «ذو القعدة وذو الحجّة والمحرم»، وواحد فرد وهو «رَجَب».

﴿ذلك الدين القيم﴾ الإشارة في قوله «ذلك» لعدة الشهور وتقسيمها إلى حُرُم وغيرها، وإلى عدد الحرم منها، وقيل: لما تضمنه من تحريمها. و«الدين القيم»: هو الصحيح المستقيم الذي لا عوجٍ فيه. والمعنى: أن ذلك هو الحق الذي يدان الله تعالى به دون النسيء،

وفسر البغوي الدين القيم هنا: بالحساب المستقيم. وقال الجمهور: معناه ذلك الشرع الصحيح المستقيم الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل في الحج وغيره مما يتعلق بالأشهر من الأحكام.

﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ الضمير في «فيهن» للأربعة الـحُرم عند الجمهور، وقيل: لجميع الشهور، وظُلم النفس يشمل كل محظور، ويدخل فيه هتك حرمة الشهر الحرام دخولاً أولياً، فإن الله تعالى اختص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تستلزم ترك المحرمات فيها والمكروهات بالأولى، لأجل تنشيط الأنفس على زيادة العناية بما يزكيها ويرفع شأنها، فإن من طبع البشر الملل والسآمة من الاستمرار على حالة واحدة تشق عليها، فجعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة في أدائها كالصلوات الخمس، فإن أدنى ما تصح به صلاة الفريضة لا يتجاوز خمس دقائق للرباعية منها وهي أطولها وما زاد فهو كمال، وخص يوم الجمعة في الأسبوع بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين وسماع خطبتين في التذكير والموعظة الحسنة التي تقوي في المؤمنين حب الحق والخير، وكره الباطل والشر، والتعاون على البر والتقوى، وإقامة مصالح الملة والدولة، وخص شهر رمضان بوجوب صيامه في كل سنة، وأياماً معدودات من شهر ذي الحجة بأداء مناسك الحج. ولولا اختصاصه تعالى لما شاء من زمان ومكان بالعبادة فيه لما كان للأزمنة والأمكنة في نفسها مزية في ذلك، وأهواء الناس لا تتفق على زمان ولا مكان فيوكل ذلك إليهم، فلم يبق

إلا أن يجعل الله الاختصاص أمراً تعبدياً خالصاً يُفْعَلُ لمجرد الامتثال والقُربة، كما ورد في تقبيل الحجر الأسود من قول عمر رضي الله عنه: «إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسولَ الله ﷺ يقبلك ما قبلتك».

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾، أي: قاتلوهم جميعاً كما يقاتلونكم جميعاً، بأن تكونوا في قتالهم صفاً واحداً لا يختلف فيه ولا يتخلف عنه أحد، كما هو شأنهم في قتالكم، وذلك أنهم يقاتلونكم لدينكم لا انتقاماً ولا عصبية ولا للكسب كدأبهم في قتال قويهم لضعيفهم، فأنتم أولى بأن تقاتلوهم لشركهم «وهم بدؤوكم أول مرة» وهذا لا يقتضي فرضية القتال على كل فرد من الأفراد إلا في حال إعلان الإمام للنفير العام.

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ للظلم والعدوان والفساد في الأرض بالشرك والمعاصي، ولأسباب الخذلان والفشل في القتال كالتنازع وتفرق الكلمة: والمعية هنا معية النصر والمعونة والتوفيق لما فيه المصلحة، والتقوى من أسباب ذلك.

٣٧ ــ ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم فيحلوا ما حرم الله﴾ «النسيء»: وَصْف أو مصدر من «نَسَأَ الشيءَ»: إذا أَخَّره، أي: الشهر الذي أُنسيء تحريمه، وذلك أن العرب ورثت من ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه كما ورثوا مناسك الحج، ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا في المناسك وفي تحريم الأشهر الحرم ولا سيما شهر المحرم منها، فإنه كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارات ثلاثة أشهر متوالية، فأول ما بدلوا في ذلك إحلال الشهر المحرم بالتأويل وهو أن يُنْسئوا تحريمه إلى «صَفَر»، لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت، وهذا معنى قوله: «ليواطئوا عدة ما حرم الله»، أي: ليوافقوا بالنسيء العدد المحرم، وفي ذلك مخالفة للنص ولحكمة التحريم معاً.

فالنسيء تشريع منهم لأنفسهم غيروا به ملة إبراهيم بسوء التأويل واتباع الهوى، فلهذا سماه الله «زيادة في الكفر»، أي: أنه كفر زائد على أصل كفرهم

بالشرك بالله تعالى، فإن شرع الحلال والحرام والعبادة حق له وحده، فمنازعته فيه شرك في ربوبيته وهم بذلك يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيه، فيتوهمون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم إذا واطئوا فيه عدة ما حرمه الله من الشهور في ملته.

﴿زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم﴾ قال ابن عباس: يريد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم بهذه الشبهة الباطلة، وهي أنهم يحرمون العدد الذي حرمه الله تعالى لم ينقصوا منه شيئاً.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ إلى حِكَمِهِ في أحكام شرعه، وبنائها على مصالح الناس وإصلاح أفرادهم ومجتمعهم في أمور دينهم ودنياهم، فإن هذه الهداة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة من توابع الإيمان وآثاره كما قال «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم»، وأما الكافرون فيتبعون فيها أهواءهم وشهواتهم وما يزينه لهم الشيطان وهي سبب الشقاء ودخول النار.

روى الشيخان وغيرهما من حديث أبي بكرة نُفَيع بن الحارث رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جُمادى وشعبان» قال ﷺ هذا في منى عام حجة الوداع.

والمراد من استدارة الزمان عودة حساب الشهور إلى ما كان عليه من أول نظام الخلق، بعد أن كان قد تغير عند العرب بسبب النسيء في الأشهر.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ

فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

هذا السياق من هنا إلى آخر السورة في غزوة «تَبوك»، وما كانت وسيلة له من هتك أستار النفاق، وتطهير المؤمنين من عوامل الشقاق. إلا الآيتين في آخرها، وما يتخللها من بعض الـحِكَم والأحكام الأخرى.

وإننا نقدم على تفسير الآيات بيان سبب غزوة «تبوك».

(غزوة تبوك وسببها)

كانت غزوة «تبوك» في شهر رجب من سنة «تسع» باتفاق الـرواة. و«تبوك»: مكان معروف في منتصف الطريق في المدينة المنورة ودمشق تقريباً وقالوا: إن بينها وبين المدينة أربع عشرة مرحلة، وبينها وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة[1].. وكان السبب فيها أنه بلغ المسلمين أن الروم جمعت جموعاً، وجاءت مقدمتهم إلى «البلقاء»، ـ أي: الأردن اليوم ـ فندب النبي ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم بجهة غزوهم كما سيأتي، وروى الطبراني من حديث عمران بن حصين، رضي الله عنه، قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم يقال له: «قباد» وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ النبي ﷺ ذلك ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام فقال

(١) هذا قريب مما ثبت بالمقاس العصري، فالمسافة من دمشق إلى تبـوك «٦٩٢» كيلومتراً، وإلى المدينة المنورة «١٣٠٢» كيلومتـراً فتكون المسـافة من المـدينة إلى تبـوك «٦١٠» كلم. وقد كانوا يسيرون في اليوم أقل من خمسين كيلومتراً، لأن طرق القوافل أقصر من طرق السيارات.

يا رسول الله: هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية ـ من الفضة ـ قال: فسمعته ﷺ يقول: «لا يضر عثمان ما عمل بعدها» وأخرج الترمذي والحاكم من حديث عبد الرحمن بن حباب نحوه. وفي كتب السير أن ما بذله عثمان رضي الله عنه في تجهيز جيش العسرة أكثر مما ذكر في حديث عمران.

والغرض من هذا التمهيد لتفسير الآيات أن سبب هذه الغزوة هو استعداد الروم لقتال النبي ﷺ والمسلمين وإعداد جيش كثيف للزحف به على المدينة، فهي كسائر غزواته ﷺ دفاع لا اعتداء، ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئاً من بلاد الشام.

٣٨ ـ قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض؟﴾ الاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ. والخطاب للمؤمنين في جملتهم، تربية لهم بما لعله وقع من مجموعهم لا من جميعهم، ومنهم الضعفاء والمنافقون. و«التثاقل»: التباطؤ فهو ضد النفر لأنه من الثقل المقتضي للبطء، وهو يصدق على من لم يستجب لدعوة النفير، وعلى من حاول أو استجاب متباطئاً.

ولما دعا الله المؤمنين لغزوة تبوك كان الزمن زمن الحر، وكانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين، وكانت العسرة شديدة، وكان موسم الرطب في المدينة قد تم صلاحه، وآن وقت تلطف الحر والراحة.

وكان من عادة النبي ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يوري بغيرها لما تقتضيه مصلحة الحرب من الكتمان، إلا أنه في هذه الغزوة قد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظَّهر. فلهذه الأسباب كلها شق على المسلمين الخروج في ذلك الوقت إلى بلاد الشام، وكانت حكمة الله تعالى في إخراجهم ـ وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالاً ـ ما سنبينه في تفسير آياتها من تمحيص المؤمنين وخزي المنافقين، وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من كفرهم وتربصهم الدوائر بالمؤمنين.

والمعنى: يا أيها الذين دخلوا في الايمان ماذا عرض لكم مما ينافي صحة الايمان أو كماله المقتضي للإذعان والطاعة، حين قال لكم الرسول: انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم، فتثاقلتم عن النهوض بالنشاط وعلو الهمة، مخلدين إلى أرض الراحة واللذة، وآية الأيمان: الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون».

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾، أي: أرضيتم براحة الحياة الدنيا ولذتها الناقصة الفانية، بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية؟ إن كان الأمر كذلك فقد استبدلتم الذي هو أدنى بالذي هو خير وأبقى﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾، أي: فما هذا الذي يتمتع به في الحياة الدنيا منغصاً بالشوائب والمتاعب في جنب ما في الآخرة من النعيم المقيم، والرضوان الإلهي العظيم، إلا شيء قليل لا يرضاه عاقل بدلاً منه، وإنما يؤثره عليه من لا يؤمن به، وقد شبه النبي ﷺ نعيم الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة ـ في قلته في نفسه وزمنه ـ بمن وضع أصبعه في اليم ثم أخرجها منه، قال: «فانظر بم تَرْجع؟» رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي، والآيات والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

٣٩ ـ ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليمًا ويستبدل قوماً غيركم﴾ «إلا» مركبة من «إنْ» الشرطية و«لا» النافية للحال والاستقبال، أي: إلا تنفروا كما أمركم الرسول ﷺ يعذبكم الله عذاباً أليمًا في الدنيا يهلككم به بعصيانكم بعد قيام الحجة عليكم، ويستبدل بكم قوماً غيركم يطيعونه ويطيعون رسوله، لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه على الدين كله، فإن لم يكن ذلك بأيديكم، فلا بد أن يكون بأيدي غيركم «ولن يخلف الله وعده».

﴿ولا تضروه شيئاً﴾، أي: ولا تضروه تعالى شيئاً ما من الضرر في تثاقلكم عن طاعته ونصرة رسوله، لأنه غني عنكم ولن يبلغ أحد ضره ولا نفعه، بل هو القاهر فوق عباده، وقيل: إن المراد ولا تضروا رسوله

بتثاقلكم، فإنه عصمه من الناس وكفل له النصر بقرينة الآية الآتية ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ومنه إهلاككم إن أصررتم على العصيان، وتوليتم عن إقامة دينه وإتمام نوره، ونصر رسوله بقوم آخرين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم كما قال في آخر سورة القتال «وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم».

٤٠ ـ ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا﴾، أي: إلا تنصروا الرسول الذي استنفركم في سبيل الله على من أرادوا قتاله من أولياء الشيطان، فسينصره الله بقدرته وتأييده، كما نصره إذ أجمع المشركون على الفتك به، وأخرجوه من داره وبلده، أي: اضطروه إلى الخروج والهجرة ولولا ذلك لم يخرج.

أو تقدير الكلام: إلا تنصروه فقد أوجب الله له النصر في كل حال وكل وقت حتى نصره في ذلك الوقت الذي لم يكن معه جيش ولا أنصار منكم بل حال كونه ﴿ثاني اثنين﴾، أي: أحدهما، فإن مثل هذا التعبير لا يعتبر فيه الأولية ولا الأولوية، لأن كل واحد منهما ثان للآخر، ومثله ثالث ثلاثة ورابع أربعة لا معنى له إلا أنه واحد من ثلاثة أو أربعة به تم هذا العدد. ﴿إذ هما في الغار﴾، أي: في ذلك الوقت الذي كان فيه الاثنان في الغار المعروف عندكم وهو غار جبل «ثور» ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾، أي: إذ كان يقول لصاحبه الذي هو ثانيه وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين رأى منه أمارة الحزن والجزع، أو كلما سمع منه كلمة تدل على الخوف والفزع: «لا تحزن»، والنهي عن الحزن وهو تألم النفس مما وقع، يستلزم النهي عن الخوف مما يُتَوَقَّع، وعلل هذا النهي بقوله «إن الله معنا»، أي: لا تحزن لأن الله معنا بالنصر والمعونة، والحفظ والعصمة، والتأييد والرحمة، ومن كان الله تعالى معه بعزته التي لا تغلب، وقدرته التي لا تقهر، ورحمته التي قام ويقوم بها كل شيء، فهو حقيق بأن لا يستسلم لحزن ولا خوف.

﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه

والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر في «تاريخه» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله «فأنزل الله سكينته عليه» قال: على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم تزل السكينة معه. وقد أخذ بهذه الرواية بعض مفسري اللغة والمعقول ووضحوا ما فيها من التعليل بأنه ﷺ لم يحدث له وقتئذ اضطراب ولا خوف ولا حزن، وذهب آخرون إلى أن الضمير يعود إلى النبي ﷺ وإن إنزال السكينة عليه لا يقتضي أن يكون خائفاً أو مضطرباً أو منزعجاً، وهذا ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها بالفاء الدال على وقوعه بعده وترتبه عليه وأن نزولها وقع بعد قوله لصاحبه «لا تحزن» ولكنهم قووه بأن ما عطف عليه من قوله: ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ لا يصح إلا للنبي ﷺ، والمراد بهؤلاء الجنود الملائكة، لأن الأصل في المعطوفات التعانق وعدم التفكك. وأجاب عنه الآخذون بقول ابن عباس ومجاهد بأن التأييد بالجنود معطوف على قوله «فقد نصره الله» لا على «أنزل الله سكينته».

﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا﴾ في الآية احتمالان: أحدهما أن يكون المراد بـ«كلمة الذين كفروا»: كلمة الشرك والكفر، وبـ«كلمة الله»: كلمة التوحيد، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعليه أهل التفسير المأثور، ووجهه: أن عداوة المشركين للنبي ﷺ إنما كانت لأجل دعوته إلى التوحيد الخالص من جميع شوائب الشرك وخرافات الوثنية ولذلك قام أبو سفيان عند ظهور المشركين في «أُحد» فقال رافعاً صوته ليسمع المسلمون: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ. و«هُبَلْ» صنمهم الأكبر، فأمر ﷺ أن يجاب: «الله أعلى وأجل» وفي الصحيحن من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل غضباً وحمية ويقاتل رياء، وفي رواية: للمغنم وللذكر، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

والاحتمال الثاني: أن كون المراد بـ «كلمة الذين كفروا»: ما أجمعوه بعد التشاور في دار الندوة من الفتك به ﷺ والقضاء على دعوته وهو ما تقدم في سورة الأنفال من قوله تعالى «وإذ يمكر بك الذين كفروا» الخ، ويكون المراد

بـ «كلمة الله»: ما قضت به إرادته ومضت به سنته من نصر رسله، وبَيَّنه في مثل قوله «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون» فهذه كلمة الله الإرادية القدرية التي كان من مقتضاها وعده لرسوله الأعظم بالنصر.

﴿والله عزيز حكيم﴾ «العزيز»: الممتنع الغالب، والله هو الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء، و«الحكيم»: الذي يضع الأشياء في مواضعها، وقد نصر رسوله بعزته، وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته، وأذل كل من ناوأه وناوأ المتقين من أمته.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

٤١ ــ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ «الخفاف» بالكسر جمع خفيف، و«الثقال» جمع ثقيل. والخفة والثقل يكونان بالأجسام وصفاتها من صحة ومرض، ونحافة وسمن، وشباب وكبر، ونشاط وكسل، ويكونان بالأسباب والأحوال، كالقلة والكثرة في المال والعيال، ووجود الظَّهر وعدمه، وثبوت الشواغل وانتفائها. فإذا أُعلن النفير العام وجب الامتثال إلا في حال العجز التام، وهو ما بينه تعالى في الآية «٩١» من هذا السياق «ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله» الآية.

وما ورد عن مفسري السلف من تفسير الخفاف والثقال ببعض ما ذكرنا من الكليات فهو للتمثيل لا للحصر، قال ابن عباس في تفسيرهما: نشاطاً وغير نشاط. وفي رواية عنه: موسرين ومعسرين. وقال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شباناً وشيوخاً. وعطية العَوْفي: ركباناً ومشاة. وقيل غير ذلك.

ومما هو نص في إرادة عموم الأحوال قول أبي أيوب الأنصاري، رضي الله

عنه: «قال الله تعالى «انفروا خفافاً وثقالاً» فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً»، رواه ابن جرير.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾، أي: وجاهدوا أعداءكم الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت من العلو والفساد في الأرض، ببذل أموالكم وأنفسكم في سبيل الله، الموصلة إلى الحق وإقامة ميزان العدل. فمن قدر على الجهاد بماله وبنفسه معاً وجب عليه الجهاد بهما، ومن قدر على أحدهما دون الآخر وجب عليه ما كان في قدرته منهما.

﴿ذلكم خير لكم﴾، أي: ذلكم الذي أُمرتم به من النفر والجهاد الذي هو أبعد مرامي الأمم في حفظ حقيقتها، وعلو كلمتها، وتقرير سياستها، خير لكم في دنياكم وآخرتكم، أي: خير في نفسه بصرف النظر عن مقابله، أو خير من القعود والبخل عنه، أما الدنيا فلا حياة للأمم فيها ولا عز ولا سيادة إلا بالقوة الحربية، والقعود عن القتال عند الحاجة إليه يغري الأعداء بالقاعدين العاجزين، وحب الراحة يجلب التعب، وأما الآخرة فلا سعادة فيها إلا لمن ينصر الحق، ويقيم العدل، ويتحلى بالفضائل، ويتخلى عن الرذائل، باتباع الدين القويم، والعمل بالشرع العادل الحكيم. ولا يمكن هذا كله إلا باستقلال الأمة بنفسها، وقدرتها على حفظ سيادتها وسلطانها بقوتها.

﴿إن كنتم تعلمون﴾، أي: إن كنتم تعلمون حقية هذه الخيرية علماً إذعانياً يبعث على العمل. وجواب «إن» محذوف دل عليه ما قبله، أي: يكن خيراً لكم، ويقدره بعضهم أمراً بالامتثال، أي: فانفروا وجاهدوا.

وقد علم تلك الخيرية وامتثل هذا الأمر المؤمنون الصادقون، واستأذن بعض المنافقين النبي ﷺ في التخلف فأذن لهم على ضعف أعذارهم، وتخلف منهم ومن المؤمنين أناس آخرون فأنزل الله في الجميع الآيات الآتية في أثناء السفر فقال تعالى:

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ

ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

كان دأب المؤمنين وعادتهم إذا استنفرهم الرسول ﷺ للقتال أن ينفروا بهمة ونشاط، ولما استنفرهم لغزوة «تبوك» نفر الأكثرون طائعين، وتخلف الأقلون عاجزين. وأما المنافقون فقد كبر عليهم الأمر، وعظم فيه الخطب، وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية، ويستأذنونه ﷺ في القعود والتخلف فيأذن لهم، فكان نزول هذه الآيات وما بعدها لبيان تلك الحال وأحكام تلك الوقائع. قال تعالى:

٤٢ ـ ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك﴾، أي: لو كان ما استنفرتهم له ودعوتهم إليه أيها الرسول عَرَضاً ـ وهو ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع، مما لا ثبات له ولا بقاء ـ قريب المكان أو المنال، ليس في الوصول إليه كبير عناء، وسفراً قاصداً، أي: وسطاً لا مشقة فيه ولا تعب لاتبعوك فيه، وأسرعوا بالنفر إليه، لأن حب المنافع المادية والرغبة فيها لاصقة بطبع الإنسان، وناهيك بها إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال، وكان الراغب فيها من غير الموقنين بالآخرة وما فيها من الأجر العظيم للمجاهدين، كأولئك المنافقين ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ التي دعوا إليها وهي تبوك، و«الشقة»: الناحية أو المسافة، والطريقُ التي لا تُقْطَع إلا بتكبُّد المشقة والتعب كبر عليهم التعرض لقتال الروم في ديار ملكهم وهم أكبر دول الأرض الحربية، فتخلفوا جبناً وحباً بالراحة والسلامة ﴿وسيحلفون بالله﴾، أي: بعد رجوعكم إليهم، قائلين: ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾، أي: لو استطعنا الخروج إلى الجهاد بانتفاء الأعذار المانعة لخرجنا معكم فإننا لم نتخلف عنكم إلا مضطرين ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بامتهان اسم الله تعالى بالحلف الكاذب لستر نفاقهم وإخفائه، يؤيدون الباطل بالباطل، ويدعمون الإجرام بإجرام، أو بالتخلف عن

الجهاد المفضي إلى الفضيحة، وما تقتضيه من سوء المعاملة، فالجملة مبينة لحالهم في حلفهم أو ما كان سبباً له، وأنهم يريدون به النجاة فيقعون في الهلاك ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ في زعمهم أنهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا معكم.

٤٣ ـ ﴿عفا الله عنك﴾ «العفو»: التجاوز عن الذنب أو التقصير، وتركُ المؤاخذة عليه، أي: عفا عما تعلق به اجتهادك أيها الرسول حين استأذنوك وكذبوا في الاعتذار ﴿لم أذنت لهم﴾، أي: لأي شيء أذنت لهم بالقعود والتخلف كما أرادوا، وهلا استأنيت وتريثت بالإذن ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ في الاعتذار ﴿وتعلم الكاذبين﴾ فيه، أي: حتى تميز بين الفريقين فتعامل كلاً بما يليق به، وذلك أن الكاذبين لا يخرجون سواء أذنت لهم أم لم تأذن لهم، فكان مقتضى الحزم أن تتلبث في الإذن أو تمسك عنه اختباراً لهم.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾

٤٤ ـ ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾، أي: إنه ليس من شأن المؤمنين بالله الذي كتب عليهم القتال، واليوم الآخر الذي يكون فيه الأجر الأكمل على الأعمال، ولا من عادتهم أن يستأذنوك أيها الرسول في أمر الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا عرض المقتضي له، فلا يكون شأنهم أن يتخلفوا عنك بعد إعلان النفير العام.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يستأذنك هؤلاء المؤمنون في القعود والتخلف

كراهة أن يجاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد لا يكرهه المؤمن الصادق الذي يرجو الله والدار الآخرة، ويعلم أن عاقبة الجهاد الفوز بإحدى الحسنيين: الغنيمة والنصر، أو الشهادة والأجر، وإنما قد يستأذن صاحب العذر الصحيح منهم وهم الذين قبل الله عذرهم وأسقط الحرج عنهم في الآيتين «٩١ و٩٢» من هذه السورة.

﴿والله عليم بالمتقين﴾ له باجتناب ما يسخطه وفعل ما يرضيه.

٤٥ ـ ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هذا تصريح بمفهوم ما سبق لزيادة تأكيده وتقريره، والمعنى: إنما يستأذنك في التخلف عن الجهاد الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، لأنهم يرون بَذْل المال للجهاد مَغْرماً يَفُوت عليهم بعضُ منافعهم به، ولا يرجون عليه ثواباً كما يرجو المؤمنون، ويرو الجهاد بالنفس آلاماً ومتاعب وتعرضاً للقتل الذي ليس بعده حياة عندهم، فطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضي كراهتهم للجهاد وفرارهم منه ما وجدوا له سبيلاً، بضد ما يقتضيه إيمان المؤمنين ﴿وارتابت قلوبهم﴾، أي: وقد وقع لهم الريب والشك في الدين من قبل، فلم تطمئن به قلوبهم، ولم تذعن له نفوسهم، وإنما الإيمان هو اليقين المقارن للإذعان وخضوع النفس ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ متحيرين في أمرهم، مذبذبين في عملهم، يحسبون كل صيحة عليهم، فهم يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداؤه من عبادات الإسلام، فإذا عرض لهم ما يشق عليهم فعله ضاقت به صدورهم، والتمسوا التفصي منه بما استطاعوا من الحيل والمعاذير الكاذبة.

٤٦ ـ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ من الزاد والراحلة وغير ذلك مما يعد لمثل هذا السفر البعيد، وكانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا كما دلت عليه الآية ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾، أي: كره الله نفرهم وخروجهم مع المؤمنين، لما سيذكر من ضرره العائق عما أحبه وقدر من نصرهم، فثبطهم بما أحدث في قلوبهم من الخواطر والمخاوف التي هي مقتضى سنته في تأثير النفاق، فلم يعدوا للخروج عدته لأنهم لم يريدوه، وإنما أرادوا بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من العصيان ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ في هذا القيل وجوه

أحدها: أنه تمثيل لداعية القعود التي هي أثر التثبيط، والثاني: أنه قول الشيطان بالوسوسة. والثالث: أنه قول بعضهم لبعض. والرابع: أنه حكاية لإذن الرسول ﷺ لهم، وانه قاله بعبارة تدل على السخط لا على الرضاء، إذ معناه: اقعدوا مع الأطفال والزَّمْنىَ والعجزة والنساء، فأخذوه على ظاهره لموافقته لمرادهم.

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

هاتان الآيتان في بيان حال هؤلاء المنافقين ما كانت تكون عليه لو خرجوا، والتذكير بما كان من أحوالهم السابقة الدالة على ذلك. قال عز وجل:

٤٧ ـ ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ هذا التفات عن خطاب الرسول ﷺ في أمرهم إلى خطاب جماعة المؤمنين الذين معه، يقول: لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود في جماعتكم أيها المؤمنون ما زادوكم شيئاً من الأشياء إلا خبالاً، أي: اضطراباً في الرأي، وفساداً في العمل، وضعفاً في القتال، وخللاً في النظام، والمراد: ما زادوكم قوة ومنعة وإقداماً ـ كما هو شأن القوة العددية المتحدة في العقيدة والمصلحة ـ بل ضعفاً وفشلاً ومفسدة، كما حصل في غزوة «حنين»، فإن المنافقين ولَّوا الأدبار في أول المعركة، وتبعهم ضعفاء الإيمان من المؤلفة قلوبهم من طلقاء فتح مكة، فاضطرب لذلك الجيش كله وفسد نظامه، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا روية ولا تدبر، كما هو شأن جماعات البشر في مثل هذه الأحوال.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾، المعنى: لأوضعوا ركائبهم وأسرعوا بها خلالكم، أو: ولأسرعوا في الدخول في خلالكم وما بينكم سعياً بالنميمة وتفريق الكلمة ﴿يبغونكم الفتنة﴾، أي: حال كونهم يبغون بذلك أن يفتنوكم بالتشكيك في

الدين والتثبيط عن القتال، والتخويف من قوة الأعداء ﴿وفيكم سماعون لهم﴾، أي: وفيكم أناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم والعقل كثيرو السمع لهم، لاستعدادهم لقبول وسوستهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ من هؤلاء وغيرهم، أي: محيط علمًا بذواتهم وسرائرهم وأعمالهم ما تقدم منها وما تأخر، وبما هم مستعدون له في كل حال مما وقع ومما لم يقع ولا يقع.

٤٨ ـ ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾، أي: تالله لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة في المسلمين من قبل هذا العهد ـ عهد غزوة تبوك ـ وأوله ما كان في غزوة أحد «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا»، وذلك أنهم لما خرجوا إلى «أُحد» اعتزلهم عبد الله بن أُبي بن سلول زعيم المنافقين بنحو ثلث الجيش في موضع يسمى «الشوط»، بين المدينة وأحد، وطفق يقول لهم في النبي ﷺ: أطاعهم وعصاني. وفي رواية: أطاع الولدان ومَنْ لا أري له، فما ندري عَلاَم نقتل أنفسنا ههنا؟ وكان رأي ابن أبي لعنه الله عدم الخروج إلى أحد، ورأي الجهور ـ ولا سيما الشبان ـ الخروج. وكاد يفشل «بنو سلمة» من الأوس و«بنو حارثة» من الخزرج بقوله وفعله، فعصمهما الله تعالى من الفتنة بفضله، وذلك قوله تعالى: «والله وليهما».

﴿وقلبوا لك الأمور﴾، أي: دبروا لك الحيل والمكايد، ودوروا الآراء في كل وجه من وجوهها لإبطال دينك، وفض قومهم من حولك، فإن تقليب الشيء تصريفه في كل وجه من وجوهه، والنظر في كل ناحية من أنحائه، ليعلم أيها الأولى بالاختيار. وما زال لهؤلاء المنافقين ضلع مع اليهود وضلع مع المشركين، في كل ما فعلا من عداوتك وقتال المؤمنين ﴿حتى جاء الحق﴾ بالنصر الذي وعدك به ربك وكانوا به يمترون، ﴿وظهر أمر الله وهم كارهون﴾، أي: ظهر دين الله على الدين كله بالتنكيل باليهود الغادرين، والنصر على المشركين، وإبطال الشرك بفتح مكة ودخول الناس في الإسلام أفواجاً، وهم كارهون لذلك، حتى كانوا بعد الفتح يمنون أنفسهم بظهور المشركين على المؤمنين في حنين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

هذا شروع في بيان حال أناس من أولئك المنافقين بأقوال قالوها فيما بينهم جهراً، وأمور أكنوها في أنفسهم سراً، وأقوال سيقولونها، وأقسام سيقسمونها، وأعذار سيعتذرونها عما سبق منهم، وشؤون عامة فيهم ـ أكثرها من أنباء الغيب ـ مع ما يتعلق بذلك ويناسبه من الحكم والأحكام، والعقائد والآداب، قال عز وجل:

٤٩ ـ ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ هذا بيان لأول استئذان معين وقع من أولئك المنافقين في التخلف، واتفقت الروايات على أن جِدَّ بن قيس من شيوخهم قال هذا للنبي ﷺ في أول عهد الدعوة للغزوة وأثناء التجهيز للسفر. وأخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس: «ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟» ـ أي: الروم ـ قال: إني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن أُفتتن، فَأْذَنْ لي ولا تفتني. وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لجد بن قيس «يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر؟» قال جد: أتذأن لي يا رسول الله فإني رجل أحب النساء، وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن. فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه: «قد أذنت لك» فأنزل الله الآية.

وقد رد الله شبهته وشبهة من وافقه عليها ورددوا معناها بقوله: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ بدأ الرد على قائلي هذا القول بأداة الافتتاح «ألا» المفيدة للتنبيه والتأمل فيما بعدها لتوجيه السمع والقلب له، وعبر عن افتتانهم بالسقوط في الفتنة للمبالغة، يقول: ألا فليعلموا أنهم سقطوا وتردوا بهذا القول في هاوية الفتنة بأوسع معناها، وهي فتنة النفاق وأين منها الفتنة بنساء الروم.

﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ هذا وعيد لهم على الفتنة التي تردوا فيها، والمراد: أن جهنم ستكون محيطة بهم جامعة لهم يوم القيامة، ويحتمل أن يقال: إنها محيطة بهم الآن لأن أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها قاله الزمخشري، وإنما تحيط النار بمن أحاطت به خطاياه حتى لا رجاء في توبته كما قال تعالى: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

٥٠ ــ ﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ المتبادر أن هذا إخبار عن شأنهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، و«الحسنة»: كل ما يحسن وقعه ويَسُرُّ من غنيمة ونصرة ونعمة، أي: أنه يسوؤهم كل ما يسرك، كما ساءهم النصر في بدر وغير بدر من الغزوات ﴿وإن تصبك مصيبة﴾، أي: نكبة وشدة كالذي وقع في غزوة أحد ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾، أي: قد أخذنا أمرنا بالحزم والحذر الذي هو دأبنا من قبل وقوعها إذ تخلفنا عن القتال، ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾، أي: وينصرفوا عن الموضع الذي يقولون فيه هذا القول عند بلوغهم خبر المصيبة إلى أهليهم، أو يعرضوا عنك بجانبهم وهم فرحون فرح البطر والشماتة.

٥١ ــ ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾، أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين الذين ترُحهم مصيبتك، وتسوؤهم نعمتك وغنيمتك، لن يصيبنا إلا ما كتبه الله وأوجبه لنا بوعده في كتابه، وتقديره لنظام سننه في خلقه، من نصر وغنيمة وتمحيص وشهادة، وضمان لحسن العاقبة ﴿هو مولانا﴾، أي: هو وحده مولانا يتولانا بالتوفيق والنصر، ونتولاه باللَّجأ إليه، والتوكل عليه، فلا نيأس عند شدة، ولا نبطر عند نعمة.

﴿وعلى الله فليتـوكل المؤمنون ﴾ هذا أمر مبني على ما قبله، أي: وإذ

كان الله هو مولاهم فحق عليهم أن يتوكلوا عليه وحده دون غيره، مع القيام بما أوجبه عليهم في شرعه، والاهتداء بسننه في خلقه، ومنها ما أخبرهم به من أسباب النصر المادية والمعنوية التي فصلها في سورة الأنفال وغيرها، كإعداد ما تستطيع الأمة من قوة، واتقاء التنازع الذي يولد الفشل ويفرق الكلمة.

٥٢ ـ ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾، أي: قل لهم أيضاً هل تتربصون بنا أيها الجاهلون إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما حسنى العواقب وفضلاها، وهما: النصر والشهادة؟ أي: لا شيء يُنتظر لنا غير هاتين العاقبتين مما كتب لنا ربنا وأنتم تجهلون ما تتربصون بنا ﴿ونحن نتربص بكم﴾ في مقابلة ذلك إحدى السوءيين: ﴿أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ الأولى: أن يهلككم بقارعة سماوية لا كسب لنا فيها، كما أهلك من قبلكم من الكافرين الذين كذبوا الرسل، والثانية، أن يأذن لنا بقتلكم، إن أغراكم الشيطان بإظهار كفركم، بهذا الاستدراج في الاستمرار على إجرامكم، كما قال في سياق «غزوة الأحزاب»: «لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم» الآيات ـ وحكم الشرع: أن المنافقين لا يُقتلون ما داموا يظهرون الإسلام، بإقامة الشعائر وأداء الأركان، ولا سيما الصلاة والزكاة ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ أي: وإذ كان الأمر كذلك فتربصوا بنا إنا معكم متربصون ما ذكر من عاقبتنا وعاقبتكم، إن أصررتم على كفركم وظهر أمركم، مما نحن فيه على بينة من ربنا ولا بينة لكم.

قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

٥٣ ـ ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ المعنى: قل أيها

الرسول لهؤلاء المنافقين: أنفقوا ما شئتم من أموالكم في الجهاد أو غيره مما أمر الله به في حال الطوع للتقية، أو الكره خوف العقوبة، فمهما تنفقوا في الحالين لن يتقبل الله منكم شيئاً منه، ما دمتم على شك مما جاءكم به الرسول من أمر الدين والجزاء على الأعمال في الآخرة. ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ هذا تعليل لعدم قبول نفقاتهم، ومعناه: إن إنفاقكم طائعين أو مكرهين سيان في عدم القبول لأنكم كنتم قوماً فاسقين و«إنما يتقبل الله من المتقين»، والمراد بالفسوق هنا الخروج من دائرة الإيمان.

٥٤ ـ ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾، أي: وما منعهم قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق، ومنها كفرهم برسالة رسوله وماجاء به من البينات والهدى. ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ ففعلهم لهذين الركنين من أركان الإسلام اللذين هما أظهر آيات الإيمان، لا يدل على صحة إيمانهم لأنهم يأتونهما رياء وتقية لا إيماناً بوجوبهما، ولا قصداً إلى تكميل أنفسهم بما شرعهما الله لأجله، واحتساباً لأجرهما عنده.

أما الصلاة فلا يأتونها إلا وهم كسالى، أي: في حال الكسل والتثاقل منها، فلا تنشط لها أبدانهم، ولا تنشرح لها صدورهم.

وأما الإنفاق في مصالح الجهاد وغيرها فلا يؤتونه إلا وهم كارهون له، غير طيبة أنفسهم به، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم مضروبة عليهم، تقوم بها مرافق المؤمنين، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم ليسوا منهم، فلا يرون لهم بها نفعاً في الدنيا، ولا يؤمنون بنفعها لهم في الآخرة.

ولما كان أولئك المنافقون من أولى الطول والسعة في الدنيا كما سيأتي في قوله «استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين»، وكان ترف الغنى وطغيانه أقوى أسباب إعراضهم عن آيات الله والتأمل في محاسن الإسلام، بيّن الله تعالى للمؤمنين سوء عاقبتهم فيه فقال:

٥٥ ـ ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل من سمع القول أو بَلَغه، كأنه يقول: إذا كان ذا شأنهم في مظنة ما ينتفعون به من أموالهم، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً، فلا تعجبك أيها الرسول أو أيها السامع أموالهم ولا أولادهم التي هي في نفسها من أكبر النعم وأجلها، ولا تظن أنهم وقد حرموا من ثوابها في الآخرة قد صفا لهم نعيمها في الدنيا، وعلل النهي بقوله: ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ بما يعرض لهم فيها من المنغصات والحسرات، أما الأموال فإنهم يتعبون في جمعها، ويحرصون على حفظها، ويشق عليهم ما ينفقونه منها من زكاة وإعانة على قتال وإنفاق على قريب من المؤمنين، وأشق منه اعتقادهم أنهم يتركونها بعدهم لمصالح المسلمين، لأن ورثتهم منهم في الغالب. وأما الأولاد فلأنهم يرونهم قد نشأوا في الإسلام واطمأنت به قلوبهم، وأنهم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وكل هذه حسرات في قلوبهم.

﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ فيعذبون بها في الآخرة أشد مما عذبوا بها في الدنيا بموتهم على كفرهم المحبط لعملهم، و«زهوق النفس»: خروجها من الأجساد. وقال بعض المفسرين: هو الخروج بصعوبة.

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

٥٦ ـ ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ أي: ويحلفون بالله لكم أيها المؤمنون ـ هؤلاء المنافقون ـ كذباً وباطلاً إنهم لمنكم في الدين والملة ﴿وما هم منكم﴾، أي: ليسوا من أهل دينكم وملتكم، بل هم أهل شك ونفاق ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ يقول: ولكنهم قوم يخافونكم، فهم خوفاً منكم يقولون بألسنتهم إنهم منكم ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا.

٥٧ ـ ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلاً لولوا إليه وهم يجمحون﴾ «الملجأ»: المكان الذي يلجأ إليه الخائف ليعتصم به، من حصن أو قلعة

أو جزيرة في بحر أو قُنَّة في جبل، و«المغارات»: جمع مغارة وهي الغار في الجبل، و«الـمُدَّخل»: بالتشديد ـ مفتعل من الدخول ـ السَّرَبُ في الأرض يدخله الإنسان بمشقة، و«الجماح»: السرعة الشديدة التي تتعسر مقاومتها أو تتعذر.

يقول: إنهم لشدة كرههم للقتال معكم ولمعاشرتكم، ولشدة رعبهم من ظهور نفاقهم لكم، يتمنون الفرار منكم والمعيشة في مضيق من الأرض يعتصمون به من انتقامكم، بحيث لو يجدون ملجأ يلجؤون إليه ـ أو مغارات يغورون فيها ـ أو مُدَّخلاً يندسون وينجحرون فيه، لولّوا إليه ـ أي: إلى ما يجدونه مما ذكر ـ وهم يسرعون متقمحين كالفرس الجموح لا يردهم شيء. وهذا الوصف من أبلغ مبالغة القرآن في تصوير الحقائق التي لا تتجلى للفهم والعبرة بدونها، فتصور شخوصهم وهم يَعْدُون بغير نظام، يلهثون كما تلهث الكلاب، يتسابقون إلى تلك الملاجيء من مغارات ومدخلات، فيتسلقون إليها، أو يندسون فيها. فكذلك كان تصورهم عندما سمعوا الآية في وصفهم.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

روى البخاري والنَّسائي ومصنفو التفسير المأثور عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يقسم قَسْمًا إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ائذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمية» ـ وأصحابه: هم الخوارج الذين ظهروا بعده ﷺ ـ قال أبو سعيد: فنزل فيهم قوله تعالى:

٥٨ ــ ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ «اللمز»: مصدر لمزه إذا عابه وطعن عليه مطلقاً أو في وجهه، والمعنى: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات ــ وهي أموال الزكاة المفروضة ــ يزعمون أنك تحابي فيها ﴿فإن أعطوا منها رضوا﴾ وإن لم يكن عطاؤهم باستحقاق كأن أظهروا الفقر كذباً واحتيالاً أو كان لتأليف قلوبهم ﴿وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾، أي: وإن لم يعطوا منها فاجأهم السخط أو فاجأوك به وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء، لأنه لا همّ لهم ولا حظ من الإسلام، إلا للمنفعة الدنيوية كنيل الحطام.

٥٩ ــ ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾، أي: ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من فضله بما أنعم عليهم من الغنائم وغيرها، وأعطاهم رسوله بقسمه للغنائم والصدقات كما أمره الله تعالى ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، أي: هو مُـحسبنا وكافينا في كل حال ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾، أي: سيعطينا الله من فضله في المستقبل من الغنائم والكسب، لأن فضله دائم لا ينقطع، ويعطينا رسوله مما يرد عليه من الغنائم والصدقات زيادة عما أعطانا من قبل، لا يبخس أحداً منا حقاً يستحقه في شرع الله تعالى ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ لا نرغب إلى غيره في شيء، لأن بيده ملكوت كل شيء، فإليه نتوجه، ومنه نرجو أن يبسط لنا في الرزق بما يوفقنا له من العمل ويهبه لنا من النصر، لو قالوا ذلك لكان خيراً لهم.

إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

٦٠ ــ ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ هذه الآية ناطقة بوجوب قصر الصدقات الواجبة وهي: زكاة النقود عيناً أو تجارة، والأنعام، والزرع، وسائر أنواعها على الأصناف الثمانية المنصوصة فيها دون غيرهم، وهي حجة

على من لمز النبي ﷺ من المنافقين بعدم إعطائهم منها ــ وهم ليسوا منهم ــ وقاطعة لأطماع أمثالهم.

وجمهور الفقهاء على أن الفقراء والمساكين صنفان مستقلان، وقد اختلفوا في تعريف كل منهما بما ذهب به بعضهم إلى أن الفقير أسوأ حالاً وأشد حاجة من المسكين، وبعضهم إلى العكس.

﴿والعاملين عليها﴾، أي: الذين يوليهم الإمام أو نائبه العمل على جمعها من الأغنياء وهم: الجباة، وعلى حفظها وهم: الخَـزَنة، وكذا الرُّعاة للأنعام منها، والكتبة لديوانها، ويجب أن يكونوا من المسلمين، ولا يشترط في العامل على الصدقات أن يكون مستحقاً للصدقة بفقره مثلاً، ولكن إن وجد من هو أهل للعمل من المستحقين يكون أولى من غيره، وإنما عمالته على عمله لا على فقره، فإن لم تكفه كان له أن يأخذ بفقره ما يأخذه أمثاله، وإن كانت زائدة على حاجته أو كان غير محتاج فله أن يأكل منها ويُهدي ويتصدق، وقد تجب عليه الزكاة بما يأخذه منها بشروطها من النصاب والحول.

﴿والمؤلفة قلوبهم﴾، أي: الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة إلى الإسلام، أو التثبت فيه، أو بكف شرهم عن المسلمين، أو رجاء نفعهم في الدفاع عنهم أو نصرهم على عدو لهم.

﴿وفي الرقاب﴾، أي: وللصرف في إعانة المكاتَبين من الأرقاء في فك رقابهم من الرق أو لشراء العبيد من قِنّ ومبعَّض وغير ذلك وإعتاقهم والمختار الجمع بينهما.

﴿والغارمين﴾، أي: وللغارمين، وهم الذين عليهم غرامة من المال بديون ركبتهم وتعذر عليهم أداؤها، واشترط الفقهاء أن تكون الديون في غير معصية الله تعالى إلا إذا علم أن الغارم تاب إلى الله تعالى، وفي غير إسراف وسفاهة إلا إذا رشد فكانت مساعدته من الصدقة عوناً له على رشده. وكذا الغارمون لإصلاح ذات البين، وقد كانت العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة في

دية أو غيرها قام أحدهم فتبرع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة، وكانوا إذا علموا أن أحدهم التزم غارمة أو تحمل حَمَالَةً بادروا إلى معونته على أدائها وإن لم يسأل، وكانوا يعدون سؤال المساعدة على ذلك فخراً، لا ضَعَةً وذُلاً.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غُرْم مُفْظِع، أو لذي دم موجع» رواه أحمد وأبو داود. وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ـ ثم قال ـ يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ـ أو قال ـ سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الـحِجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش ـ أو قال ـ سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسُحت يأكلها صاحبها سُحْتاً» رواه أحمد ومسلم والنَّسائي وأبو داود.

﴿وفي سبيل الله﴾ «السبيل»: الطريق، و«سبيل الله»: الطريق الاعتقادي العملي الموصل إلى مرضاته ومثوبته. ولكثرة اقتران الجهاد والقتال الديني في القرآن بكونه «في سبيل الله»، اتفقت المذاهب على أن الغزاة والمرابطين وحدهم هم المقصودون بهذا الصنف من مستحقي الصدقات، وهو قول الجمهور[1]..

---

(١) قوله: «وهو قول الجمهور» وقال القرطبي: وهو قول أكثر العلماء، وذهب بعضهم إلى أن الحُـجَّاج هم المعنيون بقوله: «في سبيل الله»، وقد توسع المؤلف السيد محمد رشيد رضا في تفسيره، فاعتبر أن «سبيل الله» يشمل سائر المصالح الشرعية العامة التي هي ملاك أمر الدين والدولة، بدءاً بالجهاد وإعداد الدعاة إلى الإسلام وإرسالهم إلى بلاد الكفار من قبل جمعيات منظمة تمدهم بالمال، وأدخل فيه مدارس العلوم الشرعية وغيرها مما تقوم به المصلحة العامة، فيعطى المدرسون فيها ما داموا يؤدون وظائفهم المشروعة، ولا يعطى منها عالم غني =

﴿وابن السبيل﴾ اتفقوا على أنه المقطع عن بلده في سفر لا يتيسر له فيه شيء من ماله إن كان له مال، فهو غني في بلده، فقير في سفره، فيعطى لفقره العارض ما يستعين به على العودة إلى بلده.

﴿فريضة من الله﴾، أي: فرض الله لهم ذلك، أو هذه الصدقات فريضةً منه تعالى فليس لأحد فيها رأي ﴿والله عليم حكيم﴾ «عليم» بحال عباده ومصالحهم، «حكيم» فيما يشرعه لهم، فهو لتطهير أنفسهم وتزكيتها بما يحمل عليها من الإخلاص والشكر له وإرضائه بنفع عباده.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

هذا ضرب آخر من نفاق أولئك المنافقين وآثاره وهو إيذاء الرسول ﷺ بالطعن في أخلاقه العظيمة، وشمائله الكريمة، كإيذاء أولئك الذين لمزوه في بعض أفعاله العادلة، وهي سمة الصدقات.

أخرج ابن اسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ويقول لهم: إنما محمد أُذُن، مَنْ حدثه شيئاً صدقه، فأنزل الله فيه:

= ونقول: نحن لا نوافق على هذه التوسعة، فإن الموضوع يتعلق بالزكاة التي هي ركن من أركان الإسلام، وقد اتفق جمهور العلماء على حصر معنى «في سبيل الله» في الغزاة والمجاهدين، فبقول الجمهور نأخذ وعليه نعوِّل، أما طلب العلم أو الدعاة أو المدرسون فإن أكثرهم يستحقون الزكاة لأنهم من أهلها فيعطون بصفتهم من الفقراء والمساكين، لا على أنهم من الداخلين في معنى «في سبيل الله»، وهذا ما يفهم من كلام السيد رشيد رضا نفسه عندما قال: «ولا يعطى منها عالم غني»، إذن فالإعطاء غير معلل بصفة العلم أو التعليم بل بصفة الحاجة، فحيث وجدت الحاجة استحق صاحبها الزكاة وإلا فلا.

٦١ ـ ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ وقد لقنه الله تعالى الرد عليهم بقوله: ﴿قل أذن خير لكم﴾، أي: نَعَم هو أذن ولكنه نِعم الأذن، لأنه أذن خير لا كما تزعمون، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق وما وافق الشرع، وما فيه الخير والمصلحة للخلق، وليس بأُذن في غير ذلك كسماع الباطل والكذب والغيبة والنميمة والجدل والمراء، فهو لا يلقي سمعه لشيء من ذلك، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لا يقبله، ولا يصدق ما لا يجوز تصديقه شرعاً أو عقلاً.

ثم فسر المراد من أُذُن الخير فقال: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾، أي: يصدِّق بالله تعالى وما يوحيه إليه من خبركم وخبر غيركم، وهو الخبر القطعي الصدق، الذي لا يحوم حوله الشك، وإيمانه به أثبت وأرسخ في اليقين من تصديق غيره بما قامت عليه الأدلة العقلية القاطعة، ويُصَدِّق في الدرجة الثاني تصديق ائتمان وجنوح للمؤمنين الصادقي الإيمان من المهاجرين والأنصار، الذين برهنوا على صدقهم بجهادهم معه في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فهو يصدق أخبارهم لا لذاتها بمجرد سماعها، بل لما علمه من آيات إيمانهم الذي يوجب عليهم الصدق ولا سيما الصدق بما يحدثونه به، ولِـماَ يجده في أخبارهم من أماراته وآياته. ويتضمن هذا أنه لا يؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم وائتمان، ولا يصدقهم في أخبارهم وإن وكدوها بالأيمان، كما ظن من قال منهم «هو أذن» اغتراراً بلطفه وأدبه ﷺ إذ كان لا يواجه أحداً بما يكره وبمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه.

﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾، أي: هو أذن خير لكم على كونه يؤمن للمؤمنين دون غيرهم، وهو رحمة للذين آمنوا منكم إيماناً صحيحاً صادقاً إذ كان سبب إيمانهم وهدايتهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، دون من أظهر الإسلام وأسر الكفر منافقاً فهو نقمة عليه في الدارين.

﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ يدل على أن إيذاء الرسول ﷺ بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه

وهو العذاب الشديد وفي إضافة الرسول إلى اسم الله عز وجل إيذان بأن إيذاءه إيذاء لمرسله أي سبب لعقابه، كما أن طاعته طاعة له وسبب لثوابه، «من يطع الرسول فقد أطاع الله» وقوله «لهم عذاب أليم» جملة مستقلة هي خبر لما قبلها، وفي هذا تأكيد لمضمونها.

والآية وما في معناها دليل على أن إيذاء الرسول ﷺ كفر إذا كان فيما يتعلق بصفة الرسالة، فإن إيذاءه في رسالته، ينافي صدق الإيمان بطبيعته، وأما الإيذاء الخفيف فيما يتعلق بالعادات والشؤون البشرية فهو حرام، لا كفر، كإيذاء الذين كانوا يطيلون المكث في بيوته عند نسائه بعد الطعام فنزل فيهم «إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم». والأعراب الذين كانوا يرفعون أصواتهم في ندائه ويسمونه باسمه: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون»، فهذه آداب المؤمنين التي فرضها عليهم ربهم مع رسوله ﷺ وفي التقصير فيها خطر حبوط الأعمال من دون شعور من المقصِّر.

وصرح بعض العلماء بأن إيذاءه ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، كإيذائه في حال حياته الدنيا، ومنه نكاح أزواجه من بعده، قال بعضهم: ومنه الخوض في أبويه وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حياً، ولكنهم جعلوه ذنباً لا كفراً، ولا شك أن الإيمان به ﷺ مانع من تصدي المؤمن لما يعلم أو يظن أنه يؤذيه صلوات الله وسلامه عليه إيذاء ما.

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

٦٢ ـ ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ هذا خطاب للمؤمنين في بعض شؤون هؤلاء المنافقين معهم في غزوة «تبوك»، أخبرهم بأنهم شعروا بما لم يكونوا يشعرون من

ظهور نفاقهم فكثر اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين في كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول وعمل، ليرضوهم فيطمئنوا لهم، فتنتفي داعية إخبار الرسول ﷺ بما ينكرون منهم، وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾، أي: والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهراً معلوماً باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شيء، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو يوحي إلى رسوله من أمور الغيب ما فيه المصلحة.

وكان الظاهر أن يقال: «يرضوهما»، ونكتة العدول عنه إلى «يرضوه» الإعلام بأن إرضاء رسوله من حيث أنه رسوله عين إرضائه تعالى لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به، وهذا من بلاغة القرآن في الإيجاز، ولو قال «يرضوهما» لما أفاد هذا المعنى، إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا. ﴿إن كانوا مؤمنين﴾، أي: إن كانوا مؤمنين كما يدعون ويحلفون فليرضوا الله تعالى ورسوله، وإلا كانوا كاذبين.

٦٣ ـ ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ وإقامة الحجة. والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الشأن والأمر الثابت الحق هو: أن من يعادي الله ورسوله بتعدي حدود الله، أو بلمز الرسول في أعماله كقسمة الصدقات، أو أخلاقه وشمائله كقولهم: هو أُذُن، فجزاؤه أن له نار جهنم يصلاها يوم القيامة خالداً فيها لا مخرج له منها ﴿ذلك الخزي العظيم﴾، أي: ذلك الصلي الأبدي هو الذل والنكال العظيم الذي يتضاءل دونه كل خزي وذل في الحياة الدنيا.

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟

قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

هذه الآيات في بيان شأن آخر من شؤون المنافقين التي كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك. أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد بن جبر رحمه الله في قوله تعالى:

٦٤ ـ ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ قال: يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون: عسى أن لا يُفْشَى علينا هذا. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة السدوسي رحمه الله قال: كانت هذه السورة ـ أي: التوبة ـ تسمى «الفاضحة» فاضحة المنافقين، وكان يقال لها «المنبئة» أنبأت بمثالبهم وعوراتهم.

واختلف المفسرون في ضمير «عليهم» فقال بعضهم: هو للمنافقين المذكورين، والمراد بنزوله عليهم: نزوله في شأنهم وبيان كنه حالهم، والمراد بإنبائهم بما في قلوبهم: لازِمُهُ، وهو فضيحتهم وكشفُ عوارهم، إنذارهم ما قد يترتب عليه من عقابهم.

وقال آخرون: هو للمؤمنين، أي: يحذر المنافقون أن ينزل على المؤمنين آية تنبئهم بما في قلوبهم، أي: قلوب المنافقين الحذرين من الشك والارتياب وتربص الدوائر بالمؤمنين، وغير ذلك من الشر الذي يسرونه في أنفسهم، والأْضغان التي يخفونها في قلوبهم.

﴿قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ استدل أبو مسلم الأصفهاني بهذا الجواب على أن المنافقين أظهروا الحذر مما ذُكر استهزاءً، ولم يكونوا يحذرون ذلك بالفعل لعدم إيمانهم، ويرده إسناد الحذر إليهم في أول الآية وآخرها، فالاستهزاء كان دأبهم وديدنهم، وحذرهم من تنزيل السورة ليس من هذا الاستهزاء، بل من خوف عاقبته، وأما أمرهم بالاستهزاء بقوله «قل استهزئوا»

فهو للتهديد والوعيد عليه، وبيان كونه سبباً لإخراجه تعالى ما يحذرون ظهوره من مخبآت سرائرهم، ومكنونات ضمائرهم. وقوله: «مخرج ما تحذرون» معناه: أنه مخرجه الآن بتنزيل هذه السورة التي لم تَدَعْ في قلوبهم شيئاً من مخبآت نفاقهم إلا أخرجته وأظهرته لهم وللمؤمنين.

٦٥ ـ ﴿ولئن سألتهم ليقولنَّ إنما كنا نخوض ونلعب﴾ روي فيمن نزلت فيهم هذه الآية عدة روايات نذكر أمثلها: أخرج ابن المنذور وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات. فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال النبي ﷺ «احبسوا عليّ هؤلاء الركب» فأتاهم فقال: «قلتم كذا، قلتم كذا»، قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون. وأخرج الفريابي وابن المنذور وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال: بينما النبي ﷺ في مسيره وأناس من المنافقين يسيرون أمامه فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فلنحن شر من الحمير، فأنزل الله تعالى ما قالوا، فأرسل إليهم: ماكنتم تقولون؟ فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

والمعنى: أن الله تعالى نبأ رسوله بما كان يقوله هؤلاء المنافقون في أثناء السير إلى تبوك من الاستهزاء بتصديه لقتال الروم الذين ملأ صيتهم بلاد العرب بما كان تجارهم يرون من عظمة ملكهم في الشام إذا كانوا يرحلون إليها في كل صيف، نبأه نبأ مؤكداً بصيغة القسم أنه إن سألهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها بأنهم لم يكونوا فيها جادين ولا منكرين، بل هازلين لاعبين، كما هو شأن الذين يخوضون في الأحاديث المختلفة للتسلي والتلهي، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول لجهلهم أن اتخاذ أمور الدين لعباً ولهواً، لا يكون إلا ممن اتخذه هزواً، وهو كفر محض.

وبعد أن نبأ الله تعالى رسوله بما يعتذرون به لقنه ما يرد به عليهم بقوله: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟﴾ والمعنى: إن الخوض واللعب إذا

كان موضوعه صفات الله وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة وأفعال رسوله وأخلاقه وسيرته كان ذلك استهزاء بها، لأن الاستهزاء بالشيء عبارة عن الاستخفاف به، وكل ما يلعب به فهو مستخف به. كما أن من يحترم شيئاً أو شخصاً أو يعظمه فإنه لا يجعله موضوع الخوض واللعب. والاستفهام للإنكار التوبيخي، والمعنى: ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله فقصرتم ذلك عليهما، فهل ضاقت عليكم جميع مذاهب الكلام تخوضون فيها وتعبثون دونها، ثم تظنون أن هذا عذر مقبول فتدلون به بلا خوف ولا حياء؟

٦٦ ــ ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي: قد كفرتم بهذا الخوض واللعب بعد إيمانكم، فاعتذاركم إقرار بذنبكم.

فإن قيل: ظاهر هذا أنهم كانوا مؤمنين فكفروا بهذا الاستهزاء، وظاهر السياق: أن الكفر الذي يسرونه، هو سبب الاستهزاء الذي يعلنونه، قلنا: كلاهما حق، ولكل منهما وجه.

فالأول: «بيان لحكم الشرع»، وهو أنهم كانوا مؤمنين حكمًا، فإنهم ادعوا الإيمان، فجرت عليهم أحكام الإسلام، وهي إنما تبنى على الظواهر، والاستهزاء بما ذكر عمل ظاهر يقطع الإسلام ويقتضي الكفر، فبه صاروا كافرين حكمًا، بعد أن كانوا مؤمنين حكمًا.

والثاني ــ وهو ما دل عليه السياق ــ «هو الواقع بالفعل»، والآية نص صريح في أن الخوض في كتاب الله وفي رسوله وفي صفات الله تعالى ووعده ووعيده وجعلها موضوعاً للعب والهزء كل ذلك من الكفر الحقيقي الذي يخرج به المسلم من الملة، وتجري عليه به أحكام الردة، إلا أن يتوب ويجدد إسلامه.

﴿إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾ الخطاب هنا للمعتذرين أو لجملة المنافقين، فإن كانت هذه الآية مما أمر الله رسوله أن يقوله لهم ــ كالذي قبله ــ فالمراد بالعفو والتعذيب ما يفعله ﷺ في المدينة، وإلا

كان المراد ما سيكون في الآخرة، والمعنى: أننا إن نعف عن بعضكم بتلبُّسهم بما يقتضي العفو من التوبة والإنابة، نُعذِّبْ بعضاً آخر باتصافهم بالإجرام ورسوخهم فيه وعدم تحولهم عنه، أي: بالإصرار على النفاق وما يستلزمه من الجرائم الظاهرة، وهذا التقسيم عقلي إذ لا يخلو حالهم من التوبة أوالإصرار، فمن تاب من كفره ونفاقه عفي عنه، ومن أصر عليه وأظهره عوقب به، فإن كان الوعيد من النبي ﷺ فمعناه: أن هذا ما سننفذ حكم الشرع عليكم به عند الرجوع من دار الحرب إلى دار الإسلام، لأن دار الحرب لا تقام فيها الحدود وأمثالها من الأحكام.

والمختار عندنا أنه من الله تعالى وأن المراد به عفو الله وتعذيبه في الآخرة.

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

هذا بيان عام لحال جميع المنافقين ذكرانهم وإناثهم، مقرون بالوعيد

الشديد مع أخوانهم الكفار على فسادهم وإفسادهم، يتلوه ضرب المثل لهم بحال أمثالهم في الأمم قبلهم. قال تعالى:

٦٧ ـ ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ أي: أهل النفاق من الرجال والنساء متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كأن كلًّا منهم عين الآخر.

ثم بيّن هذا التشابه بقوله: ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾ «المنكر الشرعي»: ما ينكره الشرع ويستقبحه، و«المنكر العقلي والفطري»: ما تستنكره العقول الراجحة والفطر السليمة، لمنافاته للفضائل والمنافع الفردية والمصالح العامة، و«الشرع»: هو القسطاس المستقيم في ذلك كله، و«المعروف»: ما يقابل «المنكر».

وقبض الأيدي: ضم أَصابعها إلى باطن الكف وهو كناية عن الامتناع من البذل، كما أن بسط اليد كناية عن الإنفاق والبذل، فهم ينهون الناس عن البذل، ويمتنعون منه بالفعل، واقتصر من منكراتهم الفعلية على هذا لأنه شرها وأضرها، وأقواها دلالة على النفاق، كما أن الإنفاق في سبيل الله أقوى الآيات على الإيمان.

﴿نسوا الله فنسيهم﴾، أي: نسوا الله أن يتقربوا إليه بالإنفاق في سبيله وغير ذلك من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، يعني: إنهم لرسوخهم في الكفر لم يعد يخطر ببالهم أن له تعالى عليهم حق الطاعة والشكر. فهم لا يذكرونه بشيء من أعمالهم، وإنما يتبعون فيها أهواءهم من الرياء ووسوسة الشيطان.

وأما نسيان الله تعالى لهم: فهو عبارة عن مجازاتهم على نسيانهم إياه بحرمانهم من فوائد ذكره، وفضيلة التقرب إليه بالإنفاق والجهاد في سبيله، وغير ذلك من توفيقه ولطفه في الدنيا، وحرمانهم من الثواب على ذلك في الآخرة. ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الراسخون في الفسوق وهو: الخروج من محيط الإيمان وفضائله، الناكبون عن صراطه المستقيم إلى طرق الشيطان ورذائله.

ثم قفى تعالى على بيان حالهم هذه بذكر ما أعده لهم ولأخوانهم الكفار من العقاب فقال:

٦٨ ـ ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها﴾ الوعد يستعمل في الخير والشر، وفيما ينفع وفيما يضر، والوعيد خاص بالثاني، ولا يكاد يذكر الوعد فيه إلا مع ذكر متعلقه صراحة أو ضمناً كهذه الآية. وذكر في هذه الآية «المنافقات» مع «المنافقين» للنص على أن في النساء نفاقاً كالرجال، كما قرن ذكر الذكور والإناث في صفات الإيمان، وتقدم آنفاً في الآية «٦٣» ذكر الخلود في جهنم وعيداً على محادة الله ورسوله، وزاد هنا ثلاثاً فقال: ﴿هي حسبهم﴾، أي: إن في جهنم من الجزاء ما يكفيهم عقاباً في الآخرة ﴿ولعنهم الله﴾ في الدنيا، والآخرة بحرمانهم من رحمته الخاصة، التي لا يستحقها إلا المؤمنون الصادقون، ﴿ولهم عذاب مقيم﴾، أي: ثابت لا يتحول عنهم.

٦٩ ـ ﴿كالذين من قبلكم﴾، أي: أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ورسوله محمد ﷺ وللمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم في أقوام الأنبياء، مفتونون بأموالكم وأولادكم، مغرورون بدنياكم، كما كانوا مفتونين ومغرورين بأموالهم وأولادهم، ولكنهم ﴿كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾، أي: فكان مطلبهم من أعمالهم وسعيهم التمتع والتنعم بنصيبهم وحظهم الدنيوي من الأموال والأولاد، ولم يكن لهم مطلب ولا غرض من الدنيا إلا التمتع بلذاتها وبزينتها لأنهم لم يكن لهم مقاصد شريفة عالية من الحياة سواها ﴿فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم﴾ من القوة والأموال والأولاد سواء، لم تَفْضُلُوا عيهم بشيء من إرشاد كلام الله وهدي رسوله في الفضائل والأعمال الصالحة، فكنتم أجدر باللائمة والعيب منهم، لأنهم أوتوا من القوة المطغية، والأموال المبطرة، والأولاد الفاتنة، فوق ما أوتيتم، ولم يروا من آيات الله تعالى ما رأيتم، ولا سمعوا من حكم كلامه وشرائعه ما سمعتم، فإن الله نزل عليه أحسن الحديث وأفضل الكتب وأكمل به الدين، وجعله خاتم النبيين، ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾، أي: وخضتم في حَمْأة الباطل كالخوض الذي خاضوه من كل وجه، على ما بين حالكم وحالهم من الفرق، الذي كان يقتضي أن تكونوا أهدى منهم.

﴿أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾، أي: أولئك المستمتعون

بخلاقهم وحظهم مما ذكر، والخائضون في الباطل، حبطت أعمالهم الدنيوية في الدنيا فكان ضررها عليهم أكبر من نفعها لهم لإسرافهم فيها وإفسادهم في الأرض، وحبطت أعمالهم الدينية في الآخرة من العبادات وصلة الرحم وصنع المعروف والصدقة وقِرَى الضيوف، فلم يكن لها أجر ينقذهم من عذاب النار ويدخلهم الجنة لفقد أساسها وهو الإيمان ولأنها كانت لأجل الرياء والسمعة وحب الظهور والثناء، ولأجل أن يعاملوا معاملة المسلمين وتجري عليهم أحكامهم، ولم تكن لأجل تزكية النفس، ولا لمرضاة الله عز وجل.

﴿وأولئك هم الخاسرون﴾ التامو الخسران.

٧٠ ــ ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات﴾ هذا استفهام تقرير وتوبيخ لمن نزلت فيهم الآيات من الكفار والمنافقين في عهد النبي ﷺ يذكرهم بالأقوام الذين ضلوا من قبلهم ووصلت إليهم سيرتهم، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً منهم، و«المؤتفكات»: جمع مؤتفكة من «الائتفاك»: وهو الانقلاب والخسف وهي: قرى قوم لوط. وقد فصل التنزيل قصصهم في عدة سور وبين هنا خلاصة نبئهم ومحلَّ العبرة فيه بقوله: ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي: فأعرضوا عنها وعاندوا الرسل، فأخذهم العذاب وهو كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح العقيم التي أهلكت عاداً قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾، أي: فما كان من سنة الله ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب وقد أنذرهم وأعذر إليهم ليجتنبوه ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ بجحودهم وعنادهم، وعدم مبالاتهم بإنذار رسلهم. والمراد من ضرب هذا المثل للكافرين برسالة محمد ﷺ من المجاهرين والمنافقين أن سنة الله في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة، فلا بد أن يحل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا، كما قال في سورة القمر «أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزُّبُر؟».

وأما قوم محمد ﷺ فقد أهلك الله تعالى أكابر الجاحدين المعاندين منهم في أول غزوة هاجموه فيها وهي غزوة «بدر»، ثم خذل الله من بعدهم في سائر

الغزوات «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً». ثم صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

وأما المنافقون فما زالوا يكيدون له في السر، حتى فضحهم الله تعالى بهذه السورة في آخر الأمر، فتاب أكثرهم، ومات زعيمهم عبد الله بن أبيّ بغيظه وكفره، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده، فكان قوم محمد ﷺ بهذا التمحيص خير أقوام النبيين، نشر الله تعالى بهم أعلام هذا الدين، فسادوا به جميع العالمين، ولولا ما أحدثه الروافض المنافقون، والخوارج المغرورون، من الشقاق بين المسلمين، لعمت سيادة الإسلام جميع العالمين.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٧٢)

هاتان الآيتان معطوفتان على الآيات الأربع التي قبلها لبيان المقابلة بين المؤمنين والمنافقين، وما بينهما من التضاد في الأقوال والأفعال التي يقتضيها الإيمان ـ الذي يدعيه المنافقون كذباً وتقية ـ والجزاء عليه وعليها. قال عز وجل:

٧١ ـ ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض في هذه الآية تعم ولاية النصرة، وولاية الأخوَّة والمودة، أي: فكما أن المنافقين يشبه بعضهم بعضاً في نفاقهم وآثاره من قول وعمل، فإن المؤمنين أيضاً بعضهم أولياء بعض في الولاية العامة من أُخوَّة ومودة وتعاون وتراحم، حتى شَبَّه النبي ﷺ جماعتهم بالجسد الواحد، وبالبنيان يشد

بعضه بعضاً، وولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل، والملة والوطن، وإعلاء كلمة الله عز وجل، ثم بَيّـن آثار ذلك من القول والعمل المضاد لما عليه المنافقون بقوله تعالى:

﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، أي: كما أن المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، فهاتان الصفتان من أخص صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكفار، وهما سياج حفظ الفضائل، ومنع فشو الرذائل، وقد فضل الله تعالى بهما أمة محمد ﷺ على سائر الأمم في قوله:«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله».

﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾، أي: يؤدون الصلاة المفـروضة وما شاؤوا من التطوع على أقوم وجه وأكمله، في شروطها وأركانها وآدابها ولا سيما الخشوع لله تعالى وكثرة ذكره فيها، ويعطون الزكاة المفروضة عليهم لمن فرضت لهم في الآية الستين من هذه السورة وما وُفِّقوا له من التطوع.

وإقامة المؤمنين للصلاة يقابل في صفات المنافقين نسيانهم عزوجل، وإيتاء المؤمنين للزكاة يقابل في صفات المنافقين قوله: «ويقبضون أيديهم» ولقد كان المنافقون يصلُّون ولكنهم لم يكونوا يقيمون الصلاة، وكانوا يزكون وينفقون، ولكن خوفاً أو رياء لا طاعة لله، كما قال تعالى عنهم: «وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون». ثم قال ﴿ويطيعون اللهورسوله﴾، أي: يستمرون على الطاعة، بترك ما نهوا عنه وفعل ما أمروا به بقدر الاستطاعة، وهو يقابل وصفه المنافقين بأنهم هم الفاسقون، وقوله تعالى: ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ يقابل نسيانـه تعالى للمنافقين ولعنه لهم كما علم مما فسرناهما به آنفاً.

والمـراد: أنـه تعـالى يتعهـد المؤمنـين والمؤمنـات بـرحمتـه الخـاصـة المستمـرة في مستقبـل أمـرهـم في الـدنيـا والآخـرة بـاستمـرارهم عـلى طـاعتـه وطـاعـة رسـولـه، وقـد قـال المحققـون من علماء العـربيـة: إن

السين في مثل «سيرحمهم» لتأكيد الإثبات، كما أن «لن» لتأكيد النفي، وكلتاهما للمستقبل. وقوله: ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ تذييل لتعليل هذا الوعد المؤكَّد، وهو أنه تعالى عزيز لا يمتنع عليه شيء من وعده ولا من وعيده، و«حكيم» لا يضع شيئاً منهما إلا في موضعه.

ولما ذكر صفاتهم ورحمته لهم بالإجمال، بيّـن ما وعدهم من الجزاء المفسر لرحمته المؤكدة بالتفصيل، في مقابلة ما أوعد به المنافقين وإخـوانهم الكفار تفسيراً لنسيانه لهم، فقال:

٧٢ ـ ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجـري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن﴾ هذه الآية نص في مساواة النساء للرجال في نعيم الآخرة كله حتى أعلاه، لمشاركتهن لهم في التكليف وولاية الإيمان.

و«الجنات»: البساتين الملتفة الأشجار بحيث تجن الأرض أي: تغطيها وتسترها، وجريان الأنهار من تحت أشجـارهـا مزيد في جمالها، ومانع من تغير مائها، والخلود فيها: عبارة عن المقام الدائم.

وأما المساكن الطيبة في جنات عدن فهي: الدور والخيام التي يطيب لساكنيها بها المُقَام في ذلك المَقـام، لاشتمالها على جميع المرافق والأثاث والرياش والزينة والرزق الذي تتم به راحة المقيم فيها وغبطته. ومعنى «العَدْن» في اللغة: الإقامة والاستقرار والثبات، أي: جنات إقامة وخلود.

﴿ورضوان من الله أكبر﴾ المراد به أعلى درجات الرضوان، وما هو إلا مقام رؤية الله تعالى[1] التي تكمل بها معرفة الرحمن، وتتم سعادة الإنسان، فالإنسان جسد وروح، ففي الجنات ومساكنها أعلى النعيم الجسماني، ورضوان الله الأكبر هو أعلى النعيم الروحاني.

---

(١) قوله: «وما هو إلا مقام رؤية الله تعالى»، تقدم في تفسير الآية «١٤٣» من سورة «الأعراف» بيان أن رؤية المؤمنين لله تعالى في الجنة ثابتة وحق مع الأدلة عليها.. خلاف لأهل الضلال من المعتزلة وغيرهم.

ووجه المقابلة الضدية بين ما هنا وما في وعيد المنافقين قبله ظاهر، فالجنات التي تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها مقابل لنار جهنم والخلود فيها، والمساكن الطيبة في جنات عدن مقابل للعذاب المقيم، ورضوان الله الأكبر للمؤمنين مقابل للعنة الله للمنافقين والكافرين، إذ هي الطرد والحرمان من رحمته الخاصة.

﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾، أي: ذلك الذي ذكر من الوعد للمؤمنين والمؤمنات بالنعيم الجسماني والروحاني، هو الفوز العظيم الذي لا يسعدله فوز.

فما على المؤمن إلا أن يحاسب نفسه وينصب لها الميزان، من كفة المؤمنين وكفة المنافقين في هذه الآيات، ويحكم لها أو عليها بحكم الله عز وجل لا بهواها، ولا يغترن أحد بلقب الإسلام، ولا بدعوى الإيمان، إلا إذا شهد بصدقه القرآن.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

هاتان الآيتان تهديد للمنافقين، وإنذار لهم بالجهاد كالكفار المجاهرين، إذا استرسلوا بهذه الجرأة في إظهار ما ينافي الإيمان والإسلام، من الأقوال والأفعال، أو بجهاد دون جهاد الكفار المحاربين، وأقله: ألا يعاملوا بعد هذا الأمر كمعاملة المؤمنين الصادقين، وأن يقابلوا بالغلظة والتجهم لا بالطلاقة والبشر واللين، وغير ذلك مما يأتي بيانه في هذه السورة. قال عز وجل:

٧٣ ـ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾، أي:

ابذل جهدك في مقاومة الفريقين الذين يعيشون مع المؤمنين بمثل ما يبذلون من جهدهم في عداوتك، وعاملهم بالغلظة والشدة الموافقة لسوء حالهم، وقدم ذكر الكفار في جهاد الدنيا لأنهم المستحقون له بإظهارهم لعداوتهم له ﷺ ولما جاء به، والمنافقون يخفون كفرهم وعداءهم ويظهرون الإسلام فيعاملون معاملة المسلمين في الدنيا، وقدم ذكر المنافقين في جزاء الآخرة لأن كفرهم أشد، وعذرهم فيه أضعف.

﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ هذا جزاؤهم في الآخرة، عَطَفَه على جزائهم في الدنيا، فهم لا مأوى لهم يلجئون إليه هنالك إلا دار العذاب الكبرى، التي لا يموت من أوى إليها ولا يحيا، فهم يصيرون إليها معتولين، ويُدعُّون إليها مقهورين، وبئس المصير هي «إنها ساءت مستقراً ومقاماً».

٧٤ ـ ﴿يحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ هذا استئناف لبيان السبب المقتضي لجهادهم كالكفار، وهو: أنهم أظهروا الكفر بالقول، وهموا بشر ما يغري به من الفعل، وهو الفتك برسول الله ﷺ وقد أظهره الله على ذلك، وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم عنه، وكانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم، وكانوا يخوضون في آيات الله وفي رسوله بما هو استهزاء خرجوا به من حظيرة الإيمان الذي يَدَّعونه، إلى محظور الكفر الذي يكتمونه.

وفي هذه الآية إسناد قول آخر من الكفر إليهم ينافي الإسلام الظاهر، فضلاً عن الإيمان الباطن، والمعنى: يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي أسندت إليهم، والله تعالى يكذبهم ويثبت أنهم قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم، ولم يذكر الكلمة التي نفوها وأثبتها، لأنها لا ينبغي أن تُذْكر في نص الكتاب.

وقد اختلف رواة التفسير المأثور في تعيينها والقائلين لها، فعن ابن عباس وأنس وعروة :أنها نزلت فيمن قال منهم: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من

الحمير. وفيه عدة روايات تقدم بعضها في الذين قالوا «إنما كنا نخوض ونلعب» الآية «٦٥» من هذه السورة ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ وهو اغتيال رسول الله ﷺ في العقبة[1] منصرفه من تبوك.

وذلك أن نفراً من المنافقين مكروا برسول الله ﷺ وتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق، فاستعدوا لذلك وتلثموا وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه، وأمر عماراً أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وَكْرَة القوم من ورائهم قد غَشُوه، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ومعه مِحْجَنٌ ـ أي: عصا منعطفة الرأس ـ واستقبل وجوه رواحلهم فضربها، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه قال: «اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار وراءها» فأسرعوا حتى استووا بأعلاها، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي ﷺ لحذيفة: «هل عرفت مِنْ هؤلاء الرهط أو الركب أحداً؟» قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، فقال رسول الله ﷺ: «هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا؟» قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني منها» قالوا: «أَوَلَا تأمر بهم يا رسول الله إذاً فنضرب أعناقهم؟ قال: «أكره أن يحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه» فسماهم لهما وقال: «اكتماهم». روى ذلك البيهقي من طريق

---

(١) قوله: «في العقبة» هي: «مرقًى صعب في الجبال»، أي: هو الطريق الصعب في الجبال، قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: «هذه العقبة ليست العقبة المشهورة بمنى التي كان بها بيعة الأنصار رضي الله عنهم أجمعين، وإنما هذه عقبة على طريق «تبوك» اجتمع المنافقون فيها للغدر برسول الله ﷺ في غزوة تبوك فعصمه الله منهم».

وسيأتي في تعليقنا على تفسير الآية «١٠٠» من هذه السورة ص (٣٤٠) بيان مبايعة من أسلم من أهل المدينة قبل الهجرة عند العقبة فراجعه ثمة.

ابن اسحاق، ورواه أحمد والطبراني والبزار من حديث أبي الطفيل وفيه أن الذي ضرب وجوه الرواحل هو: عمار بن ياسر.

﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾، أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة والكفر والهم بالانتقام، إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله تعالى بالغنائم التي هي عندهم غاية الغايات في هذه الحياة. فالإغناء من فضل الله ببعثة الرسول والنصر له وما فيه من الغنائم كما وعده.

﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾، أي: فإن يتوبوا من النفاق، وما يصدر عنه من مساوى الأقوال والأفعال، يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عما دُعُوا إليه من التوبة بالإصرار على النفاق ﴿يعذبهم الله عذاباً أليمًا في الدنيا والآخرة﴾ أما في الدنيا فبما يعرض لهم فيها من المنغصات وما يلازم قلوبهم من الخوف «لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون» فهم في جزع دائم، وهَمٍّ ملازم، وأما في الآخرة فحسبك ما تقدم آنفاً من وعيدهم.

﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾، أي: وما لهم في الأرض كلها أدنى ولي يتولاهم ويهتم بشأنهم، ولا أضعف نصير ينصرهم ويدافع عنهم، لأن من خذله الله وآذنه بحرب منه لا يقدر أحد أن يجيره منه.

وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

٧٥ ــ ﴿ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾، أي: ومن هؤلاء المنافقين[1] من عاهد الله تعالى وأقسم الأيمان، لئن آتاهم من فضله مالاً وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها، والأعمال الشرعية النافعة التي ينتظمون بها في سلك الصالحين القائمين بحقوق الله وحقوق عباده.

٧٦ ــ ﴿فلما آتاهم من فضله﴾ ما طلبوا من سعة رزقه ﴿بخلوا به وتولوا﴾، أي: ما لبثوا أن بخلوا بما آتاهم عقب حصوله وأمسكوه فلم يتصدقوا بشيء منه، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة وإصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا وأقسموا، ولم يكن توليهم هذا أمراً عارضاً شغلهم عنه شاغل

---

(١) قوله: «أي: ومن هؤلاء المنافقين» الخ، بعد تفسيره هذه الآيات أثبت المؤلف ما تناقله بعض القُصَّاص من أنها نزلت في «ثعلبة بن حاطب» الذي طلب من الرسول ﷺ أن يدعو الله له أن يرزقه مالاً ــ كما يقولون ــ فحذره النبي ﷺ من سوء عاقبة المال فلم يكف عن طلبه، فدعا له فاتجر واشترى غنماً فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها المدينة، فتنحى بها، ثم نمت فتنحى بها حتى ابتعد وانقطع عن صلاة الجمعة، ثم منع الزكاة، فنزلت فيه هذه الآيات، ورفض ﷺ قبول زكاته، وكذلك رفضها بعده خليفته أبو بكر ثم عمر ثم هلك في خلافة عثمان رضي الله عنهم.

هذا ملخص هذه الروايات وهي متداولة كثيراً بين الواعظين، ونقلها ــ على أنها سبب نزول الآيات ــ أكثر المفسرين، وبلغت شهرتها بين الناس مدى واسعاً أوهم أنها صحيحة مقبولة لا شيء فيها، والحق أن القصة المنسوبة إلى «ثعلبة بن حاطب» غير صحيحة وغير ثابتة بسند يعتد به، وقد بين ما فيها بعض المحققين فقال الحافظ ابن حجر في كتابه: «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» بعد أن ذكر سند الرواية المذكورة: وهذا إسناد ضعيف جداً، وقال مثل ذلك في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة»، وقال القرطبي في تفسيره بعد أن أورد القصة: «قلت: وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، فما روي عنه غير صحيح» وقال الضحاك بن مزاحم: نزلت في رجال من المنافقين هم: نَبْتَلُ بن الحارث، وجِدُّ بن قيس، ومُعَتِّبُ بن قُشير» اهـ.

وقد أوضحنا هذه المسألة في كتابنا «قرة العينين على تفسير الجلالين» ص ٢٥٤ ــ طبع المكتب الإسلامي ــ فارجع إليها ففيها فوائد أخرى.

وملخص القول: أنه لا علاقة لثعلبة بن حاطب بهذه الآية، ويؤيده سياق الآيات التي قبلها والآيات التي بعدها وكلها في المنافقين.

يزول بزواله، بل تولوا ﴿وهم معرضون﴾ بكل قواهم، عن الصدقة والعمل الصالح، فكان الإعـراض صفة راسخة فيهم حاكمة عليهم، بحيث إذا ذُكِّـروا بما يجب عليهم لا يذكرون، وإذا دُعُوا إليه لا يستجيبون.

٧٧ ــ ﴿فـأعقبـهم نفاقـاً في قلوبهم﴾، أي: فأعقبهم الله تعـالى، أو أعقبهم ذلك البخل والتولي والإعراض، بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان، نفاقاً راسخاً في قلوبهم متمكناً منها ملازماً لها ﴿إلى يوم يلقونه﴾ للحساب في الآخرة، لأنه بلغ المنتهى الذي لا رجاء معه في التوبة. ذلك ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه وبماكانوا يكذبون﴾ فذكر سببن هما أخص صفات المنافقين وأظهر الآيات الدالة على نفاقهم هما: إخلاف الوعد والكذب.

٧٨ ــ ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الاستفهام للتوبيخ والإنذار، أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون، ويقولون ما لا يفعلون، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول، أن الله يعلم سرهم الكامن في أعماق قلوبهم، ونجواهم التي يخصون بها من يثقون بمشاركته إياهم في نفاقهم ﴿وأن الله علام الغيوب﴾ كلها «لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء» فهم يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه.

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: لما أُمِرْنا بالصدقة كنا نتحامل ــ أي: يحمل بعضنا لبعض بالأجرة ــ

فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله غني عن صدقة هذا، وما فعل الآخر هذا إلا رياءً. فنزل قوله تعالى:

٧٩ ـ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾، أي: أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم في أمر الصدقات التي هي أظهر آيات الإيمان، أو: أعني بما ذكر من الذم الذين يلمزون المطوعين ويذمونهم في أخص فضائلهم التي تجرد أولئك المنافقون منها.

والتطوع في العبادة: ما زاد على الفريضة.

﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾، أي: ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم، و«الجُهد»: بالضم والفتح: الطاقة، وهي أقصى ما يستطيع الإنسان. والمراد بهم الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم، وعطفهم على المطوعين من عطف الخاص على العام تنويهاً بهم، لأن مجال لمزهم وعيبهم عند المنافقين أوسع، والسخرية منهم في عرفهم أشد، وإن كانوا أجدر بالثناء والإكبار عند المؤمنين، ﴿فيسخرون منهم﴾، أي: يستهزئون بهم احتقاراً لما جاؤوا به وعدّاً له من الحماقة والجنون في الدين، وقيل: إنه عام يشمل المكثرين والمقلين.

قال تعالى في بيان جزاء هؤلاء اللامزين الساخرين ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ هذا التعبير يسمى مشاكلة، وما هو إلا العدل في جزاء المماثلة، أي: جزاهم بمثل ذنبهم فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين، بفضيحته لهم في هذه السورة ببيان هذ الخزي وغيره من مخازيهم وعيوبهم، ولهم فوقه عذاب أليم في الآخرة.

ثم بيّـن تعالى عقابهم الخاص بأمر الدين، بما جعل حكمهم في ذنوبهم حكم الكافرين، فقال:

٨٠ ـ ﴿استغفرلهم أو لا تستغفر لهم[1]، إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾

(١) قوله تعالى: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم..» الآية. ذهب المؤلف محمد رشيد رضا في تفسيره إلى أنها نهي للنبي ﷺ عن الاستغفار للمنافقين،وانتهى إلى القول بعدم صحة القول بتخييره ﷺ فيها، ورد بناء على ذلك الأحاديث الواردة في الصحيحين وغيرهما في هذا الشأن ومنها الحديثان اللذان ذكرهما بعد تفسير الآية «٨٥» التالية من هذه السورة وهي قوله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» الخ. ومجمل ما جاء فيهما: أن النبي ﷺ وقف ليصلي على عبد الله بن أبي المنافق، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فأجاب النبي ﷺ: «إنما خَيَّرني الله فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» ثم صلى عليه. روى ذلك أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم.

والغريب في هذا الأمر أن يكون ثمة خلاف في «أو» من قوله تعالى: «أو لا تستغفر لهم» بعد أن بتَّ النبي ﷺ الخلاف واعتبرها للتخيير كما جاء في صحاح الأحاديث، والأغرب منه أن يأخذ المخالفون للقول بالتخيير ـ ومنهم المؤلف ـ بفهم عمر بن الخطاب لها على أنها ليست للتخيير، وقوله هذا وارد في الأحاديث التي استشكلوها وردُّوها، إذ لا خلاف في أنهم علموا بقول عمر رضي الله عنه الذي يحتجون به من هذه الأحاديث التي طعنوا فيها فكيف يحتجون بها من جانب ويردونها من جانب آخر؟ وأن يعلل المؤلف ردها بقوله: «إذ لا يعقل أن يكون فهم عمر أو غيره أصح من فهم رسول الله ﷺ لخطاب الله له، ولذلك أنكر بعضهم صحته»، أي: صحة الحديث.

وعلى كل حال فإن مما لا شك فيه: أن النبي ﷺ فسرها تفسيراً عملياً، فقد صلى عر عبد الله بن أبي المنافق بعد نزولها، وصلاته عليه ثابتة قطعاً بدليل نزول القرآن بالنهي عنها بقوله تعالى: «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً» الآية. والصلاة عليه استغفار له ـ وهكذا كل صلاة على جنازة هي استغفار للميت ودعاء له، وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستغرب أن يصلي رسول الله ﷺ على منافق وعندما صلى عليه كان ﷺ موقناً بأن الله لم يحرم الاستغفار للمنافقين بقوله: «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» الآية وبقوله: «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم»، فإن صلاته عليه كانت بعد نزول هاتين الآيين قطعاً، فهاتان الآيتان تفيدان: أنه لا مغفرة بالاستغفار للمنافقين ولكنها لا تحرمانه، إذ لو كان الاستغفار لهم محرماً لما فعله رسول الله ﷺ بالصلاة على ابن أُبَيّ وهو المعصوم عن مخالفة ما يوحى إليه، بل إنه تعالى يدعوه فيهما إلى عدم الاهتمام بهم والحرص على إيمانهم بعد أن بذل جهده في دعوتهم.

وحرصه ﷺ على إيمان الناس كان معروفاً حتى أنزل الله عليه آياتٍ تسلِّيه وتخفف عنه، =

﴿فلن يغفر الله لهم﴾. هذه الآية بمعنى آية سورة «المنافقون» «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين». وعدد السبعين يستعمل بمعنى الكثرة المطلقة في عرف العرب، فليس المراد به هذا العدد بعينه، بل المعنى: مهما تكثر من الاستغفار فلن يستجاب لك فيهم والمعنى: الاستغفار لهؤلاء المنافقين المعيَّنين وعدمه سيان، فلن يغفر الله لهم وإن كثر الاستغفار.

والظاهر أنه كان ﷺ يستغفر لهم، رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم،كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول «اللهم

= منها قوله تعالى: فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» أي: لست مكلفاً بأن تهلك نفسك أسفاً وحسرة عليهم لأنهم لم يؤمنوا، فما عليك إلا البلاغ وقد فعلت.

ففهم النبي ﷺ من الآيتين المذكورين أنه لم يُنْهَ عن الاستغفار لهم، بل هو مخير فيه، وأنه لا مانع من الصلاة على موتاهم تطييباً لقلوب المؤمنين من أقاربهم، وتألفاً لمن لم يؤمن من قومهم ومعاملته لهم بظاهر حالهم، لا عن اعتقاد بأن الاستغفار أو الصلاة عليهم تنفعهم، وهذا ما جاء صريحاً في حديث ابن عباسْ الذي رواه البخاري وغيره وهو قوله ﷺ: «فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر لهم لزدت عليها». ثم نُهِي عن ذلك صراحة بقوله تعالى: «ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» الآية، فكفَّ عن ذلك، أما عمر رضي الله عنه فقد فهم من الآيتين أنه ﷺ قد نُهِي عن الاستغفار للمنافقين، لذلك قال للنبي ﷺ لما هَمَّ بالصلاة على ابن أُبيٍّ السلولي: «أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟» فبين له النبي ﷺ انه لم يُنْهَ عن ذلك قائلاً له: «إني خيِّرت» وفي رواية: «إنما خيرني الله» فسكت عمر، فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلى معه عليه عمر كما جاء في صحيح البخاري، وهذا دليل على رجوع عمر عن قوله، قال عمر رضي الله عنه: «فعجبتُ لي ولجراءتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ولا تصلِّ على جحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبرة الخ، فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل» وفي رواية لمسلم: «فترك الصلاة عليهم».

فبهذا التوجيه يندفع كل إشكال، ويزول التناقض والتعارض بين الآيات والأحاديث، وتتكامل الروايات والأخبار أما قوله تعالى: «إن تستغفر لهم سبعين مرة» ففي «السبعين» قولان: أحدهما أن المراد بها المبالغة في كثرة الاستغفار، وبه أخذ المؤلف وثانيهما: أن المراد بها العدد المخصوص، أي: مفهوم هذا العدد، ولكل منهما وجه والخلاف هنا لا شيء فيه.

اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» رواه ابن حبان في صحيحه من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه وروى مثله الشيخان من حديث ابن سعود رضي الله عنه.

﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾، أي: ذلك الامتناع من المغفرة بسبب كفرهم بالله ورسوله، فهم لا يوقنون بما وصف به نفسه من العلم وبسرهم ونجواهم وبسائر الغيوب، ولا بوحيه لرسوله وما أوجبه من اتباعه، ولا ببعثه للموتى وحسابهم وجزائهم، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾، أي: جرت سنته في الراسخين في فسوقهم وتمردهم، المصرين على نفاقهم، أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون إليهما سبيلاً.

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

٨١ ــ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ «المخلفون»: اسم مفعول من «خَلَّف فلاناً وراءه» إذا تركه خلفه. والمعنى: فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين، أي: الذين تركهم الرسول ﷺ عند خروجه إلى غزوة تبوك بقعودهم في بيوتهم مخالفين لله تعالى وله، وإنما فرحوا لأنهم لا يؤمنون بما في الخروج معه من الأجر العظيم الذي لا تذكر بجانبه راحة القعود في البيوت شيئاً ﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر﴾، أي: قالوا لأخوانهم في النفاق لا تنفروا معه في الحر، نهيا لهم عن المعروف وإغراء بالثبات على المنكر. وهو عدم النفر، أو قالوه

تثبيأً لهم فيه، وتثبيطاً للمؤمنين عنه ﴿قل نار جهنم أشد حراً﴾، أي: قل أيها الرسول تفنيداً لقولهم وتسفيهاً لحلومهم: نار جهنم التي أعدها الله تعالى لمن عصاه وعصى رسوله، أشد حراً من تلك الأيام.

﴿لو كانوا يفقهون﴾، أي: لو كانوا يعقلون ذلك ويعتبرون به لما خالفوا أو قعدوا، ولما فرحوا بقعودهم إذا أجرموا فقعدوا، بل لحزنوا واكتأبوا، وبكوا وانتحبوا، كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا، كما سيأتي في الآية «٩٢» من هذه السورة.

٨٢ ــ ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ في هذا الأمر بقلة الضحك وكثرة البكاء وجوه أحدها: وهو المختار عندنا أن هذا هو الأجدر بهم، بل الواجب عليهم بحسب ما تقتضيه حالهم، وتستوجبه جريمتهم، لو كانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف والخلاف من أجر، وما سيحملون في الآخرة من وزر، وما يلاقون في الدنيا من خزي وضر، فهو خبر في صيغة أمر،

ثانيها: أن هذا هو ما يكون من أمرهم في الدنيا، فلن يطيب لهم فيها عيش بعد أن هتك الوحي أستارهم، وكشف عوارهم، وأمر الرسول والمؤمنون بمعاملتهم بما يقتضيه نفاقهم، وعدم الاعتداد بما يظهرون من إسلامهم.

ثالثها: أن المراد بالضحك القليل ما سيكون منهم في الدنيا بعد الفضيحة، وهو قليل بالنسبة إلى ما كان من ماضيهم مع المؤمنين، وبالنسبة إلى حياتهم في هذه الدنيا، وبالبكاء الكثير ما سيكون منهم في الآخرة، وهو على كل حال إنذار مقابل لما ذكر من فرحهم بالتخلف مثبت أنه فرح عاقبته الحزن والكآبة، والخيبة والندامة، في الدنيا ويوم القيامة. ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ فإن جزاء كل عمل من جنسه، وكما يدين المرء يدان.

٨٣ ــ ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم﴾، أي: فإن ردَّك الله أيها الرسول من سفرك هذا إلى طائفة منهم، أي: المخلفين من المنافقين ــ وما كل من تخلف كان منافقاً ــ ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ معك في غزاة أو غير غزاة مما تخرج لأجله ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾، أي: لن يكون لكم شرف صحبة

الايمان بالخروج معي إلى الجهاد في سبيل الله، ولا إلى غيره ــ كالنُّسك ــ أبداً ما بقيت ﴿ولن تقاتلوا معي عدواً﴾ من الأعداء بصفة ما، لا بالخروج والسفر إليهم، ولا بغير ذلك كأن يهاجموا المؤمنين في عاصمتهم، كما فعلوا يوم الأحزاب مثلاً، ثم بين سبب هذا الحرمان من شرف الجهاد فقال:

﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾، أي: إنكم رضيتم لأنفسكم بخزي القعود أول مرة دعيتم فيها إلى الخروج واستنفرتم، فلم تنفروا عصياناً لله ورسوله ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ ما حييتم أبداً، أي: مع الذين تخلَّفوا عن النفر، أو: مع الأشرار الفاسدين، الذين خرجوا عن سبيل المهتدين.

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

هذا بيان ما شرعه الله تعالى في شأن من يموت من هؤلاء المنافقين في إثر ما شرعه في شأن الأحياء منهم، وهو كسابقه خاص بمن نزلت فيهم الآيات وهم الذين ثبتت أدلة كفرهم، أو إعلامه تعالى لرسوله بحقيقة أمرهم، وفي مقدمتهم زعيمهم الأكبر الأكفر عبد الله بن أُبي بن سلول. قال عز وجل:

٨٤ ــ ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾، أي: لا تصل أيها الرسول بعد الآن على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين عرفناك شأنهم صلاة الجنازة أبداً ما حييت، ولا تقم على قبره عند الدفن للدعاء له بالتثبيت، كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم، ويلزم هذا النهي عدم تشييع جنائزهم. روى أبو داود والحاكم وصححه والبزار من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» وقد نص الفقهاء على العمل بهذا الحديث، ولا نعرف شيئاً من السنة في معنى القيام على القبر غيره فانتظار الدفن أعم منه.

وقد علل تعالى هذا النهي ببيان مستأنف فقال: ﴿إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾، أي: إنهم كفروا وماتوا وهم فاسقون، أي: وهم في حال خروجهم السابق من حظيرة الإيمان.

٨٥ ـ ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ قد تقدم مثل هذا بنصه، وهو الآية «٥٥» من هذه السورة.

روى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت عمر يقول: لما توفي عبد الله بن أبي دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت: أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا ـ أُعَـدِّدُ أيامه ـ ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرت قال «يا عمر أخّر عني، إني قد خيرت: قد قيل لي استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة، فلو أعلم إني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» ثم صلى عليه رسول الله ﷺ ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه. فعجبت لي ولجرائي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم، فوالله ما كان يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» فما صلى رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عمر رضي‌الله عنه قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخـذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ «إنما خيرني الله فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر هم، إن تستغفر لهم سبعين مرة، وسأزيد على السبعين» قال: إنـه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله

تعالى «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» زاد مسلم في رواية أخرى: فترك الصلاة عليهم[1].

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

هذا بيان لحالة المنافقين العامة في أمر الجهاد بالمال والنفس، الذي هو أقوى آيات الإيمان بالله ورسوله وما جاء به، وما يقابله من حال المؤمنين الصادقين فيه، وما بين الحالين من التضاد في العمل والأثر في القلب اللذين هما مناط الجزاء. قال تعالى:

٨٦ ـ ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله﴾، أي: إنه كلما نزلت سورة تدعو الناس أو المنافقين ببعض آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسوله ﷺ، أي: ناطقة بأن آمنوا وجاهدوا ﴿استأذنك أولو الطول منهم﴾ «الطول»: بالفتح: يطلق على الغنى والثروة، وعلى الفضل والمنة. والمراد بهم هنا أولو المقدرة على الجهاد المفروض بأموالهم وأنفسهم، أي: استأذنوك بالتخلف عن الجهاد ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾، أي: دعنا نكن مع

---

(١) ارجع إلى تعليقنا حول هذه المسألة في تفسير الآية «٨٠» من هذه السورة. ص ٣٢٣.

القاعدين في بيوتهم من الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال، والصبيان والنساء غير المخاطبين به.

٨٧ ـ ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء ومن لا خير فيهم من أهل الفساد، جمع «خالفة».

﴿وطبع على قلوبهم﴾ الطبع على القلوب والختم عليها: عبارة عن عدم قبولها لشيء جديد من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها، وصار وصفاً ووجداناً لها.

﴿فهم لا يفقهون﴾، أي: فلأجل ذلك هم لا يفهمون ما يخاطبون به فهم تدبر واعتبار فيعملون به.

٨٨ ـ ﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ أي: لكن الرسول والذين آمنوا به، وكانوا معه في كل أمور الدين لا يفارقونه، وقد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فقاموا بالواجب خير قيام، كما يقتضيه الإيمان والإسلام، وما كان أولئك المنافقون الجبناء البخلاء، بأهل للقيام بهذه الأعباء، كما تقدم فيما وصفوا به من الآيات.

﴿وأولئك لهم الخيرات﴾، أي: وأولئك المجاهدون البعيدو المنال في معارج الكمال، لهم دون المنافقين الخيرات التي هي ثمرات الإيمان والجهاد، من شرف النصر، ومحو كلمة الكفر، واجتثاث شجر الشرك، وإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل بدين الله، والتمتع بالغنائم والسيادة في الأرض ﴿وأولئك هم الفلحون﴾، أي: الفائزون بسيادة الدنيا مع سعادة الآخرة، دون أولئك المنافقين الذين حرموا منهم بنفاقهم، وما له من سواء الأثر في أعمالهم وأخلاقهم.

٨٩ ـ ﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ تقدم معنى هذه الآية بما هو أوسع من هذه في الآية «٧٢» وسيأتي مثلها في آخر الآية المتممة للمائة من هذه السورة.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

هذه الآية في بيان حال الأعراب خاصة، وهم: بدو العرب الذين طلبوا الإذن بالتخلف، والذين تخلفوا بغير إذن، عقب بيان حال منافقي الحضر في مدينة الرسول ﷺ قال تعالى فيهم:

٩٠ ـ ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ «المعذرون»: هم المعتذرون الذين لهم عذر، وقد يكون «المعذِّر» غير محق، فيكون معناه: المقصرون.

والمعنى: وجاء الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يأذن لهم في التخلف عن الخروج إلى تبوك من أولي التعذير والأعذار، قال الضحاك: هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم فقالوا: يا نبي الله إن نحن غزونا معك تُغير أعراب طيِّء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم ويغني الله عنكم».
وقال ابن عباس: هم قوم تخلفوا بعذر بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ أي: وقعد عن القتال وعن المجيء للاعتذار الذين كذبوا الله ورسوله من الأعراب، أي: أظهروا الإيمان بهما كذباً وإيهاماً، وهؤلاء هم المنافقون الأقحاح. قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئاً: قوم تكلفوا عذراً بالباطل وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله «وجاء المعذرون»، وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جراءة على الله تعالى وهم المنافقون، فأوعدهم الله بقوله: ﴿سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ الظاهر المختار أن هذا الوعيد يعود على ما قبله من الفريقين عاماً في المكذبين، وخاصاً ببعض المعذِّرين، كما هو المتبادر من قوله تعالى «منهم»، أي: الأعراب الذين اعتذر بعضهم وقعد بعض، فإن الذين كذبوا الله ورسوله كلهم كفار، وأما المعتذرون فمنهم الصادق في عذره، والكاذب فيه لمرض في قلبه،

أو لتكذيبه لله ورسوله، وكل منهم يعرف نفسه فيحاسبها إذا وجد الوعيدُ موضعاً للعبرة منها.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

بيّـن الله تعالى في هذه الآيات الأعذار الشرعية المقبولة عنده وعند رسوله بالتفصيل، فعلم منه بطلان ما عداها، فقال تعالى:

٩١ ـ ﴿ليس على الضعفاء﴾ «الضعفاء»: من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد، قال ابن عباس: يعني الزَّمنى المصابون بعاهة لا تـزول والشيوخ والعَجَزة، وقيل: هم الصبيان، وقيل: النسوان ﴿ولا على المرضى﴾ جمع «مريض» وهم: الذين عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد، وعذرهم ينتهي بالشفاء منها ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ وهم: الفقراء الذين لا يجدون مالاً ينفقون منه على أنفسهم إذا خرجوا للجهاد، ويتركون لعيالهم ما يكفيهم، وكان المؤمنون يجهزون أنفسهم للقتال فالفقير ينفق على نفسه والغني ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته كما فعلوا في غزوة تبوك إذ لم يكن للمسلمين بيت مال غني ينفق منه النبي ﷺ على الغزاة، وهذا العذر خاص بالمال، ويزول إذا كان للأمة في بيت المال ما ينفقون منه، أي: ليس على هذه الأصناف الثلاثة ﴿حرج﴾، أي: ضَيْق في حكم الشرع يعدون به مذنبين ولا إثم في القعود عن الجهاد الواجب ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ في حال

قعودهم لعجزهم، أي: إذا أخلصوا لله تعالى في الإيمان وللرسول ﷺ في الطاعة وأداء الأمانة بالقول والعمل ولا سيما الذي تقتضيه حالة الحرب.

روى مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال «الدين النصيحة» قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وروى البخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم».

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾، أي: ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم أو النيل منهم، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم، وهذا الاستعمال مكرر في القرآن. و«المحسنون»: ضد المسيئين، وهو عام في كل من أحسن عملاً من أعمال البر والتقوى.

﴿والله غفور رحيم﴾، أي: وهو تعالى كثير المغفرة واسع الرحمة فهو يستر على المقصرين ما لا يخلو منه البشر من ضعف في أداء الواجبات لا ينافي الإخلاص والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويدخلهم في رحمته في عباده الصالحين. وأما المنافقون المسيئون عملاً ونية فإنما يغفر لهم ويرحمهم إذا تابوا من نفاقهم الباعث لهم على إساءتهم.

٩٢ ـ ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ هذا معطوف على نفي الحرج عن الضعفاء والمرضى والفقراء، ونفي السبيل عن المحسنين، أي: لا حرج على من ذكر بشرطه، ولا سبيل على المحسن منهم في قعوده، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل فيخرجوا معك فلم تجد ما تحملهم عليه الخ، وهؤلاء جماعة من الفقراء يدخلون في عموم الذين لا يجدون ما ينفقون للجهاد في سفر طويل كغزوة تبوك وهو فقدهم الرواحل التي تحملهم، فهو من عطف الخاص على العام.

ثم بيّن حال هؤلاء بعد جواب الرسول لهم بياناً مستأنفاً فقال:

﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾، أي: انصرفوا من مجلسك وهم في

حال بكاء شديد، هاجه حزن عميق. فكانت أعينهم تمتلىء دمعاً، فيتدفق فائضاً من جوانبها تدفقاً، حتى كأنها ذابت فصارت دمعاً، فسالت همعاً ﴿حزناً﴾ منهم وأسفاً ﴿أن لا يجدوا ما ينفقون﴾، أي: على عدم وجدانهم عندك ولا عندهم ما ينفقون ولا ما يركبون في خروجهم معك جهاداً في سبيل الله وباتغاء مرضاته.

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين. فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: «والله لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يُحبسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملاً. فأنزل الله عذرهم: «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم» الآية. وهنالك رواية أخرى: أنهم ما سألوه ﷺ إلا الحُملان على النعال، ورواية أخرى: أنهم سألوه الزاد والماء، ولا مانع من وقوع كل ذلك في هذه الغزوة الكبيرة ولكن الآية خاصة بطلاب الرواحل لأنه هو المتبادر من اللفظ.

لما بيّن أن كل أولئك ما عليهم من سبيل، بقي بيان مَنْ عليهم السبيل في تلك الحالة فذكرهم بقوله:

٩٣ ـ ﴿إنما السبيل﴾ الواضح السوي الموصل إلى المؤاخذة والمعاقبة بالحق ﴿على الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾، أي: يطلبون الإذن لهم في القعود والتخلف عن النفر والحال أنهم أغنياء في حال هذا الاستئذان ومن قبله، قادرون على إعداد العدة له من زاد ورواحل وغير ذلك، ولماذا؟ ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾، أي: رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف والخالفين، من النساء والأطفال والمعذورين، بل مع الفاسدي الأخلاق المفسدين ﴿وطبع الله على قلوبهم﴾ فأحاط بهم ما جروا عليه من خطاياهم وذنوبهم، بحسب سنن الله تعالى في أمثالهم ﴿فهم لا يعلمون﴾ كنه حالهم، ولا سوء مآلهم، وما هو سببه من أعمالهم، فأما حالهم في التخلف وطلب القعود مع الخوالف بغير أدنى عذر،

فهو رضاً بالذل والمهانة في الدنيا، لأن تخلف الأفراد عن القتال الذي تقوم به الشعوب والأقوام، ورضاء الرجال بالانتظام في سلك النساء والأطفال، يُعَدُّ من أعظم مظاهر الخزي والعار، وسوء عاقبتهم فيه فهو ما فضحهم الله به في هذه السورة، وما شرعه لرسوله وللمؤمنين من جهادهم وإهانتهم، وعدم العود إلى معاملتهم بظاهر إسلامهم، وما عده لهم من العذاب الأليم، والخزي الدائم في نار الجحيم[1].

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

٩٤ ـ ﴿يعتذرون إليكم﴾ يعتذرون إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وهم أغنياء أصحاء لا عذر لهم ﴿إذا رجعتم إليهم﴾ من سفركم هذا عن تخلفهم وسائر سيئاتهم ﴿قل﴾ أيها الرسول لهم حينئذ ﴿لا تعتذروا لن نؤمن لكم﴾ لن نصدقكم تصديق جنوح وائتمان لكم بتلبسكم بالإسلام تحسيناً للظن، ولا عملاً بالظواهر، ولماذا؟ ﴿قد نبأنا الله﴾ بوحيه إلى رسوله بالمُهِمِّ ﴿من أخباركم﴾ التي تسرونها في ضمائركم، وهي مخالفة

---

(١) قوله: «والخزي الدائم في نار الجحيم»، بهذه الجملة ينتهي القسم الأول الذي قمنا باختصاره من «تفسير المنار»، وهو يبدأ من أواخر الآية «١٨٦» من سورة «البقرة»، وهو القسم الأكبر من هذا الكتاب، أما من أول الآية «٩٤» من هذه السورة فيبدأ القسم الثاني الذي اختصره المؤلف رحمه الله، وقد بينا ذلك كله في مقدمتنا لهذا الكتاب فارجع إليها.

لظواهركم، ونبأ الله هو الحق اليقين ومن عرف الحق لا يقبل الباطل، ولا يصدق الكاذب، واعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به، وأن المبلِّغ لهم هو الرسول ﷺ بما لخبره من الثقة التي لا يشك فيها أحد، والتأثير الذي يحسب له كل حساب، ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ بعد الآن، وهو الذي يدل إما على الإصرار على النفاق، وإما على التوبة والإذعان في الإيمان، وأما أقوالكم فلا قيمة لها وإن أكدتموها بالأيمان ﴿ثم تردون﴾ من هذه الحياة على الذل والموت عليه ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون، والغيب: ما غاب عن المخاطبين علمه، والشهادة ما يشهدونه ويعرفونه ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ عندما تحشرون وتحاسبون، ويجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوعدكم به في هذه السورة وفي غيرها.

٩٥ ـ ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم﴾ سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم إليهم من سفركم، لأجل أن تعرضوا عن عتابهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والأطفال والعجزة، وبخلهم بالنفقة، ولم يذكر المحلوف عليه للدلالة على شموله لكل ما يُعْتَذَرُ عنه. ﴿فأعرضوا عنهم﴾ إعراض إهانة واحتقار، لا إعراض صفح وإعذار، وهذا التعبير من أسلوب الحكيم وهو: قبول ما يَبْغون من الإعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الأمر بقوله: ﴿إنهم رجس﴾، أي: قذر معنوي يجب الإعراض عنه تنزهاً عن القرب منه بأشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الأرجاس والأقذار الحسية. وهذا بمعنى قوله: «إنما المشركون نَجَس» ﴿ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون﴾، أي: وملجأهم الأخير نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من أعمال النفاق التي دنست أنفسهم، والإعراض عن آيات الله الذي زادهم رجساً على رجسهم، كما تراه في الآية «١٢٥» الآتية:

٩٦ ـ ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ فتستديموا معاملتهم السابقة بظاهر

إسلامهم، وهذا غرض آخر لهم وراء غرض الإعراض عنهم، لا يهنأ عيشهم بدونه، ولا حظ لهم من إظهار الاسم غيره، ولو كان إسلامهم عن إيمان لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله كما قال: «والله وروسله أحق أن يُرْضُوه». وليس لكم أن ترضوا عنهم وهذه حالتهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فَرَضاً وقد أعلمكم الله بحالهم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ عن أمره، منهم ولا من غيرهم، فإن هذا الفسق سبب أو علة لسخط الله تعالى، فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم، ومقتضاه: أنه إذا فُرض أن بعض المؤمنين رضي عنهم بعد النهي عنه كان فاسقاً مثلهم، محروماً من رضائه تعالى، كما أن من يتوب منهم لا يُعَدُّ بعد ذلك فاسقاً. فأحكام الله العامة ووعده ووعيده تتعلق بالأعمال والصفات النفسية والبدنية لا بالذوات والأعيان.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٩٧ ــ ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين، لأنه مما يُسأل عنه بعد ما تقدم في منافقي الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى. فـ «الأعراب»: اسم جنس لبدو العرب، واحده «أعرابي»، والأنثى «أعرابية»، والجمع «أعاريب»، و«العرب»: اسم جنس لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة بدوه وحضره، واحده «عربي»، وقد وصف الأعراب بأمرين اقتضتهما طبيعة البداوة:

الأول: أن كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضر، ولا سيما الذين يقيمون في المدينة المنورة نفسها، لأنهم أغلظ طباعاً، وأقسى قلوباً، وأقل ذوقاً وآداباً، كدأب أمثالهم من بدو سائر الأمم، بما يُقْضُون جل أعمارهم في رعي الأنعام وحمايتها من ضواري الوحش ومن تعدِّي أمثالهم عليها وعلى نشائهم وذراريهم، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية، والآداب الاجتماعية.

الثاني: أنهم أجدر، أي: أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى في كتابه، وما آتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله. وفهمهم ألفاظ القرآن اللغوية، لا يكفي في علم حدوده العملية.

كان أهل المدينة وما حولها من القرى يتلقون عنه ﷺ كل ما ينزل من القرآن وقت نزوله، ويشهدون سنته في العمل به، ولم يكن هذ كله ميسوراً لأهل البوادي، وهم مأمورون بالهجرة، لأجل العلم والنصرة، ولأن الإسلام دين علم وحضارة ﴿والله عليم حكيم﴾ واسع العلم بأمور عباده وصفاتهم وأحوالهم الظاهرة من بداوة وحضارة وعلم وجهل، والباطنة من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق، تام الحكمة فيما يحكم به عليهم، وما يشرعه لهم وما يجزيهم به.

٩٨ ــ ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾، أي: يَعُدُّ ما ينفقه في سبيل الجهاد رياءً وتقيةً من المغارم، وهي: ما يُلْزَمُهُ المرء مما يثقل عليه فيلتزمه كَرْهاً أو طوعاً لدفع مكروه عن نفسه أو عن قومه، وليس له فيه منفعة ذاتية. ولم يكن هؤلاء الأعراب المنافقون يرجون بهذه النفقة جزاء في الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث. ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾، أي: ينتظر دوائر الزمان وهي تصاريفه ونوائبه التي تدور بالناس وتحيط بهم بشرورها أن تنزل بكم فتبدل قوتكم ضعفاً، وعزكم ذلاً، وانتصاركم هزيمة وكسراً، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم، بالتبع للخروج من طاعتكم، والاستغناء على إظهار الإسلام نفاقاً

لكم ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين، أو: خبر بحقيقة حالهم معهم، ومآل الاحتمالين واحد، لأن الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كمضون الدعاء واقع، ما له من دافع، والدعاء منه عز وجل يراد به مآله وهو: وقوع السوء عليهم وإحاطته بهم. و«السَّوء» بالفتح في قراءة الجمهور وهو مصدر ساءه الأمر ضد سره، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو[1] بالضم وهو اسم لما يسوء. والإضافة: «كرجل صدق» و«قَدَم صدق»، أي: عليهم وحدهم الدائرة السوءى تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، فإن هؤلاء لا عاقب لهم إلا قوله تعالى «قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين» ﴿والله سميع عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم واعتقادهم في نفقاتهم إذا تحدثوا بها فيما بينهم، وأقوالهم التي يقولونها للرسول أو لعُمَّاله على الصدقات، أو: لغيرهم من المؤمنين مراءاة لهم، ولا من أعمالهم التي يعملونها، ومن نياتهم وسرائرهم التي يخفونها، فهو سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم ـ أي: على كل قول وفعل ـ ويجزيهم به.

٩٩ ـ ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ إيماناً صادقاً إذعانياً تصدر عنه آثاره من العمل الصالح. ﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾، أي: يتخذ ما ينفقه وسيلة لأمرين عظيمين أولهما: القربات والزلفى عند الله عز وجل، وثانيهما: صلوات الرسول، أي: أدعيته، لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولم يثبت في النص انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سبباً فيه كالولد الصالح، والسنة الحسنة يتبع فيها. فهذا القصد في اتخاذ الصدقات ضد اتخاذ المنافقين إياها مغرماً. و«القُرُبات» كالقُرَب جمع «قُرْبة» كالغُرُفات والغُرَف جمع «غُرْفة» وهي في المنزلة والمكانة كالقُرب في المكان، والقرابة والقربى في الرحم، فقصد القربة في العمل

---

(١) قوله: «ابن كثير وأبو عمرو» الأول: هو القارىء «عبد الله بن كثير» المتوفى سنة عشرين ومائة، وهو غير الحافظ إسماعيل بن كثير صاحب التفسير المتوفى عام «٧٧٤»، والثاني: هو القاري «ريان بن العلاء» المتوفى سنة أربع وخمسين ومائة، وهما من القراء السبعة الذين تنسب إليهم القراءة السبع المشهورة.

هو الإخلاص وابتغاء مرضاة الله ورحمته ومثوبته فيه، و«الصلوات» جمع «صلاة» ومعناها: الدعاء، وأطلقت على الفريضة العملية من أركان الإسلام لأن روحها الدعاء ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ أي: ألا فليعلموا علم اليقين أن نفقتهم قربة مقبولة. وبين قبولها بقوله ﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾: أي: الرحمة الخاصة بمن رضي الله عنهم وهي هداية الصراط المستقيم، وما تنتهي إليه من دار النعيم، ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا مغمورين فيها وتكون هي محيطة بهم شاملة لهم، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: واسع المغفرة والرحمة يغفر للمخلصين في أعمالهم ما يلمون به من ذنب أو تقصير، ويرحم الصادقين في إيمانهم فيهديهم به إلى أحسن العمل وخير المصير، وفي الآية من بلاغة الإيجاز، ما يدل على علو مقام هؤلاء الأعراب.

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

١٠٠ ــ ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين ابتعوهم بإحسان﴾ هذه طبقات ثلاث هي خير هذه الأمة التي هي في جملتها خير أمة أخرجت للناس، شهد الله بأنه رضي عنهم ورضوا عنه.

فالأولى: السابقون الأولون من المهاجرين، قيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين. وقيل: هم أهل بدر، وقيل: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان في

الـحُدَيْبِيَة، ولكن هذا القول وما قبله في السابقين من المهاجرين والأنصار جميعاً: وأما السابقون من المهاجرين وحدهم فهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين، إذ لم يكن للنفاق في ذلك الوقت مقتض ولا سبب.

والطبقة الثانية: السابقون الأولـون من الأنصار وهم الـذين بايعـوا النبي[1] ﷺ عند العقبة في «مِنىَ» في المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة

---

(١) قوله: «وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة الخ»، فيه سهو وسبق قلم من المؤلف، بيانه أنه لم تحصل بيعة من السبعة الذين أسلموا من أهل المدينة في موسم الحج عام أحد عشر للنبوة، كما ظن المؤلف بل الذي حصل هو: أن النبي ﷺ لقي أولئك النفر عند العقبة، وهو يعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، وكانوا سبعة من الخزرج وهم: أسعد بن زُرَارة، وعَوف بن الحارث، ورافِع بن مالك، وعامر بن عبد حارثة، وقُطبة بن عامر من بني سلمة، وعُقْبَةُ بن عامر من بني غَنم وجابر بن عبد الله. فدعاهم إلى الله تعالى فآمنوا ــ ولم يبايعوا النبي ﷺ كما فعل غيرهم ــ ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة، وذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى إذا كان العام المقبل أي: في سنته الثانية عشرة للنبوة، وافى موسم الحج اثنا عشر رجلاً ممن أسلم من أهل المدينة، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة ــ عند منى ــ فبايعوه على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفْتَرَض عليهم الحرب، وهذه هي «بيعة العقبة الأولى» سميت «بيعة النساء» لأنها كانت بيعة على الأمور التي ورد ذكرها في سورة «الممتحنة» الخاصة ببيعة النساء وهي قوله تعالى: «يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم»، ونص تلك البيعة كما رواه ابن هشام في «السيرة» عن ابن اسحاق عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى فباعينا رسول الله ﷺ على بيعة النساء: «على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسْرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وَفَّيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله إن شاء عذَّب وإن شاء غفر»، ثم بعث معهم مُصْعَبَ بن عُمير رضي الله عنه ليعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وانصرفوا راجعين معه إلى المدينة، ثم في العام المقبل، أي: في السنة الثالثة عشرة للنبوة وفي موسم الحج رجع مصعب إلى مكة، وخرج من خرج =

وكانوا سبعة، وفي المرة الثانية سنة اثنتي عشرة وكانوا سبعين رجلا وامرأتين، ويليهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة من قِبَل النبي ﷺ يقرئهم القرآن ويفقهم في الدين وأرسله مع أهل العقبة الثانية، وكذا من آمن عند قدوم النبي ﷺ وقبل أن تكون للمسلمين قوة غالبة تتقى وترتجى، وهذه القوة رسخت عقب هجرته ﷺ وصار بعض أهل المدينة يظهرون الإسلام نفاقاً ولم يكن فيهم أحد من المهاجرين ولا من الأنصار السابقين وإن كانوا كلهم من الأوس والخزرج.

والطبقة الثالثة: الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة اتباعاً بإحسان، أو محسنين في الأفعال والأقوال، فتضمن هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الإحسان لأنهم صاروا فيه أئمة متبوعين، والذين اتبعوهم بالإحسان فهم الذين يلونهم ويشاركهم في الوصف من يصدق عليه من بعدهم. وخرج به من اتبعوهم في ظاهر الإسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون، ومن اتبعوهم محسنين في بعض الأعمال ومسيئين في بعض وهم المذنبون، والآيات الآتية مبينة حال الفريقين.

فهؤلاء الطبقات الثلاث ﴿رضي الله عنهم﴾ في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم، وأعلاه ما كان من هجرتهم وجهادهم، فقبل طاعاتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، إذ بهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ﴿ورضوا عنه﴾ بما وفقهم له مما ذكر، وأسبغه عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من شرك، وهداهم من ضلال، وأغناهم من فقر،

= ممن أسلم من أهل المدينة حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله ﷺ «العقبة» من أوسط أيام التشريق ــ وهي الأيام الثلاثة التي تلي يوم النحر ــ، فالتقوا، فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورَغَّب في الاسلام وقال: «أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فبايعوه على ذلك، فجعل منهم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم، تسعة منهم من الخزرج، وثلاثة من الأوس فكانت هذه بيعة العقبة الثانية، وبعدها بنحو ثلاثة أشهر، أي: في شهر ربيع الأول هاجر النبي ﷺ إلى المدينة.

وأعزهم من ذل ﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم﴾ تقدم مثل هذا الوعد الكريم في الآية «٧٢» وفي آيات أخرى، ومعناه ظاهر، وأيُّ فوز أعظم من نعيم الجنة الخالد من بدني وروحاني؟

١٠١ ــ ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾، أي: أن بعض الأعراب الذين حولكم أيها المؤمنون منافقون. وإن من أهل المدينة نفسها منافقين أيضاً من الأوس الخزرج، غَيْـرَ من أعلم الله رسوله بهم في هذه السورة ﴿مردوا على النفاق﴾، أي: مرنوا عليه وحذقوه حتى بلغوا الغاية من إتقانه وجعله بحيث لا يشعر أحد به لاتقائهم جميع الأمارات والشبهات التي تدل عليه. ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾، أي: لا تعرفهم أيها الرسول بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها بنور الله، لحذقهم في التَّقِيَّة، وتجنب مثارات الشبهة، وحكمة إخباره تعالى إياه بأنه هو الذي يعلمهم، أن يعلموا هم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا أن يفحضهم كما فضح غيرهم، ليتوب المستعد للإيمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجز ما أوعدهم بقوله: ﴿سنعذبهم مرتين﴾، أي: في الحياة الدنيا، إحداهما: ما يصيبهم من المصائب، وانتظار الفضيحة بهتك أستار السرائر، وما يتلو ذلك من جهادهم وعقابهم، إذا ظهر نفاقهم كغيرهم، والثانية: آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، أي: في الآخرة وهو عذاب جهنم، وهم في الدرك الأسفل منها كما تقدم.

١٠٢ ــ ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾، أي: وثَمَّ آخرون، أو: ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة أناس آخرون ليسوا من المنافقين، ولا من الطبقات الثلاث لكملة المؤمنين ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ أي: خلطوا في أعمالهم بأن عملوا عملاً صالحاً وعملاً سيئاً، وقيل: معناه خلطوا صالحاً بسيء وسيئاً بصالح، أو خلطوا في كل منهما ما ليس منه فكان ناقصاً ولكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه، ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ أي: هم محل الرجاء لقبول الله توبتهم، التي يشير إلى وقوعها اعترافهم بذنوبهم ﴿إن الله غفور

رحيم﴾ تعليل لرجاء قبول توبتهم، إذ معناه: أنه كثير المغفرة للتائبين، واسع الرحمة للمحسنين.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

١٠٣ ـ ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ أي: خذ أيها الرسول من أموال من ذكر، ومن سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها ـ ومنها مال التجارة ـ صدقة معينة كالزكاة المفروضة، وغير معينة وهي التطوع، فالصدقة: ما ينفقه المؤمن قُربة لله ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾، أي: تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها أي: تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية ﴿وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ «الصلاة»: اسم من «صلَّى يصلي» ومعناها الأصلي: الدعاء وهو المراد من الآية، والمعنى: ادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم عاطفاً عليهم، إن دعاءك واستغفارك سكن لهم، يذهب به اضطراب أنفسهم إذا أذنبوا، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها، ووضعك إياها في موضعها ﴿والله سميع عليم﴾، أي: «سميع» لدعائك سماع قبول وإجابة، «عليم» بما فيه من الخير والمصلحا، فالمراد من الساع والعلم لازمها. وسميع لاعترافهم بذنوبهم، عليم بندمهم وتوبتهم منها، وبإخلاصهم في صدقتهم وطيب أنفسهم بها، فهو الذي يثيبهم عليها.

١٠٤ ـ ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾، أي: ألم يعلم

أولئكَ التائبون من ذنبهم أن الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده، ولم يجعل ذلك لرسوله، بَلْهَ مَنْ دونه من خلقه، أو ألم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الإيمان وموجبه؟.

وقبول التوبة عنهم، قيل: إنه بمعنى قبولها منهم، نحو: لا صدقة إلا عن غنى ومن غنى، وقيل: إن القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح، أي: هو الذي يقبلها منهم متجاوزاً عن ذنوبهم ﴿ويأخذ الصدقات﴾، أي: يتقبلها بأنواعها ويثيب عليها، ويعدها إقراضاً له فيضاعف ثوابها، ﴿وأن الله هو التواب الرحيم﴾، أي: وأنه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه، ويتوب عنه منيباً إلى ربه، مهما يتكرر ذلك الرحيم بالتائبين الذي يثيبهم.

١٠٥ ـ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ هذا عطف على قوله تعالى «خذ من أموالهم صدقة» الخ، أي: وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم، ولأنفسكم وأمتكم، فإنما العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير، ولا بدعوى الجد والتشمير، وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل، وهو ما لا يخفى على الله ولا على الناس أيضاً، فسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً، فيجب عليكم أن تراقبوه تعالى في أعمالكم، وتتذكروا أنه ناظر إليكم، عليم بمقاصدكم ونياتكم، لا تخفى عليه منكم خافية، وجدير بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يتقنه، وأن يخلص له النية فيه، فيقف فيه عند حدود شرعه، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه، ولا يكتفي فيه بترك معاصيه واجتناب مناهيه. وسيراه رسوله والمؤمنون؛ ويزنونه بميزان الإيمان، المميز بين الإخلاص والنفاق، وهم شهداء الله على الناس، ﴿وستردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ في الدنيا مما كان مشهوداً للناس منه، وما كان غائباً عن علمهم منه ومن نياتكم فيه، ينبئكم به عند الحساب، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب، أو سوء العذاب.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

١٠٦ - ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾، أي: وهناك أناس آخرون من المتخلفين مؤخرون لحكم الله في أمرهم، أو لأمره لرسوله بما يعاملهم به ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾، أي: أبهم الأمر عليهم وعلى الناس، لا يدرون ما ينزل فيهم، هل تصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم، أم يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين؟ فالترديد بين الأمرين هو بالنسبة إلى الناس لا إلى الله عز وجل، ﴿والله عليم حكيم﴾ عليم بحال عباده وما يربيهم ويزكيهم، ويصلح حال أفرادهم ومجموعهم، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح ما عملوا بها.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

١٠٧ - ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾، أي: وهناك الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وهم شر من كل المتخلفين، أو: وأَخُصُّ بالذكر أو بالذم الذين اتخذوا هذا المسجد. وكانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج، وقد بيّن الله تعالى أن الأغراض التي بنوه لأجلها أربعة وهي:

(١) أنهم اتخذوه لمضارة المؤمنين أي: محاولة إيقاع الضرر بهم، وهم أهل مسجد «قُباء» الذي بناه لهم رسول الله ﷺ مَقْدِمَه من مكة مهاجراً وقَبْلَ وصوله إلى المدينة، إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه.

(٢) الكفر أو تقوية الكفر، وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ والمؤمنين وغير ذلك.

(٣) التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد «قُباء» وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة.

(٤) الإرصاد لمن حارب الله ورسوله من قَبْلِ اتخاذ هذا المسجد، أي: الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً، فيجد مكاناً مرصداً له أي: مهيئاً، وقوماً رصادين مستعدين للحرب معه، وهم: هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً، أي: معداً لذلك وإخوانهم. يقال: «رَصَدْتُه»، أي: قعدت له على طريقه أترقبه، و«أَرْصَدْتُ هذا الجيش للقتال»، أَعْدَدْتُهُ له.

واتفق المفسرون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل نصراني من الخزرج يعرف بأبي عامر الراهب، وَعَدَهم بأن سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه ﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ إخبار مؤكد بالقسم أنهم سيحلفون أنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدِّقهم الرسول ﷺ ويصلي فيه ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في قولهم، حانثون بيمينهم.

١٠٨ ـ ﴿لا تقم فيه أبداً﴾ هذا نهي للرسول ﷺ وللمؤمنين بالتبع له عن الصلاة فيه مؤكد بلفظ الأبد الذي يستغرق الزمن المستقبل، والنهي عن القيام المطلق يتضمن النهي عن القيام للصلاة، ولكنها هي المقصودة بالنهي

لطلبهم لها منه ﷺ ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾ الـلام الداخلة على المسجد للقسم أو للابتداء. و«التأسيس»: وضع الأساس الأول للبناء الذي يقوم عليه ويرفع، والمراد منه هنا القصد والغرض من البناء، و«التقوى»: الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه، أي: تالله إن مسجداً قُصِدَ ببنائه منذ وُضع أساسُهُ في أول يوم تقوى الله تعالى بإخـلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى، لهو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين من غيره، ولا سيما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الأربعة الخبيثة، والسياق يدل على أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو «مسجد قُباء»! وقد صح في أحاديث رواها الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم: أن النبي ﷺ سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذي في المدينة، ولفظ الآية لا يمنع من إرادة كل من المسجدين، لأن كلًا منهما قد بناه النبي ﷺ ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه أو من أول يوم وجد في موضعه.

﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾، أي: فيه رجال يعمرونه بالاعتكاف وإقامة الصلاة وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدوّ والآصال، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يعلق بأنفسهم من درن الآثام، ومن لوازم عمارته المعنوية والعكوف فيه طهارة الثوب والبدن الحسية، وطهارة الوضوء والغسل الحكمية، فالتطهر صيغة مبالغ تشمل الطهارتين النفسية والبدنية ﴿والله يحب المطهرين﴾، أي: المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية، لتكمل إنسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد. وحب الله للمستحقين لحبه، صفة من صفات كماله، لأن العالم بتفاوت الأشياء في الحسن والقبح، والكمال والنقص، يكون من أفضل صفاته حب الجمال والكمال والحق والخير، وبغض أضدادها وكراهتها. وحب الله اللائق بربوبيته منزه عن مشابهة حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ولكن يظهر أثره في المحبوبين من عباده في أخلاقهم وأعمالهم، ومعارفهم وآدابهم.

١٠٩ ـ ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من

أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم؟﴾ هذا بيان مستأنف للفرق بين أهل المسجدين في مقاصدهما منها بضرب المثل: أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى رجسهم، وأهل مسجد التقوى وهم الرسول ﷺ وأنصاره الذي يحبون أكمل الطهارة لظاهرهم وباطنهم، فاستفادوا بذلك محبة الله لهم، وورد بصيغة استفهام التقرير، لما فيه من تنبيه الشعور وقوة التأثير، و«البنيان» مصدرويراد به المبني من دار أو مسجد وهو المتعين هنا. و«التأسيس»: وضع الأساس، و«الشَّفَا» ـ بالفتح والقصر ـ: الحرف والشفير للجُرُف والنهر وغيره. والجرف ـ بضمتين ـ جانب الوادي ونحوه الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير مائلا للسقوط، و«الهار»: الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط، وهذا التعبير يُضْـرَب مثلاً لـما كان في منتهى الضعف والإشراف على الزوال، وهو من أبلغ الأمثال، لمنتهى الوهي والانحلال.

والمراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الإسلام وقوته ودوامه، وسعادة أهله به، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله، ووهيه وقرب زواله، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله. والمعنى المقصود من التشبيه: أفمن كان مؤمناً صادقاً يتقي الله في جميع أحواله، ويبتغي رضوانه في أعماله بتزكية نفسه بها ونفع خلقه هو خير عملاً، وأفضل عاقبة وأملاً، أم من هو منافق مرتاب، مراء كذاب، يبتغي بأفضل مظاهر أعماله الضرر والضرار، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار، وتفريق جماعة المؤمنين الأخيار، والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الأشرار، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار، والخزي والبوار، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار؟ صدق الله العظيم، فقد ثبت الله المؤمنين بالقول الثابت، وهداهم بإيمانهم إلى العمل الصالح، ففتحوا البلاد، وأقاموا الحق والعدل في العباد، وأهلك الله المنافقين، فلم يكن لهم من أثر صالح في العالمين، هكذا كان وهكذا يكون، ولكن المنافقين لا يفقهون ولا يعتبرون، لأنهم فاسقون ظالمون ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، أي: مضت سنته في ارتباط العقائد والأخلاق بالأعمال، بأن الظالم لا يكون مهتدياً في أعماله إلى الحق والعدل، فضلاً عن الرحمة والفضل.

ولا أظلم في الناس من المنافقين «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين»؟

١١٠ ــ ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ «الريبة»: اسم من الريب وهو ما تضطرب فيه النفس، ويتردد الوهم ويسوء الظن، فيكون صاحبه منه في شك وحيرة إن لم يكن مثاره الشك. وكذلك يكون المنافقون «فهم في ريبهم يترددون» والظاهر أن ارتيابهم فيه كان منذ بنوه إلى أن أمر رسول الله ﷺ بهدمه بعد عودته من «تبوك» وقبل دخوله المدينة فَهُدِمَ، وذلك أنهم لسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون أن يطلع الله رسوله على مقاصدهم السوءى فيه، وأجدر بهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتياباً، وأكثر اضطراباً، بما يحذرون من عقابهم في الدنيا كما أنذرتهم هذه السورة مراراً، وأن يستمر ذلك ملازماً لهم ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾، أي: تتقطع فهو بفتح التاء وتشديد الطاء من «التقطع» أي: إلا أن تقطع الريبة قلوبهم أفلاذاً، فتتقطع بها وتكون جذاذاً، ﴿والله عليم حكيم﴾ فحكم في أمرهم وبين من حالهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شيء.

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

١١١ ــ ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ هذا تمثيل لإثابة الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة

دار النعيم الأبدي، والرضوان السرمدي، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هو له لآخر، وهو عز وجل المالك لأنفسهم إذ هو الذي خلقها، والمالك لأموالهم إذ هو الذي رزقها، وهو غني عن أنفسهم وأموالهم، وإنما المبيع والثمن له وقد جعلهما بكرمه لهم، وقوله ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ بيان لصفة تسليم المبيع وهو: أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل، الموصلة إلى مرضاته تعالى، فيبذلون أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادّين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل ــ وفي قراءة بتقديم «يقتلون» المبني للفاعل، وفي قراءة أخرى بتقديم المبني للمفعول، فدلت القراءتان على أن الواقع هو أن يقتل بعضهم ويسلم بعض، وأنه لا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل، والمثوبة عند الله عز وجل، إذ كل منهما في سبيله لا حباً في سفك الدماء، ولا رغبة في اغتنام الأموال، ولا توسلاً إلى ظلم العباد، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الأجناد.

﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾، أي: وعدهم بذلك وعداً أوجبه لهم على نفسه، وجعله حقاً عليه أثبته في الكتب الثلاثة المنزلة على أشهر رسله، ولا تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب بنصه لما أثبتناه[1] من ضياع كثير منهما، وتحريف ما بقي لفظاً ومعنى، بل يكفي إثبات القرآن لذلك وهو مهيمن عليها.

﴿ومن أوفى بعهده من الله؟﴾، أي: لا أحد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله عز وجل، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء، ولا يمكن أن يعرض له فيه التردد أو البَدَاء[2] ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به﴾ «الاستبشار»: الشعور بفرح البُشرى أو استشعارها، الذي تنبسط به بشرة

---

(١) قوله: «لما أثبتناه» للمؤلف بحث طويل في إثبات تحريف التوراة والانجيل يراجع ص ٣٤٢، ج ١٠ من تفسير المنار.

(٢) «البَدَاء»، بالفتح: تقدم معناه ص ٢٢٧ من الجزء الثاني وهو جائز في حق المخلوق ومستحيل على الله تعالى.

الوجه فيتألق نورها، والجملة تقرير لتمام صفقة البيع من الجانبين ﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ الذي لا يتعاظمه فوز، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك، الذي لا يعد فوزاً إلا بجعله وسيلة لإقامة الحق والعدل. أعلى الله تعالى قام المؤمنين المجاهدين في سبيله فجعلهم بفضله مالكين معه، ومبايعن له، ومستحقين للثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء به وإنجازه.

١١٢ ـ ﴿التائبون﴾، أي: هم التائبون الكاملون في توبتهم وهي الرجوع إلى الله تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته، وتختلف باختلاف أحوال أهلها، ﴿العابدون﴾ لله ربهم وحده مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم، لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استغاثة، ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربة ومثوبة الآخرة ﴿الحامدون﴾ لله ربهم في السراء والضراء بالثناء عليه بلفظ الحمد وغيره من الذكر المشروع الدال على الرضاء من تعالى. ومهما يصب الإنسان من مصائب الدنيا فإنه يبقى له من النعيم فيها وفي الدين بل يبقى له من اللطف الإلهي في نفس المصائب ما يجب عليه أن يحمد الله ويشكره عليه ﴿السائحون﴾ في الأرض يجوبون الأقطار لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله، وروي عن عطاء: أو للهجرة حيث تُشرع الهجرة، وروي عن عبد الرحمن بن زيد قال: «السائحون» هم المهاجرون ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة. أو: لطلب العلم النافع للسائح في دينه أو دنياه والنافع لقومه وأمته ورُوي عن عكرمة، وخصه بعضهم بطلب الحديث لأنهم كانوا يسافرون من مِصْرٍ إلى أخرى لروايته، أو للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والأمم للاعتبارِ والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته، وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الأرض.

وروي عن عبد الله بن مسعود أن المراد بالسائحين: الصائمون، وقاله في تفسير «سائحات» من سورة «التحريم»[1]، وتعلق به مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الأرض، وإنما يحظر في الإسلام

---

(١) قوله من سورة «التحريم»، أي: في الآية الخامسة منها.

سفر المرأة منفردة دون زوجها أو أحد محارمها، وأما إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع أو عمل صالح أو طلب الصحة أو الرزق فلا إشكال في مدحها بالسياحة. بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال الحياة النافعة، ﴿الراكعون الساجدون﴾ لله تعالى في صلواتهم، والصلاة تذكر تارة بلفظها وتارة ببعض أركانها كالقيام والركوع والسجود. وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الهيئة وتمثيلها للقارىء والسامع ﴿الآمرون بالمعروف﴾ من الحق والخير ﴿والناهون عن المنكر﴾ من الباطل والشر، وتقدم تفصيل معناهما ومكانتهما من صفات المؤمنين في تفسير الآية «٧١» من هذه السورة، وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض وكل ما قبلهما من صفات الأفراد ﴿والحافظون لحدود الله﴾، أي: شرائعه وأحكامه التي حدد فيها ما يجب وما يحظر على المؤمنين من العمل والترك، وما يجب على أئمة المسلمين وأولي الأمر وأهل الحل والعقد من إقامتها وتنفيذها بالحكم بين الناس إذا أخلوا بما يجب عليهم من الحفظ لها ﴿وبشر المؤمنين﴾، أي: وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات، ولم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

١١٣ - ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾، أي:

ما كان من شأن النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبي، ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون، أن يَدْعُوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين ﴿ولو كانوا أولي قربى﴾ لهم في الأصل حق البر وصلة الرحم، وكانت عاطفة القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم و«لو» هذه تفيد الغاية المعطوف عليه يحذف حذفاً مطرداً للعلم به ﴿من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾، أي: من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها بأن ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر كاستصحاب حالة الكفر إلى الموت، أو نزل وحي يسجل عليهم ذلك.

والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة، وفي معناه وصفه بذلك كقولهم: المغفور له المرحوم فلان، كما يفعله بعض المسلمين[1] الجغرافيين الآن ومنهم بعض الحاملين لشهادة العالمية الرسمية[2].

١١٤ ــ ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ مما يدخل في عموم تأسيكم به على إطلاقه، فإنه ما كان وما وقع لسبب ولا علة ﴿إلا عن موعدة وعدها إياه﴾ في حياته إذ كان يرجو إيمانه فقال له «لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء»، أي: لا أملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك دعاء الله تعالى. وقد وفى بوعده وما كان إلا وفياً كما شهد له تعالى بقوله «وإبراهيم الذي وفّى» فكان من دعائه «واغفر لأبي إنه كان من الضالين»، فمن استغفر لمشرك حي يرجو إيمانه ــ أي: طلب له الهداية أو سأل له المغفرة بقصدها ــ فلا بأس ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ قال ابن عباس: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو الله فتبرأ منه. وقيل: إنه تبين له ذلك بوحي من

---

(١) قوله: «بعض المسلمين الجغرافيين»، يعني: الذين تسموا بالإسلام لانتسابهم إلى بلاد المسلمين، وليسوا في الواقع إلا مارقين من الإسلام، وهم كثيروالعياذ بالله من شرهم.

(٢) قوله: «ومنهم بعض الحاملين لشهادة العالمية الرسمية» يشير بذلك إلى بعض حاملي الشهادات الجامعية العليا أزهرية أوغيرها، وهؤلاء كان أجدر بهم أن يعلموا تحريم الدعاء لمن مات على كفره.

الله تعالى، فحينئذ تبرأ منه ومن قرابته، وترك الاستغفار له، ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ هذه الجملة المؤكدة بوصف إبراهيم ﷺ المبالغة في خشية الله والخشوع له، وبالحلم والثبات في أموره كلها، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل. و«الأواه»: الكثير التأوه والتحسر، وإنما يتأوه إبراهيم من خشية الله ويتحسر على المشركين من قومه ولا سيما أبيه، وفي حديث مرفوع في التفسير المأثور[1] «الأواه: الخاشع المتضرع»، و«الحليم»: الذي لا يستفزُّه الغضب ولا يعبث به الطيش، ولا يستخفه الجهل أو هوى النفس، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب، وذهب «الزمخشري» إلى: أن الجملة تعليل لما كان من استغفاره لأبيه، وقال بعد تفسير الأواه بالذي يُكْثِر التأوه: ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله «لأرجمنك».

١١٥ ـ ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم﴾، أي: وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته، ولا من سننه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته، أن يصف قوماً بالضلال، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب، بعد إذ هداهم إلى الإيمان، وشرح صدورهم بالإسلام، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿حتى يبين لهم ما يتقون﴾ ويجتنبون من الأقوال والأفعال، بياناً جلياً واضحاً لا شبهة فيه ولا إشكال ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فهو يشرع لهم من الأحكام ما تكمل به فطرتهم، ويستقيم به رأيهم وفهمهم،

---

(١) قوله: «وفي حديث مرفوع في التفسير المأثور» يعني بذلك كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للحافظ عبد الرحمن ابن الكمال السيوطي المتوفى عام أحد عشر وتسعمائة، والحديث الذي ذكره: أخرجه ابن جرير الطبري، وأبو الشيخ ابن حبان البُستي، وابن مردويه أبو بكر أحمد بن موسى الأصفهاني عن «عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي» يرفعه إلى النبي ﷺ. وعبد الله بن شداد هذا وُلد في عهد النبي ﷺ وهو من كبار التابعين الثقات، مات مقتولاً بالكوفة سنة إحدى وثمانين وقيل: بعدها، وحديثه هذا «مُرْسَل» لسقوط الصحابي من سنده، فلا يُحْتجُّ به مرفوعاً لإرساله.

فيبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء نفوسهم، ويترك له مجالاً للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم.

١١٦ ـ ﴿إن الله له ملك السماوات والأرض﴾ لا شريك له في خلقهما ولا في تدبير شؤونهما ولا في التشريع الديني للمكلفين فيهما ﴿يحيي ويميت﴾، أي: يهب الحياة الحيوانية والحياة المعنوية الروحية بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين والهداية الفعلية. يميت ما شاء من الأبدان بانقضاء آجالها المقدرة في علمه، ومن الأنفس بنكوبها عن صراط هدايته ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾، أي: وليس لكم أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم.

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

١١٧ ـ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم على حرف التحقيق بيّن به تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار وتجازه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها.

وتوبته تعالى على عباده لها معنيان: عطفه عليهم، وتوفيقهم للتوبة وقبولها

منهم، وإنما يتوبون من ذنب، وما كل ذنب معصية لله عز وجل، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة «عفا الله عنك لِـمَ أذنت لهم؟» الآية، وأما المهاجرون والأنصار، رضي الله عنهم، وهم خُلَّصُ المؤمنين ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ فمنهم من كان ذنبه التثاقل في الخروج حتى ورد الأمر الحتم فيه والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض، ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين بالقوة والاستعداد وبالفعل، قال جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، في ساعة العسرة: عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾، أي: اتبعوه من بعد ما قرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الإسلام، بعصيان الرسول حين أمر بالنفير العام، إذ تثاقل بعضهم عن النفر ووبخهم الله تعالى في الآيات «٣٨ و٣٩ و٤٠» من هذه السورة، أو المعنى: أنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان، والمراد بهم الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم كما تقدم، وقال هنا فيهم ﴿ثم تاب عليهم﴾ وهو الظاهر من العطف بـ«ثُـمَّ»، وأما على التوجيه الآخر فهو تأكيد لما في أول الآية من التوبة على الجميع ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وهذا تعليل لقبول توبتهم فالرأفة: العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه. والرحمة أعم وأوسع وتقدم تحقيق معناها في تفسير « الفاتحة ».

١١٨ ـ ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾، أي: وتاب أيضاً على الثلاثة الذي خُلِّفوا عن الخروج إلى تبوك معه ﷺ وهم المُرْجَوْن لأمر الله في الآية «١٠٦»أي: خُلِّفوا بمعنى[1] أرجئوا حتى ينزل فيهم أمر الله، وهم: كعب

---

(١) قوله: «أو خلِّفوا بمعنى: أرجئوا حتى ينزل الله فيهم أمر الله»، هذا هو القول الصحيح في تفسيرها، وهو ما ورد في صحيح الحديث، وفي قضية هؤلاء الثلاثة عبرة عظيمة وكان الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، لا يبكيه شيء من القرآن كما تُبكيه هذه الآيات وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها لذلك سنذكر قصتهم بتمامها كما جاءت في كتاب «رياض الصالحين» للنووي رحمه الله.

فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب =

. . . .

= من بنيه حين عَمِيَ ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدِّث حديثه حين تخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أَذْكَر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ.

قال كعب رضي الله عنه: فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أَصْعَر ـ أي: أَمْيَلُ ـ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر لى ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوتُ فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن ارتحل فأدركهم، وليت أني فعلت، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة، إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله ـ أي: كالمرضى والعجزة ـ ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرْداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني: أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بَثِّي ـ أي: حزني ـ فطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان =

. . . .

= إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، فقَبِلَ رسول الله ﷺ منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمتُ عليه تَبَسَّم تَبَسُّمَ المُغْضَب ثم قال لي: «تعال» فجئتُ أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خَلَّفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟» فقلت: يا رسول الله، والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عُقبى من الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك»، فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما عَلِمْنَاك كنتَ أذنبت ذنباً قَبْلَ هذا، لقد عَجِزْت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكَذِّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة؛ فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشدَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة أقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباًمنه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فاذا التفتُ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسوَّرْتُ حائط أبي قتادة ــ وهو ابن عمي وأَحَبُّ الناس إليّ ــ فسلمت عليه،فوالله ما رد علي السلام. فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته. قال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولَّيت حتى تَسَوَّرت الجدار.

وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نِبْطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة =

ابن مالك من بني سَلَمة، وهلال بن أمية من بني واقف، ومُرَارة بن الربيع من

= يقول: من يَدُلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه:

أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فَسَجَرْتُها ـ أي: أحرقتها ـ.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربنها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا ولكن لا يقربنك» فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال فكَمُلَ لنا خمسون ليلة من حين نَهَى عن كلامنا، قال: ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعتُ صارخاً أوفى ـ أي: أشرف وارتفع ـ على جبل سَلْعٍ يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرساً وسعى ساع من أسلم قِبَلي وأوفى على الجبل فكان الصوتُ أسرع من الفرس، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته ـ والله ما أملك غيرهما يومئذ ـ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون: لهينك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إلـيّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحي وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة.

قال كعب رضي الله عنه: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت: أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه =

بني عمرو بن عَوف ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾، أي: خُلِّفوا وأُبْهِمَ الله أمرهم إلى أن شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم برحبها، أي: بما وسعت من الخلق خوفاً من العاقبة وتألماً وامتعاضاً من إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم، وهجرهم إياهم في المجالسة والمحادثة والتحية ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾، أي: وضاقت نفسهم على أنفسهم، وإنما كان ذلك بما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلاء قلوبهم من الهم والغم حتى لا متسع فيها لشيء من البسط والسرور، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكاناً ترتاح إليه وتطمئن به ﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ واعتقدوا أنه لا ملجأ لهم من سخط الله يلجأون إليه إلا إليه تعالى، بأن يتوبوا إليه ويستغفروه ويرجوا رحمته، فإن الرسول البر الرؤوف الرحيم بأصحابه ما عاد ينظر إليهم ولا يكلمهم حتى يطلبوا دعاءه واستغفاره، وهو ﷺ لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن

= قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلماجلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، فقلت: إني أُمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله إنما أنجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أُحَدِّث إلا صدقاً ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما بلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ــ إلى قوله ــ وكونوا مع الصادقين».

قال كعب: فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شَرَّ ما قال لأحد فقال: «سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ــ إلى قوله ــ الفاسقين».

قال كعب: وكنا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أَمْرَنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله: «وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا»، وليس الذي ذُكر مما خُلِّفْنا تَخَلُّفَنَا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه، اهـ.

وقد جمع أخبار غزوة تبوك الأستاذ نذير حسن عتمة في رسالة مفيدة باسم «المخلفون» وهي من طبع المكتب الإسلامي.

ارتضى الله أن يشفع لهم ﴿ثم تاب عليهم﴾، أي: بعد ذلك كله عطف تعالى عليهم وأنزل قبول توبتهم أو وفقهم للتوبة المقبولة عنده ﴿ليتوبوا﴾ ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته واتباع رسوله ﷺ ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾، إنه تعالى هو كثير القبول لتوبة التائبين، الواسع الرحمة للمحسنين.

١١٩ ــ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ باتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة، وترك ما نهى عنه وبين تحريمه مطلقاً ﴿وكونوا مع الصادقين﴾، أي: مع جماعة الصادقين، أو منهم دون المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف. والصادقون: هم المعتصمون بالصدق والإخلاص في جهادهم إذا جاهدوا، وفي عهودهم إذا عاهدوا، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا، وفي توبتهم إذا أذنبوا أو قصروا. والمنافقون ضدهم في ذلك.

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

١٢٠ ــ ﴿ما كان لأهل المدينة﴾، أي: ما كان بالذي يصح لأهل المدينة عاصمة الإسلام ومقر الرسول ﷺ ولا بالذي يستقيم أو يحل لهم ﴿ومن حولهم من الأعراب﴾ كمُزَينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ إذا خرج غازياً في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ولا في غير هذا من أمور الملة ومالح الأمة ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾، أي: ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها ويرغبوا بإيثار راحتها وسلامتها عن بذلها

فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه، وهذا يصح بعده ﷺ في كل راغب عن سنته والتأسي به، كالملاحدة الذين يقولون: لا يجب اتباعه بعد موته، والمبتدعة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنته ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله﴾، أي: ذلك الذي دل عليه النفي من النهي عن التخلف عنه، ووجوب الاتباع له، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذى وإن قل، ومن إيذاء للعدو وإن صغر، فهو عمل صالح لهم به أكبر الأجر، فلا يصيبهم ظمأ لقلة الماء، أو: نَصَب لبعد الشقاء أو قلة الظهر، أو: مجاعة لقلة الزاد، في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار﴾ وَطْؤهم إياه لأنه من دارهم، ويعدون وطأه اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم، فيغيظهم أن تمسه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي: ولا يبلغون من أي عدو من أعداء الله ورسوله وأعدائهم شيئاً مما أرادوا من جرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾، أي: كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضي لله تعالى مجزي عليه بالثواب العظيم، فما أكثر هذه الأعمال الصالحات التي تعم الأمور العارضة كالجوع والعطش، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم؟ ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ هذا تعليل لهذا الأجر العظيم يدل على عموم الحكم، وإن كان من المعلوم بالضرورة أن هذاالجهاد مع رسول الله ﷺ أعظم أجراً، وأنفس ذخراً، قال قتادة: إن حكم الآية خاص به ﷺ وبمن جاهد معه، وقال الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة. وهذا القول أصح، على ما لا يخفى من التفاوت في الأجر، فالجهاد في سبيل الله إحسان، و«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» في كل زمان ومكان؟

١٢١ ــ ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم﴾، أي: كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أم كبر، قل أم كثر، وفي كل واد يقطعونه في سيرهم غادين أو رائحين ــ وهو مسيل الماء في منفرجات الجبال وأغوار الآكام ــ خصَّه بالذكر لما فيه من المشقة، لا يُتْرَكُ شيء منه

أو يُنسى بل يكتب لهم ﴿ليجزيهم الله﴾ بكتابته في صحف أعمالهم ﴿أحسن ما كانوا يعملون﴾ وهو الجهاد، فإنه عند وجوبه بالاستنفار له يكون أحسن الأعمال، إذ يتوقف عليه حفظ الإيمان، وملك الإسلام وجميع ما يتبعهما من فضائل الأعمال، يقال: «جزاه العَمَلَ وجزاه به».

وإنما المراد النص على أن هذا العمل أحسن أعمالهم أو من أحسنها، لأنه جمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس وما قبله من الثاني فقط، والجزاء على الأحسن يكون أحسن منه، وقال بعضهم: إن معنى الجملة أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر أحسن جزاء على أعمالهم الحسنة، أي: في غير الجهاد بالمال والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه.

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

١٢٢ ــ ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾، أي: وما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم، أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فإن السرايا من فروض الكفاية لا من فروض الأعيان، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للخروج ﴿فلولا نفر من كل فرقة﴾ «لولا»: حرف تحضيض وحث على ما تدخل عليه، أي: فهلاً نفر للقتال من كل فرقة كبيرة ﴿منهم﴾ كالقبيلة وأهل المدينة ﴿طائفة﴾، أي: جماعة بقدر الحاجة ﴿ليتفقهوا في الدين﴾، أي: ليتأتى لهم أي: المؤمنين في جملتهم التفقه في الدين بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة فيه بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات، وما يجري عليه ﷺ من بيانها بالقول والعمل، فَيُعْرَفَ الحكم مع حكمته، ويُفَصَّلَ العلمُ المجملُ بالعمل به، ﴿ولينذروا قومهم﴾ الذين نفروا للقاء العدو ﴿إذا رجعوا إليهم﴾، أي: يجعلوا جل همهم من الفقاهة بأنفسهم إرشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا، وإنذارهم عاقبة الجهل، وترك العمل بالعلم ﴿لعلهم

يحذرون﴾ أي: رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه. ويكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته، وإقامة حجته، وتعميم هدايته، فهذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه في الدين والغرض منه، لا الرياسة والعلو بالمناصب، والتكبر على الناس وطلب المنافع الشخصية منهم.

والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة، وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم، ويكونون به هداةً لغيرهم، وأن المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية، لا يقلون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والأمة. بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضاً عينياً، والدلائل على هذا كثيرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

١٢٣ ـ ﴿ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾، أي: الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم، وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الإسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله: «لتنذر أم القرى ومن حولها»، وقال لأهل مكة: «وأُوحي إلـيَّ هذا القرآنُ لأنذركم به ومَنْ بلغ»، أي: وكلٍّ من بلغته دعوته[1].

---

(١) قوله: «أي: وكل من بلغته دعوته»، يحتمل وجهين: أحدهما أن قوله تعالى: «ومن بلغ» معطوف على الضمير المستتر في «لأنذركم» وعليه يكون المعنى: «ولأنذركم به ولينذر به من بلغه من بعدي»، فيكون إشارة إلى وجوب التبليغ بعد النبي ﷺ، وهذا كقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية» رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. والوجه الثاني: أن قوله تعالى: «ومن بلغ» معطوف على الضمير «كم» المنصوب، وعليه يكون المعنى: ولأنذر به أيضاً كل من بلغه إلى يوم القيامة، والوجه الأول أوضح وأقوى.

وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والسهولة والنفقة، ولذٰلك كانت القاعدة فيه عامة في الدعوة والقتال والنفقات والصدقات. وإنما تطرد القاعدة في الحالة العادية دون الضرورات. ﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾، أي: وليجدوا فيكم شدة وخشونة في القتال ومتعلقاته كما تقدم في تفسير قوله تعالى «ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم» الآية «٧٣» من هذه السورة، والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة، وتنكيرها في الآية يدل على أن لأولي الأمر أن يحددوها في كل زمن وكل حال بما يتفق مع المصلحة، وإنما أُمروا بها على كونها طبيعية لتقييد ما أمروا به في الأحوال العامة من الرفق والعدل والبر في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الإسلام. وأمر القتال مبني على الشدة والغلظة في كل الأمم وقد حرم فظائعها الإسلام كما تقدم في تفسير سورة الأنفال. وقد بلغت فظائعها عند الإفرنج في هذا العصر ما يُخْشَى أن يفضي إلى تدمير العمران[٢] كله ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ له في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب، من التقصير في أسباب النصر والغلب، التي بينها في كتابه، والتي تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام، وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ

---

(١) قاله المؤلف قوله هذا قبل الحرب العالمية الثانية، التي أودت بحياة الملايين من البشر وأبادت مدناً وقرى ودمرتها عن آخرها، كان ذلك بأسلحة ذرية وغير ذرية لم تبلغ من القوة والتطور معشار ما وصلت إليه تلك الأسلحة في أيامنا، فما هو مصير العالم يا ترى إذا نشبت حرب كونية ثالثة؟

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

١٢٤ ــ ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ كلمة «ما» بعد «إذا» تفيد التأكيد لمضمون شرطها، يعني: وإذا تحقق إنزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن ﴿فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾، أي: فمن المنافقين من يتساءل مع إخوانه للاختبار، أو: مع من يلقاه من المسلمين كافة للتشكيك، قائلاً: أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ أي: يقيناً بحقِّية القرآن والإسلام، وصدق الرسول ﷺ، فإن في كل سورة من القرآن آيات على صدقه ﷺ بما فيها من ضروب الإعجاز العامة الدالة على أنها من عند الله تعالى، وكون محمد ﷺ لا يستطيع أن يأتي بمثلها من تلقاء نفسه، و«الإيمان»: هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل، لا مجرد اعتقاد صدق الخبر، الذي يقابله اعتقاد كَذِبه، فإن أشد الناس كفراً أولئك المصدقون الجاحدون الذين قال الله لرسوله فيهم: «فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون» ومثله قوله: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعُلُوّاً». ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾ أثبت تعالى للمؤمن زيادة الإيمان بزيادة نزول القرآن، وهو يشمل الزيادة في حقيقته وصفته من اليقين والإذعان واطمئنان القلب، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم، وفي أثره من العمل التقرب إلى الله. ﴿وهم يستبشرون﴾، أي: والحال أنهم يسرون بنزولها وتستدعي زيادة الإيمان في قلوبهم البشرى والارتياح بما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم، وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة.

١٢٥ ــ ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾، أي: شك وارتياب، يدعو إلى النفاق بأسرار الكفر وإظهار الإسلام ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾، أي: كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذي هو أقذر الرجس النفسي

وشر أنواعه ﴿وماتوا وهم كافرون﴾، أي: واستحوذ عليهم ورسخ فيهم، فكان مقتضى سنة الله تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس أن من مات منهم مات على كفره.

١٢٦ ـ ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ الاستفهام لتقرير مضمون الحكم عليهم والحجة عليه، وهو داخل على فعل محذوف للعلم به من المقام، والمعنى: أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام من تكرار الفتون والاختبار، الذي يظهر به استعداد الأنفس للإيمان أو الكفر، والتمييز بين الحق والباطل.

وفي قراءة «أولا ترون» على أن الخطاب للمؤمنين الذين قد يروعهم الخبر المؤكَّد وقوعُهُ بموتهم على كفرهم، كأنه يقول: أتعجبون من الحكم عليهم هذه العاقبة السوءى، ولا ترون الدلائل الدالةعليها من فتنتهم وابتلائهم المرة بعد المرة سنة بعد سنة، ما من شأنه أن يذهب بشكهم ويشفي مرض قلوبهم، من آيات الله فيهم وفي غيرهم ﴿ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾، أي: ثم تمر الأعوام على ذلك ولا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما حل بهم مما أنذرهم ربهم.

١٢٧ ـ ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض﴾، أي: وإذا أنزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر، وتغامزوا بالعيون، على حين تخشع أبصار المؤمنين وتنحني رؤوسهم وتجَفُ قلوبهم، وترامقوا بالعيون يتشاورون في الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من الإنكار والسخرية بالوحي، قائلاً بعضهم لبعض بالإشارة أو العبارة ﴿هل يراكم من أحد﴾، أي: من الرسول والمؤمنين إذا نحن انصرفنا كارهين لسماعها ﴿ثم انصرفوا﴾ يتسللون لِوَاذاً إلى مجامعهم الخاصة بهم، والتعبير بـ «ثم» لبيان تراخي فعلهم عن وقت قولهم، إلى سنوح فرصة الغفلة عنهم ولو أفراداً، فكلما لمح أحد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف ﴿صرف الله قلوبهم﴾ هذه الجملة تحتمل الدعاء والخبر ومضمونها النهائي في كلام الله واحد كما تقدم نظيره قريباً. والمعنى:

صرف الله قلوبهم عن صدق الإيمان، والاهتداء بآيات الله في القرآن، المرشدة إلى آياته في الأكوان ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾، أي: بسبب أنهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات لعدم تدبرها، والإعراض عن النظر والتأمل في معانيها، وموافقتها للعقل، وهدايتها إلى الحق والعدل.

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

١٢٨ ـ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ جمهور المفسرين على أن الخطاب هنا للعرب، فهو في معنى قوله: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم»، فالمنة به ﷺ على قومه أعظم، والحجة عليهم به وبكتابه أنهض، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم، وهو مبعوث إلى جميع الناس كما تقدم في قوله «قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»، ولكنه وجّه دعوته إلى الأقرب فالأقرب على القاعدة التي بيناها آنفاً في قتال الأقرب فالأقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة والعجم آمنوا بدعوة العرب.

العرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه ﷺ له بالتبليغ والعلل، وبما شاهدوا من آيات الله تعالى في شخصه، والعجم امنوا بدعوة العرب وما شاهدوا من عدلهم وفضائلهم، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الإسلام فيهم، وقال الزجاج: إن الخطاب للعالم كله لعموم بعثته.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ «العَنَتُ»: المشقة ولقاء المكروه الشديد، وقيَّده «الراغب» الأصفهاني بما يخاف منه الهلاك، وعز على فلان الأمر: ثقل واشتد عليه، وقالوا: هو كناية عن الأنفة عنه، و«ما» مصدرية ـ أي: شديد على طبعه

وشعوره المرهف عنتكم لأنه منكم، وهذا يشمل ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة، فلا يهون عليه أن يكونوا في دنياهم أمة ضعيفة ذليلة يعنتها أعداؤها بسيادتهم عليها وتحكمهم فيها، ولا أن يكونوا في الآخرة من أصحاب النار ﴿حريص عليكم﴾ «الحرص»: شدة الرغبة في الحصول على المفقود، وشدة العناية بحفظ الموجود، وكان ﷺ حريصاً على اهتداء قومه به، بإيمان كافرهم وثبات مؤمنهم في دينه كما قال تعالى له: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾، أي: شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين كافة ولذلك وصفه ربه بقوله: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم».

٢٩ ـ ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله﴾ هذا التفات عن خطاب أمة الرسول أو قومه الذين امْتَنَّ الله تعالى عليهم بمجيئه رسولاً إليهم من أنفسهم وبفضائله العائدة عليهم، إلى خطابه ﷺ وبيان ما يجب عليه في حال إعراضهم عن الاهتداء والانتفاع بما خاطبهم به ربهم في شأنه. يقول: فإن تولوا وانصرفوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به، فقل حسبي الله، أي: هو مُحْسبي الذي يكفيني أمر توليهم وإعراضهم، وما يعقبه من عداوتهم لي وصدهم عن سبيله وقد بلغت وما قصرت ﴿لا إله إلا هو﴾، أي: لا معبود غيره ألجأ إليه بالدعاء والاستعانة كما يلجأون إلى آلهتهم المنتحلة ﴿عليه توكلت﴾ وحده، فلا أكِل أمري فيما أعجز عنه إلى غيره، وكيف لا أخصه بالتوكل ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو مركز تدبير أمور الخلق كلها كما قال في الآية الثالثة من السورة التالية «ثم استوى على العرش يدبر الأمر».

قرأ جمهور القراء: «العظيم» بالخفض على أنه صفة للعرش، وفي قراءة بالرفع على أنه صفة لـ «رب العرش»، وهذه القراءة لابن كثير. وهذه العظمة دليل على أنه تعالى الإله الحق الذي لا يصح أن يُعْبَدَ غيره ولا يُتَوَكَّلَ على سواه، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره أو يَتَوكل على سواه مَنْ يعلم أنه هو الرب المالك للعالم كله والمدبر لأموره؟

(خلاصة سورة التوبة)[1]

تعرف هذه السورة ــ مثل سورة الأنفال ــ بأنها سورة الجهاد، حيث بيّـن الله تعالى فيها كثيراً من أحكامه، كما أشارت هذه السورة إلى صفات وأحكام مهمة في الشريعة الاسلامية نلخصها بما يلي:

١ ــ إن دين الإسلام هو نور الله تعالى العام، وهداه الكامل التام، الذي نسخ به ما تقدمه من الشرائع، ووعد الله عز وجل بإتمامه، وخذلان مريدي إطفائه.

٢ ــ بناء الإسلام على العلم الصحيح دون التقليد الذي ذمه القرآن في آيات كثيرة وشنع به على المشركين.

٣ ــ جهاد المشركين في سبيل الله وعدم السماح لهم بالإقامة في بلاد العرب أو يدخلوا في الإسلام، وهو في آيات، منها الآية التي سموها «آية السيف» وهي الخامسة: «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم».

٤ ــ جعل الغاية من قتال أهل الكتاب أداء الجزية لنا بشرطها إلا أن يدخلوا في الإسلام.

٥ ــ المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الإيمان المطلقة وصفاته الشخصية والعامة المشتركة في قوله «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله»، ويدخل في إطلاق الولاية ولاية النصر والدفاع عن الأمة والبلاد، إلا أنه لا يجب على النساء القتال إلا في حال النفير العام.

---

(١) هذه الخلاصة لسورة التوبة وكذلك خلاصتا سورتي «يونس وهود» هي من اختصارنا، لأن المؤلف لم يفعل ذلك في هذا القسم الذي اختصره، وقد وضعنا هذه الخلاصات هنا لأننا فعلنا ذلك في السور الأخرى التي اختصرناها من «تفسير المنار» التي جعل المؤلف لها خلاصة ليكون المختصر كله على نسق واحد تبعاً لخطة المؤلف رحمه الله.

٦ ـ المساواة بين الرجال والنساء في جميع نعيم الآخرة، تبعاً للمساواة في التكليف.

٧ ـ وجوب طلب العلم والتفقه في الدين، ووجوب بث العلم مقروناً بالوعظ والإنذار الذي يرجى تأثيره النافع.

٨ ـ كون الزكاة المعينة أحد أركان الإسلام، وكون بذل الأموال في سبيل الله علامة الإيمان الصحيح وقوام الدين.

كما بينت أنواع الأموال الشرعية، وأحكامها، ومنها مال الجزية وأنواع الصدقات الواجبة المقدرة الموقوتة، وهي: النقدان من الذهب والفضة والتجارة والأنعام والزرع الذي عليه مدار الأقوات، والرِّكاز ـ وهو المدفون في الأرض يعثر عليه ـ والمعدن، ومصارفها على الفقراء والمساكين وغيرهم من أصناف المستحقين للزكاة.

وفصَّلت هذه السورة أهم أحكام القتال والمعاهدات والصلح:

الحكم الأول: البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركي مكة قد ناصبوا النبي ﷺ العداوة منذ دعا إلى التوحيد وتبعهم سائر العرب فكانوا حرباً له ولمن آمن به يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يعذبونه إذا لم يكن له من يحمه من المشركين، ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم في دار هجرتهم وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده. حتى إذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون إلى عقد أول صلح معهم في الحديبية، فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والأمان مدة عشر سنين ولم تلبث قريش مع أحلافها من بني بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سبباً لفتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله في حنين والطائف فنصره الله عليهم، وأمره في السنة التالية بأن ينبذ للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم في موسم الحج.

الثاني: أذان المشركين ـ إعلامهم ـ بذلك أذاناً عاماً في يوم الحج الأكبر

وهو عيد النحر الذي تجتمع به وفود الحاج من جميع القبائل في منى بحيث يعم هذا البلاغ جميع قبائل العرب في أقرب وقت، لأن الإسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة فكان لا بد من إعلامهم بذلك بما ينتشر في جميع قبائلهم، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لعلم كل فرد منهم بعود حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، وهذا من عدل الإسلام ورحمته لأن المشركين لم تكن لهم دول ولا رئيس عام يبلغهم ما يتعلق بشؤونهم ومصالحهم العامة فيكتفي بإبلاغه مثل هذا كما هو المعهود في الدول الملكية أو الجمهورية المدنية، ولم يكن في عصرهم صحف منشرة عامة ولا آلات للأخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ.

الثالث: منحهم هدنة أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاؤوا آمنين مطمئنين أحراراً في سيرهم وإقامتهم وسائر أعمالهم الدينية والدنيوية ليترووا في أمرهم، ويتشاوروا في عاقبتهم. وفي هذا من رحمة القادر بعدوه ما يفتخر به المسلمون بحق وهذه الأحكام صريحة في الآيات الثلاث الأولى من السورة.

الرابع: وَعْظهم بأنهم إن تابوا من شركهم وما يغريهم به من عداوة المؤمنين وقتالهم والغدر بهم فهو خير لهم، لأنهم لن يعجزوا الله في الأرض ولن يعجزوه هرباً منها، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبل أن يكثر أتباعه ويبايعه أنصاره، وأنجز له وعده في جملة غزواته معهم.

الخامس: استثناء بعض المشركين من نبذ عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام في الحديبية سنة ست ولم ينقصوهم من شروط العهد ومواده شيئاً، ولم يظاهروا أو يعاونوا عليهم أحداً من أعدائهم المشركين ولا أهل الكتاب، كما نقض أهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بني بكر على أحلاف النبي ﷺ بني خزاعة، والأمر بإتمام عهدهم إلى نهاية مدته، وتعليله بأنه من التقوى التي يحبها الله تعالى بشرط أن يظلوا مستقيمين عليه.

السادس: الأمر في الآية الثامنة باستعمال جميع أسباب القتال معهم بعد انسلاخ أشهر الهدنة التي ضربت له وحرم فيها، وهي القتل والأسر والحصر والقعود لهم في جميع المراصد لمراقبتهم ومنعهم من التجوال والتقلب في البلاد،

وهو يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لأصول الإسلام العادلة الرحيمة ــ فإن استعمل العدو ما هو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم قوله تعالى «ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله».

السابع: تخلية سبيل من يتوبون من الشرك بالنطق بالشهادتين ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، لأنهم بهذا يدخلون في الاسلام، ومن قَبِلَ الصلاة والزكاة والتزمهما فلا بد أن يلتزم غيرهما.

الثامن: إيجاب إجارة من يستجير النبي ﷺ منهم ــ وفي حكمه الإمام الأعظم ونائبه والقائد العام في حالة الحرب ــ لأجل أن يسمع كلام الله ويقف على دعوة الإسلام وإبلاغه بعد ذلك المكان الذي يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين.

التاسع: تعليل نبذ عهد المشركين السابق وعدم استئنافه معهم بالأسباب الآتية:

(أ) أنهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك ليأخذوا أُهبتهم.

(ب) أن من دأبهم وشأنهم أنهم إذا ظهروا على المؤمنين برجحان قوتهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة.

(ج) أنهم ينافقون ويكذبون عليهم في حال الضعف فيرضونهم بأفواههم، ويقولون بألسنتهم لهم ما ليس في قلوبهم، وأكثرهم ــ أي: السواد الأعظم منهم ــ فاسقون أي: خارجون من قيود العهود المواثيق والصدق والوفاء.

(د) أنهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الإسلام وأهله لأجل منفعة قليلة يتمتعون بها ويخافون أن تسلب منهم بالتزام شريعته التي تحرم أكل أموال الناس بالباطل كالربا والقمار والغصب والغزو لأجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك.

(هـ) أنهم ـ على كونهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة في حال القوة ولا في حال الضعف ـ هم المعتدون على المسلمين بالقتال، فلا يمكن أن يظلوا معهم كذلك في كل حال.

(و) أنهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها فلا ثقة بها فتراعى.

(ز) أنهم هموا بإخراج الرسول من وطنه، بل هم الذين اضطروه إلى الخروج هو وسائر من آمن معه، وذلك بعد أن تواطؤوا على قتله.

(ح) أنهم هم الذين بدأوا المؤمنين بالقتال أول مرة، وبقيت الحرب مستمرة، فلماأنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها.

الحكم العاشر: وجوب قتال مشركي العرب كافة إلا أن يسلموا وهو نص الآية الخامسة المعروفة بآية السيف، ونص قوله في الآية «٢٦»: «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» ووجهه ما علم من جملة الآيات في قتال مشركي العرب وهو عدم قبول الجزية منهم وعدم إقرارهم على السكنى والمجاورة للمسلمين في بلادهم مع بقائهم على شركهم لأنهم لا أمان لهم ولا عهود فيمكن أن يعيش المؤمنون معهم بسلام.

الحكم الحادي عشر: تحريم ولاية الكفار ولو كانوا من الآباء والأخوان.

وفي هذه السورة بيان لصفات المؤمنين الصادقين، وفضح للمنافقين ومكائدهم ضد الإسلام والمسلمين، وهم الذين لم يألوا جهداً في تثبيط المسلمين وتوهين عزائمهم، ولذلك سميت هذه السورة بـ «الفاضحة»، روى البخاري عن سعيد بن جبير رحمه الله قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما «سورة التوبة»، قال: «التوبة؟! بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم... ومنهم.. حتى ظننّا أن لا يبقى أحد منا إلا ذُكِرَ فيها».

وقوله: «ومنهم.. ومنهم..»، أي: من المنافقين.

سورة يونس

(وآيها مائة وتسع)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

١ ـ ﴿الر، تلك آيات الكتاب الحكيم﴾، أي: تلك الآيات البعيدة الشأو، الرفيعةالشأن، التي تألفت منها هذه السورة، أو القرآن كله، هي آيات الكتاب الموصوف بالحكمة في معانيه، والإحكام في مبانيه، الحقيق بهداية متدبره وواعيه.

٢ ـ ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الاستفهام للتعجيب من عجب الكفار واستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم، و«الوحي»: الإعلام الخاص لامرىء بما يخفى على غيره. أي: أكان إيحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً نُكْراً اتخذوه أعجوبة بينهم يتفكهون باستغرابها، كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم. والمراد بالناس كفار مكة ومن تبعهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وعبّر عنهم بالناس لأن

هـذه الشبهـة على الرسالة قد سبقتهم إليها أقوام الأنبياء قبله كما تقدم في قصة «نوح» و«هود» من سورة «الأعراف» في الآيتين «٦٣ و٦٩» ومطلع كل منهما قوله تعالى: «أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم»، ﴿أن أنذر الناس﴾ «أنْ» هذه مفسِّرة لما قبلها، والإنـذار: الإعلام بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين المقترن بالتخويف من عاقبة الكفر والمعاصي، أي: أوحينا إليه بأن أنذر الناس كافة ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ «التبشير»: مقابل الإنـذار، أي: وبشر الذين آمنوا منهم بأن لهم قدم صدق عند ربهم يجزيهم به في الآخرة، و«الصدق» في أصل اللغة ضد الكذب ثم أُطلق على الإيمان وصِدْقِ النية والوفاء وسائر مواقف الفضائل، ومنه في الآيات: «مَقْعَد صدق»، و«مُـدْخَلَ صـدق»، و«مُـخْرَجَ صـدق»، و«قَدَم صـدق». و«القَدَم» ههنا: السابقة والتقدم. قال البيضاوي: سابقة ومنزلة رفيعة، سميت قدماً لأن السبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وأضافتها إلى الصدق لتحققها والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القـول والنية ﴿قـال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ تأكيد قولهم بالجملة الإسمية وإن واللام، ووصف السحر بالمبين الظاهر يفيد الحصر كقول الوليد «إن هذا إلا سحر يؤثر» ـ يعنون الكتاب ـ وسموه «سحراً» لأنه بقوة تأثيره في القلوب وجذبه للنفوس إلى الإيمان يفرق بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه، وفصيلته التي تؤويه، وتمنعه وتحميه، وفي قراءة «لساحر» يعنون النبي ﷺ، وكُلًّا من القولين قد قالوا، والثاني يشير إلى أنهم رأوا منه ﷺ أموراً خارقة للعادة غير القرآن الذي تحداهم به. وكل من القولين يدل على إثبات رسالته ﷺ فإن قولهم: «إن القرآن سحر جاء به ساحر» يتضمن اعترافهم بأنهما فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الأسباب المقدورة لهم. وإنما السحر ما كان بأسباب خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض وهي إما حيل وشعوذة، وإما أسباب طبيعية علمية من خواص الأشياء أو قوى النفس المشتركة بين الكثيرين من العارفين بها. وقد استبان لعامة العرب ثم لغيرهم من شعوب العجم أن القرآن ليس بسحر يؤثر بالتعليم والصناعة، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع، مرقِّية للعقول مزكِّية للأنفس مصلحة للناس معجز للبشر في

أسلوبه ونظمه ومعانيه وهدايته، وأن محمداً مبلغ له ولم يكن ليقدر على شيء منه وقد عجز عنه غيره. فثبت أنه نبي الله ورسوله، وأن ما جاء به وحي منه تعالى.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

٣ ـ ﴿إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ هذا وما بعده بيان لأصول الإيمان الذي بلغه هذا الرسول بوحي الله. وأولها: الإيمان بأن الله تعالى هو الرب الذي خلق العوالم العلوية المعبر عنها بالسماوات وعالمنا الذي نعيش فيه وهو الأرض، وأنه خلقهما في ستة أزمنة قضى وقدر في كل زمن منها طوراً من أطوار هذا الخلق ﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾، أي: ثم استوى بعد خلق هذا الملك العظيم على عرشه، يدبر أموره ويصرف أقداره بقدرته، على وفق علمه وحكمته، وفضله ورحمته، وأن الرب تعالى لا يشبه عبيده من ملوك البشر، وعرشه لا يشبه عروشهم، وتدبيره لا يشبه تدبيرهم، لذلك قال السلف الصالح: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»[1]

---

(١) قوله: «قال السلف الصالح: الاستواء معلوم والكيف مجهول»، اشتهرت لدى طلبة العلم نسبة هذا القول إلى الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله، والواقع أن نسبة هذا الكلام إليه خطأ شائع مردُّه عدم التحقيق والعودة إلى المراجع والأصول لمعرفة ما قاله الإمام مالك أو غيره في هذه المسألة الخطيرة الشأن، فالإمام مالك لا يقول: «والكيف مجهول» لأن هذا القول يعني أن لاستوائه تعالى كيفية ولكنها كيفية، مجهولة، وهذا غير صحيح وفاسد المعنى، فالإمام مالك وغيره من السلف نَفَوا الكيف أصلاً ـ مجهولاً ومعلوماً ـ لأنهما في النتيجة سواء من حيث نسبة الكيف إلى الله تعالى، والكيف عليه تعالى محال، ولقد حققنا هذه المسألة تحقيقاً جيداً ـ ولله الحمد ـ في كتابنا «قرة العينين على تفسير الجلالين» ـ طبع =

. . . .

= المكتب الإسلامي ــ ص ٢٠١ نثبت نصه هنا لبيان ما يتعلق بقول الإمام مالك رحمه الله تعالى، ولما فيه من فوائد:

«لا يجوز أن يُفْهَمَ من الاستواء معنى لا يليق بالله عز وجل مثل: الاستقرار، أو الجلوس، أو القعود، أوالمكان، لأنه تعالى كان ولا مكان، ولا زمان، ولا عرش، ولا خَلْقَ، ثم خلق الخلق، ثم استوى على العرش كما وصف نفسه من غير تعطيل، ولا تشبيه ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

عن سفيان الثوري رحمه الله قال: كنت عندربيعة،بن أبي عبد الرحمن ــ شيخ الإمام مالك ــ فسأله رجل فقال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق.

وروى البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن وهب المصري أحد رواة «الموطّأ» قال: كنت عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ . . . فأطرق مالك وأخذته الرُّحَضاءُ ــ أي: عرق عرقاً شديداً ــ ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: «كيف؟» وكيفَ. . عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه، وروى جواب الإمام مالك هذا الإمامُ عبد الله القَيرواني في كتابه: «الجامع في السُّنن والآداب والمغازي والتاريخ» بلفظ: «الاستواء غير مجهول، والكيف منه غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وأراك صاحب بدعة، أخرجوه».

فما يروى عن مالك رحمه الله: أنه قال: «والكيف مجهول» غير صحيح ولم يثبت ذلك عنه خلافاً لما هو شائع.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية: وأما قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمةالمسلمين قديماً وحديثاً وهو: إمرارها كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه: «ليس كمثله شيء وهوالسميع البصير»، بل الأمر كما قال الأئمة ــ منهم نعيم بن حماد الـخُزاعي شيخ البخاري ــ قال: مَنْ شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ــ ولا رسوله ــ تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائض فقد سلك سبيل الهدى، اهـ.».

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ تقرير للإيمان بتوحيد الألوهية، بعد تقرير توحيد الربوبية. وقد كان مشركو قريش وأمثالهم يتوجهون إلى آلهتهم زاعمين أنها تشفع لهم عند الله تعالى فيما يرجونه من دفع ضر أو جلب نفع كما تصرح به الآية «١٨» الآتية وغيرها من سور أخرى، فبيّـن لهم هنا وفي آيات أخرى: أنه لا يشفع عنده أحد لأحد إلا من بعد إذنه للشفيع بأن يشفع فيما يشفع فيه، وهو لا يأذن بالشفاعة إلا لمن يكون راضياً عنه،فالأمركله بيده والشفعاء ليس لهم أدنى تأثير في علمه القديم ولا في إرادته الأزلية «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» ﴿ذلكم الله ربكم﴾، أي: ذلكم الموصوف بما تقدم من الخلق والتقدير والملك والتدبير، هو الله ربكم لا رب لكم غيره ينفعكم أو يكشف الضر عنكم، ﴿فاعبدوه﴾ وحده فلا تدعوا معه أحداً ولا تشركوا به شيئاً ﴿أفلا تذكرون﴾، أي: أفلا تتذكرون باستعمال العقل وصحة الفكر أن العبادة لا تصح إلا للرب الخالق دون المخلوقات «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم».

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

٤ ــ ﴿إليه مَرْجعكم جميعاً﴾ تقرير للإيمان بالبعث بعد الموت والجزاء، أي: إليه مرجعكم بالبعث لا إلى غيره فاستعدوا للقائه. وهذا وعد منه تعالى أكده بقوله ﴿وعد الله حقاً﴾، أي: وعده وحقه حقاً وأثبته فلن يُخْلِفَهُ. ثم استدل عليه بقوله: ﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، أي: يبدأه في طور إلى أجل يزول فيه ويفنى ثم يعيده في طور آخر «كما بدأكم تعودون»، فكيف تستبعد عقولكم الإعادة مع ثبوت البدء عندكم، فإنكم لا تَشُكُّون في أنكم وُجدتم بعد أن لم تكونوا. والمعقول في عرفكم أن الإعادة أهون من البدء. وبعد الاستدلال عليه بالقدرة استدل عليه بمقتضى الحكمة مبيناً علته بقوله ﴿ليجزى الذين آمنوا

وعملوا الصالحات بالقسط﴾ «القسط»: العدل، أي: يعيد الخلق ليجزي هؤلاء الجزاء الأوفى بقيامهم بما أمرهم به من القسط في أمورهم كلها في قوله «قل أمر ربي بالقسط»، «كونوا قوامين بالقسط»، «كونوا شهداء بالقسط»، «وأقيموا الوزن بالقسط»، بل جعله حكمة إرسال الرسل في قوله: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»، فالإيمان قسط وعدل، لأنه وسط بين التعطيل والشرك، والفضائل كلها أوساط بين الإفراط والتفريط، والأمة الإسلامية وسط بين الأمم، والشرك ظلم عظيم وكذلك الرذائل كلها ظلم، فهي خارجة عن الوسط الذي هو القسط والعدل، وقيل: معناه ليجزيهم بقسطه وعدله كقوله «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً» وهو ضعيف لأن هذا في الحساب العام، وقد ورد في سياق إنذار الكفار ووعيدهم كقضائه بينهم بالقسط في الدنيا والآخرة في الآيتين «٤٧ و٥٤» من هذه السورة، وأما جزاء المؤمنين الصالحين فإنما يكون بالعدل وما فوق العدل من الرحمة والفضل ومضاعفة الحسنات والمزيد. ولذلك قال في مقابله هنا: ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾، «الحميم»: الماء الحار، والاستحمام: الاغتسال به، أي: لهم هذا الشراب والعذاب بسبب كفرهم الذي هو خروج عن القسط والاعتدال، إلى الغلو والإفراط في الاعتقادات والأخلاق والأعمال. فهذا جزاؤهم، ولم يعطفه على جزاء المؤمنين للتنبيه على أن المقصود بالذات بالبدء والإعادة هو الإثابة، وأن العقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه، وأما عقاب الكفرة فكأنه ما ساقه إليهم إلا سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم قاله البيضاوي.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

٥ ـ ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾ هذا شروع في الرد على المشركين بالأدلة العلمية. و«الضياء»: اسم مصدر من «أضاء يضيء» وجمع «ضوء»، والضوء والنور مترادفان، وقيل: الضوء أقوى ويدل على التفرقة كقوله تعالى: «وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً» وقوله: «وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً»، والسراج ما كان نوره من ذاته. واستبعد بعض المفسرين قول الزجاج: إن الضياء في الآية جمع «ضوء» لأن المناسب لكون القمر نوراً أن يكون الضياء مفرداً مثله. ويقويه في المعنى أن شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب، فهو سبعة أضواء لا ضوء واحد، فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقي العلوم الطبيعية والفلكية من المعنى فيها ما كان الناس كافة أو العرب خاصة يجهلونه في عصر التنزيل ﴿وقدره منازل﴾ «التقدير»: جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات، قال تعالى «والله يقدر الليل والنهار»، وقال في القُرى التي كانت بين «سبأ» والشام «وقدرنا فيها السير»، وقال في المقادير العامة: «وخلق كل شيء فقدره تقديراً»، و«المنازل»: أماكن النزول جمع «مَنْزِل»، والضمير للقمر كما قال في سورة «يس»: «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم»، أي: قَدَّر له أو قدر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحد منها لا يخطئه ولا يتخطاه، وهي ثمانية وعشرون منزلاً معروفة تسميها العرب بأسماء نجومها المحاذية لها، فهذه المنازل هي التي يرى فيها القمر بالأبصار، ويبقى من الشهر ليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً وليلتان إن كان ثلاثين يوماً يحتجب فيهما فلا يرى ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾، أي: لأجل أن تعلموا بما ذكر من صفة النَّيِّرين وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية، فلولا هذا النظام المشاهد لتعذر على الأميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك، لأن حساب السنين والشهور الشمسية فن لا يعلم إلا بالدراسة، ولذلك جعل الشرع الإسلامي العام للبدو والحضر شهر الصيام وأشهر الحج وعِدَّة الطلاق ومدة الإيلاء وغَيْـرَ ذلك بالحساب القمري الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة، فلا يتوقف على علم فني لا يكاد يوجد إلا في بلاد

الحضارة. ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانهما في جميع الفصول، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الأوقات من حارة وباردة ومعتدلة. وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي[1] وله فوائد أخرى، وقد أرشدهم إليه في أول سورة الرحمن «الشمس والقمر بحسبان»، وفي سورة الإسراء «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب»، وفي هذه الآيات ترغيب في علم الهيئة والجغرافية الفلكية، وقد برع فيهما أجدادنا بإرشادها واستنبطوا منهما علم الميقات ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾، أي: ما خلق الله الشمس ذات ضياء فيها جميع المنافع للأحياء والقمر ذا نور مستمد منها وقدر له منازل إلا متلبساً بالحق والحكمة لا عَبَثاً ﴿نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ استئناف لبيان المنتفعين بهذه الحجج، أي: نبين الدلائل من حكم خلقنا، على ما أوحيناه إلى رسولنا من أصول العقائد وأحكام الشريعة، مفصلة منوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل، والفرق بين الحق والباطل، باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين ومافيهما من النظام بالحق، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الإنسان العجيب عبثاً، ولا أن يتركه سدى، وفي الآية تنويه بفضل العلم وكون الإسلام ديناً علمياً لا تقليدياً، ولذلك قفى عليه بقوله:

٦ ـ ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾، أي: في حدوثهما وتعاقبهما في طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس، والنظام الدقيق لها

---

(١) قوله: «وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي الخ»، لا نقول: إنه لا مانع فحسب، بل الواقع أننا نعتمد على الحساب الشمسي في أداء الصلوات الخمس، إذ من المعلوم أن تحديد أول وقت كل صلاة وآخره مرتبط بالشمس، فما بين طلوع الفجر الصادق إلى شروق الشمس، وقت الفجر، ثم من زوال الشمس عن وسط السماء، يبدأ وقت الظهر، وينتهي وقت العصر بغروب الشمس، ويبدأ وقت المغرب وهكذا، ولا علاقة للحساب القمري بأوقات الصلاة لأنها متعلقة بالليل والنهار وهما مرتبطان بالشمس، كما نعتمد في حساب ما يتعلق بالشهور من العبادات على الحساب القمري كالحج والصيام والزكاة وغيرها.

بحركتيها اليومية والسنوية، وطبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل ديني ودنيوي ﴿وما خلق الله في السماوات والأرض﴾ من أنواع الجماد والنبات والحيوان ﴿لآيات لقوم يتقون﴾، أي: أنواعاً من الدلائل والبينات على سننه في النظام، وحكمه في الإبداع والاتقان، وفي تشريع العقائد والأحكام، لقوم يتقون عواقب مخالفة سننه في التكوين، وأحكامه في التشريع، فالأفراد الذين يخالفون سنن الصحة البدنية يمرضون، والشعوب التي تخالف سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادها وتضعف دولها، ويغير الله تعالى ما بها بتغييرها ما في أنفسها، كذلك الأفراد الذين يخالفون هدايته الشرعية في تزكية الأنفس فيدنسونها بالشرك والخرافات، ويفسدونها بالفواحش والمنكرات، يجزون على ذلك كله في الآخرة، ويجزى بعضهم على بعضها في الدنيا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

٧ ــ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾، أي: إن الذين لا يتوقعون لقاءنا في الآخرة للحساب وما يتلوه من الجزاء على الأعمال لإنكارهم البعث، ويلزمه أنهم لا يؤملون لقاءه الخاص بالمتقين في دار الكرامة، وخصه بعضهم بلقاء الرؤية ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ بدلاً من الآخرة، فصار كل همهم من الحياة محصوراً فيها وكل عملهم لها كما قال في المتثاقلين عن النفير للجهاد «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟» ﴿واطمأنوا بها﴾ بسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذاتها وزينتها ليأسهم من غيرها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا يتدبرون آياتنا المنزلة منها على رسولنا وما فيها من المواعظ والعبر، والمعارف

والحكم، ولا يتفكرون في الكونية وما تدل عليه من حكمته وسننه في خلقه، وما يقتضيه كل منهما من الجهاد وصالح الأعمال، فكانوا بهذه الغفلة كالفريق الأول الذي لا يرجو لقاءنا، في أن كلاً منهما تشغله دنياه عن آخرته فلا يستعد لحسابنا له وما يتلوه من نعيم مقيم أو عذاب أليم.

٨ ــ ﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ الإشارة بأولئك إلى الفريقين أي: مأواهم في الآخرة دار العذاب (النار) بما كانوا يكسبون مدة حياتهم الدنيا بتأثير تلك الصفات الأربع من الخطايا والخرافات الوثنية، وأعمال الشهوات الحيوانية، وظلمات المظالم الوحشية، واستمرارهم عليها، الذي دنس أنفسهم وأحاط بها، فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها. و«المأوى» في أصل اللغة: الملجأ الذي يأوي إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو إنسان نافع، فويل لمن كانت هذه الدار له كالملجأ والموئل.

٩ ــ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾، أي: يهديهم بسبب إيمانهم به صراطه المستقيم في كل عمل من أعمالهم التي تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم، وصفهم أولاً بالإيمان والعمل الصالح ــ الذي هو لازم الإيمان ومغذيه ومكمله ــ بصيغة الماضي لبيان صنفهم وفريقهم المقابل للفريق الذي ذكر قبلهم بقسميه، وأخبر بهداية إيمانهم لهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد، كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة، وجعل الإيمان وحده سبب هذه الهداية لأنه هو الباعث النفسي لها، والمعنى: أنه يهديهم الصراط المستقيم الذي ينتهي بهم إلى دار الجزاء التي قال في بيان حالهم فيها: ﴿تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾، أي: تجري من تحت مقاعدهم من غرفات تلك الجنات ومن تحت أشجارها، والآية صريحة في معنى الآيات الكثيرة الناطقة بأن دخول الجنة بالإيمان[1] والعمل الصالح معاً.

---

(١) قوله: «بأن دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح معاً»، هذا القول ليس على إطلاقه بل فيه تفصيل، وقد بيناه في تعلقينا ص ٧٠ من الجزء الأول فارجع إليه.

١٠ ـ ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾، «الدعوى»: الدعاء بمعانيه، والدَّعاوة في الشيء والادعاء له. والمعنى: أنهم يبدأون كل دعاء وثناء يناجون به الله عز وجل وهو النعيم الروحاني، وكل طلب لكرامة أو لذة من لذات الجنة وهو النعيم الجسماني، بهذه الكلمة: «سبحانك اللهم»، أي: تنزيهاً وتقديساً لك يا الله، قيل: أو بما تدل عليه وإن كان بلفظ آخر، وإن تحيتهم فيها كلمة «سلام» الدالة على السلامة من النقص والآثام، وهي تحية المؤمنين في الدنيا، وتكون منه عز وجل لهم، وتكون من الملائكة لهم عند دخول الجنة، وفي كل وقت يدخلون فيه عليهم، وتكون منهم بعضهم لبعض وفي القرآن شواهد على الثلاث. وأن الحمد له جل ثناؤه هو آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به الله تعالى، ومطلب يطلبونه من إحسانه وإكرامه، كما أنه أول ثنائهم عليه عند دخولها كما ترى في آخر سورة «الزُّمَر»[٢].

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

١١ ـ ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول الله ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالاً بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة الله تعالى في أقوام الرسل المعاندين وهو عذاب الاستئصال، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتنكيل بهم

---

(٢) قوله: «في آخر سورة الزمر» يعني قوله تعالى فيها: «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين».

ونصره عليهم، وقيام الساعة، وعذاب الآخرة. وقد حكى الله تعالى كل ذلك عنهم وكانوا يقصدون به تعجيز الرسول ﷺ مبالغة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد، ﴿استعجالهم بالخير﴾، معناه: كاستعجالهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء الله تعالى أو بمحاولة الأسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾، أي: لقضى الله إليهم أجلهم، وقضاء الأجل إليهم: انتهاؤه إليهم بإهلاكهم كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم. ولكن الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم، وقد بعث رسوله محمداً خاتم النبيين رحمة للعالمين، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين، وقضى بأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديباً لسائرهم ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة، فهو لا يقضي إليهم أجلهم بإهلاكهم
يكون عاماً بل يذرهم وما هم فيه إلى
ٰ يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾
ِ وظلم وعدوان، و«العَمَه»: التردد في
لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من
به متحيرين لا يهتدون سبيلاً للخروج
بنصر رسوله عليهم، وفي أفرادهم بقتل
فيهم لا نعجل شيئاً قبل أوانه. وفي
لمناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم
فسوق لأهلكهم كما قال في آية أخرى:
على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى
هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس،
لو يعجله الله لهم لأهلكهم أيضاً.

ر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾، أي:
شدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق
، أو إعضال داء، دعانا ملحاً في كشفه
ـمطجعاً لجنبه، أو قاعداً في كسر بيته،
ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر

الجمعة
FRIDAY

١٤١٤هـ — ١٩٩٣م

الأسد ١ — ١٣٧١ هـ.ش

٤ صفر

يوليو ٢٣ — 23 JUL. 1993

الزمن		الفجر ق	الفجر ع	الإشراق ق	الإشراق ع	الظهر ق	الظهر ع	العصر ق	العصر ع	المغرب ق	المغرب ع	العشاء ق	العشاء ع
مكة	زوالي	٢٣	٤	٥٠	٥	٢٧	١٢	٤٣	٣	٥	٧	٣٥	٨
	غروبي	١٩	٩	٤٦	١٠	٢٣	٥	٣٩	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
المدينة	زوالي	١٥	٤	٤٦	٥	٢٨	١٢	٥٢	٣	١١	٧	٤١	٨
	غروبي	٤	٩	٣٥	١٠	١٧	٥	٤١	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
الرياض	زوالي	٤٦	٣	١٧	٥	٠٠	١٢	٢٤	٣	٤٣	٦	١٣	٨
	غروبي	٤	٩	٣٥	١٠	١٨	٥	٤٢	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
الدمام	زوالي	٢٧	٣	٠٠	٥	٤٦	١١	١٥	٣	٣٣	٦	٣	٨
	غروبي	٥٥	٨	٢٨	١٠	١٤	٥	٤٣	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
بريدة	زوالي	٥٢	٣	٢٥	٥	١١	١٢	٣٩	٣	٥٧	٦	٢٧	٨
	غروبي	٥٦	٨	٢٩	١٠	١٥	٥	٤٣	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
تبوك	زوالي	١٥	٤	٥٠	٥	٤٠	١٢	١٣	٤	٣١	٧	١	٩
	غروبي	٤٥	٨	٢٠	١٠	١٠	٥	٤٣	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
عرعر	زوالي	٤٨	٣	٢٧	٥	٢٢	١٢	١	٤	١٨	٧	٤٨	٨
	غروبي	٣٠	٨	٩	١٠	٤	٥	٤٣	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
أبها	زوالي	٢٠	٤	٤٥	٥	١٦	١٢	٣١	٣	٤٩	٦	١٩	٨
	غروبي	٣٢	٩	٥٧	١٠	٢٨	٥	٤٣	٨	٠٠	١٢	٣٠	١
جيزان	زوالي	٢٣	٤	٤٦	٥	١٤	١٢	٢٩	٣	٤٣	٦	١٣	٨
	غروبي	٤١	٩	٤	١١	٣٢	٥	٤٧	٨	٠٠	١٢	٣٠	١

ما عز من أذل جيرانه ولا سعد من حرم أخوانه

بمس الضر ولذعه له، ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان فيها أشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فالتي تليها فالتي تليها، وثَمَّ حالة رابعة هي: سعيه لدفع الضر من طريق الأسباب فلم تُذْكر، لأن الإنسان غير المؤمن قلَّما يتذكر ما أودع في فطرته من الإيمان بربه إلا عند عجزه عن الأسباب المسخرة له، والمشركون بالله تعالى أقل الناس تذكراً لذلك، لأنهم عند عجزهم عن الأسباب العامة المعلومة، يلجأون إلى مظنة الأسباب الموهومة، والمثل مضروب هنا لهم ﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، أي: فلما كشفنا عنه ضره الذي دعانا له في حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه وبغيره من الأسباب، مر ومضى في شؤونه على ما كان من طريقته في الغفلة عن ربه والكفر به، كأن الحال لم تتغير عليه، فلم يَدْعُنَا إلى ضر مَسَّه، ولم نكشف عنه ضره ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾، أي: كهذا النحو من معرفة الله، والإخلاص في دعائه وحده في الشدة، ونسيانه والكفر به بعد كشفها زين للمسرفين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم للرسول واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه بالعذاب.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

١٣ ــ ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ الخطاب لأمة الدعوة المحمدية، وُجِّهَ أولاً وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة فيها، فهو التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان المخاطبين لموضوعه، و«القرون»: الأمم، وهو جمع «قَرْن» بالفتح ومعناه: القوم المقترنون في زمن واحد، وقد ذكر إهلاك القرون في آيات عديدة من السور المكية، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه باللام «ولقد»، وصرح بأن سبب هلاكهم

وقوع الظلم منهم، وشواهده في التنزيل كثيرة ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ الدالة على صدقهم فيما جاؤوهم به ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾، أي: وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لأنهم مَرَنُوا على الكفر واطمأنوا به، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعمالهم الإجرامية من ظلم وفسق وفجور ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ هذا إنذار لمشركي مكة إن لم يتوبوا لأنهم كانوا مجرمين وتقديره كالذي مر قبله في المسرفين.

١٤ ــ ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾ الخطاب معطوف على الذي قبله، أي: ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعد أولئك الأقوام كلهم، بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم وقَدَّرناه لكم باتباعه، إذ كان الرسول الذي جاءكم به هو خاتم النبيين فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنبي آخر، و«الخلائف»: جمع خليفة، وهو من يخلف غيره في الشيء، أي: يكون خلفه فيه، ولقد كان لتلك الأمم دول وحكم في الأرض، كملك النصارى واليهود والمجوس، والوثنيين من قبلهم كالفراعنة والهنود، فالله يبشر قوم محمد وأمة محمد بأنها ستخلفهم في الأرض إذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه، ﴿لننظر كيف تعملون﴾، أي: لنرى ونشاهد أَيَّ عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم، فإن هذه الخلافة إنما جعلها لكم لإقامة الحق والعدل في الأرض، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق، لا لمجرد التمتع بلذة الملك، كما بينه في أول آيات الإذن لهم بالقتال وهي قوله تعالى: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم، وأنه تعالى يكون ناظراً إلى هذه الأعمال لا يغفل عنهم فيها، حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا أنه باق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلى نبيه ﷺ وأنهم يتفلتون من سنته في الظالمين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ

بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

١٥ ـ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ في الآية التفات عن خطاب هؤلاء الموعوظين إلى الغيبة عنهم، وتوجيه له إلى الرسول ﷺ، نكتته حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الإخبار عن قوم غائبين لإفادة أمرين:

أحدهما: إظهار الإعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لأنهم لا يستحقون الخطاب به من الله تعالى.

وثانيهما: تلقينه ﷺ والجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير.

والمعنى: وإذا تتلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى معارض البيان، وأظهر بينات الوحي والبرهان ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ امتحاناً له بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه منقوضة من أساسها، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لا يوحي الله إليه، وهو ما يزعمه بعض الإفرنج ومقلدتهم في عصرنا وقد فندناه في تفسير الآية الأولى من هذه السورة.

﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾، أي: قل لهم أيها الرسول

إنه ليس من شأني ولا مما تبيحه لي رسالتي أن أبدله من تلقاء نفسي، أي: بمحض رأيي ومقتضى اجتهادي ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾، أي: ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلي والاهتداء به، فإن بدل الله تعالى منه شيئاً بنسخه بَلَّغته عنه، وما علي إلا البلاغ المحض. ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ هذا تعليل لمضمون ما قبله، الذي هو بيان لنفي الشأن الذي قبله، أي: إني أخاف إن عصيت ربي أيَّ عصيان كان، عذاب يوم عظيم الشأن، وهو يوم القيامة، فكيف إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعاً لأهوائكم؟ وقوله «إن عصيت» من باب الفرض، إذ أَنَّ «إِنْ» الشرطية المبدوأة المكسورة يعبر بها عما شأنه أن لا يقع، وهذا جواب عن الشق الثاني من اقتراحهم، ثم لقنه الجواب عن الشق الأول مفصولاً لأهميته بقوله:

١٦ ــ ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾، أي: لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم فإنما أتلوه بأمره تنفيذاً لمشيئته ﴿ولا أدراكم به﴾، أي: ولو شاء أن لا يدريكم ويعلمكم به بإرسالي إليكم لما أرسلني ولما أدراكم به، ولكنه شاء أن يمنّ عليكم بهذا العلم الأعلى لتدروه فتهتدوا به وتكونوا بهدايته خلائف الأرض، عالماً بأن فيه كل ما تحتاجون إليه من الهداية وأسباب السعادة، وأمرني بتبليغه إليكم ولم يكن لي علم بشيء من ذلك قبله ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله﴾، أي: فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمراً طويلاً من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم فيه سورة من مثله، ولا آية تشبه آياته، لا في العلم والعرفان، ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿أفلا تعلقون؟﴾ إن من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً، ولم يُلَقَّن من أحد علمًا، ولم يعرف تشريعاً، ولم يمارس من أساليب البيان، في أفانين الكلام، من شعر ونثر، لا خطابة وفخر، ولا علم وحكم، لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولسائر الخلق، حتى الدارسين لكتب الأديان والحكمة والعلم؟ فكيف تقترحون عليّ إذاً أن آتي بقرآن غيره؟ ويؤيد هذا الجواب أنه ثبت عند علماء النفس والاجتماع وشواهد التاريخ، أنه لا يمكن لبشر أن يأتي بعد الخامسة والثلاثين من عمره بعلم جديد، وبعمل له شأن عظيم لم يكن استعد له وابتدأه في نشأته الأولى فكيف بهما جميعاً.

١٧ ـ ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته﴾ هذه تتمة الرد على اقتراح المشركين، فإنه رد عليهم أولاً ببيان حقيقة الأمر الواقع، وهو أن تبديل القرآن ليس من شأن الرسول في نفسه، ولا مما أذن الله له به، وثانياً بإقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وأنه ليس في استطاعته ﷺ الاتيان بمثله، ثم عزز هاتين الحجتين بثالثة أدبية وهي: أن شر أنواع الظلم والإجرام في البشر شيئان، أحدهما: افتراء الكذب على الله، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم، وثانيهما: التكذيب بآيات الله، وهو ما اجترحوه بإجرامهم، وقد بيّن هذا بصيغة الاستفهام الإنكاري، أي: لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين من الظالمين، وأنا أنعى عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه؟ وأيُّ فائدة لي من هذا الإجرام العظيم وأنا أريد الإصلاح وأدعو إليه وأحتمل المشاق في سبيله، وأعلم ﴿أنه لا يفلح المجرمون﴾، أي: لا يفوزون بمطلوبهم الذي يتوسلون إليه بالكذب والزور.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

١٨ ـ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾، أي: ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً من الأصنام وغيرها، «من دون الله»، أي: غير الله، والمعنى: أنهم يعبدونها حال كونها متجاوزين ما يجب من عبادته وحده، وفي وصفها بأنها لا تضرهم ولا تنفعهم إيذان بسبب عبادتها وضلالهم فيه، وتذكير بأنه هو القادر على نفع من يعبده وضر من يكفره ويشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة.

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾، أي: ويقولون في سبب عبادتهم لهم ـ مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم لإيمانهم بأن الرب

الخالق هو الله تعالى ـ: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فنحن نعبدهم بتعظيم هياكلهم أو قبورهم وتطييبها بالعطر، والطواف بها وبتقديم النذور لهم عندها، والإهلال عند ذبح القرابين بأسمائهم، وبدعائهم والاستغاثة بهم، لأنهم شفعاؤنا عند الله يقربوننا إليه زلفى فيدفع بجاههم عنا البلاء، ويعطينا ما نطلب من النعماء ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾، أي: قل لهم أيها الرسول منكراً عليهم جهالتهم وافتراءهم على ربهم: أتخبرون الله تعالى وتعلمونه بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السماوات من ملائكته، ولا في الأرض من خواص خلقه، فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم، فإنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فكيف يخفى عليه مَنْ لهم من المكانة عنده أن جعلهم وسطاء بينه وبين خلقه في قضاء حاجتهم من نفع وضر، وفي تقريبهم إليه زلفى؟

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، أي: تنزيهاً له وتعالى علواً كبيراً عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء، وما يفترونه عليه بجعلهم هذا ديناً يتقرب به إليه. فهذا تذييل للجواب مبين لما في هذا الشرك من إهانة مقام الربوبية والألوهية، وتشبيه رب العالمين بعبيده من الملوك الجاهلين العاجزين، وفي قراءة «تشركون» بتاء الخطاب، على أنه تتمة للجواب. وحكمة القراءتين تنزيه تعالى عن شرك الجميع من غائب ومخاطب.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

١٩ ـ ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا﴾ قيل: إن المراد بـ«الناس» هنا العرب، فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لُحَي الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الأصنام ـ كما ثبت في صحيح البخاري ـ فاختلفوا بأن أشرك بعضهم وثبت على الحنيفية

آخرون[1] وقيل: وهو المختار أن المراد الجنس البشر في جملته فإنهم كانوا أمة واحدة على الفطرة، إذ كانوا يعيشون عيشة السذاجة، والوحدة كأسرة واحدة، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر فقبائل، فشعوباً تختلف حاجاتنها وتتعارض منافعها، فتتعادى وتتقاتل في التنازع فيها، فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه فاهتدى من اهتدى به، ثم اختلفوا في الكتاب نفسه بغياً بينهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾، أي: ولولا كلمة حق فاصلة سبقت من ربك في جعل جزاء الناس العام في الآخرة، لعجَّلَه لهم في الدنيا بإهلاك المبطلين الباغين منهم، فالمراد من الكلمة قوله تعالى في الآية «٩٣» من هذه السورة «إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون».

والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس المفضي إلى الشقاق والعدوان ولا سيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لإزالة الشقاق بحكمه، وإدالة الوحدة والوفاق منه.

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

٢٠ ـ ﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه﴾، أي: قد قالوا ولا يزالون يقولون: هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا عنهم، حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملاً وأجاب عنه جواباً مجملاً لأن كلاً منهما قد سبق مفصلاً في سور أخرى، وقد جهل هذا كفار الإفرنج

---

(١) قوله: «وثبت على الحنيفية آخرون» تقدم بيان ذلك في تعليقنا ص ٣١ وتعليقنا ص ٣٢ من الجزء الأول فارجع إليهما.

وتلاميذهم من ملاحدة مصر، فقالوا في مثله: إن النبي ﷺ كان في مكة يفر من مناظرة المشركين ﴿قل إنما الغيب لله﴾ والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده لأنها خوارق فوق قدرة البشر، وإنما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره، فإن كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتها وينزلها فيه وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعله بي وبكم.

وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾

٢١ ــ ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ هذه الشرطية منتظمة مع أختيها في الآيتين «١٢ و١٥» في نسق واحد، و«الذوق» في أصل اللغة: إدراك الطعم بالفم، والمدرك له عصب خاص في اللسان، واستعمل مجازاً في إدراك غيره من الملائمات كالرحمة والنعمة، والمؤلمات كالعذاب والنقمة. و«الضراء»: الحالة من الضر المقابل للنفع، ويقابلها السراء من السرور، أي: وإذا كشفنا ضراء مس الناس ألمها، برحمة منا أذقناهم لذتها على أتمها، لأن الشعور بها عقب زوال ضدها يكون أتم وأكمل ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ «إذا» هذه تسمى الفجائية، والجملة جواب للشرط، أي: ما كان منهم إلا أنهم بادروا إلى المكر، وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر، فإذا كانت الرحمة مطراً أحيا الأرض، وأنبت الزرع، وَدَرَّ به الضرع، بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل، قالوا: مطرنا بالأنواء، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزتهم أسبابها، عللوها بالمصادفات، وإذا كان سببها دعاء نبيهم أنكروا إكرام الله له وتأييده

بها، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ عليهم، ثم رفع عنهم بدعائه فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً، ومكراً وكنوداً، فـلِـمَ يطلبونها؟

﴿قل الله أسرع مكراً﴾، أي: قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يسرعون في المكر كما دلت عليه المفاجأة: إن الله تعالى أسرع مكراً منكم، إذ سبق في تدبيره لأمور العالم وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة، وهو عالم به لا يخفى عليه شيء منه، وأكد هذا بقوله ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾، يعني: الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها في الآخرة. وكتابة المكر: عبارة عن كتابة متعلقة من الأعمال اللاتي كان هو الباعث عليها، ويجوز أن تكتب نيتها.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لهؤلاء الناس هو من أبلغ أمثال القرآن فقال:

٢٢ ـ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ «السَّير»: المضي والانتقال من مكان إلى آخر، و«التسيير»: جعل الشيء أو الشخص يسـير بتسخيره أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو مركبة أو سفينة، أي: إن الله تعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر والبحر بما وهبكم من القدرة على السير، وبما سخر لكم من الإبل والدواب والفلك التي تجري في البحر، وزادنـا في هذا العصر القطارات والسيارات البخارية والطيارات التي تسير في الهواء ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾، أي: حتى إذا كنتم في إحدى حوادث سيركم البحري راكبين في الفلك التي سخرها لكم، و«الفُلْك»، بالضم: اسم للسفينة الواحدة ولجمعها، مفرده وجمعه واحد، والمراد به هنا الجمع إذ قال: ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾، أي: وجرت هذه الفلك بمن فيها بسبب ريح طيبة، أي: رُخَاء مواتية لهم في جهة سيرهم، والطَّيِّب من كل شيء: ما يوافق الغرض والمنفعة، يقال: رزق طيب ونفس طيبة، وبلدة طيبة وشجرة طيبة. وفي قوله «ربهم» التفات عن الخطاب إلى الغيبة فائدته المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها،

ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح لها، أي لما وصفهم به بعد ذلك من كفر النعمة ﴿وفرحوا بها﴾ لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والانتعاش والأمن من دُوَار البحر والتمتع بمنظره الجميل، في ذلك الهواء العليل ﴿جاءتها ريح عاصف﴾، أي: جاءت الفلك أو الريح الطيبة، أي: لاقتها ريح شديدة قوية، يقال: عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة، أي: تعصف الأشياء وتكسرها فتكون كعصف النبات وهي الحطام المتكسر منه ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾، أي: واضطرب البحر وتموج سطحه كله، فتلقاهم موجه من جميع الجوانب والنواحي ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾، أي: اعتقدوا اعتقاداً راجحاً: أنهم هلكوا بإحاطة الموج بهم من كل جانب، كما يحيط العدو المحارب بعدوه إذ يطوِّقه بما يقطع عليه سبل النجاة. ذلك بأن فعل العاصف يهبط بهم في لجج البحر تارة كأنهم سقطوا في هاوية سحيقة، ولا يلبث أن يَثِبَ بهم إلى أعلى غوارب الموج كأنهم في قُنَّة جبل شاهق أصابه رجفةُ زلزلة، شديدة ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ هذا جواب لما تضمنه قوله تعالى «حتى إذا كنتم في الفلك» الخ، أي: حتى إذا ما نزل بهم كل ذلك من نذر العذاب، وتقطعت بهم دون النجاة جميع الأسباب، دَعَوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين، لا يتوجهون معه إلى ولي ولا شفيع، ولا ند ولا شريك، ممن كانوا يتوسلون بهم إليه في حال الرخاء، عازمين على طاعته قائلين ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾، أي: نُقْسم لك يا ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك لا نكفر منها شيئاً، ولا نشرك بك أحداً، ولا ندعو من دونك ولياً ولا شفيعاً، ولا نتوجه في تفريج كروبنا وقضاء حاجاتنا إلى وثن ولا صنم.

وفي هذه الآية وأمثالها: بيان صريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتَقَطُّعِ الأسباب بهم إلا الله ربهم.

فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا

بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

٢٣ ـ ﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض﴾، أي: إذا هم يفاجئون الناس في الأرض التي يهبطون إليها بالبغي عليهم ـ وهو الظلم والعدوان والإفساد ـ يمعنون في ذلك ويصرون عليه ﴿بغير الحق﴾ هذه الصفة كاشفة للواقع للتذكير بقبحه وسوء حال أهله، وقد يكون البغي وهو تجاوز حد الاعتدال بحق إذا كان عقاباً على مثله أو ما هو شر منه، كما يقع في الحروب وقتال البغاة من اضطرار أهل الحق والمعتدى عليهم إلى تجاوز الحدود في أثناء الدفاع عن أنفسهم، وقد قال تعالى: «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ـ إلى قوله ـ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق»، وقال في بيان أصول الجرائم «قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق» ﴿ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ هذا التفات عن حكاية المثل إلى مخاطبة البغاة أينما كانوا، وفي أي زمان وجدوا، مبدوءاً بالنداء الذي يصيح به الواعظ المنذر بالبعيد في مكانه، أو الغافل الذي يشبه الغائب في حاجته إلى من يصيح به لينبهه، يقول: يا أيها الضالون عن رشدهم، الغافلون عن أنفسهم، حسبكم بغياً على المستضعفين منكم، وغروراً بكبريائكم وقوتكم، إنما بغيكم في الحقيقة على أنفسكم، لأن عاقبة وباله عائدة عليكم، أو: لأن من تبغون عليهم هم من قومكم أو من أبناء جنسكم، كقوله: «ولا تقتلوا أنفسكم» المراد به ولا يقتل بعضكم بعضاً، والشر داعية الشر ﴿متاع الحياة الدنيا﴾، أي: حال كون بغيكم ـ أو تتمتعون ببغيكم ـ متاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة، فهو ينقضي وعقابيله باقية، وأقلها توبيخ الوجدان، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾، أي: ثم إنكم بعد هذا التمتع القليل ترجعون إلينا وحدنا ﴿فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ دائماً من الظلم والبغي والتمتع بالباطل مصرين فنجازيكم به.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

٢٤ ــ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء﴾، أي: لا شبه لها في صورتها ومآلها إلا ماء المطر في جملة حاله الآتية ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾، أي: فأنبتت الأرض أزواجاً شتى من النبات وتشابكت بسببه، واختلط بعضها ببعض في تجاورها وتقاربها، على كثرتها واختلاف أنواعها وصفاتها ﴿مما يأكل الناس والأنعام﴾ بيان لأزواج النبات وكونها شتى، كافية للناس في أقواتهم ومراعي أنعامهم، وكل مرامي آمالهم ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾، أي: حتى إذا كانت الأرض بها في خضرة زروعها السندسية، وألوان أزهارها الربيعية، كالعروس إذا أخذت حليها من الذهب والجواهر، وحللها من الحرير الملون بالألوان المختلفة ذات البهجة، فتحلت وازينت بها استعداداً للقاء الزوج، ولا تغفل عن حسن الاستعارة في أخذ الأرض زينتها، حتى كان استكمال جمالها، كأنه فعل عاقل حريص على منتهى الإبداع والإتقان فيها «صنع الله الذي أتقن كل شيء» ﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ متمكنون من التمتع بثمراتها، وإدخار غلاتها، ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾، أي: نزل بها في هذه الحال أمرنا المقدر لإهلاكها بجائحة سماوية ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم غافلون ﴿فجعلناها حصيداً﴾، أي: كالأرض المحصودة التي قطعت واستؤصل زرعها، فالحصيد يُشَبَّهُ به الهالك من الأحياء، ومنه: «فجعلناهم حصيداً خامدين» ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾، أي: هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء، حتى كأنها لم تنبت ولم تمكث قائمة نضرة بالأمس، يقال: «غني في المكان» إذا أقام به طويلاً كأنه استغنى به عن غيره، و«الأمس»: الوقت الماضي، القريب كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً اهـ وأما

(أمس) غير معروف فهو اسم لليوم الذي قبل يومك ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾، أي: كهذا المَثَل في جلائه وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها، عند تعلق الآمال بنوالها، نفصل الآيات في حقائق التوحيد وأصول التشريع وأمثال الوعظ والتهذيب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم، واستعدادهم لمعادهم، لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها، ويزنون أعمالهم بموازينها، فيتبينون ربحها وخسرانها.

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

٢٥ ـ ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ الجملة عطف على محذوف يدل عليه السياق وقرينة المقابلة، أي: ذاك الإيثار لمتاع الدنيا والإسراف والبغي فيه، وهو ما يدعو إليه الشيطان، فيسوق متبعيه إلى النار، دار الخزي والنكال، والله يدعو عباده إلى دار السلام وهي الجنة، وفي المراد بـ «السلام» الذي أضيفت إليه الدار وجوه يصح أن تراد كلها.

أولها: أنه السلامة من جميع الشوائب والمصائب والمعايب، والنقائص والأكدار، والعداوة والخصام.

الثاني: أنه تحية الله وملائكته لأهلها، وتحية بعضهم لبعض الدالة على تحابهم وتوادهم وقد تقدم شرحه قريباً.

ثالثها: أن السلام من أسمائه عز وجل، وأضيفت دار النعيم إليه تعظيمًا

لشأنها، وهو مصدر وصف به للمبالغة كالعدل، ويدل على كمال التنزيه، والسلامة من كل ما لا يليق برب العالمين ﴿ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾، أي: يهدي من يشاء إلى الطريق الموصل إليها من غير تعويق لأنه مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، وهو الإسلام وعقائده وفضائله وعباداته وأحكامه.

٢٦ ـ ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام، فوصلوا بالسير عليه إلى غايته وهي دار السلام، أي: للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى، أي: التي تزيد في الحسن على إحسانهم وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر، كما قال في سورة «النَّجم»: «ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» ولهم زيادة على هذه الحسنى، هي فوق ما يستحقونه على أعمالهم بعد مضاعفتها التي هي من جزائها مهما تكن حسنة كما قال «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله»،

وقد ورد في الأحاديث الكثيرة من الطرق العديدة: أن هذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم، وهو أعلى مراتب الكمال الروحاني الذي لا يصل إليه المتقون المحسنون العارفون إلا في الآخرة.

﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾، أي: لا يغشى وجوههم في الآخرة شيء مما يغشى وجوه الكفرة الفجرة من الكسوف والظلمة والذلة، كما يأتي قريباً في المقابلة بين الفريقين ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أولئك المصوفون بما ذكر أصحاب الجنة دار السلام والإكرام، خالدون مقيمون فيها لا يبرحونها.

٢٧ ـ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾، أي: جزاؤهم على هذا النحو جزاء وفاقاً، لا يزادون على ما يستحقون بسيائتهم من العذاب شيئاً ﴿وترهقهم ذلة﴾، أي: تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزي بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ ما لهم من

أحد ولا من شيء يعصمهم ويمنعهم من عذاب الله، كالذين اتخذوهم في الدنيا من الشركاء، وزعموهم من الأولياء والشفعاء؛ أو ما لهم من عند الله ومن فضله من عاصم يحفظهم من عذابه كعفوه ومغفرته، فإنه لا يغفر أن يشرك به، أو كالشفعاء الذين يشفعون بإذنه لم ارتضى من عباده إظهاراً لكرامتهم، لأن هذه الشفاعة الخاصة لا تصيب فيها لمنتحلي الشفاعة الشركية الذين كانوا يزعمون في الدنيا أن لشفعائهم تأثيراً في مشيئة الله وأفعاله حتى يحملوه على فعل ما لم يكن يفعله لولا شفاعتهم، فيجعلون ذاته وصفاته وأفعاله معلولة تابعة لما يطلبونه منه، وأما شفاعة الايمان الصحيحة فهي تابعة لمشيئته ولمرضاته «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى» ﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً﴾، أي: كأنما قُدَّ لوجوههم قطع من أديم الليل حال كونه حالكاً مظلمًا، ليس فيه بصيص من نور قمر طالع، ولا نجم ثاقب، فأغشيتها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، وإنه لتشبيه عظيم في بلاغة المبالغة في خذلانهم وفضيحتهم التي تكشف نور الفطرة، والظاهر أن سواد وجوههم حقيقي ومجازي ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، أي: أولئك الموصوفون بما ذكرهم أصحاب النار خالدون فيها لا يبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين فيعاقبون على ما اجترحوا من السيئات ثم يخرجون منها.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

٢٨ ــ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾، أي: واذكر أيها الرسول لفريقي الناس الذين ضربنا لهم ما سبق من الأمثال، وبينا ما يعملون من الأعمال، يوم نحشرهم جميعاً في موقف الحساب لا يتخلف منهم أحد، أو الظرف متعلق بقوله

تعالى في الآية التالية: «هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت» وفي بعض الآيات «ويوم نحشرهم وما يعبدون» ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم﴾، أي: ثم نقول للمشركين منهم بعد وقوف طويل لا يخاطب فيه أحد بشيء ــ كما تعدل عليه بعض الآيات ــ: الزموا مكانكم لا تبرحوه حتى تنظروا ما يُفْعَلُ بكم ﴿أنتم وشركاؤكم﴾، أي: الزموه أنتم وشركاؤكم، أي: الذين جعلتموهم شركاء لله لنفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم لهم ما يقول كل منكم فيها ﴿فزيلنا بينهم﴾ أي: فرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله، وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب، و«التزييل»: من زَاله يَزَالُهُ، كَنَالَه ينالهُ بمعنى: نَـحَّاه، و«زايلتُه»: فارقتُه، و«تزيلوا»: تميزوا بافتراق بعضهم من بعض، ﴿وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾، أي: ما كنتم تخصوننا بالعبادة وإنما كنتم تبعدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوين لكم، وتتخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل ومواسم لمنافعكم ومصالحكم، وليس هذا شأن العبودية الصادقة للمعبود الحق، الذي يطاع ويعبد لأنه صاحب السلطات الأعلى على الخلق، وبيده تدبير الأمر، ومصادر النفع والضر، والمراد أنهم يتبرأون منهم كما صرح به في آيات أخرى.

٢٩ ــ ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾، أي: فكفى الله شهيداً وحكمًا بيننا وبينكم فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾، أي: إننا كنا في غفلة عن عبادتكم لا ننظر إليها ولا نفكر فيها، وقيل: إن المراد بالغفلة عنها عدم الرضا بها.

٣٠ ــ ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾، أي: في ذلك المكان وهو موقف الحساب، أو في ذل الوقت أو اليوم، تُخْتَبَرُ كل نفس من عابدة ومعبودة ومؤمنة وجاحدة، وشاكرة وكافرة، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل، وما كان لكسبها في صفاتها من أثر، من خير وشر، ونفع وضر، بما ترى من الجزاء عليه، وكونه ثمرة طبيعية له، لا شأن فيه لولي ولا شفيع ولا معبود ولا شـريك ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾، أي: أُرجعـوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء والشفعاء، والأنداد

والشركاء، على اختلاف الأسماء، كما ثبت في الآيات الكثيرة كقوله: «إلى الله مرجعكم»، «إلى ربكم مرجعكم»، «وإلى الله المصير»، «وإليه المصير»، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾، أي: وضاع وذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والأولياء، فلم يجدوا أحداً ينصرهم ولا ينقذهم «يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله».

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

٣١ ــ ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾، أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المعاندين من أهل مكة: من يرزقكم من السماء بما ينزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات نجمه وشجره مما تأكلون وتأكل أنعامكم؟ ﴿أم من يملك السمع والأبصار﴾ بل قل لهم أيضاً: من يملك ما تتمتعون به أنتم ـ يركم من حواس السمع والإبصار التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أمر العالم شيئاً، بل تكون الأنعام والحشرات ــ وكذا الشجر والنبات ــ خيراً منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها، من يملك خلق هذه الحواس وهبتها للناس، وحفظها من الآفات؟ وخص هاتين الحاستين بالذكر لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية وكمال البشرية، وتحصيل العلوم الأولية، يشعر بذلك المسؤولون بمجرد إلقاء السؤال، ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾، أي: ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في العالم كله، فيخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض، فيما تعرفون من المخلوقات التي تحدث وتتجدد وفيما لا تعرفون؟ فمما كانوا يعرفون أن النبات يخرج من الأرض

الميتة بعد إحياء الله تعالى إياها بماء المطر النازل عليها من السماء، أو النابع منها بعد أن سلكه الله تعالى فيها كما قال: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه» الآية. بل كانت الحياة المعروفة عندهم قسمين: حياة النبات وآيتها النمو، وحياة الحيوان وآيتها النمو والاحساس والحركة بالإرادة، وكانوا يعدون وصف الأرض بالحياة مجازاً، ولم يكونوا يصفون أصول الأحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيه، ولذلك فسر بعض المفسرين إخراج الحي من الميت والميت من الحي بخروج النخلة من النواة والطائر من البيضة وعكسهما وما يشابههما.

والمراد من الآية إثبات قدرة الخالق وتدبيره ونعمه على عباده، وهو عام لا يتوقف على الفن ومحدثات العلم بل تزيده كمالاً للمؤمن المعتبر، وقد تكون حجاباً لغيره تحجبه عن ربه، فالقاعدة عند علماء الحياة أن الحي لا يخرج إلا من حي، فتعين أن تكون الحياة الأولى من خلق الله الحي بذاته المحيي لغيره. وورد في التفسير المأثور تفسير الحياة والموت في مثل هذه الآية بالمعنويين منهما، كخروج المؤمن من سلالة الكافر، والعالم من الجاهل، والبَرِّ من الفاجر وعكسها، وقد قدمناه في تفسير الآية «٧»[1] من «آل عمران» الوارد فيه لأنه المناسب لسياقها ﴿ومن يدبر الأمر﴾ في الخليقة كلها بما أودعه في كل منها من السنن وقدره من النظام، ﴿فسيقولون الله﴾، أي: فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس أن فاعل ذلك كله هو الله رب كل شيء ومليكه، إذ لا جواب غيره وهم لا يجهلونه، فالاستفهام عنه لحملهم على الإقرار به ليرتب عليه قوله ﴿فقل أفلا تتقون﴾، أي: فقل لهم أيها الرسول أتعلمون هذا وتقرون به فلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشرككم به وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم من تلك الأمور شيئاً، وهو المالك لها كلها؟

٣٢ ـ ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾، أي: فذلكم الذي يفعل ما ذكر الله ربكم، أي: المربِّي لكم بنعمه والمدبر لأموركم، الحق الثابت بذاته، لأنه هو الحي القيوم، الحي بذاته، المحيي لغيره، القائم بنفسه، المقيم لغيره، وإذا

(١) أي في، ص ٢٩١ من الجزء الأول.

كان هو ربكم الحق الذي لا ريب فيه، المستحق للعبادة دون سواه ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ الاستفهام إنكاري، وفي الجملة إدماج بما يسمونه الاحتباك، أي: فماذا بعد الحق إلا الباطل؟ وماذا بعد الهدى إلا الضلال؟ والواسطة بين الطرفين المتضادين المتناقضين ممنوعة، فالذي يفعل تلك الأمور هو الرب الحق فالقول بربوبية ما سواه باطل، وهو الإله الذي يعبد بحق، وعبادته وحده هي الهدى، فما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال، فكل من يعبد غيره معه فهو مشرك بمطل ضال ﴿فأنى تصرفون﴾، أي: فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، بعد العلم والإقرار بما كان به الله هو الرب الحق، وإنما الإله الحق، الذي يعبد بالحق، هو الرب الحق، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية؟ فتتخذون مع الله آلهة أخرى.

٣٣ ـ ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا﴾، أي: مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والألوهية، وكون الحق ليس بعده لتاركه إلا الباطل، والهدى ليس وراءه للناكب عنه إلا الضلال، حقت كلمة ربك، أي: سنته أو وعيده على الذين فسقوا، أي: خرجوا من حظيرة الحق وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق، ففي كلمة «الرب» وجهان، لكل منهما أصل في القرآن، أحدهما: أنها كلمة التكوين، وهي سنته في الفاسقين الخارجين من نور الفطرة واستقلال العقل الذين لا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والتفرقة بين الهدى والضلال لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد والعمل فقوله ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ عل هذا بيان للكلمة أو بدل منها، أي: اقتضت سنته في غرائز البشر وأخلاقهم أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن آياتها بينة، وحججهم قوية ظاهرة، وليس معناه أنه تعالى يمنعهم من الإيمان منعاً قهرياً مستأنفاً بمحض قدرته، بل معناه أنهم يمتنعون منه باختيارهم ترجيحاً للكفر عليه. ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في هذه السورة «إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم».

والوجه الثاني: أنها كلمة خطاب التكليف بوعيد الفاسقين الكافرين بعذاب الآخرة كقوله في سورة ألم السجدة: «وأما الذين فسقوا بمأواهم النار»

وقوله في سورة «غافر»: «وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النـار»، ويكون قوله: «أنهم لا يؤمنون»، على هذا تعليلاً لما قبله بحذف حرف الجر أي: لأنهم أو بأنهم لا يؤمنون. وكل من الوجهين حق ظاهر والأول أظهر هنا.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

٣٤ ــ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، أي: قل لهم أيها الرسول: هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من له هذا الشأن في الكون؟وهو: بدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر، سواء كان من الأصنام المنصوبة، أو من االأرواح التي تزعمون أنها حالة فيها، أو من الكواكب المساوية، أو غيرها من االأحياء كالجن والملائكة؟

ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عنه كما أجابوا عن أسئلة الخطاب الأول لإنكارهم البعث والمعاد، لا لاعتقادهم أن شركاءهم تفعل ذلك، لقن الله رسوله الجواب ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فأدمج إثبات البعث في توحيد الربوبية لأنه يقتضيه ويستلزمه، فإن الرب القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته بالأولى ﴿فأنى تؤفكون﴾، أي: فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير، للعلم بالحقائق والبحث عن المصير؟

٣٥ ــ ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق؟﴾ هذا سؤال عن

شأن آخر من شؤون الربوبية، المقتضية لاستحقاق الألوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية، وهو الهداية التي تتم بها حكمة الخلق، ولما كان لا يمكنهم أن يَدَّعوا أن أحداً من أولئك الذين أشركوهم في عبادة الله تعالى يهدي إلى الحق من ناحية الخلق والتكوين، ولا من ناحية التشريع، لقن الله رسوله الجواب بقوله: ﴿قل الله يهدي للحق﴾ فعل «الهدى» يتعدى بنفسه فيفيد اتصال الهداية بمتعلقها مباشرة، وباللام فيفيد التقوية أو العلة والسببية،وبـ «إلى» للغاية التي تنتهي إليها الهداية، وقد جمع في هذه الآية بين التعدية بالحرفين وبين ترك التعدية. أما الأول: فقد عَدَّاه بإلى في حيز الاستفهام الإنكاري للإيذان بأنه لا أحد من هؤلاء الشركاء المتخَذين بالباطل يدل الناس على الطريق الذي ينتهي سالكه إلى الحق من علم وعمل، وهو التشريع، فهو ينفي المقدمات ونتائجها، والأسباب ومسبباتها، وأما الثاني: وهو تعديته باللام فهو يستلزم الأول، وأما الثالث: أي حذف المتعلق فهو في الشق الثاني من قوله ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يَهِدِّي إلا أن يهدى﴾ قرأ يعقوب وحفص «يهِدِّي» بكسر الهاء وتشديد الدال، وأصله: يهتدي، وقرأها حمزة والكسائي بالتخفيف «كيَرْمي»، ومعنى القراءتين مع ما قبلهما نصاً اقتضاء: أفمن يهدي إلى الحق «يَهِدِّي» له ويهديه ــ وهو الله تعالى ــ أحق أن يُتَّبع فيما يشرعه، أم من لا ويهدي غيره ولا هو يهتدي بنفسه ممن عُبِدَ من دونه إلا أن يْهدِيَهُ غيره، أي: الله تعالى إذ لا هادي غيره؟ وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال، لأن من نفي عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزيراً والملائكة عليهم السلام، وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا» وقال أبو جعفر النحاس: الاستثناء منقطع كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع. أي: لكنه يحتاج أن يسمع، فمعنى «إلا أن يْهُدى» لكنه يحتاج أن يْهُدَى، اهـ.
﴿فما لكم كيف تحكمون﴾، هذا تعجيب من حالهم في جعلهم مَنْ هذه حالهم مِنْ العجز المطلق شركاء مع القادر على كل شيء، أورده باستفهامين تقريعيين متواليين، والمعنى: أي شيء أصابكم وماذا حل بكم حتى اتخذتم شركاء هذه حالهم وصفتهم فجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق

ولا مدبر ولا هادي لكم ولا لأحد منهم سواه؟ كيف تحكمون بجواز عبادتهم، وبما زعمتم من وساطتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه؟

٣٦ ـ ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً﴾، أي: إن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير ربهم، ولا في إنكارهم للبعث، وتكذيبهم للرسول ﷺ إلا ضرباً من ضروب الظن قد يكون ضعيفاً كما يشير إليه تنكيره، وذلك كاستبعاد غير المألوف، وقياس الغائب والمجهول، على الحاضر والمعروف، وتقليد الآباء ثقة بهم، وأما غير الأكثر فكانوا يعلمون أن ما جاءهم به الرسول هو الحق والهدى، ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسوله عناداً واستكباراً في الأرض وضَنًّا برياستهم وزعامتهم أن يهبطوا منها إلى اتباع من دونهم ثروة وقوة ومكانة في قومهم، ويجوز أن يكون التعبير بالأكثر جاء على سنة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب بالحق والعدل، فإنه تارة يحكم على أكثرهم، وتارة يستثني من الاستغارق والإطلاق القليلَ منهم، فيكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى أنه يقل فيهم ذَوُو العلم، فإن قيل: وما حكم الله في الظن؟ فالجواب: ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ من الإغناء ولو قليلاً، أي: لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق، فيكون ـ أي: الظن ـ بدلاً من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدِّين، فإن الحق هو الأمر الثابت المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه، والمظنون ـ وإن كان راجحاً عند صاحبه ـ عرضة للشك يتزلزل ويزول إذا عصفت به أَيَّة عاصفة من الشبهات، واستدل العلماء بهذه الآية هنا وفي سورة «النجم»[1] على أن العلم اليقيني واجب في الاعتقاديات، وأن إيمان المقلد غير صحيح[2]. ويدخل في الاعتقاديات الإيمان بوجوب أركان الإسلام

---

(١) قوله: «وفي سورة النجم» يعني قوله تعالى: «وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً».

(٢) قوله: «وأن إيمان المقلد غير صحيح»، هذا على إطلاقه قول نقل عن المعتزلة، أما علماء أهل السنة والجماعة: فاختلفوا في صحة إيمان المقلد بسبب اختلافهم في تعريف المقلد وما إذا كانَ جازماً في تقليده، أو غير جازم، فالمقلِّد: هو: «مَنْ أخذ بقول غير المعصوم في العقائد من غير حجة ولا دليل ولا تفكر في خلق السماوات والأرض» وحقق بعضهم القول =

وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك، وقد بيّنا من قبل أن اليقين المشروط في صحة الإيمان شرعاً هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الصحيح الذي لا شك معه ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها بحسبه.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

٣٧ ـ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾، أي: وما كان هذا القرآن العظيم في علو شأنه، المعجز للخلق في أسلوبه ونظمه، وعلومه العالية، وحكمته السامية، وتشريعه العادل، وآدابه المثلى، وتمحيصه للحقائق الالهية والاجتماعية، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية، وجعل المقصد من إصلاحه ما بينه آنفاً من اتباع الحق والهدى، واجتناب الضلال باتباع الهوى، والاعتماد فيهما على العلم الصحيح، ما كان وما صح ولا يعقل أن يفتريه أحد

= في هذه المسألة ـ كالتاج السبكي ـ فقال: إن كان المقلد جازماً بصدق قول الغير دون حجة، وكان جزمه مطابقاً للواقع من غير شك ولا ترديد، صح إيمانه ويكفيه ذلك عند أهل السنة، وإن لم يجزم اعتقاده بما أخبره به الغير لم يكفه ذلك الاعتقاد في صحة إسلامه، ولا يعتبر إيمان هذا صحيحاً، وعلامة الجزم: أن يكون بحيث إن رجع المقلَّد لا يرجع المقلِّد.

هذا بالنظر إلى أحكام الآخرة، أما أحكام الدنيا، فيكفي فيها الإقرار فقط، ولا يُحْكم عليه بالكفر إلا إذا ظهر منه ما يناقض الإيمان، ولكن مما لا خلاف فيه أن المقلِّد ـ في حال صحة إيمانه ـ عاصٍ لتركه النظر والاستدلال إن قدر عليه. والسؤال عن الدليل الذي اعتمد عليه من قلده.

على الله ويسنده إليه إلا بوحي منه تعالى، إذ لا يقدر غيره عز وجل عليه ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾، أي: ولكن كان تصديق الذي سبقه من الوحي لرسل الله تعالى بالإجمال كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، بدعوته إلى أصول دين الله الإسلام التي دعوا إليها، من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح أو تصديق ذلك بكونه جاءوفاقاً لما دعا به إبراهيم لأهل حرم الله، ولما بَشَّر به موسى وعيسى والنبيون من نبوته ﴿وتفصيل الكتاب﴾، أي: لما أجمل في الكتاب الإلهي، أي: جنسه وهو يشمل كل ما شرعه الله تعالى قبله ليكتب ويهتدي به جميع البشر من العقائد والشرائع، والعِبَر والمواعظ، وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه ﴿لا ريب فيه﴾، أي: هو لا ريب فيه، أو حال كونه لا ريب فيه، أي: ليس فيه مثار للشك ولا موضع للريب، لأنه الحق والهدى ﴿من رب العالمين﴾ من وحيه لا يقدر عليه غيره، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

٣٨ ـ ﴿أم يقولون افتراه﴾ انتقال من بيان كونه أجلَّ وأعلى من أن يُفْترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله، إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أن محمداً ﷺ افتراه، والاستفهام فيه للإنكار والتعجيب، أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجيز وهو ﴿قل فأتوا بسورة مثله﴾ في أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه مفتراة في موضوعها، لا تلتزمون أن تكون حقاً في أخبارها ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ واطلبوا للمظاهرة لكم والإعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله فإن جميع الخلق يعجزون عن ذلك مثلكم، فهذا كقوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» ﴿إن كنتم صادقين﴾ في زعمكم أني افتريته. والجمهور على أن لفظ «سورة» هنا يصدق بالقصيرة كالطويلة وبيَّنا وجهه في تفسير آيةالتحدي[1] من سورة «البقرة» وهو المتبادر من تنكير السورة،

---

(١) قوله: «آية التحدي» هي قوله تعالى: «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للمتقين» ـ الآية «٢٤» منها.

إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم، أو: لنوع من السور يدل عليه دليل، كالسور التي فيها قصص الأنبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء تتعلق تهمته بالأخبار لا بالإنشاء من أمر ونهي.

٣٩ ـ ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ هذا إضراب عن بعض ما يتضمنه قولهم: «افتراه» وما يستلزمه ككونهم يعتقدون أن محمداً ﷺ كان يكذب، أو أن القرآن في جملته افتراء منه، وقد ثبت أنهم كانوا يعلمون تحريه الصدق في كل ما يقوله، وانتقال إلى بيان موضوع تكذيبهم بظنهم، وهو ما أنذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا له ويتبعوه، وقد وصفه بعدم إحاطتهم بعلمه، أي: لم يعلموه من جميع وجوهه ونواحيه، وإنما ظنوا ظناً، والظن لا يغني من الحق شيئاً ﴿ولما يأتهم تأويله﴾، أي: ولم يأتهم إلى الآن ما يؤول إليه ويكون مصداقاً له بالفعل، وإتيانه متوقع بل آت لا بد منه ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ شبه تكذيب مشركي مكة لمحمد ﷺ بتكذيب من قبلهم من مشركي الأمم لرسلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به، كما ترى في قصصهم المفسَّرة في السور العديدة ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾، أي: فانظر أيها الرسول أو العاقل المعتبر، كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسه بتكذيب رسلهم؟ وهو تأويل وعيدهم لهم، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم، وهذه العاقبة مبينة بالإجمال في قوله «فكُلًّا أخذْنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» وسيأتي ما يؤيده ما قررنا كله قريباً في الآيات «٤٦ ـ ٥٥» من هذه السورة.

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

٤٠ ـ ﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ يقول تعالى لرسوله خاتم النبيين ﷺ: إن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذين كذبوا رسلهم إلا قليلاً منهم، فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال، بل سيكون قومك قسمين: قسمًا سيؤمن بهذا القرآن، وقسمًا لا يؤمن به أبداً ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ في الأرض بالشرك والظلم والبغي لفساد فطرتهم وفقدهم الاستعداد للإيمان، وهم الذين يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليه ويجزيهم في الآخرة بفسادهم، وقيل: إن الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي: أن بعضهم يؤمن به في الباطن وإنما يكذبه في الظاهر عناداً واستكباراً، ومنهم من لا يؤمن به جهلاً وتقليداً، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للإيمان وهم الأقلون.

٤١ ـ ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، أي: وإن أصروا على تكذيبهم فقل لهم:

لي عمل بمقتضى رسالتي وهو البلاغ المبين، والإنذار والتبشير، وما يستلزمه من العبادة والإصلاح، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار.

ولكم عملكم بمقتضى تكذيبكم وشرككم، وهو الظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، ويقال لكم: «هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون» كما يأتي في الآية «٥٢» من هذا السياق، وهذا كقوله تعالى «قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً» ﴿أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ فلا يؤاخذ الله أحداً منا بعمل الآخر. وهذا كقوله «أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون» وقوله: «فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون».

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

٤٢ ـ ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾، أي: يصيخون بأسماعهم مصغين إليك إذا قرأت القرآن، أو بينتَ ما فيه من أصول الإيمان والأحكام، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به، ولا يفقهون ما يرمى إليه، ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ هذا الاستفهام للإنكار يعني: أن السماع النافع للمستمع هو ماعقل به ما يسمعه وفقهه وعمل بمقتضاه، فمن فقد هذا كان كالأصم الذي لا يسمع، وأنت أيها الرسول لم تؤت القدرة على إسماع الصُّمِّ، أي: فاقدي حاسة السمع حقيقة، فكذلك لا تستطيع الإسماع النافع للصم مجازاً، وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون ولا يفقهون معناه فيهتدون به.

٤٣ ـ ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾، أي: يوجه أشعة بصره إليك عندما تقرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، وهيبة الخشوع للديان، وكمال الخُلُق والخلق، وأمارات الهدى والحق، وايات التزام الصدق، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عندما رأى النبي ﷺ: والله ما هذا بوجه كذاب.

ومن فقد البصيرة العقلية والقلبية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين، وعدم النظر المعنوي بالعقل، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الإنسان عن بصر الحيوان، فكأنه أعمى العينين ﴿أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾، أي: إنك أيها الرسول لست بقادر على هداية العمي بدلائل البصر الحسية، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائله العقلية، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدركها؟ وقد أسند فعل الاستماع إلى الجمع لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه، وأسند فعل النظر إلى المفرد لأنه جنس واحد.

والمراد من الآيتين: أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد لها بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجه النفس وصحة القصد، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل

البصرية والسمعية لإدراك مطلب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الغريزي ولا نعمة الحواس بل استعمالها النافع، ويدل على هذا قوله:

٤٤ ـ ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾، أي: الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سنته في خلق الناس إن ينقصهم شيئاً من الأسباب التي يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم ومنافعهم من الأعمال الاختيارية الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، وهي: الحواس الخمس والعقل وسائر القوى، فالظلم هنا بمعناه اللغوي الأصلي وهو: نقص ما تقتضي الخلقة الكاملة وجودَه كقوله تعالى «كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً» ﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾، أي: يظلمونها وحدها لأن عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين، وهو عدم استعمالها فيما منحهم إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الأعمال، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدارين، المنجي من عذابهما. ويحتمل أن يراد به أنه تعالى لا يظلمهم بعقابه لهم شيئاً بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون غيرهم على قاعدة قوله تعالى «ولا تكسب كل نفس إلا عليها».

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

٤٥ ـ ﴿ويوم يحشرهم﴾ بالياء، أي: واذكر أيها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله ـ وهذه قراءة عاصم، وقرأها الباقون «نحشرهم» بالنون، أي: نجمعهم ببعثهم بعد موتهم ونسوقهم إلى مواقف الحساب والجزاء ﴿كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾، أي: كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار ريثما يعرف فيها بعضهم بعضاً كأولي القربى والجيران ثم

زالت، فإن الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة. فالتشبيه بيان لحالهم في تذكرهم للدنيا.

يعني: أن هذه الحياة الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم، وسيقدرون يوم القيام قصرها بساعة من النهار، ويقدرها بعضهم بيوم أو بعض يوم، كما ورد في آيات أخرى، وقيل: إنهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتفارقوا ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله﴾، أي: خسروا السعادة الأبدية إذ لم يستعدوا له بالإيمان وعمل الصالحات المزكية للنفس، المرقية للروح، بما تكون أهلاً لكرامته ومثوبته، ورضوانه الأكبر في جناته، ﴿وما كانوا مهتدين﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني، على النفيس الخالد الباقي، أو خسروا تجارتهم في الدنيا وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة والربح في الآخرة.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ

لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

٤٦ ـ ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ هذه جملة شرطية زيدت «ما» في حرف الشرط «إنْ» ونون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجاً فالمعنى: وإن نرينك أيها الرسول بعض الذي نعدهم من العقاب في الدنيا فذاك، وفيه إشارة إلى أنه سَيُريه بعضه لا كله ﴿أو نتوفينك﴾ بقبضك إلينا قبل إراءتك إياه ﴿فإلينا مرجعهم﴾ وعليناحسابهم، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة، ويجوز أن يجعل هذا جواب الشرط بقسميه، والمعنى: فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالين ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ بعدك أو مطلقاً فيجزيهم به على علم وشهادة حق، والمراد: أنه لا فائدة لهم مما حكاه تعالى عنهم في تربصهم موت النبي ﷺ واستراحتهم من دعوته فالعذاب واقع بهم ما له من دافع.

٤٧ ـ ﴿ولكل أمة رسول﴾، أي: أنه تعالى جعل لك أمة من الأمم الخالية رسولاً بعثه فيها في وقت الحاجة إليه يبين لهم أصول دينه الثلاث: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح المناسب لحال زمانهم ﴿فإذا جاء رسولهم﴾ وقامت الحجة عليهم ﴿قضي بينهم بالقسط﴾، أي: قضى الله بينه وبينهم بالعدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ في قضائه تعالى فإنه منزه عن الظلم، وفي الآية تكذيب لليهود ومقلديهم بزعمهم أن الرسالة خاصة ببني إسرائيل.

٤٨ ـ ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾، أي: ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين: متى يقع هذا الوعد الذي تعدوننا به ﴿إن كنتم صادقين﴾ في قولكم: إن الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا؟ ولقد لقن الله رسوله الجواب بقوله:

٤٩ ـ ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾، أي: إنني بشر رسول،

لا أملك لنفسي ــ فضلاً عن غيرها ــ شيئاً من التصرف في الضر فأدفعه عنها ولا النفع فأجلبه لها، من غير طريق الأسباب التي يقدر غيري عليها، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿إلا ما شاء الله﴾، أي: لكن ما شاء الله من ذلك كان متى شاء، لا شأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة، التي وظيفتها التبليغ لا التكوين. هكذا قال جمهور المفسرين: إن الاستثناء هنا منقطع وله أمثال، وقيل: إن الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عاماً لما يملكه الإنسان بالأسباب العادية، والمعنى: إلا ما شاء الله تعالى أن أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده، لا مما يملكه رسله ﴿لكل أمة أجلٌ﴾ لبقائها وهلاكها علمه الله وقدره لها لا يعلمه، ولا يقدر عليه غيره ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، أي: لا يتأخرون عنه ساعة كما أنهم لا يتقدمون عليه فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قلّت، فلا معنى لاستعجاله ولا لسؤال الرسول عنه، فهذا جوابه من ناحية مَنْ يملك إنجاز الوعد، وأما جوابه من ناحية من ينفذ فيهم فهو:

٥٠ ــ ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياناً أو نهاراً﴾، أي: قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله إن أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل، أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو أمور معاشكم بالنهار، ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾، أيُّ شيء أو أيُّ نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن؟ أعذاب الدنيا أم قيام الساعة؟ أيًا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة، وقيل: إن المعنى، ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أتاكم.

٥١ ــ ﴿أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به﴾ استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب، وتقدير الكلام: أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلاً من الإيمان الذي يدفعه عنهم وعنكم، ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الإيمان، لأنه صار

ضرورياً بالمشاهدة والعَيان، لا تصديقاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وقيل لكم حينئذ من قبل الله تعالى تقريعاً وتوبيخاً: ﴿الآن﴾، أي: أفي هذا الآن الذي وقع فيه، تؤمنون به اضطراراً ﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾ تكذيباً به واستكباراً؟

٥٢ ـ ﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ «قيل» هذه معطوفة على «قيل» المقدرة قبل: «الآن وقد كنتم به تستعجلون»، أي: ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد، وبما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد: ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ ظاهر إضافةالعذاب إلى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة، وهو العذاب الخالد الدائم ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾، أي: لا تجزون إلا بما كنتم تكسبونه باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الأرض، والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه، وليس فيه شيء من الظلم، لأنه أثر لازم لتَدْسِيَة النفس وإفسادها بالظلم، حتى لم تَعُدْ أهلاً لجوار الله عز وجل، وليس عذاباً جاء سببه من خارجها.

٥٣ ـ ﴿ويستنبئونك أحق هو؟﴾، أي: ويسألونك أيها الرسول أن نبئهم عن هذا العذاب الذي تعدهم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل؟ أم هو إرهاب وتخويف ﴿قل إي وربي إنه لحق﴾، «إي» بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة: حرف جواب وتصديق بمعنى «نَعَم» وإنما يستعمل مع القسم، أي: نعم أقسم لكم بربي إنه لحق واقع ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ لله تعالى عن إنزاله بكم، ولا بفائتيه هرباً منه.

٥٤ ـ ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به﴾، أي: لو أن لكل نفس تلبست بهذا الظلم، جميع ما في الأرض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعيم،وأمكنها أن تفتدي به، أي: تجعله فداء لها من ذل العذاب، لافتدت به كله لا تدخر منه شيئاً ﴿وأسروا الندامة﴾ إسرار الشيء: إخفاؤه وكتمانه، وإسرار الحديث والكلام: خفض الصوت به، فهو ضد إعلانه والجهر به، أي: وأَسَرَّ أولئك الذين ظلموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم

أو كتموها في قلوبهم ﴿لما رأوا العذاب﴾، أي: رأوا مباديه عياناً بأبصارهم لما بُرِّزَت الجحيم، وأيقنوا أنهم مواقعوها لا مصرف لهم عنها، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الأول لقوله ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾، أي: وقضى الله بينهم وبينه خصومهم العدل والحق ﴿وهم لا يظلمون﴾، أي: لا يظلمهم الله، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم.

٥٥ ــ ﴿ألا إن لله ما في السماوات والأرض﴾ صدرت الجملة بحرف التنبيه «ألا» ليتذكر الناسي وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل إن لله وحده ما في العوالم العلوية وعالم الأرض، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء، في يوم البعث والجزاء ﴿ألا إن وعد الله حق﴾، أي: كل ما وعد به على لسان رسله حق واقع لا ريب فيه، لأنه وعد الملك الحق، القادر على إنجاز ما وعد لا يعجزه منه شيء ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾، يعني بـ«أكثرهم» الكفار منكري البعث والجزاء، أي: لا يعلمون أمر الآخرة لا من طريق النظر والاستدلال، ولا من طريق الإيمان.

٥٦ ــ ﴿هو يحيي ويميت﴾ بقدرته كما بسطناه في تفسير الآتيني «٣١ و٣٤» من هذه السورة ﴿وإليه ترجعون﴾ عندما يحييكم بعد موتكم ويحشركم ليحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

٥٧ ــ ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾، أي: قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة، وحكمة بالغة لإصلاح خفايا نفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة

للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين من رحمة رب العالمين العامة للخلق[1] أجمعين، يتراحمون بها فيما بينهم، فتكمل بها رحمته تعالى لهم، ورحمته للعالمين برسوله إليهم وبهم ـ أي: وبالمؤمنين ـ.

٥٨ ـ ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ فضل الله على جميع عباده عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع، وقد أمرهم أن يفرحوا بكل منهما دون ما عداهما من حظوظهم ﴿هو خير مما يجمعون﴾، أي: إن الفرح بفضله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب الفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، وسائر متاع الحياة الدنيا، مع فقد الفرح بهما، لأنه هو الذي يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل، إذ كانت هداية الإسلام بفضل الله وبرحمته سبباً لما ناله المسلمون في العصور الأولى من الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح والإصلاح، والعدل والإحسان.

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) قوله: «العامة للخلق أجمعين»، المراد بالرحمة هنا: الرحمة في الدنيا، فإن رحمته تعالى فيها وسعت كل شيء وتعم المؤمن والكافر، أما في الآخرة: فإن رحمة الله تعالى كلها للمؤمنين خاصة يرحمهم بها، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة، بين الجن والإنس والبهائم والهوامِّ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تعالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»، ولا رحمة ولا مغفرة في الآخرة لكافر بل عليه غضب من الله وله عذاب عظيم أليم دائم لا نهاية له ولا زوال.

٥٩ ـ ﴿قل أرأيتم﴾، أي: أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الالهي ﴿وما أنزل الله لكم من رزق﴾، أي: هذا الذي أفاضه الله عليكم من سماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان، وكل عطاء منه تعالى يُعَبَّر عنه بالإنزال كقوله تعالى: «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج» ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾، أي: فترتب على إنزاله لمنفعتكم أن جعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً. وقد تقدم تفصيل هذا في سورة «الأنعام» في الآيات «١٣٦ ـ ١٥٠» منها ﴿قل آلله أذن لكم﴾ هذا الاستفهام للتقرير، ومُدَّت همزته لدخولها على ألف اسم الجلالة. أي إنه ليس لأحد حق أن يحرم على الناس ويحل لهم إلا ربهم الله، فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك الوحي أنزله إليكم؟ ﴿أم على الله تفترون﴾ بزعمكم أنه حرمها عليكم؟ أي: لا مندوحة لكم عن الإقرار بأحد الأمرين: إما دعوى الإذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، وهو اعتراف بالوحي وأنتم تنكرونه، وإما افتراء الكذب على الله وهو الذي لزمكم بإنكار الأول إذ لا واسطة بينهما، ويحتمل أن يكون المعنى أن الله لم يأذن لكم بل أنتم تفترون عليه والغاية واحدة.

٦٠ ـ ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ سجل عليهم جريمة افتراء الكذب على الله وهو اختلاقه، وقفى عليه بالوعيد عليه مشيراً إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة. والمعنى: أَيُّ شيء ظنهم في ذلك اليوم الذي تجزى فيه كل نفس ما عملت؟ أيظنون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وهو تعمده في حق خاص بربوبيته، فهو نزاع له فيها وشرك به، ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ في كل ما خلقه لهم من الرزق، وكل ما شرعه لهم من الدين، ومنه أنه جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجل، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده، كالذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فضله عليهم كما يجب، كما قال «وقليل من عبادي الشكور» فيجنون على أنفسهم بتحريم ما لم يحرمه عليهم، وبغير ذلك.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

٦١ ـ ﴿وما تكون﴾ أيها الرسول ﴿في شأن﴾، أي: أمر من أمورك المهمة الخاصة بك أو العامة التي تعالج بها أمر الأمة، في الدعوة إلى سبيل ربك الحكمة والموعظة الحسنة، إنذاراً وتبشيراً، وتعليمًا وعملاً ﴿وما تتلو منه من قرآن﴾، أي: وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك، تعبداً به أو تبليغاً له، فـ «مِنْ» الأولى للتعليل والثانية للتبعيض، والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن وهو الأمر العظيم، أو: ذو البال يدل على أن جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة حتى العادات منها لأنه كان قدوة صالحة فيها كلها ﴿ولا تعملون من عمل﴾ هذا خطاب عام للأمة كلها في كل شؤونها وأعمالها، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شؤونه وأعلاها، فتذكّرك الآية في أخصر الألفاظ وأقصرها بأفضل ما آتاك الله من هداية ونعمة، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمثقال ذرة، ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾، أي: رقباء مطلعين عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾، أي تخوضون وتندفعون فيه، فنحفظه عليكم لنجزيكم به، وأصل الإفاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة أو بكثرة كما تقدم في ﴿وما يعزب عن ربك﴾، أي: وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه، ﴿من مثقال ذرة﴾، أي: أقل شيء يبلغ وزنه ثقل «ذرة» وهي: النملة الصغيرة يضرب بها المثل في الصغر والخفة، ويطلق على الدقيقة من الهباء وهو الغار الذي لا يُرَى إلا في ضوء الشمس الداخل من الكُوى إلى البيوت ﴿في الأرض ولا في السماء﴾، أي: في الوجود سفليه وعلويه ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ هذا كلام مستقل بنفسه قائم برأسه، مؤكد لما قبله بتمييز أدق وأشمل، و«لا» فيه نافية للجنس، أي: ولا شيء أصغر من الذرة

وهو ما لاتبصرونه من دقائق الكون كما قال: «فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون»، ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كعرشه عز وجل، ﴿إلا في كتاب مبين﴾، أي: إلا وهو معلوم ومحصي عنده ومرقوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكمالاً للنظام.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

٦٢ ــ ﴿ألا إن أولياء الله﴾ افتتحت هذه الجملة بكلمة «ألا» للتنبيه وتوجيه الفكر لها، و«الأولياء»: جمع «ولي» وهو وصف من الولاء والتوالي، ومن الولاية والتولي للأمر والحكم، فأولياء الله: أضدادُ أعدائه المشركين به الكافرين بنعمه، ؛ فهم المؤمنون المتقون كما نطقت به الآية، وهم درجات أعلاهم درجة هم الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، والتوكل عليه، وحبه والحب فيه، والولاية له، فلا يتخذون له أنداداً يحبونهم من نوع حبه، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه زلفى، ولا وكيلاً ولا نصيراً فيما يخرج عن توفيقهم لإقامة سننه في الأسباب والمسببات، ويتولون رسوله والمؤمنون بما أمرهم به، قال تعالى «وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون» وقال: «ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون» وقال: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أحصحاب النار هم فيها خالدون»، والآيات كثيرة في وَلْيهم له بالطاعة، وتولِّيه لهم بالهداية والعناية والإعانة والنصر والتوفيق. ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ كما يخاف ويحزن غيرهم لا في الآخرة ولا في الدنيا، فأما في الآخرة حيث يتحقق هذا على أتم وجه وهو المقصود بالذات، فلا خوف يقع عليهم ويرهقون به مما يخاف الكفار والفساق والظالمون، من أهوال الموقف وعذاب

الآخرة، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم، وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضعفاء الإيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع ولا هم يحزنون من مكروه أو ذهاب محبوب وقع بالفعل والمراد أنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم.

وأما أصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا.

٦٣ ـ ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ هذا استئناف لبيان حال هؤلاء الأولياء النفسية، العلمية والعملية، والتعريف بهم، أي: هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وملكة التقوى له عز وجل، وما تقتضيه من عمل، وعَبَّـر عن إيمانهم بالفعل الماضي لبيان أنه كان كاملاً ثابتاً، وعن تقواهم بالفعل الذي يدل على الحال والاستقبال لأن التقوى تتجدد دائمًا بحسب متعلقاتها: من كسب وحرب، وشهوة وغضب، والمعنى الجامع فيها: أنها اتقاء كل ما لا يرضي الله تعالى من ترك واجب ومندوب، وفعل محرم ومكروه، واتقاء مخالف سنن الله تعالى في خلقه.

٦٤ ـ ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ وهذه البشرى مبينة في مواضع من كتاب الله تعالى فأهمها البشارة بالنصر، وبحسن العاقبة في كل أمر، وباستخلافهم في الأرض، وأجمعها لمعاني الآية لأكملهم قوله تعالى: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشـروا بالجنة التي كنتم توعدون» ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾، أي: لا تغيير ولا خُلْفَ في مواعيد الله عز وجل، ومنها هذه البشارات وما في معناها من الآيات ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾، أي: ذلك الذي ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوزالعظيم الذي لا يعلوه فوز،وإنما هو ثمرة الإيمان الحق، والتقوى العامة في حقوق الله وحقوق الخلق.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

٦٥ ـ ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ نهاه عن الحزن والغم من قولهم الذي يقولونه في تكذيبه الذي تقدم مفصلاً في هذه السورة، فحذف مقول القول للعلم به وبين له سبب هذا النهي بقوله: ﴿إن العزة لله جميعاً﴾، أي: إنما الغلبة والقوة والـمَنَعَة لله جميعها، لا يملك أحد من دونه شيئاً منها، فهو يَهَبُها لمن يشاء ويَـحْرِمُها من يشاء، وقد وعد بها رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه، ﴿هو السميع﴾ لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك ﴿العليم﴾ بما يفعلون من إيذاء وكيد ومكر، فهو يذلهم ويحبط أعمالهم.

٦٦ ـ ﴿ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض﴾ من عابد ومعبود، فهو ربهم ومالكهم وهم عبيده المربوبون المملوكون له ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء﴾ له في ربوبيته وملكه، أي: إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غيرالله بدعائهم في الشدائد، واستغاثتهم في النوازل، والتقرب إليهم بالنذور والقرابين والوسائل، لا يتبعون شركاء له في تدبير أمور عباده ينفعونهم أو يكشفون الضر عنهم إذ لا شركاء له ﴿إن يتبعون إلا الظن﴾، أي: ما يتبعون في الحقيقة إلا ظنهم أن هؤلاء الذين يدعونهم أولياء لله وشفعاء عنده، ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾، أي: وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، إلا يخرصون خَرْصاً، وأصل «الـخَرْص» الـحَزْر والتقدير للشيء ولكثرة الخطأ فيه أطلق على لازمه الغالب وهو الكذب.

٦٧ ـ ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾، أي: هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته دون مساعد ولا شفيع، بل بمحض الحكمة البالغة والرحمة الشاملة:

أحدهما: الليل، جعله مظلمًا لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول الحركة والتقلب في الأرض، وتستريحوا من التعب في طلب الرزق، وثانيهما: النهار، جعله مضيئاً ذا إبصار لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب، والشكر للرب، فالمبصر هنا: معطي الإبصار وسببه حسياً كان أو معنوياً، وقال قطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء بمعنى صار ذا ظلمة وذا إبصار وذا ضياء اهـ. ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾، أي: إن فيها ذكر لدلائل بينات على وحدانيته في خلقه وتدبيره لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من آياته المنزلة سماع فقه وتدبر.

قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٦٨ ــ ﴿قالوا اتخذ الله ولداً﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض اليهود: عزيز ابن الله ﴿سبحانه﴾ كلمة التسبيح معناها: التنزيه والتقديس، أي: تسبيحاً له عز وجل عن كل ما لا يليق بربوبيته وألوهيته، وتقال في مقام التعجب، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما. وقفى على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم ما ليس لهم به علم فقال ﴿هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض﴾، أي: هو الغني بذاته عن الولد، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمور منها: بقاء ذكره به وبذريته، ومنها: أنه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته، ومنها: أن وجوده زينة له في داره يلهو به في صغره، ويفاخر به أقرانه في كِبَرِهِ، ومنها: أنه قد يحتاج إليه لقضاء مصالحه

وتنمية ثروته، وقد يحتاج إلى رِفْدِهِ، وبره، عند عجزه أو فقره، والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع لأنه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلاً وأبداً ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾، أي: ما عندكم أيُّ نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي، ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ هذا استفهام تبكيت وتوبيخ على أقبح الجعل والكفر، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم، قال البيضاوي وغيره: وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ اهـ[1].

٦٩ ـ ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكذب﴾ باتخاذهم الشركاء له، أو بزعمهم اتخاذه ولداً لنفسه، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم، وغيرهما من مسائل التشريع، أو بدعوى ولايتهم إطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه، ﴿لا يفلحون﴾، أي: لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار.

٧٠ ـ ﴿متاع في الدنيا﴾ هذا جواب لسؤال مقدر يد يرد على نفي فلاحهم بالإطلاق الذي يدخل فيه منافع الدنيا، والمفترون على الله بكل نوع من أنواع الافتراءات المقبولة عند الجاهلين، ـ لهم كثير من المنافع المادية والمعنوية من هؤلاء المساكين، فهو يقول هذا متاع قليل ـ أو لهم متاع في الدنيا حقير، يتلهون به في حياة قصيرة ﴿ثم إلينا مرجعهم﴾ بالبعث بعد الموت، وما فيه من أهوال الحشر والحساب والعَرْض ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ بآياتنا ونعمنا، وبالافتراء علينا، وتكذيب رسلنا، أو الكذب عليهم بعد أن تقوم عليهم الحجة.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ

---

(١) ارجع إلى تعليقنا حول «صحة إيمان المقلد» عند تفسير الآية ٣٦ من هذه السورة.

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

٧١ ــ ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾، أي: واقرأ أيها الرسول على هؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك، فيما أوعدتهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذبين لرسله من قبلك خبر نوح ذي الشأن العظيم ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله﴾، أي: نَبَأَه حين قال لهم هذا القول فكذبوه فأغرقناهم ونجيناه هو ومن آمن معه وجعلناهم خلائف الأرض ليعلموا من هذا النبأ الخاص سنته تعالى في نصر رسله على المكذبين من قبلهم، وأنه كذلك ينصرك عليهم، فيهلك المكذبين لك المغرورين بكثرتهم وقوتهم، وقلة من اتبعك وضعفهم، وأن هؤلاء الضعفاء سيكونون خلائف الأرض في قومهم وغير قومهم من سكان الأرض، قال نوح عليه السلام لقومه بعد أن طال مُكثه فيهم يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده والإصلاح في الأرض فملوا مقامه، وسئموا وعظه وائتمروا: به: «يا قومي إن كان كبر» أي: شق وعَظُم عليكم قيامي فيكم، أو مكاني من القيام بما أقوم به من دعوتكم إلى عبادة ربكم وتذكيري إياكم بآياته الدالة على وحدانيته، ووجوب عبادته وشكره، والرجاء في ثوابه للمؤمنين المتقين، أو الخوف من عقابه للمشركين المجرمين، ﴿فعلى الله توكلت﴾ دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم، أي: إن كان كَبُر عليكم ذلك وأردتم التفصي منه بالإيقاع: بي، فإنني قد وكلت أمري إلى الله الذي أرسلني، واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتي ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ من «أجمع الأمر» كالسفر والصيام وغيرهما، و«أجمع عليه» إذا عزم عليه عزماً لا تردد فيه، قيل: أصله جمع ما تفرق من أسبابه ومقدماته، و«أجمع القوم على الشيء» اتفقوا عليه كلهم لم يشذ أحد منهم، أي: أجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون

الله لا تتفرقوا فيه، وقيل التقدير وادعوا شراءكم ليعينوكم كما تزعمون كما أدعو ربي وأتوكل عليه، وقرأ نافع «فاجْمَعُوا أمركم» بوصل الهمزة وفتح الميم من الجمع، أي: اجمعوا ما تفرق منه، وعلى هذا يكون قوله: «وشركاءكم» مفعولاً به معطوفاً عليه، لا مفعولا معه ﴿ثم لا يكن أمركم﴾ الذي تعتزمونه ﴿عليكم غمة﴾، أي: خفياً فيه شيء من الحيرة أو اللبس الذي يقتضي التردد في الإنفاذ، بعد العزم والإجماع، بل كونوا على علم وبصيرة فيه لكيلا تتحولوا عنه بظهور الخطأ أو التردد في كونه هو الصواب ﴿ثم اقضوا إلي﴾ ذلك الأمر بعد إجماعه، واعتزامه، وبعد استبانته التامة التي لا غمة فيها ولا التباس، بأن تنفذوه بالفعل، فالقضاء يطلق بمعنى: أداء الشيء وتنفيذه وإتمامه، وتعديته بإلى لإفادة إبلاغه وإيصاله إلى متعلَّقه بالفعل كما قال «لقضي إليهم أجلهم»، ويطلق بمعنى الحكم بالشيء، وإذا عُدِّي هذا بـ «إلى» يفيد تبليغ خبره كقوله تعالى «وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب» وقوله: «وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» ﴿ولا تُنْظِرون﴾ من الإنظار وهو: التأخير، أي: لا تمهلوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه بعد استيفاء تلك المقدمات كلها.

٧٢ ـ ﴿فإن توليتم﴾، أي: انصرفتم عني مصرين على إعراضكم عن تذكيري ﴿فما سألتكم من أجر﴾، أي: فما سألتكم على هذا التذكير ولا على غيره من مسائل الدعوة والنصح أدنى شيء من الأجر والمكافآت فتتولوا لثقله عليكم، أو فيضرُّني أن يفوت عليَّ وأُحْرَمَهُ فأبالي بتوليكم. ﴿إن أجري إلا على الله﴾، أي: ما أجري وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلا على الله الذي أرسلني إليكم، فهو يوفيني إياه سواء آمنتم أو توليتم ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، أي: المنقادين المذعنين بالفعل لما أدعوكم إليه أسلمتم أم كفرتم، فلا أترك شيئاً مما أمرتكم به.

٧٣ ـ ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك﴾، أي: فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقية دعوته، وبراءته من كل خوف منهم إذا كذبوا، ورجاء فيهم إذا آمنوا، فنجيناه هو ومن آمن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا لأجل ذلك. ولفظ «الفُلْك» هنا مفرد.

وهو يطلق على الجمع أيضاً ﴿وجعلناهم خلائف﴾ يخلفون المكذبين في الأرض كلها على قلتهم ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن أنذرهم وأوعدهم العذاب، أي: وأغرقناهم لأنهم كذبوا بآياتنا ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾، أي: فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم فأصروا على تكذيبه، فكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك، وكذلك تكون عاقبة المؤمنين المتبعين لك.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

٧٤ ــ ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم﴾، أي: بعثنا من بعد نوح رسلاً مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه ــ فيما يأتي من خبرهم معهم ــ ولهذا أفرد كلمة «قومهم» فيما يظهر لنا منه، والمراد: أرسلنا كل رسول منهم إلى قومه، وإنما أُرْسِلَ محمد ﷺ وحده إلى الناس كافة ﴿فجاءهم بالبينات﴾، أي: فجاء كل رسول منهم قومه بالبينات الدالة على رسالته وصحة ما دعاهم إليه بحسب أفهامهم وأحوالهم العقلية ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾، أي: فما كان من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله في سبب كفره وهو استكبار الرؤساء، وتقليد الدهماء للآباء والأجداد ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾، أي: مثل هذا الطبع وعلى غرار هذه السنة التي اطردت بهم، نطبع على قلوب المعتدين مثلهم في كل قوم كقومك أيها الرسول، ومعناه: عدم قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا

قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

٧٥ ــ ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه﴾، أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون مصر وأشراف قومه الذين هم أركان دولته وإلى قومهم القبط بالتبع لهم لأنهم كانوا مستعبدين لهم يكفرون بكفرهم، ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا ﴿بآياتنا﴾، أي: بعثناهما مؤيَّدَيْن بآياتنا التسع المفصلة في سورة «الأعراف»[1] وغيرها ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾، أي: فاستكبر فرعون وملأه، أي: أعرضوا عن الإيمان كِبْراً وعُلُواً مع علمهم بأن ما جاء به هو الحق، لِـمَا كانوا عليه من سعة العلم وصناعة السحر، وكانوا قوماً راسخين في الإجرام وهو الظلم والفساد في الأرض.

٧٦ ــ ﴿فلما جاءهم الحق﴾ وهو آياتنا الدالة على الربوبية والألوهية ﴿من عندنا﴾ ووحينا إلى موسى ﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾، أي: أقسموا إن هذا الذي جاء به موسى من الآيات الدالة على صدقه، إنما هو سحر بين ظاهر.

٧٧ ــ ﴿قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم﴾، أي: قال لهم متعجباً من قولهم: أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر، الذي هو أبعد الأشياء عن كيد السحر الباطل؟ حذف مقول القول لدلالة ما قبله عليه وهو قولهم: «إن هـذا لسحر مبين» وكذا ما بعده وهو قوله منكراً له متعجباً منه ﴿أسحر هذا﴾، أي: إن هذا الذي ترونه من آيات الله بأعينكم، وترجف من عظمته قلوبكم،

---

(١) قولـه: «في سورة الأعراف»، أي: في قوله تعالى: «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصَّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين»، الآية «١٣٣» منها.

لا يمكن أن يكون سحراً من جنس ما تصنعه أيديكم ﴿ولا يفلح الساحرون﴾، أي: والحال أن الساحرين لا يفوزون في أمور الجِدِّ العملية، من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام، وهو ما تتهمونني به، يدل على هذا جوابهم له:

٧٨ ــ ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض﴾ هذا استفهام توريط وتقرير، تُجاه ما أورده موسى من استفهام الإنكار والتعجيب، فحواه: أتُقِرُّ وتعترف بأنك جئتنا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من الدين، لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدينوية في أرض مصر كلها، يعنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا وإن لم تعترف به اعترافاً، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والغرض منها لموسى لأنه هو الداعي لهم بالذات. وأشركوا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما بالضرورة ﴿وما نحن لكما بمؤمنين﴾، أي: وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان فيما يخرجنا من دين آبائنا الذي تقلده عامتنا، ويسلبنا ملكنا الذي تتمتع بكبريائه خاصتنا ــ وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيه ــ وهذان الأمران هما اللذان كانا يمنعان جميع الأقوام من اتباع الأنبياء والمصلحين في كل زمان.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

٧٩ ــ ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾، أي: ذاك ما قاله ملأ فرعون لموسى وأخيه بحضرته. وقال فرعون لملئه بعد ما رأوا من إصرار موسى على دعوته، وعدم مبالاته بالتصريح له بما يدَّعون أو يظنون من مراده: ائتوني

بكل ساحر واسع العلم راسخ فيه، متقن للسحر بالعمل كما عبر عنه في آية أخرى «بكل سَحَّار عليم».

٨٠ ـ ﴿فلما جاء السحرة﴾ المطلوبون الموصوفون بما ذكر ﴿قال لهم موسى﴾ بعد أن خيروه بين أن يُلْقي ما عنده أولاً أو يلقوا هم ما عندهم كما هو مبين في سورتي «الأعراف»[1] و«طه» ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ ليترتب عليه إبطال البطال وإظهار الحق.

٨١ ـ ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيتهم الصناعية السحرية ﴿قال موسى ما جئتم به السحر﴾، أي: هذا الذي جئتم به وألقيتموه أمامنا هو السحر لا ما جئت به من آيات الله تعالى وسماه فرعون وملأه سحراً ﴿إن الله سيبطله﴾، أي: سيُظهر بطلانه للناس وأنه صناعة خادعة، لا آية خارقة صادعة، فالجملة استئنافية لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلهاويكون التقدير: ما جئتم به الذي هو السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلها ويكون التقدير: ما جئتم به الذي هو السحر، إن الله سيبطله بما جئت به من الحق، وعلل حكمه بقوله ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾، وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فإنه باطل وفساد، أي: لا يجعل عمل المفسدين صالحاً، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين.

٨٢ ـ ﴿ويحق الله الحق بكلماته﴾، أي: يثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته، وكلماته التشريعية التي يوحيها إلى رسله ﴿ولو كره المجرمون﴾ كفرعون وقومه.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ

---

(١) قوله: «في سورتي الأعراف وطه»، أي: الآيات «١١٥ و١١٦ و١١٧» من سورة «الأعراف»، والآيتين «٦٥ و٦٦» من سورة «طه».

أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

٨٣ ـ ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾، أي: إن ما تقدم أوقع الخوف والرغب في قلوب بني إسرائيل قوم موسى، فما آمن له إلا ذرية من قومه، وهم الأحداث من المراهقين والشبان، وقيل: قوم فرعون ولكن من آمن به منهم كان يكتم إيمانه ولا يقال آمن له إلا من اتبعه مؤمناً، ولم يكونوا صغاراً. و«الذرية» في اللغة: الصغار من الأولاد، قال الراغب: وإن كان يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع ﴿على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾، أي: آمنوا على خوف من فرعون وملئهم، أي: أشراف قومهم الجبناء المرائين، الذين هم عرفاؤهم جُنْدُ فرعون فيما يطلب هو منهم، فإن الملوك يستذلون الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم، وقيل: ملأ فرعون،وجمع ضميره للتعظيم، على خوف منه أن يفتنهم عن الإيمان لموسى وإتباع دينه بالتعذيب والإرهاق ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾، أي: والحال أن فرعون عاتٍ شديد العتو، مستبدٌ غالب قوي القهر في أرض مصر أو: جدير بأن يُخاف منه، فالمراد بعلوه قهره واستبداده ﴿وإنه لمن المسرفين﴾، أي: المتجاوزين حدود الرحمة والعدل، إلى الظلم والقتل، والعدوان والبغي.

٨٤ ـ ﴿وقال موسى﴾ لمن آمن من قومه أو لجمهورهم وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد مرشداً ومثبتاً لهم ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾، أي: إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا،وبوعده

فثقوا، إن كنتم في إيمانكم مسلمين مذعنين بالفعل، وإنما يكون الإيمان يقيناً إذا صدقه العمل وهو الإسلام، وهذا لا يدل على إيمان جميع قومه كما قيل، فالإيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن لمعنى الإسلام والاتباع المشار إليه بقوله «إن كنتم مسلمين».

٨٥ ــ ﴿فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾، أي: فامتثلوا الأمر، إذ علموا أنه يتوقف عليه إنجاز الوعد، وصرحوا به في القول، مع الدعاء بأن يحفظهم الله من فتنة القوم الظالمين بالفعل، فإن التوكل على الله الذي هو أكبر مقامات الإيمان لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد، والدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب، إلا إذا كان مسبوقاً أو مقارناً لاتخاذ الأسباب، وهو أن تعمل ما تستطيع، وتطلب من الله أن يسخر لك ما لاتستطيع. ولفظ «فتنة» هنا يحتمل معنى الفاتن والمفتون فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا، أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق وأننا على الباطل.

٨٦ ــ ﴿ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين﴾، أي: نجّنا من سلطانهم وحكمهم فإن حكم الكافر لا يطاق، إذ لا تتفق طاعته وطاعة الله تعالى في كل حال.

٨٧ ــ ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا لقومكما بمصر بيوتاً﴾، يقال: «تبوأ الدار»: اتخذها مُبَوّءاً أو مَبَاءة، أي: مسكن ثابتاً، وبوَّأها غيره، أي: قلنا لهما: اتخذا لقومكما بيوتاً في مصر يبوّؤون إليها ويعتمصون بها ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾، أي: متقابلة في وجهة واحدة، فالقبلة في اللغة ما يقابل الإنسان ويكون تلقاءوجهه، ومنه قبلة الصلاة وهي أخص، ويصح الجمع هنا بين المعنيين العام والخاص بقرينة قوله: ﴿وأقيموا الصلاة﴾، أي: فيها متوجهين إلى وجهة واحدة لأن الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب، اختلف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها في الصلاة وهي لا تُعْلَم إلا بنص ولا نَصَّ ﴿وبشر المؤمنين﴾ بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين

لهم وتنجيتهم من ظلمهم. خص الله موسى بهذا الأمر ـ التبشير ـ لأنه من أمر الوحي والتبليغ المنوط به، وأشرك هارون معه في الأمر الذي قبله لأنه تدبير عملي هو وزيره المساعد هل على تنفيذه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

٨٨ ـ ﴿وقال موسى﴾ بعد أن أعد بني إسرائيل للخروج من مصر إعداداً دينياً دنيوياً، متوجهاً إلى الله تعالى في إتمام الأمر، بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبنو إسرائيل من الأسباب ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا﴾، أي: إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم ـ دون دَهْمائهم من الصُّناع والزُّرَّاع والجند والخدم ـ «زينةً» من الحلي والحلل والآنية والماعون والأثاث والرياش، و«أموالاً» كثيرة الأنواع والمقادير، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة والشهوات البدنية بدون حساب ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾، أي: لتكون عاقبة هذا العطاء إضلالَ عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح، ذلك بأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك وتخضع رقاب الناس لهم، كما قال تعالى «إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى»، وذلك دأب فراعنة مصر، به تشهد آثارهم ورِكازهم التي لا تزال تستخرج من آثارهم وقبورهم إلى يومنا هذا وتحفظ في دار الآثار المصرية. فاللام في قوله «ليضلوا» تسمى لام العاقبة والصَّيرورة، وقال بعضهم: إنها لام «كي» الدالة على علة الفعل، وحملوها على الاستدراج، أي: آتيتهم ذلك لكي يضلوا الناس فيستحقوا العقاب، وقد يعزه قوله ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾، يقال: «طمس الأثروطمسته الريح إذا زال حتى لا يُرَى أو لا يُعْرف»، والمعنى: ربنا

امحق أموالهم بالآفات التي تصيب حرثهم وأنعامهم وتنقص مكاسبهم وثمراتهم وغلاتهم، فيذوقوا ذل الحاجة ﴿واشدد على قلوبهم﴾، أي: اطبع عليها، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً، حتى يستحقوا تعجيل عقابك فتعاقبهم ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾، هذا جواب للدعاء، أو دعاء آخر بلفظ النهي متمم له. وقد روي: أن موسى دعا بهذا الدعاء، وأمَّن هارون عليهما السلام كما هو المعتاد، فاستجاب الله تعالى لهما بقوله:

٨٩ ـ ﴿قال قد أجيبت دعوتكما﴾، أي: قُبلت، وإذا قُبلت نُفِّذت ﴿فاستقيما﴾ على ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج من مصر. وعن ابن عباس، رضي الله عنهما: فامضيا لأمري، وهو الاستقامة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾، أي: ولا تسلكا طريق الذين لا يعلمون سنتي في خلقي، وإنجاز وعدي لرسلي، فتستعجلا الأمر قبل أوانه، وتستبطئا وقوعه في إبَّانه.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

٩٠ ـ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ يقال: جاز المكان وجاوزه وتجاوزه إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلَّفه وراءه. ومجاوزة الله البحر بهم عبارة عن كونهم جاوزوه بمعونته تعالى وقدرته وحفظه، إذ كان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً﴾، أي: لحقهم فأدركهم ظلماً وعدواناً عليهم ليفتك بهم، أو يعيدهم إلى مصر حيث يتعبدهم ويسومهم سوء العذاب ﴿حتى إذا أدركه الغرق﴾، أي:

فخاض البَحْرَ وراءهم حتى إذا وصل إلى حد الغرق ﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾، أي: قال قبل أن يغرق، ـ وهو يدل على أن البحر لم يُطْبق عليه دفعة واحدة ـ: آمنت أنه لا إله بالحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى ﴿وأنا من المسلمين﴾، أي: وأنا فرد من جماعة المذعنين له المنقادين لأمره، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والعناد لرسوله، يعني: أنه جمع بين الإيمان الذي هو التصديق بالقلب، والإسلام الذي هو الإذعان والخضوع بالفعل، بدون امتياز لعظمة الملك، وكان من قبل جاحداً، أي: مصدقاً غير مذعن ولا خاضع.

٩١ ـ ﴿آلآن؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾، أي: فقيل له بلسان الحال عن الله تعالى، أوبقول جبريل عليه السلام: أَتُسْلِـمُ الآن أو تدعي الإسلام وإذعان الطاعة والانقياد، حيث لا محل له ولا إمكان، بما حال دونه من الهلاك، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين في الأرض الظالمين للعباد، والمراد: أن دعوى الإيمان والإسلام الآن باطلة، وكيف يُقبل منه الإيمان وقد صار اضطراراً لا معنى لقبوله، لأنه انفعال لا فعلٌ لصاحبه.

٩٢ ـ ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾، قال أبو جعفر ابن جرير الطبري يقول تعالى لفرعون: فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك، ينظر إليك من كذب بهلاكك، «لتكون لمن خلفك آية»، يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به، والسعي في أرضه بالفساد.

وإنما محل العبرة أن يلفظه البحر ببدنه ليُعْرَفَ فيعتبر بنو إسرائيل الذين قيل إنهم شَكُّوا في غرقه ويعتبر القبط الذين عبدوه، وأما العبرة لمن بعده فهي أعم: هي ما سيقت القصة لأجله من كونها شاهداً كالتي قبلها على صدق وعد الله لرسله ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات بل هذه السورة كلها لإقامة حجج الله عليهم في هذه المسألة قبل غيرهم، لأنهم أول من بلغته دعوة محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾

تعريض بهم، وأكده هذا التأكيد لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التنبيه، أي: إنهم لشديدو الغفلة عنها على شدة ظهورها، فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها، ولا يعتبرون بها.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

٩٣ ـ ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾ قلنا آنفاً: ان «الـمُبَوَّأ»: مكان الإقامة الأمين. وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ فيه، وهي التي أشير إليها في وصف أرضها من كتبهم بأنها تفيض لبناً وعسلاً، بما فيها من الغلات والثمرات والأنعام، وكذا صيد البر والبحر، ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾، أي: فما اختلفوا في الدين وصاروا شيعاً حتى جاءهم العلم الذي شأنه الاتفاق. قال بعض المفسرين: إن المراد بالعلم هنا محمد ﷺ، أو رسالته، أو القرآن الذي هو أكمل وأتم ما أنزل الله من علم الدين. وقال آخرون وهو الأظهر: إن المراد هنا علم الدين مطلقاً، وقد اختلفوا فيه كغيرهم ممن أوتوا الكتب ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ إذ جعلوا الدواء عين الداء في أمر الدين بعد إذ أنزل عليهم الكتاب ليحكم بينهم فاختلفوا في الكتاب بغياً بينهم.

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

٩٤ ـ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾، أي: فإن كنت أيها الرسول في شك مما أنزلنا إليك في هذه الشواهد من قصة نوح وموسى وغيرهما على سبيل الفرض والتقدير، الذي ذكر على عادة العرب في تقدير الشك في الشيء ليبنى عليه ما ينفي احتمال وقوعه أو ثبوتـه، أمراً أو نهيـاً أو خبراً، أو للتعريض بغير المخاطب من الشاكين تمهيداً لإزالته، والأصل في فعل الشرط عدم وقوعه أو تنزيله منزلة ما لا يقع، كما أن الأصل في شرط «إذا» الوقوع ﴿فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك﴾ هذا جواب الشرط، ويراد بمثله لازمه لا حقيقته كقوله «واسأل القرية» وقوله: «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قال ابن عباس: لم يَشُكَّ رسول الله ﷺ ولم يَسْأل، وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري، وروي عن قتادة قال: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» ولم يسم الصحابي الذي ذكره فهو «مُرْسل»، والمراد بالكتاب جنسه، أي: إنك إن تسأل الذين يقرؤون كتب الأنبياء كاليهود والنصارى فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك من الشواهد حق لا يستطيعون إنكاره. ومما يؤكد كون السؤال مفروضاً فرضاً قوله﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه، تجتث احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله، ويزيدها تأكيداً قوله تعالى ﴿فلا تكونن من الممترين﴾، أي: من فريق الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال، وهذا النهي والذي بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين والممترين والمكذبين له ﷺ من قومه، فهو نهي لمن هو منته بالضرورة، مرادٌ به لازمه وهو نهيهم عن الشك وأمرهم بالإيمان اليقيني، ومثل هذا في المعنى قوله تعالى:

٩٥ ـ ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾، يعني: أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم

بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادةالدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

٩٦ ـ ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾، أي: إن الذين ثبتت عليهم كلمةالعذاب من ربك ـ وهي كلمة التكوين الدالة على سنته فيمن فقدوا الاستعداد للاهتداء ـ لا يؤمنون لرسوخهم في الكفر والطغيان، وإحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم، وإعراضهم عن آيات الإيمان، هذا معنى قوله «لا يؤمنون» لا أنه تعالى يمنعهم من الإيمان، منعاً خَلْقياً قهرياً لا كسب لهم فيه ولا اختيار.

٩٧ ـ ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أيها الرسول، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلمية العقلية الدالة بإعجازها على كونها من عند الله، وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم إياه ﴿حتى يروا العذاب الأليم﴾ بأعينهم، ويذوقوه بوقوعه بهم، وحينئذ يكون إيمانهم اضطرارياً لا يُعَدُّ فعلاً من أفعالهم، ولا يترتب عليه عمل يطهرهم ويزكي أنفسهم، بل يقال لهم: «آلآن وقد كنتم به تستعجلون» كما قيل لفرعون: «آلآن؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين».

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

٩٨ ـ ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ «لولا» هذه للتحضيض كما قال أئمة اللغة والنحو. والمراد بالقرية: أهلُها، وهم أقوام الأنبياء، فإنهم

كلهم بعثوا في أهل الحضارة والعمران دون البادية. أي: فهَلاً كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنت بدعوتهم وإقامة الحجة عليهم، فنفعها إيمانها قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به، أي: أنه لم يؤمن قوم منهم برمتهم، فإن التحضيض يستلزم الجحد ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ قبل وقوع العذاب بهم بالفعل، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم من بينهم، وروي: أنهم رأوا علاماته، ويجوز في هذا الاستثناء الاتصال والانفصال ﴿كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾، أي: صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا لأن نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له فلم تتم عليهم الحجة، ولا حقت عليهم كلمة العذاب، وقد استدلوا بذهابه مغاضباً لهم على قرب وقوع العذاب كما أنذرهم فتابوا وآمنوا فكشفناه عنهم ﴿ومتعناهم إلى حين﴾، أي: ومتعناهم بمنافعها إلى زمن معلوم هو انتهاء عمرهم وانقضاء آجالهم.

٩٩ ــ ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، أي: ولو شاء ربك ــ أيها الرسول الحريص على إيمان الناس ــ أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعاً لا يشذ أحد منهم لآمنوا، بأن يلجئهم إلى الإيمان إلجاء، ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة، لا استعداد في فطرتهم لغير الإيمان، ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾، أي: إن هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من وظائف الرسالة التي بُعثت بها أنت وسائر الرسل فما عليك إلا البلاغ «وما أنت عليهم بجبار».

١٠٠ ــ ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾، أي: وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير إليه من استقلالها في أفعالها، ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداها من النجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال، بل مقيدة بنظام السنن والأقدار ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾، أي: وإذا كان كل شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسننه، فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه،

ويوازنون بين الأمور فيختارون خير الأعمال على شرها، ويرجحون نفعها على ضرها، بإذنه وتيسيره، «ويجعل الرجس» أي: الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور، على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون، فهم لفساد رأيهم، واتباع أهوائهم، يختارون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى.

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

١٠١ ـ ﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض﴾، أي: قل أيها الرسول لقومك الذين تحرص على هداهم: انظروا بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا في السماوات والأرض من آيات الله البيّنات والنظام الدقيق العجيب في شمسها وقمرها، وكواكبها ونجومها، وبروجها ومنازلها، وليلها ونهارها، وسحابها ومطرها، وهوائها ومائها، وبخارها وأنهارها، وأشجارها وثمارها، وأنواع حيواناتها البرية والبحرية، ففي كل من هذه الأشياء التي تبصرون، آياتٌ كثيرة تدل على علم خالقها وقدرته، ومشيئته وحكمته، ووحدة النظام في جملتها وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ يجوز في هذه الجملة النفي والاستفهام، و«النذر» فيها ـ بضمتين ـ جمع نذير أو إنذار، والمعنى: أن الآيات الكونية على ظهور دلالتها، والنذر التشريعية على بلاغة حجتها، لا فائدة فيها، ولا غنى لقوم لا يؤمنون بالله، عن الإيمان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات، والاستدلال بها على ما تدل عليه أكمل الدلالة من وحدانية الله وقدرته، ومشيئته وحكمته، وفضله ورحمته، والاعتبار بسننه في خلقه.

١٠٢ ـ ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾، أي:

إذا كان الأمر كما قصصنا عليك أيها الرسول من سنتنا في الخلق وما أرسلنا قبلك من الرسل، فهل ينتظر هؤلاء الكافرون من قومك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، أي: مثل وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته، أي: ما ثَمَّ شيء آخر يُنْتظر ﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾، أي: قل لهم منذراً ومهدداً: إذاً فانتظروا ما سيكون من عاقبتكم إني معكم من المنتظرين، على بينة مما وعد الله وصدق وعده للمرسلين، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون كمعانديهم من الهالكين.

١٠٣ ـ ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ هذا التعبير عطف على محذوف، وتقديره: تلك سنتنا في رسلنا مع قومهم، يبلغونهم الدعوة، ويقيمون عليهم الحجة، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن بعض ويصر الآخرون، فنهلك المكذبين، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا بهم ﴿كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾، أي: كذلك الإنجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصرين على تكذيبك، وعداً حقاً علينا لا نخلفه «سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً»، وقد صدق وعده كما قال.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

١٠٤ ـ ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني﴾، خطاب عام،

أي: إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليـه، أو من ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه ﴿فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله﴾، أي: فلا أعبد في وقت من الأوقات، ولا حال من الأحوال، أحداً من الذين تعبدونهم غير الله، من ملك أو بشر، أو كوكب أو شجر أو حجر، مما اتخذتم من الأصنام والأوثان ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾، أي: يقبضكم إليه بالموت ثم يبعثكم فيحاسبكم ويجزيكم، ولا يفعل أحد غيره هذا ولا يقدر عليه ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ الذين وعدهم الله بالنجـاة من عذابـه، وبنصرهم على أعدائهم وأعدائه، واستخلافهم في أرضه، وإنه لإيجاز بليغ.

١٠٥ ـ ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾، أي: أمرت بأن أكون من المؤمنين وبأن أُقيم وجهي للدين القيّـم الذي لا عوج فيه، حالة كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن غيره من الشرك والباطل، ولكن اختير هنا صيغة الطلب وفيها قبله الخبر، وعَطَفَ النهي عليه فقال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أصحاب الديانات الوثنية الباطلة من أصلية مخترعة وكتابية محرفة.

١٠٦ ـ ﴿ولا تـدع من دون الله ما لا ينفعـك ولا يضرك﴾، أي: ولا تَدْعُ غيره تعالى، دعاءَ عبادة وهو: ما فيه معنى القربة والجري على غير المعتاد في طلب الناس بعضهم من بعض، لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء، ما لا ينفعك إن دعوته لا بنفسه ولا بوساطته، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره ﴿فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾، أي: فإن فعلتَ هذا بأن دعوتَ غيره، فإنك أيها الفاعل في هذه الحال من طَغَامَة الظالمين لأنفسهم الظلمَ الأكبر، وهو الشرك لقوله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم». فإنه لما كان دعاء الله وحده هو أعظم العبادة ومخها ـ كما ورد في الحديث ـ[1] كان دعاء غيره هو معظم الشرك.

---

(١) قوله: «كما ورد في الحديث»، أي: الذي رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً ونصه: «الدعاء مُخُّ العبادة» وهذا حديث ضعيف، ولكنه جاء بلفظ: «الدعاء هو العبادة» وهذا حديث صحيح رواه أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعاً. انظر: ضعيف الجامع الصغير رقم ٣٠٠٣ وصحيح الجامع الصغير رقم ٣٤٠١ للألباني.

١٠٧ ـ ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ هذه الآية مؤكدة لما قبلها، داحضة لشبهة الذين يَدْعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكبتت أعداؤهم، وكشف الضر عنهم، وأسدي الخير إليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة: وإن يمسسك الله أيها الإنسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه في حفظ الصحة، أو نقص من الأموال والثمرات، أو ظلم يقع عليك من الحكام المستبدين، أو غيرهم من الأعداء المعتدين، فلا كاشف له إلا هو، وقد جعل لك شيء سبباً يعرفه خلقه بتجاربهم، ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها، وخواص العقاقير التي تداوي بها، فعليك أن تطلبها من أسبابها، فإن جهلت الأسباب أو أعياك أمرها، فتوجه إلى الله وحده، وادعه مخلصاً له الدين متوكلاً عليه وحده، يسخر لك ما شاء أو من شاء من خلقه، أو يشفك من مرضك بمحض فضله، كما ضرب لك الأمثال في هذه السورة وغيرها من كتابه ﴿وإن يردك بخير﴾ يهبه بتسخير أسبابه لك، أو بغير سبب ولا سعي منك، ﴿فلا راد لفضله﴾، أي: فلا أحد ولا شيء يرد فضله الذي تتعلق به إرادته، فما شاء كان حتمًا، فلا تَرْجُ الخير والنفع إلا من فضله، ولا تَخَفْ رَدَّ ما يريده لك من أحد غيره ﴿يصيب به من يشاء من عباده﴾ يصيب بالخير من يشاء من عباده، ففضله عام بعموم رحمته، بخلاف الضر فإنه لا يقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد، أو العامة في نظام الخلق.

فالأول: معلوم كالأمراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلاً أو تقصيراً، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل، وكثرة الفسق والظلم.

والثاني: كالضرر الذي يعرض من كثرة الأمطار، وطغيان البحار الأنهار، وزلازل الأرض وصواعق السماء ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة، لأهلك جميع الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة، «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير»، «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

١٠٨ ـ ﴿قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم﴾، أي: قل أيها الرسول مخاطباً لجميع البشر، من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك، ومن ستبلغه عنك: قد جاءكم الحق المبيِّـن لحقيقة الدين من ربكم، بوحيه إلى رجل منكم، وهو الذي افتتحت هذه السورة به، وقد كان هذا الحق مجهولاً خفياً عنكم، بما جعل بعضكم من دعوة الرسل الأقدمين، وما حَرَّف بعضكم وجهل وبدَّل، وتأوّل من كتب الأنبياء المتأخرين، وفصله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾، أي: فمن اهتدى بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإنما فائدة اهتدائه لنفسه، لأنه ينال به السعادة في دنياه ودينه، ودون عمل غيره، ولا فدائه ولا تأثيره ﴿ومن ضل فإنما يضل عليها﴾، أي: ومن ضل عن هذا الحق بإعراضه عن آياته في هذا القرآن، وحججه فيه بآياته في الأنفس والآفاق، فإنما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا، وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾، أي: وما أنا بموكل من عند الله بأموركم ولا مسيطر عليكم وفأكرهكم على الإيمان، وأمنعكم بقـوتي من الكفـر والعصيـان، وليس علـيّ هـداكم، ولا أملك نفعكم ولا ضركم، وإنما أنا بشير لمن اهتدى، ونذير لمن ضل وغوى، وقد أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

١٠٩ ـ ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ في هذا القرآن علمًا وعملاً وتعليمًا ﴿واصبر﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الأذى في ذات الله، والجهاد به في سبيل الله ﴿حتى يحكم الله﴾ بينك وبين المكذبين لك، وينجز لك ما وعدك، ﴿وهو خير الحاكمين﴾، أي: خير كل من يقع منهم

حكم، لأنه لا يحكم إلا بالحق، وله الحكم في كل شيء من أمور الخلق، سواء في ذلك التشريع الذي يبعث به رسله، وحكم التكوين الذي ينفذه فيهم في الدنيا والآخرة.

وغيره من الحاكمين إنما يحكم في بعض الأشياء دون بعض، وقد يحكم بالباطل لجهله الحق أو لمخالفته له باتباع الهوى.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وصبر حتى حكم الله بينه وبين قومه، وأنجز وعده له ولمن اتبعه من المؤمنين، فاستخلفهم في الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين، مدة إقامتهم لهذا الدين، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن قومه، وجعلنا من المهتدين بما جاء به من كتاب ربه، وسنته المبينة له، علمًا وعملاً، وإرشاداً وتعليمًا، وصلى الله عليه وعلى آله وصحابته ومن اتبعه وسلَّم تسليمًا.

(خلاصة سورة يونس)[1]

جميع آيات هذه السورة في أصول عقائد الإسلام التي كان ينكرها مشركو العرب، وهي: توحيد الله تعالى، والوحي والرسالة، والبعث والجزاء، وما يناسبها من صفاته تعالى وأفعاله وتنزيهه وآياته وسننه في خلقه، وشؤون البشر في صفاتهم وعاداتهم وأعمالهم، ومحاجة مشركي مكة في ذلك كله، ولا سيما هداية القرآن والرسول ﷺ، والعبرة بأحوال الرسل مع أقوامهم، فهي كسورة «الأنعام» في السور المكية إلا أنها أكثر منها ومن سائر السور إثباتاً للوحي والرسالة، وتحدياً بالقرآن وبياناً لإعجازه وحقِّيته، وصدق وعده ووعيده، وهذه المقاصد أو العقائد مكررة فيها بالأسلوب البديع، والنظم البليغ، بحيث يحدث في نفس سامعها وقارئها أروع الإقناع والتأثير.

---

(١) هذه الخلاصة من اختصارنا ألحقناها في آخر سورة «يونس» انسجاماً مع ما جرينا عليه في سائر الكتاب، والمؤلف لم يضع للسور التي اختصرها خلاصات كما أشرنا في آخر سورة «التوبة».

ففيها بيان توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وصفات عظمته، وتدبيره لأمور عباده، وتصرفه فيهم وفضله عليهم ورحمته بهم، وعلمه بشؤونهم وتنزيهه عن ظلمهم، وعما لا يليق به من أوهامهم.

وفيها بيان النبوة وإثبات وحي الرسالة، وأن الرسل رجال من الناس، وأن وظيفتهم الإنذار والتبشير، وأن الكفار كانوا ينكرون أن يكون البشر رسلاً لله تعالى، وكانوا يسمون آيات الرسول إليهم: سحراً، ويسمونه: ساحراً.

وكذلك بينت هذه السورة كثيراً مما يتعلق بالبعث والجزاء، وقدرته تعالى على إعادة الخلق كما بدأه، وحساب الناس يوم القيامة بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

سورة هود

(مكية، مائة وثلاث وعشرون آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴿١﴾ ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ﴿٢﴾ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴿٣﴾ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴿٤﴾

١ ـ ﴿الر﴾ تقرأ كأمثالها بأسماء الحروف ساكنة لا بمسمياتها فيقال: ألف، لامْ، رَا، ومذهب الخليل وسيبويه: أنها اسم للسورة، أو: للقرآن، ومحلها الرفع على الابتداء أو الخبرية عند الأكثر.

﴿كتاب أُحكمت آياتُه﴾، أي: هذا كتاب عظيم الشأن ـ كما أفاده التنوين ـ جُعلت آياته محكمةَ النَّظم والتأليف، واضحة المعاني بليغة الدلالة والتأثير ﴿ثم فُصلت﴾، أي: جُعلت فصولاً متفرقة في سوره ببيان حقائق العقائد، والأحكام والحكم والمواعظ، وسائر ما أنزل الكتاب له من الفوائد، كما يفصل الوشاح أو العقد بالفرائد، فالإحكام والتفصيل فيه مرتبتان من مراتب

البيان مجتمعتان، لا نوعان منه متفرقان يختلفان في الزمان، أو فصلت بعد الإجمال، كما ترى في القصص القصار والطوال، ﴿من لدن حكيم خبير﴾، أي: من عند حكيم كامل الحكمة هو الذي أحكمها، وخبير تام الخبرة هو الذي فصلها، و«لَدُنْ»: ظرف مكان أخص من «عند» وأبلغ.

٢ ـ ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ هذا تفسير أو بيان لأول ما أُحكمت وفُصِّلت به وله الآيات، أي: بأن لا تعبدوا إلا الله، أو لئلا تعبدوا إلا الله، وهو أن تجعلوا عبادتكم له وحده لا تشركوا به شيئاً، وهذا ما تراه قريباً في قصص الرسل المفصلة في هذه السورة، ﴿إنني لكم منه نذير وبشير﴾ هو تبليغ لدعوة الرسالة مبين لوظيفة الرسول، وهي إنذار مَنْ أصر على شركه وما يتبعه من الكفر والمعاصي بالعذاب الأليم، وتبشير من آمن واتقى بالسعادة والنعيم المقيم.

٣ ـ ﴿وأنِ اسْتغفروا ربَّكم﴾ هذا عطف على ما قبله، أي: وأن اسألوه أن يغفر لكم ما كان من الشرك الكفر والإجرام والظلم ﴿ثم توبوا إليه﴾، أي: ثم ارجعوا إليه من كل إعراض عنه وعن اياته يعرض لكم، بترك واجب أو فعل محرم، نادمين منيبين مصلحين لما أفسدتم، مستدركين ما قصرتم، عطف التوبة بـ«ثُمَّ» لأن مرتبة العمل متأخرة عن مرتبة القول، فكم من مستغفر وهو مصر على الذنب، ﴿يمتِّعْكم متاعاً حسناً﴾ «المتاع»: كل ما يُنتفع به في المعيشة وحاجة البيوت، والإمتاع والتمتيع: إعطاء ما يُتَمتع به تمتعاً طويلاً ممتداً، والمعنى: أن تستغفروا ربكم عند كل ذنب، وتتوبوا إليه من كل إعراض عن هدايته، وتنكب عن سنته، يمتعكم في دنياكم متاعاً حسناً مرضياً ممتداً ﴿إلى أجل مسمى﴾ عنده، وهو العمر المقدر لكم في علمه، المكتوب في نظام الخليقة وسنن الاجتماع البشري في عباده، فلا يقطعه[1] إهلاككم بعذاب الاستئصال،

---

(١) قوله: «فلا يقطعه إهلاككم بعذ الاستئصال»، كرر المؤلف في مثل هذه المواضع من تفسيره هذا القول، والذي يفهم منه: «أن القتل أو الإهلاك بالعذاب يقطع على المقتول عمره الطبيعي ـ كما يقول ـ» وهذا قول جمهور المعتزلة، ومؤداه: أن المقتول لو لم يُقْتل لعاش إلى أمد هو أجله الذي علم الله موته فيه، لولا القتل، ولمات في ذلك الوقت. وذهب بعض =

ولا بفساد العمران وسلب الاستقلال، ولا ينغصه كل ما ينغص حياة الكفار ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾، أي: إنكم أيها المخاطبون بهذه الآيات من قوم محمد رسول الله وخاتم النبيين، إن تجتنبوا الشرك وتؤمنوا بالله ورسوله وتستغفروا ربكم، وتتوبوا إليه عقب كل ذنب يقع منكم، يمتعكم بجملتكم ومجموعكم متاعاً حسناً تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة ودولة، ويعط كل ذي فضل من علم وعمل جزاء فضله في الآخرة مطرداً كاملاً، وأما في الدنيا فقد يكون هذا الجزاء جزئياً ناقصاً، ومشوباً لا خالصاً، ولا يكون عاماً كاملاً مطرداً لقصر أعمار الأفراد، والتعارض والترجيح في سنن الأسباب والمسببات، وهذا من أدلة البعث وجزاء الآخرة الذي يظهر فيه عدله تعالى كاملاً شاملاً.

﴿وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾، أي: وإن تتولوا معرضين عما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وعدم عبادة غيره ومن الاستغفار والتوبة من كل ذنب، فإن أخاف عليكم عذاب يوم كبير هوله، شديد بأسه، وهو أن يصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم أو ما دونه من عذاب المصرين، في إثر نصر الرسول والمؤمنين.

والآيتان نص في أن ثمرة الإيمان سعادةُ الدارين، وعاقبةَ الجحود شقاؤهما.

= المعتزلة: إلى أن للمقتول أجلين هما: أجل الموت، وأجل القتل، وأن قتله كان لأجل القتل ولولم يُقْتل لعاش إلى أجل الموت.

وهذان القولان باطلان لتعارضهما مع النصوص القطعية التي لا تحتمل تأويلاً، والحق هو ما عليه أهل السنة والجماعة وبيانه: أنه يجب اعتقاد أن الأجل واحد لا تعدد فيه، وهو الأجل الذي قدره الله عز وجل للإنسان، وأن المقتول ميت بسبب انقضاء عمره، وعند حضور أجله في الوقت الذي علم الله موته فيه، وأنه لو لم يُقْتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت، أو أن لا يموت، من غير قطع بامتداد العمر ولا بالموت بدل القتل، وأصرح دليل على ذلك قوله تعالى: «إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، وما القتل سوى سبب من أسباب الموت كما قيل:

ومن لم يَمُتْ بالسيف ماتَ بغيره   تعددتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

٤ ـ ﴿إلى الله مرجعكم﴾، أي: إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم جميعاً أمماً وأفراداً لا يتخلف أحد منكم فتلقون جزاءكم تاماً ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ ومنه بعثكم وحشركم وجزاؤكم. وهذا وعيد بعذاب الآخرة بعد الوعيد بعذاب الدنيا، أو دليل عليه.

أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

٥ ـ ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم﴾ فسر بعضهم «ثنيْ الصدور» هنا بالإعراض التام، والاستدبار للرسول عند تلاوة القرآن، وهو أبلغ من ثَنيْ العِطْف والجانب، وفسره آخرون: بطيها على ما هو مكنون فيها من الكراهة والعداوة له ﷺ، والأقرب أن يكون تصويراً لما كان يحاوله بعض الكفار ثم المنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء بتنكيس الرأس، وثني الصدر على البطن كما يُطوى الثوب، حتى يخفى فاعله بين الجميع ﴿ليستخفوا منه﴾، أي: من النبي ﷺ عند تلاوته للقرآن فلا يراهم عند وقوع هـذه القوارع عـلى رؤوسهم، أو ليستخفوا مما هم فيه من الشأن المظهر لخزيهم وجهلهم، المثبت لعجزهم، ويناسب الأول أن يكون الاستخفاء من الله عز وجل وروى البخاري عن مجاهد، وروى ابن جرير وغيره عن عبد الله بن شداد قال: كان أحدهم إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره لكي لا يراه فنزلت، وعن عطاء الخراساني في قوله: «يثنون صدورهم» يقول: يطأطئون رؤوسهم، ويحنون ظهورهم، وعن قتادة، قال: كانوا يحنون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب الله تعالى. قال تعالى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾، أي: ألا فليعلموا أن ثني صدورهم وتنكيس رؤوسهم، ليستخفوا من الداعي لهم إلى توحيد ربهم، أو من ظهور حجته عليهم، لا يغني عنهم شيئاً من ظهور فضيحتهم، فإنهم حين يستغشون ثيابهم فيغَطُّون بها جميع أبدانهم عند النوم في ظلمة الليل، ويَـخْلُون بخواطرهم وما يبيتون من السوء والمكر، فإن ربهم يعلم ما يسرون منها ليلاً، ثم ما يعلنون نهاراً ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾، أي: إنه تعالى عليم محيط بأسرار الصدور، وخواطر القلوب، ومجاز عليها.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

٦ ـ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾، أي: ما من دابة من أنواع الدواب في الأرض، إلا على الله رزقها الذي تغتذي وتعيش به، على اختلاف أنواعها وأنواعه، وأغذية كل نوع مختلفة من نباتية وحيوانية، وقد أعطى كلاً منها خلقه المناسب لمعيشته، ثم هداه إلى تحصيل غذائه بغريزته أو تجاربه، وهذه الكفالة للأرزاق مقتضى ما أوجبه الله تعالى من النظام وسنن التدبير العام للمخلوقات بمقتضى علمه وحكمته ومشيئته، وليس معناها: أنه قد كفل لكل دابة من كل نوع أن يوصل لها ما تغتذي به بمحض قدرته، سواء أطلبته بباعث غريزتها أو بما يهديها إليه العلم من أسباب كسبها أم لا؟ خلافاً لما يظنه الجاهلون المنكرون لفائدة الكسب في حصول الرزق.

﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾، أي: وما من دابة في الأرض إلا ويعلم الله مستقرها حيث تستقر وتقيم، ومستودعها حيث تكون مودعة إلى حين، فهو يرزقها في كل حال بحسبه ﴿كل في كتاب مبين﴾، أي: كل واحد من الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم في كتاب مبين ولوح محفوظ، كتب الله فيه مقادير الخلق كلها لا يخفى عليه منه شيء.

٧ ـ ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام﴾ من أيام الله تعالى في الخلق والتكوين وما شاء من الأطوار، لا من أيامنا في هذه الدار التي وجدت بهذا الخلق لا قبله، فلا يصح أن نقدر أيام الله بأيامها كما توهم الغافلون عن هذا وما يؤيده من الآيات ﴿وكان عرشه على الماء﴾، أي: وكان عرشه تعالى في أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء، أي:

أن الذي كان قبل هذا العرش من مادة هذا الخلق هو هذا الماء، الذي أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلاً لخلق جميع الأحياء، إذ قال: «أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون؟».

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾، أي: ليجعل ذلك بلاء، أي: اختباراً وامتحاناً لكم فيظهر أيكم أحسن إتقاناً لما يعمله، ونفعاً له وللناس به، وذلك أنه سخر لكم كل شيء، وجعلكم مستعدين لإبراز ما أودعه فيه من المنافع والفوائد المادية والمعنوية، ومِنْ حِكَم خالقه ورحمته بعباده فيه، ومستعدين للإفساد والضرر به، ليجزي كل عامل بعمله وإنما يتم ذلك في الآخرة.

﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت﴾، أي: وتالله لئن قلتَ للناس فيما تبلغهم من وحي ربهك: إنكم ستبعثون من بعد موتكم ليجزيكم ربكم بعملكم فيما بلاكم به «ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» فإنه ما خلقكم سدى، ولا سخّر لكم هذا العالم واستخلفكم فيه عبثاً ﴿ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾، أي: ليجيبنك الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله قائلين: ما هذا الذي جئتنا به من هذا القرآن لتسخرنا به لطاعتك إلا سحر بيِّنٌ ظاهر، تَسْحَرُ به العقول، وتسخِّر به الضمائر والقلوب، فتفرق به بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وعشيرته التي تؤويه، فيعتقدون بسلطان بلاغته أنهم سيموتون ثم يبعثون، ويجزون بكل ما يفعلون «هيهات هيهات لما توعدون».

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ

لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

٨ ـ ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾، أي: ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى جماعة من الزمن معدودة في علمنا ومحدودة في نظام تقديرنا، وسنتنا في خلقنا، المبين في قولنا: «لكل أجل كتاب» أو إلى أمة قليلة من الزمن تُعَدُّ بالسنوات، أو ما دونها من الشهور أو الأيام ﴿ليقولُنَّ: ما يحبسه﴾ يعنون: أَيُّ شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقاً كما يقول هذا النذير؟ وإنما يقولون هذا ويستعجلون بالعذاب إنكاراً له واستهزاءً به ﴿ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم﴾، أي: ألا إن له يوماً يأتيهم فيه إذ تنتهي الأمة ـ المدة ـ المعدودة المضروبة دونه ويومئذ لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه حابس ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه، فلا هو يصرف عنهم ولا هم ينجون منه.

٩ ـ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة﴾، أي: ولئن أعطيناه نوعاً من أنواع النعمة رحمة منا مبتدأة أذقناه لذتها، فكان مغتبطاً بها، كالصحة والأمن وسعة الرزق والولد البار ﴿ثم نزعناها منه﴾ بما يحدث من الأسباب بمقتضى سنتنا في الخلق من مرض وعسر وفتن وموت ﴿إنه لَيَؤوس كفور﴾، أي: إنه في هذه الحال لشديد اليأس من الرحمة، قطوع للرجاء من عودة تلك النعمة، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها، فضلاً عما سلف منها.

١٠ ـ ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته﴾ هذه الإذاقة أخص مما قبلها، وهي تتضمن كشف الضراء السابقة وإحلال ما هو ضدها محلها، كالشفاء من المرض وزيادة العافية والقوة السابغة، والمخرج من العسر والفقر إلى سعة الغنى واليسر، والنجاة من الخوف والذل إلى بحبوحة المنعة والعز، يقول تعالى: ولئن منحنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور نعماء أذقناه لذتها ونعمتها، بعد ضراء مسته باقترافه لأسبابها، إثر كشفها وإزالتها ﴿ليقولن ذهب السيئات

عني﴾، أي: ذهب ما كان يسوؤني من المصائب والضراء فلن تعود، فما هي إلا سحابة صيف تقشعت فعلي أن أنساها بالتمتع باللذات ﴿إنه لفرح فخور﴾، أي: إنه في هذه الحالة لشديد الفرح والمرح الذي يهيجه البطر بالنعمة، ومبالغ بالفخر والتعالي على الناس والاحتقار لمن دونه فيها، فهو لا يقابلها بشكر الله عليها.

١١ ــ ﴿إلا الذين صبروا﴾ هذا استثناء من جنس الإنسان فيما ذكر من حاليه في الآيتين قبله: الكفر بأنعم الله، واليأس من رحمته عند زوال شيء منها، وفرح البطر وعظمة الفخر بها عند إقبالها، يقول: إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله واحتساباً للأجر عنده ﴿وعملوا الصالحات﴾ عند كشفها، وتبديل النعماء بها، من شكره تعالى باستعمال النعمة فيما يرضيه تعالى من عمل البر وغير ذلك من عبادته وشكره ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ واسعة من ربهم تمحو من أنفسهم ما علق بها من ذنب أو تقصير ﴿وأجر كبير﴾ في الآخرة على ما وُفِّقوا له من بـر وتشمير.

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

١٢ ــ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾، أي: أفتارك أنت أيها الرسول بعض ما يوحى إليك مما يشق سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والإنذار والوعيد الشديد لهم والنعي عليهم، وضائق به صدرك أن تبلغهم إياه كله كما أنزل كراهة ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾، أي: هلا أعطاه ربه كنزاً من لدنه يغنيه في نفقته ويمتاز به على غيره،

فالكنز ما يدخر من المال في الأرض، عبروا به عما ينال بغير كسب، وبإنزاله عليه عن كونه من عند الله يخصه به ﴿أو جاء معه ملك﴾ يؤيده في دعوته، وهم قد قالوا ذلك مرة أخرى كما جاء في سورة «الفرقان» «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكونُ له جنة يأكل منها»، ﴿إنما أنت نذير﴾ فعليك أن تبلغ جميع ما أمرت أن تبلغه وتنذر به في وقته وإن ساءهم وأطلق ألسنتهم ﴿والله على كل شيء وكيل﴾، أي: هو الموكل بأمور العباد والرقيب عليهم فيها وليس عليك منها شيء، لأنها من أمور الخلق والتدبير، لا من موضوع التعليم والتبليغ، الذي هو وظيفة الرسل.

١٣ ــ ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾، أي: بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة إن محمداً قد افترى هذا القرآن؟ قل لهم أيها الرسول: إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم لا تَدَّعون أنها من عند الله، فإن كان من جنس كلام البشر فأنتم به أجدر، وإن كانت أخباره عن الله تعالى وعن عالم الغيب وقصصه عن الرسل وأقوامهم مفتريات فأنتم على مثلها أقدر، فإنكم تعلمون أنني أصدقكم لساناً لم أكذب على بشر قط، فكيف أفتري على الله عز وجل؟ وأنتم تفترون عليه باتخاذ الآلهة معه والبنات له والشفعاء عنده، وتحريم ما لم يحرمه. وإن كنتم تزعمون أن لي من يعينني على وضعه من لا وجود لهم بالفعل ولا بالإمكان، فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله ومن جميع خلق الله ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر، ولتكن مثله مفتريات إن كنتم صادقين في دعواكم أن قصصه من أساطير الأولين، وليكن ما تأتون به كهذه القصص في علومها وحكمها وهدايتها وبلاغتها، مكرراً كتكراره لكل أنواعها، هذا التكرار الذي لا تبلى جِدته، ولا تمل إعادته، ويتبع ذلك عدم الاختلاف والتفاوت فيها على تكرار معانيها بالألفاظ المختلفة في نظمها وأساليبها.

١٤ ــ ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾، فإن لم يستجب لكم من تدعونهم من

دون الله ليظاهروكم على الإتيان بالعشر السور لعجزهم كعجزكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾، أي: فاعلموا أنما أنزل من الله بعلمه أي ببيان ما شاء أن يُعَلِّم به عباده من علمه، لا بِعِلْم محمد ﷺ ولا غيره ممن تدعون زوراً أنهم أعانوه عليه ﴿وأن لا إله إلا هو﴾، أي: واعلموا أنه لا إله يُعبد بالحق إلا هو، لأن من خصائص الإله أن يعلم ما لا يعلمه غيره، وأن يعجز كل من عداه عن مثل ما يقدر هو عليه، كما ظهر بهذا التحدي عجزكم وعجز آلهتكم وغيرهم عن الإتيان بعشر سور مثل سور كتابه بالتفصيل، وعن سورة واحدة بالإجمال ﴿فهل أنتم مسلمون﴾، أي: فهل أنتم بعد قيام هذه الحجة عليكم داخلون في الإسلام الذي أدعوكم إليه بهذ القرآن؟ أي: لم يبق لكم محيص من الإسلام والانقياد، وقد دحضت شبهتكم وانقطعت معاذيركم.

وفي الآية وجه آخر وهو أن الخطاب فيها للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين إذ كانوا كلهم دعاة إلى الإسلام معه والمعنى: فإن لم يجبكم هؤلاء المشركون إلى ما تحديتموهم به من الإتيان بعشر سور مثله، فاثبتوا على علمكم أنه إنما أنزل بعلم الله، وازدادوا به إيماناً ويقيناً بهذه الحجة، وأنه لا إله إلا هو، وعلى إسلامكم والإخلاص فيه؟ أي: اثبتوا عليه.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

١٥ ـ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾، أي: من كان كل حظه من وجوده التمتع بلذات هذه الحياة الأولى التي هي أدنى الحياتين اللتين خلق لهما وهي الطعام والشراب والوقاع ـ وزينتها من اللباس والأثاث والرياش والأولاد والأموال، لا يريد مع ذلك استعداداً للحياة الآخرة، ولقاء الله تعالى بالبر والإحسان وتزكية النفس بباعث الإيمان ﴿نوفِّ إليهم أعمالهم فيها﴾، أي: نؤد إليهم ثمرات أعمالهم التي يعملونها وافية تامة بحسب سنتنا في الأسباب

والمسببات ونظام الأقدار ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ وهم لا ينقصون فيها شيئاً من نتائج كسبهم لأجل كفرهم، فإن مدار الأرزاق فيها على الأعمال السببية، لا على النيات والمقاصد الدينية.

١٦ ــ ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾، أي: أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار، لأن الجزاء فيها كالجزاء في الدنيا على الأعمال، وهم لم يعملوا لنعيم الآخرة شيئاً، فإن العمل لها إنما هو تزكية النفس بالإيمان والتقوى التي هي اجتناب المعاصي والرذائل، وأعمال البر والفضائل ﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ وفسد ما صنعوا مما ظاهره البر والإحسان كالصدقة وصلة الرحم، لأنهم عملوه لأجل منافع الدنيا والسمعة والجاه فيها ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾، أي: وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه بهذه النية لأنه لا ثمرة له في تزكية نفوسهم، ولا أجر في الآخرة، وإنما الأعمال بمقاصدها، والنتائج تابعة لمقدماتها، فإن كان في عملهم خير ونية حسنة يجازون عليه في الدنيا.

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

١٧ ــ ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾، أي: على حجة وبصيرة من ربه فيما يؤمن به ويدعو إليه هادياً مهتدياً به، فالنية ما يتبين به الحق في كل شيء بحسبه، وهي هنا نور البصيرة الفطرية والحجة العقلية التي يميز بها الإنسان بين الحق والباطل، والهدى والضلال كما قال «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه» ﴿ويتلوه شاهد منه﴾، أي: وَيَتْبَعُ هذا النور الفطري والبرهان العقلي المراد بالبينة ــ وإنما أعاد الضمير عليها مذكراً باعتبار معناها

ـ ويؤيده نور آخر غيبي إلهي منه تعالى يشهد بحقيته وصحته، وهو هذا القرآن، الذي هو مشرق النور والهدى والبرهان ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ ويتبعه ويؤيده شاهد آخر جاء من قبله وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام حال كونه إماماً متبعاً في الهدى والتشريع، ورحمة لمن آمن وعمل به من بني إسرائيل، وشهادته له من وجهين: شهادة مقال وشهادة حال، فالأولى: تصريحه بالبشارة بنبوة محمد ورسالته، والثانية: ما بين رسالة موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام من التشابه.

وحاصل المعنى: أفمن كان على نور فطري من ربه ويتلو هذا النور شاهد منه تعالى وهو كتابه وشاهد آخر وهو كتاب موسى ـ كمن هو أعمى البصيرة كافر بالوحي لا هم له إلا لذات الحياة الدنيا؟ كلا. ﴿أولئك يؤمنون به﴾، أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من الجمع بين البينة الوهبية، وشهادة الوحي لعقائدهم وأعمالهم الكسبيـة، يؤمنون بهذا القرآن إيمان معرفة وإذعان، على علم بما فيه من الهدى والفرقان، وأنـه ما كان أن يفترى من دون الله ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ الذين تحزبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصد عنه، والذين سيتحزبون لمثل ذلك من أهل الكتاب ﴿فالنار موعده﴾، أي: فإن نار جهنم هي الدار التي ينتهون إليها بمقتضى وعده تعالى آنفاً «أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار» وما في معناه في السور الكثيرة، فالموعد اسم مكان ﴿فلا تك في مرية منه﴾، أي: فلا تكن أيها المكلف العاقل في شك من هذا الوعد، أو من أمر هذا القرآن ﴿إنه الحق من ربك﴾، إنه هو الحق الكامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من ربك وخالقك الذي يربيك بما تكمل به فطرتك ويوصلك إلى السعادة في دنياك وآخرتك ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ هذا الإيمان الكامل، أما المشركون فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم، وتقليد مرؤوسيهم ودهمائهم، وأما أهل التاب فلتحريفهم وابتداعهم في دين أنبيائهم.

وذهب بعضهم إلى أن المراد بمن كان على بينة من ربه في هذه الآية: رسول الله ﷺ، ويجوز أن تكون البينة على هذا: علمه اليقيني الضروري بنبوته كما تقدم، ويكون الشاهد الذي يتلوه منه تعالى القرآن، وهو الأظهر عندي،

وروي عن ابن عباس ومجاهد والنخعي والضحاك وعكرمة وأبي صالح وسعيد بن جبير: أن البينة هي: القرآن، والشاهد: جبريل عليه السلام. وقوله «يتلوه» على هذا من التلاوة لا من التِّلو والتبعية، فهو الذي كان يقرؤه على النبي ﷺ عند نزوله.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

١٨ ــ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾، أي: لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى على الله كذباً في وحيه وأقواله، أو أحكامه أوصفاته أو أفعاله كالذين يشرعون للناس من العقائد والأحكام ما لم ينزله عليهم ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ يوم القيامة لمحاسبتهم وتعرض عليه أعمالهم وأقوالهم ﴿ويقول الأشهاد﴾ الذين يقومون بأمره للشهادة عليهم من الملائكة. الكرام الكاتبين، والأنبياء المرسلين، وصالحي المؤمنين ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾، أي: يشيرون إليهم بأشخاصهم فيفضحونهم

بهذه الشهادة المقرونة باللعنة، الدالة على خروجهم في ذلك اليوم من محيط الرحمة.

١٩ ــ ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ صفةللظالمين الملعونين، أي: هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن سبيل الله الموصلة إلى معرفته وعبادته وهي دينه القيم وصراطه المستقيم ﴿ويبغونها عوجاً﴾، أي: يَصِفُونها بالعوج والالتواء للتنفير عنها، أو يريدون أن تكوون عوجاء بموافقتها لأهوائهم من الشرك وإباحة الظلم والفسق ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾، أي: والحال أنهم كافرون بالآخرة لا يؤمنون ببعث ولا جزاء، وإنما الدِّين عندهم رابطة دنيوية، وشعائر قومية، قد يتعصبون لها تعصبهم لقوميتهم، وتقليداً لآبائهم، وزيادة «هم» بين المبتدأ والخبر للتأكيد.

٢٠ ــ ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾، أي: لم يكونوا معجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم بظلمهم وصدهم عن سبيله، وكفرهم بكتابه ورسوله ولقائه ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ وما كان لهم فيها أولياء من دونه يتولون أمرهم عنده، ولا أنصار يمنعونهم من عقابه وينصرونهم، ولكن سبقت كلمته واقتضت مشيئته وحكمته أن يؤخرهم إلى هذا اليوم ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ فيه بالنسبة إلى ما كان يكون من عقابهم في الدنيا لو عوقبوا فيها، لا بالزيادة عما يستحقونه منه بمقتضى سنته تعالى في إفساد كفرهم لأرواحهم، وتَدْسِيَةِ ظلمهم لأنفسهم، وعلل هذه المضاعفة بقوله: ﴿وما كانوا يستطيعون السمع﴾، أي: ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاء لدعوة الحق وكلام الله عز وجل لاستحواذ الباطل على أنفسهم، ورَيْن الكفر والظلم على قلوبهم ﴿وما كانوا يبصرون﴾ ما يدل عليه من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، أي: أنهم لشدة انهماكهم في الكفر ولوازمه من الباطل واتباع الهوى والشهوات، صاروا يكرهون الحق والهدى كراهة شديدة بحيث يثقل عليهم سماع ما يبينه من الآيات السمعية، وما يثبته من الآيات البصرية، كما يقول أمثالهم فيما يبغضون: إنني لا أطيق رؤية فلان، ولا أقدر أن أسمع كلامه.

٢١ ـ ﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم﴾، أي: أولئك الموصوفون بما تقدم هم الذين خسروا أنفسهم بافترائهم على الله، واشتراء الضلالة بالهدى، فإنهم دَسَّوْها وما زَكَّوْها في الدنيا ففقدوها في الآخرة، وأَيُّ وجود لمن يصلى النار الكبرى فلا يموت فيها ولا يحيا ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من اتخاذ الشفعاء عند الله، والأولياء الذين زعموا أنهم يقربونهم إليه زلفى.

٢٢ ـ ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ كلمة «لا جرم» تفيد التحقيق والتأكيد لما بعدها، أي: حقاً إنهم في الآخرة لأشد الناس خسراناً.

٢٣ ـ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم﴾، أي: خشعوا له واطمأنت نفوسهم بالإيمان، ولانَتْ قلوبهم إلى ذكره، فلم يبق فيها زلزال ولا اضطراب. ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أولئك المتصفون بما ذكر أصحاب الجنة المستحقون لها بالذات الخالدون فيها أبداً.

٢٤ ـ ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع﴾، أي: مثل الفريقين من الكافرين والمؤمنين اللذين تقدم وصفهما وبيان حالهما في هذه الآيات المبينة لابتلائه تعالى للناس ليظهر أيهم أحسن عملاً، والصفة الحسية المطابقة لحالهما كمثل أشد الناس تضاداً، فالأوَّل كالأعمى الفاقد لحاسة البصر في خلقته والأصم الفاقد لحاسة السمع كذلك في حرمان كل منهما من مصادر العلم والعرفان الإنسانية والحيوانية، والثاني كمن هو كامل حاستي البصر والسمع كلتيهما، فهو يستمد العلم من آيات الله في التكوين والتشريع بما يسمع من القرآن وبما يرى من الأكوان، وهما الينبوعان اللذان يفيضان العلم والهدى على عقل الإنسان ﴿هل يستويان مثلاً﴾، أي: هل يستوي الفريقان صفة وحالاً، ومبدأ ومآلاً؟ كلا إنهما لا يستويان ﴿أفلا تذكرون﴾، أي: أتجهلون أيها المخاطبون هذا المثل الحسي الجلي؟ أو أتغفلون عنه فلا تتذكرون ما بينهما من التباين فتعتبرون به؟ أي: يجب أن تتفكروا فتتذكروا فتعتبروا وتهتدوا.

(قصة نوح عليه السلام)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

٢٥ ــ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ هذه القصة معطوفة على ما في أول هذه السورة من ذكر بعثة محمد رسول الله وخاتم النبيين ﷺ بمثل ما بُعِث به مَنْ قبله والتقدير: لقد أرسلناك يا محمد إلى قومك وإلى الناس كافة بما تقدم بيان أصوله، ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بمثل ما أرسلناك به ﴿إني لكم نذير مبين﴾، أي: أرسلناه ببيان وظيفته من الإنذار لهم، أو قائلاً لهم: إني لكم نذير بين الإنذار ظاهره.

٢٦ ــ ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ بأن لا تعبدوا إلا الله، بل اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، وكانوا أول قوم أشركوا بالله واتخذوا له الأنداد، فصوروا صالحيهم ليتذكروهم ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم، وكان نوح عليه السلام أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾، أي: شديد الألم وهو يوم القيامة، أو يوم عذاب الاستئصال بالطوفان، وصف اليوم بالألم للمبالغة، وإنما يشعر بالألم من يعذَّب فيه من الكافرين الظالمين.

٢٧ ــ ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، أي: فبادَرَ الملأ، أي: الأشراف والزعماء الذين كفروا من قومه إلى الجواب ليكون الدهماء تبعاً لهم كعادتهم، ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾ في الجنس لا مزية لك علينا تكون بها نذيراً لنا نطيعتك ونتبعك مذعنين لنبوتك ورسالتك ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا﴾، أي: أردياؤنا وأخساؤنا. ويعنون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر كالزُّراع والصُّناع والعمال، وهم الذين يقبلون الحق إذا فهموه لعدم

استكبارهم عن اتباع غيرهم ﴿بادِي الرأي﴾، أي: اتبعوك في بادي الرأي، أي: ظاهره الذي يبدو للناظر فيه، قبل العلم بما وراء قوادمه من خوافيه، والتأمل في باطنه، والغوص في أعماقه، وفي قراءة «بادىء» بالهمزة، أي: في بدئه وما يظهر منه أول وهلة قبل تكرار التفكر فيه، والنظر في عواقبه وتواليه، فالياء على هذا منقلبة عن همزة لانكسار ما قبلها. ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، أي: وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أدنى فضل تمتازون به في جماعتكم كالقوة والكثرة والعلم والرأي يحملنا على اتباعكم، والنزول عن امتيازنا عليكم بالجاه والمال لمساواتكم ﴿بل نظنكم كاذبين﴾، أي: بل الأمر شر من ذلك وهو أننا نظنكم كاذبين في جملتكم: المتبوع في دعوى النبوة، والتابعون في تصديقه.

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

٢٨ ـ ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾، أي: أخبروني يا قومي الأعزاء، ما رأيكم وقولكم في حالي معكم إن كنتُ على حجة ظاهرة من ربي فيما جئتكم به تَبَيَّـنَ لي بها أنه الحق من عنده لا من عندي وكسبي البشري الذي تشاركونني فيه، وإنما هي فوق ذلك ﴿وآتاني رحمة من عنده﴾ وهي النبوة وتعاليم الوحي التي هي سبب رحمة الله الخاصة لمن يهتدي بها، فوق

رحمته العامة لعباده كلهم ﴿فعميت عليكم﴾، أي: فخفيت عليكم، أي: فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بمالكم وجاهكم، فلم تستبينوا بها ما تدل عليه من التفرقة بيني وبينكم بما أوحى إلـيَّ ربي وعلمني ﴿أنلزمكموها وأنتم لهاكارهون﴾، أي: أنلزمكم إياها بالجبر والإكراه والحال أنكم كارهون لها إنكاراً، وجحوداً واستكباراً؟ أي: لا نفعل ذلك، فإن الإسلام لا يصح إلا بإيمان الإذعان وما على الرسول إلا البلاغ.

٢٩ ـ ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً﴾ صرح لهم بأنه لا يسألهم على ما دعاهم إليه مالاً، فيكون متهمًا فيه عندهم لمكانة حب المال من أنفسهم، واعتزازهم به عليه وعلى الفقراء من أتباعه. و«المال»: ما يُـمْلك ويُقْتنى من نقد وماشية وغيرها ﴿إن أجري إلا على الله﴾، أي: ما أجري على تبليغه والقيام بأعبائه إلا على الله الذي أرسلني به، وكل رسول بعده أمر أن يبلغ قومه هذا ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾، أي: وليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من قربي وجواري لاحتقاركم لهم، ووصفكم إياهم بالأراذل جهلاً منكم ﴿إنهم ملاقو ربهم﴾ يوم القيامة فهو يتولى حسابهم وجزاءهم، وليس على الرسول من هذا شيء، إن عليه إلا البلاغ، فليس يضركم ما هم عليه والله أعلم به وبهم ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾، أي: تسفهون عليهم، من الجهالة المضادة للعقل والحلم، أو تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم على بعضه من اتباع الحق والتحلي بالفضائل، وعمل البر والخير، وتظنون أن الامتياز إنما يكون بالمال المطغي، والجاه بالباطل المردي.

٣٠ ـ ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾، أي: لا يوجد أحد ينصرني من الله بأن يمنع عني ما أستحقه من عقابه إن طردتهم بعد إيمانهم لي وابتاعهم إياي فيما بلغتهم عنه، وهو ظلم عظيم يقتضي العقاب الشديد بعدل الله تعالى مهما تكن صفة من اقترفه ﴿أفلا تذكرون﴾ أصله «تتذكرون»، حذفت إحدى التائين منه للتخفيف وهو قياس، أي: أتُصِرُّون على جهلكم، أو أتأمروني أن أطردهم فلا تتذكرون أن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم؟

٣١ ـ ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني

ملك﴾ هذا معطوف على قوله: «لا أسألكم عليه أجراً» ولهذا لم يكرر النداء فيه. وهذه الثلاث التي نفاها نوح عليه السلام عن نفسه هي التي كان يظن المشركون من قومه وممن بعدهم أن ثبوتها لازم لمن كان نبياً مرسلاً من الله تعالى إن صحت دعواه.

﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم﴾ «الازدراء»: افتعال من الزراية، يقال: زرى على فلان: إذا عابه واستهزأ به، وأزرى به إزراء تهاون به، أي: ولا أقول في شأن الذين تنظرون إليهم نظر الاستصغار والاحتقار فتزدريهم أعينكم لفقرهم ورثاثتهم ﴿لن يؤتيهم الله خيراً﴾ كما تقولون أنتم والمراد بالخير ماوعدهم على الإيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾ مما آتاهم من الإيمان على بصيرة، واتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة، خلافاً لما زعمتم من اتباعي بادي الرأي بغير علم ولا بصيرة ﴿إني إذاً لمن الظالمين﴾، أي: إني إذا قلت ذلك فيهم لمن الظالمين إذ أكون ظالماً لنفسي بالتقول على الله غيرما أعلمه عنه من وعد المؤمنين بخير الدنيا والآخرة، وظالماً للمؤمنين المحسنين بهضم حقهم.

ويجوز أن يكون المعنى: إني إذا قلت شيئاً مما نفيته من أول الآية لمن زمرة الظالمين الراسخين في الظلم، لا من الأنبياء المرسلين المعتصمين بالحق والعدل.

قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

٣٢ ــ ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾، أي: قد خاصمتنا وحاججتنا فأكثرت جدالنا، واستقصيت فيه فلم تدع لنا حجة إلا دحضتها حتى مللنا وسئمنا ولم يبق عندنا شيء نقوله ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من عذاب الله

الدنيوي الذي تخافه علينا، ﴿إن كنت من الصادقين﴾ في دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه في الدنيا قبل الآخرة.

٣٣ ـ ﴿قال إنما يأتيكم به الله إن شاء﴾، أي: إن هذا لله وبيده لا أملكه أنا وإنما هو الذي يأتيكم به إن تعلقت مشيئته به في الوقت الذي تقتضيه حكمته، وهذا بيان للواقع لا شك فيه ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ ولا فائتين له إن أخره لحكمة يعلمها، فهو متى شاء واقع ما له من دافع، ونفي الإعجاز مؤكد بالباء.

٣٤ ـ ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، أي: إن نصحي لكم لا ينفعكم بمجرد إرداتي له فيما أدعوكم إليه، وإنما يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى، وقد مضت سنته تعالى بما عرف بالتجارب أن نفع النصح له شرطان أو طرفان هما: الفاعل للنصح والقابل له، وإنما يقبله المستعد للرشاد، ويرفضه من غلب عليه الغي والفساد. فمعنى إرادة الله تعالى لإغوائهم: اقتضاءُ سنته فيهم أن يكونوا من الغاوين، لا خلقه للغواية فيهم جزافاً أُنُفا ـ بضمتين ـ أي: ابتداء بغير عمل ولا كسب منهم لأسبابها، فإن هذا مضاد لمذهب أهل السنة في إثبات خلق الأشياء مقدرة بأقدارها، ترتبط أسبابها بمسبباتها، وفسر ابن جرير ﴿هو ربكم وإليه ترجعون﴾، أي: هو مالك أموركم ومدبرها ومسيرها على سننه المطردة في الدنيا، ولكل شيء عنده قدر، ولكل قدر أجل، وإليه ترجعون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها لا يظلم أحداً.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

٣٥ ـ ﴿أم يقولون افتراه﴾، أي: أم يقول مشركو مكة إن محمداً ﷺ قد افترى هذا الذي يحكيه من قصة نوح، أو: أيقول قوم نوح إنه افترى هذا الذي وعدنا به من العذاب ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي﴾، أي: إن كنت

افتريته على الله عز وجل فرضاً فهو إجرام عظيم عليّ إثمه وعقابه من دونكم ﴿وأنا بريء مما تجرمون﴾ لأن حكم الله العدل أن يجزى كل امرىء بعمله «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

٣٦ ـ ﴿وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾، أي: أوحى الله تعالى إليه ما أيأسه من إيمان أحد من قومه بعد الآن غير من قد آمن من قبل منهم فهم ثابتون على إيمانهم دائمون عليه ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾، أي: فلا يشتدن عليك البؤس والحزن واحتمال المكاره بعد اليوم بما كانوا يفعلون في السنين الطوال من تكذيبهم وعنادهم وإيذائهم لك ولمن آمن لك.

٣٧ ـ ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ «الفُلْك»: السفينة، يطلق على المفرد والجمع. أي: واصنع الفلك الذي سننجيك ومن آمن معك فيه حال كونك ملحوظا ومراقباً بأعيننا من كل ناحية، وما يلزمه من حفظنا في كل آن وحالة. فلا يمنعك منه مانع، وملهمًا أو معلمًا بوحيي لك كيف تصنعه، فلا يعرض لك في صفته خطأ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾، أي: لا تراجعني في أمرهم بشيء من طلب الرحمة بهم، ودفع العذاب عنهم ﴿إنهم مغرقون﴾، أي: حقت عليهم كلمة العذاب، وقضي عليهم القضاءالحتم بالإغراق، فلا تأخذك بهم رأفة ولا إشفاق، وقيل معناه: ولا تخاطبني بعد في استعجال تعذيبهم، وتكرار الدعاء عليهم.

٣٨ ـ ﴿ويصنع الفلك﴾، أي: وطفق يصنع الفلك كما أمر ﴿وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾ استهزؤوا به وضحكوا منه وتنادروا عليه لحسبانهم أنه مصاب بالهَوَس والجنون، يقال: سخر من فلان وسَخِر به، أي: اتخذه سخرياً ـ بضم السين وكسرها ـ يهزأ به ﴿قال إن تسخروا منا﴾ قال مجيباً لكل منهم عن هذا السؤال: إن تسخروا منا وتستجهلوننا اليوم لرؤيتكم منا ما لا تتصورون له فائدة ﴿فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾ منا جزاء وفاقاً، نسخر منكم اليوم لجهلكم، وغداً لمايحل عليكم، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل وبما سيكون من عاقبة عملنا.

٣٩ ـ ﴿فسوف تعلمون﴾ بعد تمامه ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾، أي: يذله ويجلب له العار والتبار في الدنيا ﴿ويحل عليه عذاب مقيم﴾ بعد ذلك في الآخرة فيكون عذاب الدنيا هيناً بالإضافة إليه لانقضاء هذا بهلاككم، وبقاء ذاك ودوامه بدوامكم.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾
* وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾

٤٠ ـ ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ هذا بيان لابتداء الغاية مما ذكر قبله من الاستعداد لهلاك قوم نوح، أي: وكان يصنع الفلك كما أمر، ويقابلُ السخرية بغير ابتئاس ولا ضجر، حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ﴿وفار التنور﴾ اشتد غضب الله تعالى عليهم. فهو مجاز كحمي الوطيس، أو فار الماء من التنور عند نوح لأنه بدأ ينبع من الأرض. و«التنور»: الذي يُـخبز فيه الخبز، معروف عند العرب. والفَـوْر والفوران: ضرب من الحركة والارتفاع القوي يقال في الماء إذا نبع وجرى، وإذا غلا وارتفع ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ قرأ حفص كلمة «كل» هنا بالتنوين، وجمهور القراء بالإضافة لما بعدها. أي: حتى إذا جاءموعد أمرنا قلنا لنوح حينئذ: احمل فيها أي:في الفلك من كل زوج اثنين

ذكراً وأنثى. والتقدير على قراءة حفص: احمل فيها من كل نوع من الأحياء أو الحيوان زوجين اثنين ذكراً وأنثى لأجل أن تبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾، أي: واحمل فيها أهل بيتك ذكوراً وإناثاً، وأهل بيت الرجل عند الإطلاق: نساؤه وأولاده وأزواجهم، والظاهر أن المستثنى منهم كفارهم إن كان فيهم كفار لأنهم يدخلون في عموم قوله: «ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون»، وإلا كان المستثنى ولده الذي ستُذْكر قصته قريباً ﴿ومن آمن﴾ معك من قومك ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ منهم، ولم يبين لنا الله تعالى ولا رسوله عددهم، فكل ما قاله المفسرون فيهم مردود لا دليل عليه.

٤١ ـ ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها﴾ يقال: ركب الدابة والسفينة وركب على الدابة لأنه يعلوها، وركب في السفينة لأنه يكون مظروفاً فيها وإن جلس على ظهرها وهو المستعمل في القرآن، قرأ بعض أئمة القراء «مجراها» بفتح لميم بإمالة الراء وتركها، وهو مصدر ميمي لـ «جرت السفينة تجري» موافق لقوله الآتي «وهي تجري بهم»، وقرأها الآخرون: بضم الميم، وهو مصدر ميمي لأجرى على إرادة إجراء الله تعالى بها. وقرؤوا كلهم «مسراها» بضم الميم بمعنى: أن الله تعالى هو الذي سيرسيها؛ ورُسُوُّ السفينة: وقوفها، والمجرى والمرسى: يجيئان اسمي زمان ومكان أيضاً. أي: باسم الله جريانها وارساؤها فهو الذي يتولى ذلك بحوله وقوته، تحفظه وعنايته، ويحتمل أن يكون أَمَرَهُم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير: اركبوا فيها قائلين باسم الله، أي: بتسخيره وقدرته مجراها حين تجري أو حين يجريها، ومرساها حين يرسيها، لا بحولنا ولا قوتنا ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾، أي: إنه لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم جميعهم بذنوبهم وتقصيرهم، وإنما يهلك الكافرين الظالمين وحدهم، رحيم بهم بما سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذي اقتضته مشيئته.

وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ

ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

٤٢ ــ ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ هذا تصوير لحالها في جريها بهم كأنها حاضرة أمام القارىء أو السامع، أي: تجري في أثناء موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه وامتداده، وهو ما يحدث في ظاهر البحر عند اضطرابه من التموّج والارتفاع بفعل الرياح، واحدته «موجة» وجمعه أمواج، وأصل «المَوْج»: الاضطراب ﴿ونادى نوح ابنه﴾ عند الركوب في السفينة وقبل جريانها، ولم يَسْبق له ذكر وستأتي بقية خبره في آخر القصة ﴿وكان في معزل﴾، أي: مكان عزلة وانفراد دون أهله الذين ركبوا فيها ودون الكفار ﴿يا بنيّ اركب معنا﴾، أي: مع والدك وأهلك الناجين ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ المقضي عليهم بالهلاك.

٤٣ ــ ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾، أي: سألجأ إلى جبل عال يحفظني من الماء أن يصل إليّ فأغرق ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾، أي: لا شيء في هذا اليوم العصيب يعصم أحداً من أمر الله الذي قضاه، فليس الأمر والشأن أمر ماء يرتفع بكثرة المطر كالمعتاد، فيتقي الحازم ضره بما يقدر عليه من الأسباب، وإنما هو أمر انتقام عام من أشرار العباد، الذين أشركوا بالله وظلموا وطغوا في البلاد، لكن من رحم الله منهم فهو يعصمه ويحفظه، وقد اختص بهذه الرحمة من أمر بحملهم في هذه السفينة ﴿وحال بينهما الموج﴾ وكان قد بدأ يرتفع في أثناء هذا الحديث حتى حال بين الولد ووالده ﴿فكان من المغرقين﴾ الهالكين.

ما أفظع هذا المنظر؟ ما أشد هوله؟ ما أعظم روعته؟ ماء ينهمر من آفاق

السماء انهماراً؛ وأرض تتفجر عيوناً فوارة فتفيض مدراراً، ماء ثجاجاً يصير بحراً ذا أمواج، خفيت من تحته الأرض بجبالها، وخفيت من فوقه السماء بشمسها وكواكبها، وكانت عليه هذه السفينة وحدها فتخيل أنك ناظر إليها كما صورها لك التنزيل، تتفكر فيما يؤول إليه أمر هذا الخطب الجليل، واسمع لما بيّنه به الذكر الحكيم في أوجز عبارة وأبلغها تأثيراً، ثم تفكر واعتبر.

٤٤ ـ ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾، أي: وصدر من عالم الغيب الأعلى نداء خاطب الأرض والسماء، بأمر التكوين الذي يسجد له العقلاء وغير العقلاء: يا أرض ابلعي ماءك الذي عليك، و«البلع»: ازدراد الطعام أو الشراب بسرعة ﴿ويا سماء أقلعي﴾، أي: كُفّي عن الإمطار، فامتُثِلَ الأمْرُ في الحال، وما هو إلا أن قيل «كن» فكان ﴿وغيض الماء﴾، أي: غار في الأرض ونضب بابتلاعها له نضوباً ﴿وقضي الأمر﴾، أي: نفذ ذلك الأمر بإهلاك الظالمين، ونجاة المؤمنين ﴿واستوت على الجودي﴾، أي: واستقرت السفينة راسية على الجبل المعروف بالجودي ﴿وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾، أي: هلاكاً وسحقاً لهم، وبعداً من رحمة الله تعالى بما كان من رسوخهم في الظلم واستمرارهم عليه، وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل.

قرر علماء البلاغة الفنية: أن هذه الآية أبلغ آية في الكتاب العزيز، أحاطت بالبلاغة من جميع جوانبها وأرجائها اللفظية والمعنوية التي وضعت لفلسفتها الفنون الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

٤٥ ـ ﴿ونادى نوح ربه﴾ في إثر ندائه لابنه الذي تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب ﴿فقال رب إن ابني من أهلي﴾ هذا تفسير لـ «نادى»، أي: فكان نداؤه أن قال: يا رب إن ابني هذا من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم إذ أمرتني بحملهم في السفينة ﴿وإن وعدك الحق﴾ الذي لاخلف فيه وهذا منه ﴿وأنت أحكم الحاكمين﴾، أي: أحق من كل من يتصور منهم الحكم وأحسنهم وخيرهم حكمًا.

٤٦ ـ ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ الذين أمرتك أن تسلكهم في السفينة لإنجائهم، ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قرأ الجمهور «عَمَلٌ» برفع اللام والتنوين على المبالغة في التشبيه «رجلٍ عدلٍ»، كأنه لفساده واجتنابه للصلاح والتزامه العمل غير الصالح نفس العمل، والباقون بصيغة الفعل الماضي بتقدير «عمل عملاً غير صالح»، المراد: أنه كان كافراً يعمل عمل الكافرين، والكفر يقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من الأقربين، ويوجب براءة بعضهم من بعض.

﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾، أي: فلا تسألني في شيء ما من الأشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب، سمى دعاءه سؤالاً لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله وما رتبه عليه من طلب نجاة ولده، وهذا النهي يدل على أنه يشترط في الدعاء أن يكون بما هو جائز في شرع الله وسننه في خلقه ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾، أي: أنهاك أن تكون من زمرة الجاهلين الذين يسألون ما ليس لهم علم بموافقته لشرع الله وسننه.

٤٧ ـ ﴿قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم﴾، أي: إني أعتصم وأحتمي بك من أن أسألك بعد الآن ما ليس لي علم صحيح بأنه جائز لائق ﴿وإلا تغفر لي﴾، أي: وإن لم تغفر لي ذنب هذا السؤال الذي سولته لي رحمتي الأبوية، وطمعي برحمتك الربانية ﴿وترحمني﴾ بقبول توبتي الصادقة

ورحمتك وسعت كل شيء ﴿أكن من الخاسرين﴾ فيما حاولته من الربح بنجاة أولادي كلهم وسعادتهم بطاعتك وأنت أعلم بهم مني.

﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

٤٨ ــ ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا﴾، أي: قال الله عز وجل بعد انتهاء أمر الطوفان: يا نوح اهبط من السفينة أو من الجودي الذي استوت عليه إلى الصفصف المستوي من الأرض، ملابساً أو مزوداً وممتعاً بسلام منا، وهو: التحية والسلامة من الفتن والعداوة التي أحدثها المشركون الظالمون فيها ﴿وبركات﴾ في المعايش وسعة الرزق فائضة ﴿عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآن في السفينة، وعلى ذريات يتناسلون منهم ويتفرقون في الأض، فيكونون أمماً مستقلاً بعضهم دون بعض، وهم ممتعون بهذا السلام المعنوي والبركات المادية، ﴿وأمم سنمتعهم﴾، أي: وثَـمَّ أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم في الدنيا بأرزاقها وبركاتها دون السلام الرباني، الممنوح من السليمي الفطرة من المؤمنين فإن أولئك سيغويهم الشيطان الرجيم، ويزين لهم الشرك بربهم، والظلم والبغي فيما بينهم، ﴿ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾ في الدنيا والآخرة لأنهم لا يحافظون على السلام الذي كان عليه من قبلهم، بل يبغي بعضهم على بعض لتفرقهم واختلافهم في هداية الدين، التي نبعث بها المرسلين، كما وقع لك مع قومك الأولين.

٤٩ ــ ﴿تلك من أنباء الغيب﴾ الإشارة إلى قصة نوح المفصلة هذا التفصيل البديع، من أنباء الغيب الماضية ﴿نوحيها إليك﴾ أيها الرسول في هذه السورة متمًا ومفصلاً لما أوحيناه إليك قبلها ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من

قبل هذا﴾ الوحي الذي نزل مبيناً لها، والظاهر أنه ﷺ ما كان يعلمها هو ولا قومه يعلمونها بهذا التفصيل وقد كان هو يعلمها مما نزل قبله بالإجمال، ولو كان قومه وهم قريش يعلمونها على الوجه المنفي هنا وأكثرهم كافرون به لكذبوه، ولنقل تكذيبهم الخاص له فيها كما نقل تكذيبهم العام للقصص كلها، إذ قالوا: إنه افتراها ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾، أي: فاصبر كما صبر نوح على قومه، فإن سنة الله في رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين، وأنت ومن اتبعك المتقون، فأنتم الناجون المفلحون، والمصرون على عداوتك هم الخاسرون الهالكون، ارتقب إنهم مرتقبون.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

(قصة هود عليه السلام)

٥٠ ــ ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾، أي: وأرسلنا إلى عاد الأولى أخاهم في النسب والقومية هوداً ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحده ولا تشركوا به شيئاً ﴿ما لكم من إله غيره﴾ فإن الإله الحق للناس ربهم الذي خلقهم ويربيهم بنعمه وهو واحد باعترافكم ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾، أي: ما أنتم في عبادة غيره إلا مفترون كذباً عليه باتخاذ الأنداد والأولياء شركاء، وتسميتهم شفعاء، تتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم إليه، وترجون النفع وكشف الضر عنكم بجاههم عنده.

٥١ ــ ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ تقدم مثله آنفاً في قصة نوح، والمراد: إني ناصح مخلص أمين في هذا الذي أدعوكم إليه من عباده الله وحده لا أسألكم أجراً فتتهموني بطلب المنفعة لنفسي ﴿إن أجري إلا على الذي

فطرني﴾، أي: ما أجري الذي أرجوه على تبليغكم إياه إلا على الله الذي خلقني على الفطرة السليمة ﴿أفلا تعقلون﴾ ما يقال لكم فتميزون بين الحق والباطل والنافع والضار، وأن الأخ لا يغش أخوته، ولا يعرِّض نفسه لغضب قومه بدعوتهم إلى ما يضرهم ولا ينفعه.

٥٢ ـ ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ تقدم هذا الأمر بلفظه في الآية «الثالثة» من هذه السورة ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ هذا الجزاء الأول للأمر قبله و«السماء» هنا: المطر أو السحاب الممطر، وإرساله إمطاره، و«المدرار»: الكثير الدُّرور ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ هذا الجزاء الثاني للأمر، وهو مما كانوا يطلبونه ويعنون به ويفخرون على الناس، إذ كانوا قد بسط لهم في الأجسام وأعطوا القوة فيها ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾، أي: ولا تنصرفوا معرضين عما أدعوكم إليه مما يكون سبباً لنعمة المعيشة وسعة الرزق وزيادة القوة وهي جزاء الاستقامة على الحق.

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

٥٣ ـ ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾، أي: بحجة ناهضة تدل على أن ما جئت به من الله تعالى ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾، أي: وما نحن بالذين نترك عبادة آلهتنا صادرين عن قولك، أو تركاً صادراً عن قولك من تلقاء

نفسك وأنت بشر مثلنا ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾، أي: وما نحن بمتَّبعين لك اتِّباع إيمان وتصديق برسالتك التي لا بين لك عليها، وما قولهم هذا إلا جحود وعناد.

٥٤ ــ ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾، أي: ما نجد من قول نقوله فيك إلا أن بعض آلهتنا أصابك بجنون أو خَبْل، وهو الـهَوَج والبَلَه، لإنكارك لها وصدك إيانا عنها.

﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾.

٥٥ ــ ﴿من دونه﴾، هذا بدء جواب يتضمن عدة مسائل:

إحداها: البراءة من شركهم أو شركائهم التي افتروها ولا حقيقة لها.

والثانية: إشهاد الله على ذلك لثقته بأنه على بينة منه فيه، وأَمْره لهم بالشهادة عليه أيضاً لإعلامهم بعدم مبالاته بهم وبما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه.

والثالثة: قوله ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون﴾، أي: فأجمعوا أنتم وشركاؤكم ما تستطيعون من الكيد للإيقاع بي ثم لا تمهلوني ولا تأخروا الفتك بي إن استطعتم، أي: إنه لا يخافهم ولا يخاف آلهتهم.

٥٦ ــ ﴿إني توكلت على الله ربي وربكم﴾، أي: إني وكلت أمر حفظي وخذلانكم إلى الله معتمداً عليه وحده إذ هو ربي وربكم، أي: مالك أمري وأموركم المتصرف فيها وفي غيرها بدليل قوله ﴿ما من دابة﴾ تدب على هذه الأرض ﴿إلا هو آخذ بناصيتها﴾، أي: مسخرها ومتصرف فيها، والتعبير بالأخذ بالناصية ــ وهو مقدم شعر الرأس ــ تمثيل لتصرف القهر، والخضوع الذي لا مهرب منه ولا مفر ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾، أي: على طريق الحق والعدل لا يسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ومتبعيهم من أوليائه، ولا يضيع حقاً ولا يفوته ظالم.

٥٧ ــ ﴿فإن تولوا﴾، أي: فإن تتولوا مجرمين ولم تنتهوا بنهيي لكم عن

التولي ولم تطيعوا أمري لكم بعبادة الله وحده وترك الإشراك به ﴿فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم﴾ وليس علي غير البلاغ، وقد لزمتكم الحجة وحقت عليكم كلمة العذاب ﴿ويستخلف ربي قوماً غيركم﴾ إذا هو أهلككم بإصراركم على كفركم وإجرامكم ﴿ولا تضرونه شيئاً﴾ ما من الضرر بتوليكم عن الإيمان، فإنه غني عنكم وعن إيمانكم « إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم»، ويستلزم هذا أنكم لا تضرون رسوله ولعله هو المراد، ويؤيده قوله: ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾، أي: قائم ورقيب عليه بالحفظ والبقاء، على ما اقتضته سنته وتعلقت به مشيئته، ومنه أنه ينصر رسله ويخذل أعداءه وأعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

٥٨ ـ ﴿ولما جاء أمرنا﴾ عذابنا أو وقته ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾، أي: رحمة من لدنا خاصة بهم مخالفة للعادة في أسباب النجاة من العذاب العارض الذي يصيب بعض الناس دون بعض ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾، أي: فظيع شديد الفظاعة غير معهود في العالم، وهو ما عبر عنه بالريح العقيم، التي لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.

٥٩ ـ ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم﴾، أي: كفروا بجنس الآيات التي يؤيد بها رسله بجحود ما جاءهم به رسولهم منها، أَنَّثَ الاشارة إليهم على إرادة القبيلة، وقيل: إشارة إلى آثارهم، والجحود بالآيات تكذيب الدلائل الواضحة عناداً ﴿وعصوا رسله﴾، أي: عصوا جنسهم بعصيان رسوله إليهم وإنكار رسالته فإن عصيان الواحد عصيان للجنس كله، إذ هو مبني على رفض

الرسالة نفسها، بادعاء أن الرسول لا يكون بشراً ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾، أي: واتبع سوادهم ودهماؤهم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين فيهم بالقهر، فالجبار القاهر الذي يجبر غيره على اتباعه بالقهر والإذلال، أو من يجبر نقص نفسه بالكبر ودعوى العظمة، و«العنيد»: الطاغي الذي يأبى الحق ولا يذعن له، وإن ظهر له وقام عليه الدليل عنده، فهل يعتبر بهذه بقايا الملوك الجبارين في الأرض قبل انقراضهم؟

٦٠ ــ ﴿وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ إتباع الشيء الشيءَ: لحوقه به وإدراكه إياه بحيث لا يفوته، أي: لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم ومن أدرك آثارهم، وكل من بلغه الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم ﴿ويوم القيامة﴾ وتتبعهم يوم القيامة عندما يلعن الأشهاد الظالمين أمثالهم كما تقدم في الآية «الثامنة عشرة» من هذه السورة، قال قتادة: تتابعت عليهم لعنتان من الله لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ هذه شهادة مؤكّدة عليهم بالكفر، أي: كفرُوا نعمه عليهم بجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبراً وعناداً، يقال: كفره وكفر به، وشكره وشكر له، ومعنى مادة «الكفر» في الأصل: التغطية، وقوله: ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة، حكاية لبدئه، وتسجيلاً لدوامه.

كرر «أَلَا» المنبهة لما بعدها تعظيمًا لأمره، وكرر اسمهم ووصفهم بـ «قوم هود» ليفيد السامع بالتكرير تقرير استحقاقهم للعنة والإبعاد وسببه، وأنهم ليس لهم شبهة عذر لرد الدعوة، المعقبة للحرمان مما كانوا فيه من خير ونعمة، والانتهاء إلى ضده من شقاء ونقمة.

(قصة صالح عليه السلام)

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ

أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

٦١ ـ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ هذا نص ما تقدم في تبليغ هود عليهما السلام، ثم قال ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾، أي: هو بدأ خلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم منها مباشرة ثم بخلق كل منكم من سلالة من طين الأرض ﴿واستعمركم فيها﴾، أي: وجعكم عماراً فيها من العمران فقد كانوا زراعاً وصناعاً وبنائين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين، والمراد: أنه هو المنشيء لخلقكم منها والممد لكم بأسباب العمران والنعم فيها فلا يصح أن تعبدوا فيها غيره، لأنه هو صاحب الفضل كله، والمستحق للعبادة وحده ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾، أي: فاسألوه أن يغفر لكم ما أشركتم وما أجرمتم ثم توبوا وارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنب أو خطأ، وتقدم مثله في دعوة هود قريباً، وفي دعوة محمد ﷺ في أول السورة ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ قريب من عباده بعلمه لا يخفى عليه شيء من استغفارهم والباعث عليه من أحوالهم، مجيب لدعاء من دعاه مؤمناً مخلصاً له الدين.

٦٢ ـ ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾، أي: قد كنت موضع رجائنا لمهمات أمورنا لِمَا لَكَ من المكانة في بيتك، وفي صفاتك الشخصية من العقل والرأي، قبل هذا الذي تدعونا إليه من تبديل ديننا بما تزعم من بطلانه، فانقطع رجاؤنا منك ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب، أي: أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا من قبلنا واستمر فينا لا ينكره ولا يستقبحه أحد؟ فالآباء يشمل الغابرين والحاضرين ﴿وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾، أي: وإنا لواقعون في شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده، لا نتوسل إليه بأحد من أوليائه وأحبائه الشفعاء لنا

عنده المقرِّبين لنا إليه، ولا بتعظيم ما وضعه آباؤنا لهم من الصور والتماثيل المذكرة بهم، لا ندري ما مرادك وغرضك منه، فإنه موجب للرِّيب وسوء الظن.

٦٣ ـ ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة﴾، أي: أخبروني عن حالي معكم إن كنت على حجة واضحة قطعية من ربي فيما أدعوكم إليه ووهبني رحمة خاصة منه جعلني بها نبياً مرسلاً إليكم ﴿فمن ينصرني من الله إن عصيته﴾ بكتمان الرسالة أو ما يسؤوكم من بطلان عبادة أصنامكم وأوثانكم تقليداً لآبائكم؟ أي: لا أحد ينصرني من الله ويدفع عني عقابه في هذه الحالة، وإذن لا أبالي بفقد رجائكم في، ولا بما أنتم فيه من شك وارتياب في أمري ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾، أي: ما تزيدونني بحرصي على رجائكم، واتقاء سوء ظنكم وارتيابكم، غير إيقاع في الخسران بإيثار ما عندكم على ما عند الله، واشتراء رضاكم بسخط الله تعالى، أو غير إيقاع في الهلاك، وقال مجاهد وعاء الخراساني: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، اهـ.

وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

٦٤ ـ ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾، أي: الناقة التي شرفها الله بإضافتها إلى اسمه، بجعلها ممتازة دون الإبل بما ترون من أمرها وأكلها وشربها، أشير إليها حال كونها لكم آية منه بينة دالة على هلاككم إن خالفتم أمره فيها ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ مما فيها من المراعي لا يعرض لها أحد

بمنع ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب﴾، أي: فيأخذكم كلكم عذاب عاجل لا يتأخر عن مسكم إياها بعقر أو غيره.

٦٥ ــ ﴿فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ يقولون: عقر الناقة بالسيف: إذا ضرب قوائمها به أو نحرها، أي: فقتلوا الناقة عقب ذلك الإنذار غير مصدقين له ولا مبالين بالوعيد، فضرب لهم صالح ثلاثة أيام موعداً يتمتعون بها في وطنهم كما كانوا في معايشهم ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾، أي: وعد من الله غير مكذوب فيه.

٦٦ ــ ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾، أي: فلما جاء أمرنا بإنجاز وعدنا بعذابهم نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا، ونجيناهم من خزي ذلك اليوم، أي: من ذلّه ونكاله باستئصال القوم من الوجود، وما يتبعه من سوء الذكر ولعنة الإبعاد من رحمة الله تعالى ﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ إن ربك أيها الرسول الذي فعل هذا قادر على فعل مثله بقومك إذا أصروا على الجحود، فإنه هو القوي المقتدر الذي لا يعجزه إنجاز وعده، العزيز الغالب على أمره.

٦٧ ــ ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ «الأخذ» في أصل اللغة: التناول باليد، واستعمل في المعاني كأخذ الميثاق والعهد، وفي الإهلاك، و«الصيحة»: المرة من الصوت الشديد، والمراد بها هنا صيحة الصاعقة كما في سورة «فُصِّلت»[1]، وعبر عنها في «الأعراف»[2] بالراجفة لأنها أحدثت رجفة في القلوب وزلزلة في الأرض، وصعق بها جميع القوم ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، أي: ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد، شُبهوا

---

(١) قوله: «كما في سورة فصلت»، أي: في قوله تعالى فيها: «فأخذتهم صاعقة العذاب الهون» الآية «١٧».

(٢) قوله: «وعبر عنها في الأعراف بالراجفة»، أي في قوله تعالى فيها: «فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» الآية «٧٨».

بالطير في لصوقها بالأرض يقال: «جثم الطائر والأرنب» من باب «ضرب» جثوماً، وهو: كالبروك من البعير.

٦٨ ــ ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ هو من «غَني بالمكان» ــ كرضي ــ: إذا أقام فيه، أي:كأنهم في سرعة زوالهم، وعدم بقاء أحد نهم في ديارهم، لم يقيموا فيها ألبتة ﴿إلا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ تقدم مثله آنفاً في قوم «هود» في آخره الآية «٦٠» من هذه السورة.

(إبراهيم والملائكة عليهم السلام)

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

٦٩ ــ ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ خبر مؤكَّد بالقسم لغرابته عند العرب، والمراد بالرسل: جماعة من الملائكة، روي عن عطاء: أنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ﴿قالوا سلاماً﴾، أي: نسلم عليك سلاماً، أوذكروا هذا اللفظ ﴿قال سلام﴾، أي: أمركم سلام، أو: عليكم سلام، قال المفسرون: إن الرفع أبلغ من النصب فقد حياهم بأحسن من تحيتهم، أي: على عادته ودأبه في إكرام الضيف وظن أنهم أضياف ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾، أي: ما مكث وما أبطأ عن مجيئه إياهم بعجل سمين حنيذ، أي: مشوي بالرَّضْف وهي: الحجارة المحماة.

٧٠ ـ ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه﴾، أي: لا تمتد إليه للتناول منه كما يمد الآكل يده إلى الطعام ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ نَكِرالشيء ـ كعلم وتعب ـ وأنكره: ضد عَرَفه، أي: نكر ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضيف، فإن الضيف لا يمتنع من طعام المضيف إلا لريبة أو قصد سيء، وأحس في نفسه خيفة منهم وفزعاً، أو أدرك ذلك وأضمره إذ شعر أنهم ليسوا بشراً أو أنهم ربما كانوا من ملائكة العذاب ﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾، أي: قالوا وقد علموا ما يساور نفسه من الوجس: لا تخف فنحن لا نريد بك سوءاً وإنما أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم، و«لوط»: ابن أخيه وأول من آمن به، وكان مكانُه من مهاجَره قريباً من مكانه.

٧١ ـ ﴿وامرأته قائمة فضحكت﴾ وكانت امرأة إبراهيم في تلك الحال قائمة أي: واقفة ـ ولعل قيامها كان للخدمة ـ فضحكت، قيل: تعجباً مما رأت وسمعت، ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، أي: بشرناها بالتبع لتبشير زوجها بإسحاق، ومن بعد إسحاق يعقوب، يعني: أنه سيكون لإسحاق ولد أيضاً.

٧٢ ـ ﴿قالت يا ويلتا﴾ أصلها «يا ويلي» وهي كلمة تقال عندما يَفْجأُ الإنسانَ أمر مهم من بلية أو فجيعة أو فضيحة، تعجباً منه أو استنكاراً له أو شكوى منه، وأكثر ما يجري على ألسنة النساء قديماً وحديثاً. ﴿أألد وأنا عجوز﴾ عقيم لا يلد مثلها ﴿وهذا بعلي﴾ وأشارت إليه ـ كما ترون ﴿شيخاً﴾ كبيراً لا يولد لمثله ﴿إن هذا﴾ الذي بشرتمونا به ﴿لشيء عجيب﴾ وإبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة، وإن زوجه سارة هذه كانت ابنة تسعين سنة.

٧٣ ـ ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ هذا استفهام إنكار لاستفهامها التعجبي، أي: لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله الذي لا يعجزه شيء، «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»، وإنما يصح العجب من وقوع ما يخالف سننه تعالى في خلقه، إذا لم يكن واضع السنن ونظام الأسباب هو الذي أراد أن يستثني منها واقعة يجعلها من آياته، ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ هذه جملة دعائية استجيبت، فمعناه، الذي فسره

الزمان إلى الآن: رحمة الله الخاصة وبركاته الكبيرة الواسعة عليكم يا معشر أهل بيت النبوة والرسالة، تتصل وتتسلسل في نسلكم وذريتكم إلى يوم القيامة، فلا محل للعجب أن يكون من آياته تعالى أن يهب لرسوله وخليله الولد منكما في كبركما وشيخوختكما ﴿إنه حميد مجيد﴾ مستوجب لأنواع الثناء والحمد، حقيق بأسنى غايات المجد، وبتأثيلهما لأهل البيت، و«المجد»: الكرم الواسع.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

٧٤ ــ ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾، أي: فلما سرِّي عن إبراهيم، وانكشف ما راعه من الخيفة والرعب إذ علم أن هؤلاء الرسل من ملائكة العذاب، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل، أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط، جُعِلَتْ مجادلتهم ومراجعتهم مجادلة له تعالى لأنها مجادلة في تنفيذ أمره، دفاعاً عن أو شفاعة لهم.

٧٥ ــ ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ هذا تعليل لمجادلة إبراهيم في عذاب قوم لوط، وهو أنه كان حليمًا لا يحب المعاجلة بالعقاب، كثير التأوه مما يسوء ويؤلم، منيب يرجع إلى الله في كل أمر.

٧٦ ــ ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾، أي: أعرض عن الجدال في أمر قوم لوط والاسترحام لهم ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾، أي: أن الحال والشأن فيهم قد قضي بمجيء أمر ربك بالذي قدره لهم ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ بجَدَل ولا شفاعة فهو واقع ما له من دافع.

(قصة لوط عليه السلام)

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

٧٧ ـ ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً﴾ بعد ذهابهم من عند إبراهيم ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾، أي: وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم وضاق بهم ذَرْعه، أي: عَجِزَ عن احتمال ضيافتهم، فـ «ذَرْعُ الإنسان»: منتهى طاقته التي يحملها بمشقة. ذلك لما يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾ شديد الأذى، مشتق من «العَصْب» بفتح فسكون، أي: الشد، فهو بمعنى «معصوب»، ويجوز أن يكون مبعنى «عاصب».

٧٨ ـ ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾، أي: جاؤوه يهرولون متهيجة أعصابهم كأن سائقاً يعجلهم على الإهراع، وهو: الإسراع مع رِعْدة من برد أو غضب أو حُـمًّى أو شهوة، وقال مجاهد: هو مشي بين الهرولة والعَدْو ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾، أي: ومن قبل هذا المجيء كانوا يعملون السيئات الكثيرة، وشرها أفظع الفاحشة وأنكرها، وهي إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ومجاهرتهم بها في أنديتهم، كما حكى الله عنهم في قوله: «أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر» ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ فتزوجوهن، قيل: أراد بناته من صلبه، وأنه سمح بتزويجهم بهن بعد امتناع لصرفهم عن أضيافه، وقيل: أراد بنات قومه[1] في

---

(١) قوله: «وقيل: أراد بنات قومه الخ» هذا هو القول الصحيح في هذه المسألة فإنه =

جملتهن لأن النبي في قومه كالوالد في عشيرته، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير، يعني: أن الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط، فإنه يكبح جماح الشهوة مع الأمن من الفساد، وصيغة التفضيل هنا للمبالغة في الطهر فلا مفهوم لها، وزعم بعض المفسرين. أنه عليه السلام عرض على هؤلاء الفساق المجرمين بناته أن يستمتعوا بهن كما يشاؤون ولا يُعقل أن يقع هذا الأمر من أي رجل صالح فضلاً عن نبي مرسل، ولا يصح في مثله أن يعبر عنه بأنه أطهر لهم، فغسل الدم بالبول ليس من الطهارة في شيء ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ والزنا ليس من التقوى بل هو هدم لها، وإنما معنى هذا الأمر والنهي: فاجمعوا بما أمرتكم به بين تقوى الله باجتناب الفاحشة، وبين حفظ كرامتي وعدم إذلالي وامتهاني بفضيحتي في ضيفي فإن فضيحة الضيف فضيحة للمضيف وإهانة له، ولفظ «الضيف» يطلق على الواحد والمثنى والجمع ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ ذو رشد يعقل هذا فيرشدكم إليه.

٧٩ ــ ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ فإنهن محرمات علينا في دينك، أو يعنون أن الحق عندهم نكاح الذكور مستشهدين بعلمه به تهكمًا، أو «الحق» هنا: الحاجة والأرب، والمعنى: لقد علمت من قبل أنه ليس لنا في بناتك من حاجة أو رغبة، أو: لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتك من حق الاستمتاع ومانحن عليه معهن فلا معنى لعرضك إياهن علينا لصرفنا عما نريده ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ من الاستمتع بالذُّكران وإننا لا نؤثر عليه شيئاً.

٨٠ ــ ﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾، أي: قال لوط لأضيافه حينئذ: لو أن لي بكم قوة تقاتل معي هؤلاء القوم وتدفع شرهم لقاتلتهم، أو أتمنى لو أن لي بكم قوة ألقاهم بها أو قال هذا لقومه، والمعنى كما قال في الكشاف: لو قويت

= عليه السلام عرض عليهم أن يتزوجوا النساء بدل الفاحشة بالذكران لأن الزواج أطهر لهم، ولم يعرض عليهم سفاحاً كما قيل.

عليكم بنفسي ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ أو ألجأ إلى ركن شديد البأس من أصحاب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين.

قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ... فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ ... جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

٨١ ــ ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك﴾ من ملائكته أرسلنا لننجينك من شرهم وإهلاكهم ﴿لن يصلوا إليك﴾ بسوء في نفسك ولا فينا، وحينئذ طمس الله أعينهم فلم يعودوا يبصرون لوطاً ولا من معه كما قال تعالى في سورةالقمر «ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم» فانقلبوا عمياناً يتخبطون ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾، أي: فاخرج من هذه القرية أو القرى مصحوباً بأهلك بطائفة من الليل تكفي لتجاوز حدود هؤلاء القوم. والسُّرى ــ بالضم ــ والإسراء في الليل كالسير في النهار، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ إلى ما وراءه لئلا يرى العذاب فيصيبه، وفي سورة «الحِجْر» «وامضوا حيث تؤمرون» وقد بينه لهم الملائكة ﴿إلا امرأتك﴾وكانت كافرة خائنة زوجها بكفرها مع القوم ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾، أي: مقضي هذا عليها فهو واقع لا بد منه. ﴿إن موعدهم الصبح﴾، أي: موعد عذابهم يبتدىء من طلوع الفجر وينتهي بشروقها كما قال في سورة «الـحِـجْر» «فأخذتهم الصيحة مشرقين»، وهذا تعليل للإسراء ببقية من الليل كما قلنا ﴿أليس الصبح بقريب﴾، أي: موعد قريب ولم يبق له إلا ليلة واحدة تنجو فيها بأهلك.

٨٢ ــ ﴿فلما جاء أمرنـا﴾، أي: عذابنـا أوموعـده ﴿جعلنا عـاليها سافلها﴾، أي: قلبنا أرضها أو قُراها كلها وخسفنا بها الأرض، فما كان سطحاً

لها هبط وغار فكان سافلها وحل محله غيره من اليابسة المجاورة أو من الماء، وسنة الله تعالى في خسف الأرض في قُطر من الأقطار: أن يَـحْـدُثَ تحتها فراغ بقدرها بسبب تحول الأبخرة التي في جوفها بمشيئته وقدرته، فينقلب ما فوقه إما مستوياً وإما مائلاً إلى جانب من الوانب، والمرجَّح عند علماء الأرض أن قرى لوط التي خسف بها تحت الماء المعروف بـ«بحيرة لوط»[1] وقيل من عهد قريب: إن الباحثين عثروا على بعض آثارها ﴿وأمطرنا عليها﴾، أي: قبل القلب أو في أثنائه وحكمته أن يصيب الشذاذ المتفرقين من أهلها ﴿حجارة من سجيل﴾[1] وفي سورة «الذاريات» «لنرسل عليهم حجارة من طين» فالمراد إذاً حجارة من مستنقع، وقال: مجاهد أولها حجر وآخرها طين، وقال الحسن: أصل الحجارة طين متحجر، ومثل هذا المطر يحصل عادة بإرسال الله اعصاراً من الريح يحمل ذلك من بعض المستنقعات أو الأنهار فتلقيها حيث يشاء، وقيل: إنه من النار، وأصله «سجين» فأُبدلت نونه لاماً وإخبارالملائكة به قبل وقوعه دليل على أنه كان بفعلهم ﴿منضود﴾، أي: متراكب بعضه في إثر بعض يقع طائفة بعد طائفة.

٨٣ ـ ﴿مسومة عند ربك﴾ لها «سَوْمة»، أي: علامة خاصة في علم ربك أيها الرسول، أي أمطرناها خاصة بها لا تصيب غير أهلها، أو هي من قولهم: «سَوَّمْتُ فلاناً في مالي أو في الأمر»: إذا حكمتَهُ به وخلَّيته وما يريد لا تُثْنىَ له يد في تصرفه، أو المعنى: أنه سخرها عليهم وحكمها في إهلاكهم لا يمنعها منه شيء، ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾، أي: وما هذه العقوبة، أو القرى، أو الأرض التي حل بها العذاب المخزي بمكان بعيد المسافة من مشركي مكة الظالمين لأنفسهم بتكذيبك أيها الرسول، بل هي قريبة منهم واقعة

---

(١) قوله: «بحيرة لوط» وهي التي تعرف اليوم بـ«البحر الميت» لأنه لا يعيش فيه كائن حي لشدة ملوحته، ويقع هذا البحر بين فلسطين والبلقاء في المملكة الأردنية الهاشمية، وفيه يصب نهر الأردن المعروف بـ«نهر الشريعة» ويستخرج منه البوتاس وكثير من المواد المعدنية.

(١) قوله تعالى: «حجارة من سجيل»، إن القول الجامع من أقوال أهل اللغة في «سجيل» هو: «الحجارة الصلبة الشديدة»، أي: من طين متحجِّرٍ صَلْب.

على طريقهم في رحلة الصيف إلى الشام كما قال في سورة «الـحِـجْر» «وإنها لبسبيل مقيم»، أي: في طريق ثابت معروف بين المدينة والشام وقال في سورة «الصـافات» بعـد ذكر هـلاكهم «وإنكم لتمرون عليهم مصبحـين وبـالليـل أفلا تعقلون»، أي: وقت الصباح، يعني: بالنهار وبالليل أفلا تبصرون ما حل بهم فتعتبرون به.

(قصة شعيب عليه السلام)

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

٨٤ ــ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾، أي: وأرسلنا إلى أهل «مَدْين» أخاهم في النسب شعيباً ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا معه غيره ما لكم من إله غيره فيعبد، ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾ فيما تكيلون وما تزنون من المبيعات كما هي عادتكم، وكانوا تجاراً مُطَفِّفين: «إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون»، أي: يُنقصون ﴿إني أراكم بخير﴾، أي: بثورة وسَعَةٍ في الرزق يجب أن ترفع أنفسكم عن دناءة بخس حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل ﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾، أي: عذاب يوم محيط ما يقع فيه من العذاب بكم إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره، وكفركم بنعمه بنقص المكيال والميزان. وهذا اليوم يصدق بيوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال.

٨٥ ــ ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾ هذا أمر بالواجب بعد النهي عن ضده لتأكيده، وتنبيهٌ لكون عدم التعمد للنقص لا يكفي لتحري الحق، بل يجب معه تحري الإيفاء بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقص

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ هذا أعم مما سبقه، فإن «البخس» يشمل النقص والعيب في كل شيء، يقال: بخسه حقه وبخسه ماله وبخسه علمه وفضله و«الأشياء»: جمع شيء، وهو أعم الألفاظ، وجمعه يشمل ما للأفراد وما للجماعات والأقوام من مكيل وموزون ومعدود، ومحدود بالحدود الحسية، ومن حقوق مادية ومعنوية ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾، أي: ولا تفسدوا فيها حال كونكم متعمدين للإفساد، يقال عثي يعثى «كرضي يرضى» عِثِياً بكسرتين وتشديد الياء ــ وعثا يعثو «كغزا يغزو» عُثُوّاً بضمتين والتشديد أيضاً: أفسد؛ وهذا نهي آخر عام يشمل غير ما تقدم كقطع الطرق، وتهديد الأمن، والخروج على السلطان، وقطع الشجر، وقتل الحيوان، وقيده بقصد الإفساد لأن بعض ما هو إفساد في الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كالذي يقع في الحرب العادلة من قطع الأشجار، أو فتح سدود الأنهار، أو إحراق بعض الأشياء بالنار.

٨٦ ــ ﴿بقية الله خير لكم﴾، أي: ما يبقى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان من الربح الحلال، خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الحرام، أو بقية الله: الأعمال الصالحة التي يبقى أثرها الحسن في الدنيا وثوابها في الآخرة، وقال ابن عباس: هي رزق الله، وقال مجاهد: طاعة الله، والربيع: وصية الله، والفرّاء: مراقبة الله، وقتادة: حظُّكم من الله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ به حق الإيمان، فإن الإيمان هو الذي يطهِّر النفس من دناءة الطمع، ويحليها فضيلة القناعة والكرم والسخاء ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ فأحفظكم من هذه المعاصي والرذائل أو أعاقبكم عليها، وإنما أنا مبلغ عليم وناصح أمين.

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

٨٧ ـ ﴿قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ الاستفهام للإنكار والاستهزاء به وبعبادته عليه السلام، والصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر بما تكسبه من مراقبة الله تعالى، ومن نهى نفسه كان جديراً بأن ينهى غيره، يعنون أهذه الصلاة التي تداوم عليها تقتضي بتأثيرها في نفسك أن تحملنا على ترك ما كان عليه آباؤنا من عبادة هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها، وما أنت خير منهم، وأجدر باتباعنا لك منهم ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ من تنمية واستغلال، وتصرف في الكسب من الناس بما نستطيع من حذق واحتيال، وخديعة واهتبال، وهو حَجْر على حريتنا، وتحكم في ذكائنا؟ ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ «الحليم»: العاقل الكامل في أناته وترويه فلا يتعجل بأمر قبل الثقة من صحته، و«الرشيد»: الراسخ في هدايته وهديه، فلا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد، ووصفه بهما وصفاً مؤكداً صريح في الاستهزاء به، والتعريض بما يعتقدون من اتصافه بضدهما، وهو الجهالة والسفه في الرأي، والغواية في الفعل بهَوَس الصلاة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون إنك لست بحليم ولا رشيد.

٨٨ ـ ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾، أي: يا قومي الذين أنا منهم وهم مني، وأحب لهم ما أحب لنفسي، أخبروني عن شأني وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربي فيما دعوتكم إليه وما أمرتكم به وما نهيتكم عنه فكان وحياً منه لا رأياً مني ﴿ورزقني منه رزق حسناً﴾ في كثرته وفي صفته وهو كسبه الحلال بدون تطفيف مكيال ولا ميزان، ولابخس لحق أحد من الناس، أي: أرأيتم والحالة هذه ماذا أفعل وماذا أقول لكم غير الذي قلته عن نبوة ربانية، وتجارب غنى مالية؟ ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم

عنه﴾، أي: وإنني على بينتي ونعمتي ما أريد أن أخالفكم في ذلك مائلاً إلى ما أنهاكم عنه مؤثراً لنفسي عليكم، بل أنا مستمسك به قبلكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾، أي: ما أريد إلا الإصلاح العام فيما آمر به وفيما أنهى عنه ما دمت أستطيعه ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ «التوفيق»: ضد الخذلان، وهو: الفوز والفلاح في إصابة الإصلاح وكل عمل صالح وسعي حسن، والمعنى: وما توفيقي لإصابة ذلك فيما أستطيعه منه إلا بحول الله وقوته ﴿عليه توكلت﴾ في أداء ما كلفني من تبليغكم ما أرسلت به، لا على حولي وقوتي ﴿وإليه أنيب﴾، أي: وإليه وحده أرجع في كل ما نابني من الأمور في الدنيا، وإلى الجزاء على أعمالي في الآخرة، فأنا لا أرجو منكم أجراً، ولا أخاف منكم ضراً.

٨٩ ـ ﴿ويا قوم لا يجرمَنَّكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ «يجرمنكم» بفتح الياء وكسر الراء من «جرم الذنْبَ أو المالَ» بمعنى: كَسَبَه، أي: لا تحملنكم وتُكسبنكم مشاقتكم وعداوتكم لي أن تُفضي بالإصرار عليها إلى إصابتكم بمثل ما أصاب مكذبي الرسل قبلكم: قوم نوح أو هود أو صالح من عذاب الخزي والاستئصال ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾، أي: بشيء بعيد زماناً ولا مكاناً ولا إجراما، قال الزمخشري: يجوز أن يستوى في «بعيد وقريب، وقليل وكثير» المذكرُ والمؤنث.

٩٠ ـ ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾، أي: اطلبوا منه المغفرة لما أنتم عليه من الشرك والمعاصي بتركهما ثم توبوا إليه كلما وقع منكم معصية، ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ هذا تعليل لما قبله، أي: عظيم الرحمة للمستغفرين التائبين بمغفرته وعفوه، كثير المودة لهم بإحسانه ونعمه.

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ

يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

٩١ ـ ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ «الفقه» في اللغة: الفهم الدقيق العميق المؤثر في النفس الباعث على العمل، أي: ما نفقه كثيراً مما وراء ظواهر أقوالك من بواطنها وتأويلها، كبطلان عبادة آلهتنا وقبح حرية التصرف في أموالنا، وعذاب محيط يبيدنا، وإصابتنا بمثل الأحداث الجوية التي نزلت بمن قبلنا، كأن أمرها بيدك وتصرفك أو تصرف ربك، يصيب بها من تشاء أو يشاء لأجلك، ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾ لا حول لك ولا قوة تمتنع بها منا إن أردنا أن نبطش بك ﴿ولولا رهطك﴾ أي: عشيرتك الأقربون، و«الرهط»: الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ﴿لرجمناك﴾ لقتلناك شر قتلة، وهي الرمي بالحجارة حتى تدفن فيها ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾، أي: بذي عزة ومَنَعَة علينا تحول بيننا وبين رجمك.

٩٢ ـ ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله؟﴾ هذا استفهام إنكاري أي: أرهطي أعز وأكرم عليكم من الله الذي أدعوكم إليه بأمره ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾، أي: أشركتم به وجعلتموه كالشيء اللَّقا الذي يُنْبَذُ وراء الظهر لهوانه على نابذه وعدم حاجته إليه فَيُنسى حتى لا يُحْسَبَ له حساب. تقول العرب: «جعله بظهر وظهرياً واتخذه ظهرياً» بالكسر والتشديد، أي: نَسْياً مَنْسياً لا يُذْكر كأنه غير موجود، ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ علمًا فهو يحصيه عليكم ويجزيكم به، وأما رهطي فلا يستطيعون لكم ضراً ولا نفعاً.

٩٣ ـ ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ هذا أمر تهديد ووعيد من واثق بقوته بربه، على انفراده في شخصه، وضعف قومه على كثرتهم، وإدلالهم عليه

وتهديدهم له بقولتهم، أي: اعملوا ما استطعتم على منتهى تمكنكم في قوتكم وعصبيتكم ﴿إني عامل﴾ على مكانتي التي أعطانيها أو وهبنيها ربي من دعوتكم إلى التوحيد وأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ هذا تصريح بالوعيد، بعد التلميح له بالأمر بالعمل المستطاع للتعجيز، وهو جواب سؤال مقدر، أي: سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذلُّه؟ أنا أم أنتم؟ ومن هو كاذب في قوله ومن هو صادق مني ومنكم؟ وقد كانوا أنذروه غير الرجم بإخراجه من قريتهم، فهو يعرض بكذبهم في كل ذلك، موقناً بوقوع ما أنذرهم به، وهو برهان على أنه على بينة من الله فيه ﴿وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ وانتظروا مراقبين لما سيقع، إني معكم مراقب منتظر له و«رقيب» هنا بمعنى: مراقب.

٩٤ ـ ﴿ولما جاء أمرنا﴾ بعذابهم الذي أنذروه ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ خاصة بهم دون أحد من القوم كما تقدم مثله قريباً ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، أي: أخذتهم صيحة العذاب التي أخذت ثمود، وهي: الصاعقة، فأصبحوا كلهم ميتين باركين على ركبهم مكبين على وجوههم في ديارهم.

٩٥ ـ ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾، أي: كأنهم لم يقيموا فيها وقتاً من الأوقات ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾، أي: هلاكاً لهم وبُعْداً من رحمة الله كبعد الهلاك واللعنة الذي عوقبت به ثمود من قبلهم فإنهما من جنس واحد.

(قصة موسى عليه السلام)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

٩٦ ــ ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾، أي: بآياتنا التسع المعدودة في سورة «الاسراء»[1] والمفصلة في غيرها، و«سلطان مبين»، أي: وبرهان واضح البيان، وهو ما آتاه الله من الحجة البالغة في محاوراته مع فرعون.

٩٧ ــ ﴿إلى فرعون وملئه﴾ بينا مراراً أن «الملأ»: أشراف القوم وزعماؤهم، وأضافهم إلى فرعون وخصهم بالذكر لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة في دولته الذين كانوا يسألهم رأيهم في موسى وفي غيره، ويعهد إليهم بتنفيذ ما يتقرر من الأمور ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ في كل ما قرره من الكفر بموسى وجمع السحرة لإبطال معجزته، ومن قتل السحرة لإيمانهم به، ومن تشديد الظلم على بني إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾، أي: ما شأنه وتصرفه بذي رشد وهدى بل هو محض الغي والضلال، والظلم والفساد، في غروره بنفسه، وكفره بربه، وطغيانه في حكمه.

٩٨ ــ ﴿يَقْدُم قومه يوم القيامة﴾، أي: يتقدمهم ويكونون تبعاً له في ذلك اليوم كما كانوا تابعين له في الدنيا إلا من كان مؤمناً ﴿فأوردهم النار﴾، أي: فيوردهم نار جهنم معه، أي: يدخلهم إياها، فالإيراد هنا بمعنى: الإدخال، كما استُعمل «الورود» بمعنى: الدخول، وعبر عنه بالفعل الماضي لتحقق وقوعه ﴿وبئس الورد المورود﴾، هي، لأن وارد الماء يرده لتبريد كبده وإطفاء غُلَّته من حر الظمأ، ووارد النار يحترق فيها احتراقاً. و«الوِرْد» في الأصل اسم لبلوغ الماء في مورده ويطلق على الماء نفسه، وإطلاقه على النار تهكم.

---

(١) قوله: «المعدودة في سورة الإسراء»: أي: ذُكرت حصراً بتسع آيات ولكن من غير تعداد وبيان، وذلك في قوله تعالى: «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» الآية «١٠١» من سورة «الإسراء»، أما تفصيلها فقد جاء في سورة «الأعراف» كقوله تعالى «فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات» الآية «١٣٣» منها، وغير هذه الآية.

٩٩ ـ ﴿وأُتبعوا في هذه لعنة﴾، أي: وأُلحقت بهم في الدنيا لعنة أتبعهم الله إياها بقوله «وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين» وقال هنا: ﴿ويوم القيامة﴾، أي: وأتبعوا يوم القيامة لعنة أخرى فهم يُلْعنون في الدنيا والآخرة. وقد سمى هذه «رفداً» تهكماً بهم فقال: ﴿بئس الرفد المرفود﴾ «الرِّفد» ـ بالكسر ـ في أصل اللغة: العطاء والعون، يقال: «رَفَدَه»: أعانه وأعطاه، وأرفده مثله. أو جعل له رفداً يتناوله شيئاً فشيئاً، أي: بئس ما يُسْقَوْنَهُ في النار عندما يردونها ذلك الشراب الذي يسقونه فيها.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

١٠٠ ـ ﴿ذلك من أنباء القرى﴾، أي: ذلك الذي قصصناه عليك أيها الرسول بعض أنباء الأمم، أي: أهم أخبارها، وأطوار اجتماعها في القرى والمدائن من قوم نوح ومن بعدهم ﴿نقصه عليك﴾ في هذا القرآن أو هذه السورة، فهو مقصوص من لدنا بكلامنا ﴿منها قائم وحصيد﴾، أي: من تلك القرى ما له بقايا ماثلة وآثار باقية كالزرع القائم في الأرض، كقرى قوم صالح، ومنها ما عفا ودرست آثاره كالزرع المحصود الذي لم يبق منه بقية في الأرض كقرى قوم لوط.

١٠١ ـ ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾، أي: وما كان إهلاكهم ظلماً منه بغير جرم استحقوا به الهلاك، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم وفسادهم في الأرض، وإصرارهم حتى لم يعد فيهم بقية من قبول الحق، وإيثار الخير على الشر، بحيث لو بقوا زمناً آخر لما ازدادوا إلا ظلماً وفجوراً وفساداً ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك﴾،

أي: فما نفعتهم آلهتهم التي كانوا يدعونها ويطلبون منها أن تدفع عنهم الضر بنفسها أو بشفاعتها عند الله تعالى لما جاء عذاب ربك تصديقاً لنذر رسله ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾، أي: هلاك وتخسير وتدمير، وهو من «التباب»، أي: الخسران والهلاك، ومعنى زيادتهم إياهم تَتْبيباً: أنهم باتكالهم عليهم ازدادوا كفراً وإصراراً على ظلمهم وفسادهم.

١٠٢ ـ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾، أي: ومثل ذلك الأخذ بالعذاب وعلى نحو منه، أَخْذُ ربك لأهل القرى في حال تلبسها بالظلم في كل زمان وكل قوم ﴿إن أخذه أليم شديد﴾، أي: وجيع قاس لا هوادة فيه ولا مفر منه ولا مناص، فالجملة بيان للتشبيه فيما قبلها.

عن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، مرفوعاً: «إن الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» ثم قرأ ﷺ هذه الآية. رواه الشيخان والترمذي وابن ماجه، وهو تصريح بعمومها.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

١٠٣ ـ ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾، أي: في ذلك

الذي قصّه الله من إهلاك أولئك الأقوام، وما قفى عليه من بيان سنته في الظالمين، لحجة بينة وعبرة ظاهرة، على أن ما يجري في خلقه من نظام سننه هو بمشيئته واختياره، وإنما هو آية وعبرة لمن يخاف عذاب الآخرة، يعتبر بها فيتقي الظلم في الدنيا بجميع أنواعه، لإيمانه بأن مَنْ عَذَّب الأمم الظالمة في الدنيا قادر على تعذيبهم في الآخرة، ﴿ذلك يوم مجموع له الناس﴾، أي: ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة، يومٌ يُـجْمَعُ له الناس كلهم لأجل ما يقع فيه من الحساب الذي يترتب عليه الجزاء ﴿وذلك يوم مشهود﴾ يشهده الخلائق كلهم من الإنس والجن والملائكة والحيوانات وغيرها، وقد صار هذا التعبير الوجيز البليغ مَثَلاً توصف به المجامع الحافلة بكثرة الناس.

١٠٤ ـ ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾، أي: وما نؤخر ذل اليوم إلا لإنتهاء مدة معدودة في علمنا لا تزيد ولا تنقص عن تقديرنا لها بحكمتنا، وهو انقضاء عمر هذه الدنيا، وكل ما هو معدود محدود بالنهاية فهو قريب.

١٠٥ ـ ﴿يوم يأتِ لا تَكَلَّم نفس إلا بإذنه﴾، أي: في الوقت الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعين، لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلا بإذن الله تعالى لأنه يومه الخاص الذي لا يملك أحد فيه قولاً ولا فعلاً إلا بإذنه كما قال «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً» ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾، أي: فمن الأنفس المكلَّفة التي تُجْمَعُ فيه، شقي مستحق لوعيد الكافرين بالعذاب الدائم، ومنهم سعيد مستحق لما وعد به المتقونَ من الثواب الدائم، وكل من الشقاوة والسعادة له عمل هو سببه، وقال ﷺ: «اعملوا فَكُلٌّ مُيَسَّر لما خُلِقَ له» متفق عليه.

١٠٦ ـ ﴿فأما الذين شقوا﴾ بما كانوا يعملون من أعمال الأشقياء لفساد عقائدهم الموروثة بالتقليد حتى أحاطت بهم خطيئاتهم ﴿ففي النار﴾ مستقرهم ومثواهم ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾ من ضيق أنفاسهم، وحرج صدورهم، وشدة كروبهم، فالزفير والشهيق: صوتان يخرجان من الصدر في بكاء أو غيره، «الزفير»: إخراج النَفَس، و«الشهيق»: رَدُّه.

١٠٧ ـ ﴿خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض﴾، أي: ماكثين فيها مكث خلود لا يبروحونها مدة دوام السماوات التي تظلهم والأرض التي تقلُّهم، وهذا بمعنى قوله في آيات أخرى «خالدين فيها أبداً» فإن العرب تستعمل هذا التعبير بمعنى الدوام، قال ابن عباس: لكل نار وجنة أرض وسماء ﴿إلا ما شاء ربك﴾، أي: إن هذاالخلود الدائم هو المعد لهم في الآخرة، المناسب لصفة أنفسهم الجهول الظالمة التي أحاطت بها ظلمة خطيئاتهم وفساد أخلاقها، إلا ما شاء ربك من تغيير في هذا النظام في طور آخر، فهو إنما وضع بمشيئته، وسيبقى في قبضة مشيئته، وقد عهد مثل هذا الاستثناء في سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئته تعالى فقط لا لإفادة عدم عمومها[١] ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ فهو إن شاء غير ذلك فعله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

١٠٨ ـ ﴿وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾، أي: دائماً غير مقطوع! من «جَدَّه يُجُدُّه» إذا قطعه أو كسره فهو كقوله تعالى «لهم أجر ممنون».

١٠٩ ـ ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾، يقول: إذا كان أمر الأمم المشركة الظالمة في الدنيا تم في الآخرة كما قصصناه عليك أيها الرسول، فلا تكن في أدنى شك وامتراء مما يعبد قومك هؤلاء في عاقبته بمقتضى تلك السنة التي لا تبديل لها، فالنهي تسلية له ﷺ وإنذار لقومه.

ثم بيّـن حالهم في عبادتهم وجزائهم بياناً مستأنفاً فقال: ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ فهم مقلدون لآبائهم كما يقولون وكما قال أقوام أولئك الأنبياء من قبلهم ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾، أي: وإنا

---

(١) قوله: «لا لإفادة عدم عمومها» يعني: أن هذا الاستثناء لا يفيد تقييد خلود الكافرين في النار،وأنه ينقضي، بل الآية على عمومها بمعنى:أن العذاب للكافرين دائم مؤبد لا ينقضي ولا يُـخَفَّفُ ولا ينتهي إلى أجل كما هو صريح الآيات والأحاديث. وأن الذي ينتهي هو عذاب العصاة من الموحدين.

لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة وافياً تاماً لا ينقص منه شيء، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

١١٠ ـ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه﴾، أي: فاختلف فيه قومه من بعده بغياً بينهم وتازعاً على الرياسة، فكانوا شيعاً كل شيعة تنتحل ذهباً وتعادي من يخالفها فيه، وإنما أوتوا الكتاب لجمع الكلمة ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾، أي: في الدنيا بإهلاك البغاة المثيرين للاختلاف فيه بأهوائهم، وإبقاء المعتصمين بالوحدة والاتفاق على هدايته ﴿وإنهم لفي شك منه مريب﴾، أي: إنهم لمرتَكِسون في شك من أمر كتابهم موقع في الريب والاضطراب.

١١١ ـ ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾، أي: وإن كل أولئك المختلفين فيه، أو كل أحد منهم والله ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم لا يظلم منهم أحداً ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ لا يخفى عليه منه شيء، فيترتب عليه بعض التوفية دون بعض.

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣)

١١٢ ـ ﴿فاستقم كما أمرت﴾، أي: إذا كان أمر أولئك الأمم كما قصصنا عليك أيها الرسول، فاستقم مثل ما أمرناك في هذا الكتاب أي: الزم

الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه بالثبات عليه واتقاء الاختلاف فيه ﴿ومن تاب معك﴾، أي: وليستقم معك من تاب من الشرك وآمن بك واتبعك ﴿ولا تطغوا﴾ فيه بتجاوز حدوده غلواً في الدين، فإن الإفراط فيه كالتفريط، كل منهما زيغ عن الصراط المستقيم ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ فهو يراه فيجزيكم به.

١١٣ ـ ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾، أي: ولا تستندوا إلىٰ الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم، فتجعلوهم ركناً لكم تعتمدون عليهم فتقرونهم على ظلمهم، وتوالونهم في سياستكم الحربية أوأعمالكم الملية. فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴿فتمسكم النار﴾، أي: فتصيبكم النار التي هي جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم، ومعنى الآية عام في موضوعها، فولاية أهل الكتاب على المؤمنين كولاية المشركين، لا خلاف في هذا وهو منصوص، ولكن قال بعض المفسرين: إن الآية عامة في كل نوع من أنواع الظلم فيشمل ظلم المسلمين لأنفسهم في أحكامهم وأعمالهم ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾، أي: وما لكم في هذه الحال التي تركنون إليهم فيها غير الله من أنصار يتولونكم ﴿ثم لا تنصرون﴾ بسبب من الأسباب ولا بنصر الله تعالى، فإن الذين يركنون إلى الظالمين يكونون منهم وهو لا ينصر الظالمين كما قال «وما للظالمين من أنصار».

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

١١٤ ـ ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾، أي: أَدِّها على الوجه القويم، وأَدِمْها في طرفي النهار من كل يوم، و«طرف الشيء والزمن»: الناحية والطائفة منه ونهايته، فطرفا النهار هنا: البُكْرة والأصيل أوالغُدُوّ والعَشِي ﴿وزلفاً من الليل﴾، أي: وفي زُلَف من الليل وهي جمع «زلفة» بالضم كـ «قُرب» جمع «قُرْبة» لفظاً ومعنى، وتطلق كما في معاجم اللغة على الطائفة من أول الليل

لقربها من النهار، روي عن ابن عباس: أن صلاة طرفي النهار المغرب والغداة ـ أي: الفجر ـ، وزلف الليل العتمة ـ أي: العشاء ـ، وعن الحسن أن صلاة طرفي النهار: الفجر والعصر، وقال في زلف الليل: هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء، ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ الجملة تعليل للأمر قبلها مبين لحكمته وفائدته، ومعناها: أن للأعمال الحسنة من تزكية النفس وإصلاحها، ما يمحو منها تأثير الأعمال السيئة وإفسادها، روي عن ابن مسعود وابن عباس تفسير الحسنات فيها بالصلوات الخمس، ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾، أي: إن فيما ذكر من الوصايا من الأمر بالاستقامة إلى هنا لموعظة للمتعظين الذين يراقبون الله ولا ينسونه.

١١٥ ـ ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، أي: ووطّن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيت عنه، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين في أعمالهم في الدنيا ولا في الآخرة،بل يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، ولكن للجزاء في أمور الأمم آجالاً وأقداراً يجب الصبر في انتظارها، وعدم استعجالها قبل أوانها.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

١١٦ ـ ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾ «لولا»: تحضيضية بمعنى «هلّا»، و«القرون»: الأمم والأقوام،

والمعنى: فهلا كان أي وُجِدَ من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم في الأرض جماعة أصحاب بقية من النهي والرأي والصلاح ينهونهم عن الفساد في الأرض وهو الظلم واتباع الهوى والشهوات التي تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم، فيحول نهيهم إياهم دون هلاكهم، فإن من سنتنا أن لا نهلك قوماً إلا إذا عم الفساد والظلم أكثرهم كما يأتي في الآية التالية ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾، أي: لم يكن فيهم بقية من هؤلاء العقلاء الأخيار، الناهين عن المنكر، الآمرين بالمعروف، ولكن كان هنالك قليل من الذين أنجيناهم أو هم الذين أنجيناهم مع الرسل منهم، وكانوا منبوذين لا يقبل نهيهم وأمرهم، مهددين مع رسلهم بالطرد والإبعاد، بعد الأذى والاضطهاد ﴿واتبع الذين ظلموا﴾ وهم الأكثرون منهم ﴿ما أترفوا فيه﴾، أي: ما رزقناهم وآتيناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا. يقال: أترفَتْهُ النعمة، أي: أبطرته وأفسدته، و«البطر»: الطغيان في المرح وخفة النشاط والفرح ﴿وكانوا مجرمين﴾، أي: متلبسين بالإجرام الذي وَلَّده الترف راسخين فيه، فكان هو المسخر لعقولهم في ترجيح ما أعطوا من ذلك على اتباع الرسل.

١١٧ ــ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾، أي: وماكان من شأن ربك وسنته في الاجتماع البشري أن يُهلك الأمم بظلم منه لها في حال كون أهلها مصلحين في الأرض، مجتنبين للفساد والظلم، وإنما أهلكهم ويهلكهم بظلمهم وإفسادهم فيها، وقيل: بظلم يقع فيها ــ مع تفسير الظلم بالشرك ــ وأهلها مصلحون في أعمالهم الاجتماعية والعمرانية، وقيل: بظلم قليل من أهلها لأنفسهم، إذا كان الجمهور الأكبر منهم مصلحين في جل أعمالهم ومعاملاتهم للناس.

١١٨ ــ ﴿ولو شاء ربك﴾ أيها الرسول الحريص على إيمان قومه، الآسف على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته، واتباع هدايته ﴿لجعل الناس أمة واحدة﴾ على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا رأي لهم فيه ولا اختيار، وإِذَنْ لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى بالبشر وبنوع الإنسان، بل لكانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو النمل، وفي حياتهم الروحية كالملائكة

مفطورين على اعتقاد الحق طاعة الله عز جل، فلا يقع بينهم اختلاف، ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته مستعدين لكل شيء من الممكنات المتعارضة لولا الاختلاف والتنازع في كل شيء بالتبع لاختلاف الاستعداد ﴿ولا يزالون مختلفين﴾ في كل شيء حتى الدين الذي شرعه الله لتكميل فطرتهم وإزالة الاختلاف بينهم.

١١٩ - ﴿إلا من رحم ربك﴾ منهم فاتفقوا على حكم كتاب الله فيهم، وهو القطعي الدلالة منه الذي لا مجال للاختلاف فيه، وعليه مدار جمع الكلمة ووحدة الأمة، إذ الظني لا يكلفون الاتفاق على معناه، لأنه موكول إلى الاجتهاد الذي لا يجب العمل به إلا على من ثبت عنده رجحانه ﴿ولذلك خلقهم﴾، أي: ولذلك الذي دل عليه الكلام من مشيئته تعالى فيهم خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق في علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم في أعمالهم، ومن ذلك الدين والإيمان والطاعة والعصيان، قال الحسن وعطاء: خلقهم للاختلاف، وقال مجاهد وعكرمة: خلقهم للرحمة، وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، فريقاً يُرْحَم فلا يختلف، وفريقاً لا يُرْحَم فيختلف، فذلك قوله «فمنهم شقي وسعيد»، وهذا أصح مما قبله لأنه جامع للقولين، ﴿وتمت كلمة ربك﴾ التي قالها في غير المهتدين وهي: ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، أي من عالمي الإنس والجن الذين لا يهتدون بما أرسل به رسله وأنزل معهم كتبه لهداية المكلفين والحكم بين المختلفين.

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

١٢٠ ـ ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل﴾، أي: وكل نوع من أنباء الرسل نقص عليك ونحدثك بـه على وجهـه الذي يعلم من تتبعـه واستقصائه به، و«النبأ»: الخبر المهم ﴿ما نثبت به فؤادك﴾، أي: نقويه ونجعله راسخاً في ثباته كالجبل في القيام بأعباء الرسالة ﴿وجاءك في هذه الحق﴾، أي: في هذه السورة، وقيل:في هذه الأنباء المقتصة عليك، بيان الحق الذي دعا إليه جميع أولئك الرسل من أصل دين الله وأركانه ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ الذي يتعظون بما حل بالأمم من عقاب الله ويتذكرون ما فيها من عاقبة الظلم والفساد، ونصره تعالى لمن نصره ونصر رسله، فالمؤمنون هنا يشمل من كانوا آمنوا بالفعل، والمستعدين للإيمان كالذين آمنوا بعد.

١٢١ ـ ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾، أي: فبشر به المؤمنين الذين يتعظون ويتذكرون، وقل للكافرين الذين لا يؤمنون فلا يتعظون: اعملوا على ما في مكنتم أو تمكنكم واستطاعتكم من مقاومة الدعوة وإيذاء الداعي والمستجيبين له، وهذا الأمر للتهديد والوعيد، أي: فسوف تلقون جزاء ما تعملون من العقاب والخذلان ﴿إنا عاملون﴾ على مكانتنا من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته.

١٢٢ ـ ﴿وانتظروا﴾ بنا ما تتمنون لنا من انتهاء أمرنا بالموت أو غيره مما تتحدثون به، ومنه ما حكاه تعالى عنهم في قوله: «أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون» وما في معناه ﴿إنا منتظرون﴾ ما وعدنا ربنا من النصر وظهور هذا الدين كله ولو كره الكافرون وإتمام نوره ولو كره المشركون، وعقاب المعاندين منهم في الدنيا بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين.

١٢٣ ـ ﴿ولله غيب السماوات والأرض﴾، أي: وله وحده ما هو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم، مما تنتظر من وعد الله لك ووعيده لهم، ومما ينتظرون من أمانيهم وأوهامهم، فهو المالك له المتصرف فيه، العالم بما سيقع منه وبوقته الذي يقع فيه ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، أي: وإذا كان له كل شيء، وإليه يرجع

كل أمر، فاعبده كما أمرت بإخلاص الدين له وحده من عبادة شخصية قاصرة عليك. ومن عبادة متعدية النفع لغيرك، وهي الدعوة إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن توكل عليه ليتم لك وعليك ما وعدك بما لا تبلغه استطاعتك، فالتوكل لا يصح بغير العبادة، والأخذ بالأسباب المستطاعة ﴿وما الله بغافل عمَّا تعملون﴾ جميعاً، ما تعمله أنت أيها النبي والمؤمنون من عبادته والتوكل عليه، والصبر على أذى المشركين، وتوطين النفس على مصابرتهم وجهادهم، وما يعمله المشركون من الكفر والكيد لكم، وهذه قراءة نافع وحفص، وقرأ الجمهور «يعملون» بالتحتية، وهي نص في وعيد المشركين وحدهم بالجزاء على جميع أعمالهم، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده محمداً رسول الله وخاتم النبيين، فالحمد لله رب العالمين.

(خلاصة سورة هود)[1]

هذه السورة أشبه السور بسورة «يونس» التي قبلها، في أسلوبها وما اشتملت من أصول عقائد الإسلام التي بيناها في خلالها من التوحيد والبعث والجزاء والعمل الصالح وعاقبة الظلم والفساد في الأرض، وحجج القرآن وإعجازه والتحدي به، وإثبات نبوة محمد ﷺ وقصص الرسل عليهم السلام وسنن الله في الأمم، ومناسبة لها في براعة المطلع والمقطع، ولكن في تلك من التفصيل في محاجة المشركين في التوحيد والقرآن والرسالة ما أُجمل في هذه، وفي هذه من التفصيل في قصص الرسل ما أُجمل في تلك.

---

(١) هذه الخلاصة مع خلاصتي «التوبة ويونس» من اختصارنا، ولم يثبتها المؤلف في القسم الذي اختصره، وقد أشرنا إلى ذلك في آخر كل من السورتين المذكورتين.

سورة يوسف

(مكية، وهي مائة وإحدى عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

١ ـ ﴿الر، تلك آيات الكتاب المبين﴾، أي: آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البيّن الظاهر بنفسه في حقِّيته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا، وقال مجاهد: بيَّن الله حلاله وحرامه، وقال الزجاج: مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام.

٢ ـ ﴿إنا أنزلناه﴾، أي: الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه ﴿قرآناً عربياً﴾، أي: يبين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والأدب والسياسة ﴿لعلكم تعقلون﴾ معانيه أيها العرب، وما ترشد إليه من مطالب الروح ومدار العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الوجدان والحس، وإصلاح الاجتماع العام، المراد بها صلاح الحال، وسعادة المآل، و«القرآن»: اسم جنس يُطلق على بعضه كالسورة الواحدة، ـ وقيل: إنه المراد هنا ـ ويطلق على جملته كلها.

٣ ـ ﴿نحن نقص عليك﴾ أيها الرسول المصطفى ﴿أحسن القصص﴾، أي: نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بياناً وأسلوباً وإحاطة، أو: أحسن ما يُقصُّ ويتحدث عنه موضوعاً وفائدة، ويجوز الجمع بين المعنيين ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بإيحائنا إليك هذه السورة من القرآن، إذ هو الغاية العليا في حسن فصاحته وبلاغته وتأثيره وحسن موضوعه ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾، أي: وإن الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه أنك كنت من قبل إيحائنا إياه إليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم، وبيان ما كانوا عليه من دين وتشريع كيعقوب وأولاده في بداوتهم، ولا ما كانت الأمم فيه من ترف وحضارة كالمصريين.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

٤ ـ ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت﴾ هذا شروع في بيان أحسن القصص فهو بدل منه يشتمل عليه. والأكثرون يعدونه بدء كلام جديد يقدرون له متعلقاً: اذكر أيها الرسول إذ قال يوسف لأبيه: «يا أبت»، والتاء هنا بدل من ياء المتكلم ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر﴾، أي: في المنام بدليل ما يأتي بَعْدُ، ثم بيّن الصفة التي رأى عليها هذه الجماعة السماوية بقوله ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾، والسجود: التطامن والانحناء الذي سببه الانقياد والخضوع، أو المبالغة في التعظيم، واستعمل في القرآن بمعنى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله تعالى وتسخيره وهذا سجود طبيعي غير إرادي، ولكنه

أراد أن يخبر والده أنه رآها ساجدة له كسجود العقلاء المكلفين فأعاد فعل «رأيت» وجعل مفعوله ضمير العقلاء وجمع صفة هذا السجود جمع المذكر السالم، فعلم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا من أضغاث الأحلام، التي تثيرها في النوم الخواطر والأفكار، ولا سيما خواطر هذا الغلام.

٥ ـ ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ «يا بني» تصغير لكلمة «ابن» في نداء العطف والتحبب، وقص الرؤيا على فلان كقَصِّ القصة معناه: أخبره بها على وجه الدقة والإحاطة، وقد فهم يعقوب منها أن يوسف سيكون نبياً عظيمًا ذا ظهور وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته، وخاف أن يسمع إخوته ما سمعه ويفهموا ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه فنهاه أن يقص رؤياه عليهم وعلله بقوله ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾، أي: إن تقصصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للإيقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية، كما يفعل الأعداء في المكايد الحربية ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ ظاهر العداوة بينها لا تفوته فرصة لها فيضيعها. هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه بقوله: «من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي».

٦ ـ ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾، أي: ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك، يجتبيك ربك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم فتكون من عباده المخلصين ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾، أي: يعلمك من علمه اللدني تأويل الرُّؤى وتعبيرها، أي: تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تؤول إليه في الوجود، وهو تأويلها كما سيأتي حكاية لقول يوسف لأبيه «هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً»، أو: ما هو أعم من ذلك من معاني الكلام، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ﴿ويتم نعمته عليك﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ﴿وعلى آل يعقوب﴾ وهم أبواه وإخوته وذريته بإخراجهم من البدو، وتبوئهم المقام الكريم بمصر، ثم بتسلسل النبوة في أسباطهم إلى أجل معلوم ﴿كما أتمها على أبويك من قبل﴾، أي: من قبل هذا

العهد، أو: من قبلك ﴿إبراهيم وإسحاق﴾ هذا بيان لكلمة «أبويك» وهما: جده وجد أبيه، وقدم الأشرف منهما، وهذا التشبيه مبني على ما كان يعلمه يعقوب من وعد الله لإبراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وإنما علم من رؤيا يوسف أنه هو حلقة السلسلة النبوية الاصطفائية بعده من أبنائه، فلهذا علل البشارة بقوله ﴿إن ربك عليم حكيم﴾، أي: عليم بمن يصطفيه حكيم بإصطفائه، وبإعداد الأسباب وتسخيرها له.

* لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

٧ ـ ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، أي: لقد كان في قصة يوسف وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها.

٨ ـ ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾، أي: إن في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدأوا فيه بقولهم جازمين مقسمين: لَيُوسُفُ وأخوه الشقيق له واسمه «بُنيامين» أحبُّ إلى أبينا منا كلنا ﴿ونحن عصبة﴾، أي: يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما، والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال أقوياء أشداء، معتصبون نقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾، أي: لفي تيه من

المحاباة لهما ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالاً بيناً لا يخفى على أحد، إذ يفضِّل غلامين ضعيفين من ولده لا يقومان له بخدمة نافعة على العصبة أولي القوة والكسب والنجدة. وهذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين هو الذي أضلهم عن غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الأولاد وضعافهم، وكان يوسف وأخوه بنيامين أصغر أولاده.

٩ ــ ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾، أي: اقتلوه قتلاً لا مطمع بعده ولا أمل في لقائه، أو: انبذوه كالشيء اللَّقا الذي لا قيمة له، في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا أو عن العمران بحيث لا يهتدي إلى العودة إلى أبيه سبيلاً إن هو سلم فيها من الهلاك ﴿يَـخْلُ لكم وجه أبيكم﴾ فيكن كل توجهه إليكم، وكل إقباله عليكم، بخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشارككم في عطفه وحبه، وهذه الجملة من فرائد درر الكلام البليغ ﴿وتكونوا من بعده﴾، أي: من بعد يوسف، أو بعد قتله وتغريبه ﴿قوماً صالحين﴾ تائبين إلى الله من هذه الجريمة، مصلحين لأعمالكم فيرضى عنكم أبوكم وربكم، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى.

١٠ ــ ﴿قال قائل منهم﴾ أبهمه القرآن لأن تعيينه بتسميته لا فائدة منها في عبرة ولا حكمة، وإنما الفائدة في وصفه بأنه منهم، وهي أنهم لم يجمعوا على جناية قتله ﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب﴾ المعروف وهو: البئر غير المطوية، أي: غير المبنية من داخلها بالحجارة، وهو مذكر و«البئر» مؤنثة، وتسمى المطوية منها طويًا، و«غيابته» بالفتح: ما يغيب عن رؤية البصر من قعره، أو هي حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلَّى فيه لإخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خلل عرض له ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ وهم جماعة المسافرين الذين يسيرون في الأرض يقطعون الأرض من مكان إلى آخر لأجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الأقطار البعيدة ﴿إن كنتم فاعلين﴾ ما هو الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها، فَعَلَام إسخاط الله باقترافها والغرض يتم بما دونها.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدًا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

١١ ــ ﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف﴾ يعنون: أَيُّ شيء عرض لك من الشبهة في أمانتنا فجعلك لا تأمنا على يوسف؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا، كما أنه شعر منهم بالتنكر له ﴿وإنا له لناصحون﴾، أي: والحال إنا لنخصه بالنصح الخالص.

١٢ ــ ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾، أي: أرسله معنا غداة غد، إذ نخرج كعادتنا إلى مراعينا في الصحراء يرتفع معنا ويلعب. وقريء في المتواتر أيضاً «نرتع ونلعب» بنون الجماعة،وهي مفهومة من قراءة الياء فإن المراد من خروجه معهم مشاركته إياهم في رياضتهم وأنسهم وسرورهم بحرية الأكل واللعب و«الرُّتوع» وهو أكل ما يطيب لهم من الفاكهة والبقول، من «رَتَع الماشية»: إذا رعاها حيث تشاء ﴿وإنا له لحافظون﴾ ما دام معنا نقيه من كل سوء وأذى، أكدوا هذا الوعد كسابقه مبالغة في الكيد.

١٣ ــ ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾، أي: قال أبوهم جواباً لهم: إني ليحزنني ذهابكم به بمجرد وقوعه، و«الحزن»: ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه، ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ و«الخوف»: ألم النفس مما يتوقع من مكروه قبل أن يقع ﴿وأنتم عنه غافلون﴾، أي: في حال غفلة منكم عنه واشتغال عن مراقبته وحفظه بلعبكم.

١٣ ــ ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾، أي: والله لئن اختطفه الذئب من بيننا وأكله والحال أننا جماعة شديدة القوى تُعْصَبُ بنا الأمور، وتُكْفى بِبأسنا الخطوب ﴿إنا إذن لخاسرون﴾ وخائبون في اعتصابنا، أو: لهـالكون

لا يصح أن نعد من الأحياء الذين يعتد بهم ويركن إليهم، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

١٥ ـ ﴿فلما ذهبوا به﴾ في الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباه عن إمساكه عنده ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾، أي: أزمعوه وعزموا عليه عزماً إجماعياً لا تردد فيه بعد ما كان من اختلافهم قَبْلُ في قتله أو تغريبه، وجواب «لما» محذوب للعلم به مما قبله ومما بعده وتقديره: نفذوا إجماعهم بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿وأوحينا إليه﴾ عند إلقائه فيه وحياً إلهامياً عَـلِـمَ أنه منا، مضمونُهُ: وربِّك ﴿لتنبئنّهم بأمرهم هذا﴾ معك، إذ يُظهرك الله عليهم ويذللهم لك ويجعل رؤياك حقاً ﴿وهم لا يشعرون﴾ يومئذ بما آتاك الله، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك، أو بهذا الوحي إليه في الجب.

١٦ ـ ﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾، أي: جاؤوه في وقت العشاء إذ خالط سواد الليل بقية بياض النهار فمحاه، حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يبغون وقد بينه تعالى بقوله:

١٧ ـ ﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق﴾، أي: ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره، فـ«الاستباق»: تكلُّف السَّبْق،

وهو الغرض من المسابقة والتسابق ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ من فضل الثياب وماعون الطعام والشراب ﴿فأكله الذئب﴾ إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾، أي: بمصدق لنا في قولنا هذا لإتهامك إيانا بكراهة يوسف وحسده على تفضيلك إياه علينا في الحب والعطف ﴿ولو كنا صادقين﴾ في الأمر الواقع أو نفس الأمر، أو ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا.

١٨ ـ ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاؤوا بقميصه ملخطاً ظاهره بدم غير دم يوسف، يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلاً على كذبهم، فنكر الدم ووصف باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه، حتى كأنه هو الكذب بعينه، وقال: «على قميصه» ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعاً متكلفاً، ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقاً، والدم متغلغلاً في كل قطعة منه، ولهذا ولغيره لم يصدقهم ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره: إن الذئب لم يأكله بل سهلت لكم أنفسكم الأمّارة بالسوء أمراً إمْراً، وكيداً نُكْراً، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه، أي: هذا أمركم، وأما أمري معكم ومع ربي ﴿فصبر جميل﴾ أو: فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من رَوْح الله، القانطين من رحمة الله، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها سواه.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

١٩ ـ ﴿وجاءت﴾ ذلك المكان ﴿سيارة﴾ صيغة مبالغة من السير

ـ كجوالة وكشافة ـ أي: جماعة أو قافلة من التجار المسافرين، ﴿فأرسلوا واردهم﴾ وهو المختص بورود الماء للاستقاء لهم ﴿فأدلى دلوه﴾، أي: أرسله ودلاه في ذلك الجب، فتعلق به يوسف، فلما خرج ورآه ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ يبشر به جماعته السيارة. ونداء البشرى معناه: أن هذا وقتها وموجبها فقد آن لها أن تحضر ﴿وأسروه بضاعة﴾، أي: أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجاريتهم ﴿والله عليم بما يعملون﴾، أي: بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله إخوة يوسف فلكل منهم أرب فيه.

٢٠ ـ ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ «شرى الشيء يَشْريه»: باعه، و«اشتراه»: ابتاعه، أي: باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله على أنه ليس له مثل، هو دراهم ـ لا دنانير ـ معدودة لا موزونة، وإنما يُعَدُّ القليل ويوزن الكثير، والبخس في اللغة: الناقص والمعيب، وروي تفسيره هنا بالحرام وبالظلم لأنه بيع حر فيكون وصفه بدراهم معدودة مستقِلاً لا تفسيراً لـ «بخس»، وظاهر النظم أن الذين شروه هم السيارة، ويحتمل أن يكون لفظ «شروه» قد استعمل بمعنى «اشتروه» وهو مسموع، ويكون المراد أنهم اشتروه من أخوته بثمن بخس ثم باعوه في مصر بثمن بخس أيضاً، وهو إدماج من دقائق الإيجاز ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾، أي: وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه، الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لأنه حر، والثمن لم يكن مقصوداً لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

٢١ ــ ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه﴾ لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر، ولا منصبه ولا اسم امرأته، لأن القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ، وإنما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، ولكن وصفه فيما يأتي بلقب «العزيز» الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر، يدل على أنه لقب أكبر وزراء الملك، و«المثوى»: مصدر واسم مكان من ثَوى بالمكان يثوي ــ كرمى يرمي ــ أي: أقام، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل ما يختص بإقامته، بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو ﴿عسى أن ينفعنا﴾ بالقيام ببعض شؤوننا الخاصة، أو شؤون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿أو نتخذه ولداً﴾ فيكون قرة عين لنا، ووارثاً لمجدنا ومالنا، إذا تم رشده، وصدقت فراستي في نجابته.

وفُهِمَ من هذا الرجاء: أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو أن يكون له، وأُخِذَ منه أنه كان عقيمًا ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾، أي: وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الأمور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين ﴿والله غالب على أمره﴾، أي: على كل أمر يريده ويقدّره فلا يغلب على شيء منه، أو: غالب على أمر يوسف فهو يدبره ويهلمه الخير ولا يكله إلى تدبير نفسه وإتباع هواه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أنه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الأمور، ومنهم أخوة يوسف. ويقابل الأكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام، فقد كان يعلم أن الله غالب على أمره.

٢٢ ــ ﴿ولما بلغ أشده﴾، أي: رشده وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي ﴿آتيناه حكمًا وعلمًا﴾، أي: وهبناه حكمًا إلهامياً وعقلياً بما يعرض له أو عليه من النوازل والمشكلات مقروناً بالحق والصواب، وعلمًا لدنياً وفكرياً بحقائق ما يعنيه من الأمور، وهذه السن في عرف الأطباء تتم في خمس وعشرين سنة، ولأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال: فعن عكرمة أنها خمس وعشرون سنة، وعن ابن عباس: أنها ثلاث وثلاثون سنة ﴿وكذلك

نجزي المحسنين﴾، أي: وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الإحسان نؤتيهم نصيباً من الحكم بالحق والعدل والعلم الذي يظهره القول الفصل.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

٢٣ ـ ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾، أي: أرادت منه غير ماأراده زوجها، وهو أن يكون عشيقاً لها، بأن راودته عن نفسه، أي: خادعته وراوغته لأجل أن يرود أو يريد منها ما تريد هي منه مخالفاً لإرادته ﴿وغلقت الأبواب﴾، أي: أحكمت إغلاق باب المخدع الذي كانا فيه، وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبراء، وبابَ الدار الخارجي، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وقالت هيت لك﴾، أي: هَلُمَّ أَقْبِلْ وبادِرْ، وزيادة «لك» بيان للمخاطب، كما يقولون: هَلُمَّ لك وسُقيا لك. واقتصر على هذا في التنزيل، وهو منتهى النزاهة في التعبير، والله أعلم بما زادته من الإغراء والتهييج الذي تقتضيه الحال ﴿قال معاذ الله﴾، أي: أعوذ بالله معاذاً وأتحصن به، فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين، وعلل هذه الاستعاذة بقوله ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾، أي: إنه تعالى ولي أمري كله أحسن مقامي عندكم، فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة وإن كان حراً مظلوماً في الحقيقة، كما يقال: «رب الدار» وكان من عرفهم إطلاقه على الملكوك والسادة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ لأنفسهم وللناس كالخيانة لهم في أعراضهم وشرفهم،

لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الإمامة الصالحة والرياسة العادلة، ولا في الآخرة بجوار الله ونعيمه ورضوانه. وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالإيمان بالله، والأمانة للسيد صاحب الدار، والتعريض بخيانة امرأتـه له المتضمن لاحتقارها، ما أضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام، مضاعفة لنار الغرام، وهو ما بيّنه تعالى بقوله:

٢٤ ـ ﴿ولقد همت به﴾، أي: وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظر نفسها سيدته وهو عبدها، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ومراوَدَةً عن نفسها لا مراوِدَةً ﴿وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾، أي: وهَمَّ بها دفاعاً كما همت به انتقاماً، ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه، ما هو مصداق قوله تعالى «والله غالب على أمره»، وهو: إما النبوة التي تلي الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد، وإما مقدمتها من مقام الصِّدِّيقية العليا وهي: مراقبته الله تعالى وفاقاً لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين ﷺ في تفسير الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو الأرجح لأن الظاهر أنه أوتي النبوة في السجن ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾، أي: كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ما أرادته به أخيراً من السوء، وما راودته عليه قبله من الفحشاء بحصانة وعصمة منا، حالت دون تأثير دواعيهما الطبيعية في نفسه، وتوجهها إليهما فلا يصيبه شيء يخرجه من المحسنين ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ بفتح اللام، وهم: آباؤه الذين قال فيهم «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق وعقوب أولي الأيدي والأبصار، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» وفي قراءة «المخلصين» بكسر اللام، فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة، ولوازمهما، والجملة تعليل لما قبلها.

٢٥ ـ ﴿واستبقا الباب﴾، أي: وفَرَّ يوسف من أمامها هارباً إلى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها ترجيحاً للفرار على الدفاع الذي

لايعرف مداه، وتبعته تبغي إرجاعه حتى لا يفلت من يدها، وتكلف كل منهما أن يسبق الآخر، فأدركته ﴿وقدت قميصه من دبر﴾ إذ جذبته به من ورائه فانقدَّ، قالوا: إن «القَدَّ»: خاص بقطع الشيء أو شقه طُولاً، و«القَطّ»: قطعه عرضاً ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾، أي: وجدا زوجها عند الباب، وكان النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد واستمر هذا إلى زماننا، فلما دخل ورآهما في هذه الحالة المنكرة ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾، أي: شيئاً يسوءك مهما يكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه تنكير «سوءاً» ﴿إلا أن يسجن﴾، أي: إلا سجن يعاقب به ﴿أو عذاب أليم موجع يؤدبه ويلزمه الطاعة، وكان هذا القول مكراً وخداعاً لزوجها.

قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

٢٦ ـ ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ فامتنعتُ وفررتُ كما ترى ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾، أي: أخبر عن مشاهدة أو علم كالمشاهدة، وقيل: حكم مستدلاً بما ذكر، وقد اختلفوا في هذا الشاهد كعادتهم في المبهمات، والرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك: أنه كان صبياً في المهد، فقال: ﴿إن كان قميصه قد﴾ شق ﴿من قبل﴾ بضمتين أي: من قُدَّام ﴿فصدقت﴾ في دعواها أنه أراد بها سوءاً، فإنه لما وثبت عليها ليضربها أخذت بتلابيبه فجاذبا فأنقد قميصه وهما يتنازعان وتصارعان ﴿وهو من الكاذبين﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفر فتبعته وجذبته تريد إرجاعه ﴿وإن كان قميصه قد

من دبر﴾ بضمتين، أي: من خَلْف ﴿فكذبت﴾ في دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ﴿وهو من الصادقين﴾ في قوله: إنه فرَّ منها هارباً.

٢٨ ـ ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن﴾، أي: إن هذا العمل ومحاولة التنصل منه بالاتهام من كيدكن المعهود منكن معشر النساء ﴿إن كيدكن عظيم﴾ لا قبل للرجال به ولا يفطنون لحليكن في دقائقه.

ثم خاطبهما معاً بقوله:

٢٩ ـ ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾، أي: يا يوسف حوِّل همك عن هذا الأمر والكيد الذي جرى لك ولا تتحدث به ولا تَـخَفْ من تهديدها لك ﴿واستغفري لذنبك﴾ أيتها المرأة وتوبي إلى الله تعالى ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾، أي: من جنس مرتكبي الخطايا، واستدل بهذا القول على أنه كان فاقد الغيرة على امرأته خاضعاً لها ولعل سببه فقدُ الولد منها وعجزه عن إحصانها.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ

لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

٣٠ ـ ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ «النسوة»: جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾ هذا خبر يراد به لازمه، وهو التعجب والإنكار الصوري من النواحي الأربع:

(١) كون المتحدَّث عنه ا امرأة عزيز مصر.

(٢) وكونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه.

(٣) وأن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها.

(٤) وأنها بعد أن افتضح أمرها لا تزال مصرة على ذنبها، مستمرة على مراودتها ﴿قد شغفها حباً﴾، أي: قد اخترق حبه شغاف قلبها، أي: غلافه المحيط به، وغاص في سويدائه، فملك عليها أمرها، حتى إنها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾، أي: إنا لنراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البيِّن الظاهر، البعيد عن محج الهدى والصواب.

٣١ ـ ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ وكان من المتوقع أن تسمعه لما اعتيد بين هذه البيوتات، من التواصل بالزيارات، واختلاف الخدم من كل منها إلى الآخر ﴿أرسلت إليهم وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ أي: دعتهن إلى الطعام في دارها، ومكرت بهن كما مكرن بها، بأن أعدت وهيأت لهن ما يتكئن عليه وكان ذلك في حجرة مائدة الطعام، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ليقطعن به ما يأكلن من لحم وفاكهة ﴿وقالت اخرج عليهن﴾، أي: أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة أو مخدع في داخل حجرة الطعام التي كن فيها محجوباً عنهن، فعُلِمَ من هذا: أنها تعمدت أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه، عالمة بما يكون لهذه الفجاءة من تأثير الدهشة ﴿فلما

رأينه أكبرنه﴾، أي: أعظمنه ودهشن لذلك الحسن الرائع، والجمال البارع، وغبن عن شعورهن ﴿وقطعن أيديهن﴾ بدلاً من تقطيع ما يأكلن، ذهولاً عما يعملن. أي: جرحنها كما تقول: «كنت أقطع اللحم فقطعت يدي» وأنت تريد: فأخطأتُ فجرحتُها حتى كدتُ أقطعها ﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً﴾، أي: قلن هذا تعجباً وتنزيهاً لله تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر، وهو ما لم يعهد له في الناس مثل، إنه ليس بشراً مثلنا ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾، أي: ما هذا إلا ملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الأبصار وتخلب الألباب، قال ابن زيد بن أسلم المدني: أعطتهن أترنجاً وعسلاً فكنَّ يحززن الترنج بالسكين ويأكلنه بالعسل، فلما قيل له: اخرج عليهن خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به، حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن، ولا يحسبن إلا أنهم يحززن الاترنج قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن «حاش لله ما هذا بشراً» ما هكذا يكون البشر، ما هذا إلا ملك كريم، اهـ.

٣٢ ـ ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾، أي: إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن، وما أكبرتن في أنفسكن، وما فعلتن بأيديكن، وما قلتن بألسنتكن، فذلكن هو الأمر البعيد الغاية الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في عذلي عليه، إذ قلتن من قبل ما قلتن، فالمشار إليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها، أو يوسف البعيد في حقيقته، البديع في صورته عما تصورنه به، فكيف تلمنني وأنا أراه دائماً وأخلو به، وأنتن فتنتن به منذ النظرة الأولى ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾، أي: استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشؤوا عليها، كأنه يطلب مزيد الكمال منها ﴿ولئن لم يفعل ما آمره﴾ به، أقسم لكن آكد الإيمان، ولتسمع ذلك منه الأذنان ﴿ليسجننَّ وليكونن من الصاغرين﴾، أي: الأذلة المقهورين، تعني: أن زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله كولده.

٣٣ ـ ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾، أي قال: أي ربي، الغالب على أمري، إن الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين أحب

إلى نفسي مما يدعوني إليه هؤلاء النسوة، من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بمراودتهن عن مرادك، وبمغازلتهن عن مناجاتك ﴿وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ يعني: إن لم تحول عني ما ينصبنه لي من شراك الكيد، لم أسلم من الصبوة إليهن، وهي: الميل إلى موافقتهن على أهوائهن ﴿وأكن من الجاهلين﴾، أي: من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيعملون السوء بجهالة وهي: ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة.

٣٤ ـ ﴿فاستجاب له ربه﴾ ما دعاه به وطلبه منه الذي دل عليه هذا الابتهال ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ فلم يصب إليهن، فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهن ﴿إنه هو السميع﴾ المجيب لمن أخلص له الدعاء ﴿العليم﴾ بصدق إيمانهم، وما يصلح من أحوالهم.

٣٥ ـ ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات﴾ «بَدَا» هذه من البَدَاء ـ بالفتح ـ لا من البُدُوِّ المطلق، أي: ثُمَّ ظهر لهم من الرأي بعد ما رأوا الآيات الدالة على عصمته ما لم يكن ظاهراً من قبل، فأقسموا ﴿ليسجننه حتى حين﴾، أي: إلى أجل غير معين، لعل سببه أن يروا ما يكون من تأثير السجن فيه وحديث الناس عنه.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

٣٦ ـ ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾، أي: فسجنوه ودخل معه السجن بتقدير الله الخفي: فتيان مملوكان تبين فيما بعد أنهما من فتيان مَلِكِ مصر ﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾، أي: رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراها في اليقظة الآن وهي: أنني أعصر خمراً، أي: عنباً ليكون خمراً لا ليشرب الآن ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾ «الطير»: جمع واحده «طائر»، وتأنيثه أكثر من تذكيره، وجمع الجمع «طيور وأطيار» ﴿نبئنا بتأويله﴾، أي: قال له كل واحد منهما نبئني بتأويل ما رأيت، أي: بتفسيره الذي يؤول إليه في الخارج، ويصح إعادة الضمير المفرد على الكثير كاسم الإشارة بمعنى المذكور أو ما ذكر ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ عَلَّلوا سؤالهم إياه عن أمر يهمهم ويعنيهم دونه، برؤيتهم إياه من المحسنين للناس بمقتضى غريزتهم وقيل: من المحسنين لتأويل الرؤى.

٣٧ ـ ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ وهو ما لا تدرون من حيث لا تدرون وإني وإياكم في هذا السجن لمحجوبون ﴿إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾، أي: أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهي إليه بعد وصوله إليكما ﴿ذلكما مما علمني ربي﴾، أي: ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي بوحي منه إلي، لا بكهانة ولا عرافة ولا تنجيم، ولا ما يشبهها من طرق صناعية أو تعليم بشري يلتبس به الحق بالباطل ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ خالق السماوات والأرض وما بينهما كما يجب له من التوحيد والتنزيه، أي: تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان، وليس المعنى: أنه كان مُتَّبِعاً لها ثم تركها، والمتبادر: أنه أراد بهؤلاء القوم المصريين الذي هو فيهم وبينهم، فإنهم اتخذوا من دون الله آلهة معروفة في التاريخ أعظمها الشمس واسمها عندهم «رُعْ» ومنها فراعنتهم والنيل وعجلهم «أبيس» وإنما كان التوحيد خاصاً بحكمائهم وعلمائهم ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾، أي: وهم

الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة الذي دعا إليه الأنبياء، بل فشا فيهم تصوير هذا الإيمان بصور مبتدعة منها أن فراعنتهم يعودون إلى الحياة في الأرض بأجسادهم المحنطة ويعود لهم السلطان والحكم فيها.

٣٨ ـ ﴿واتبعت ملة آبائي﴾ أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص، وبيَّن أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى بقوله ﴿إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ فلفظ «الآباء» يشمل الجدود وإن علوا، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقيناً فكانت يقيناً له ولهم ووجداناً بقوله: ﴿ما كان لنا﴾، أي: ما كان من شأننا معشر الأنبياء ولا مما يقع منا ﴿أن نشرك بالله من شيء﴾ نتخذه رباً مدبراً أو إلهاً معبوداً معه لا من الملائكة ولا من البشر كالفراعنة، فضلاً عما دونها من البقر كالعجل «أبيس»، أو: من الشمس والقمر، أو: ما يتخذ لهذه الآلهة من التماثيل والصور ﴿ذلك من فضل الله علينا﴾ بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته في خلقه ﴿وعلى الناس﴾ بإرسالنا إليهم ننشر فيهم دعوته، ونقيم عليهم حجته، ونبين لهم هدايته ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ نعم الله عليهم فهم يشركون به أنداداً من خلقه يدعونهم ويذلون أنفسهم بعبادتهم، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم.

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

٣٩ ـ ﴿يا صاحبي السجن﴾ أضافهما إلى السجن، بمعنى: يا ساكني السجن، أو: بمعنى يا صاحبيَّ في السجن ﴿أأرباب متفرقون﴾ هذا استفهام تقرير بعد تحيير، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد، وكان المصريون المخاطبون به يتخذون كغيرهم من الأمم أرباباً متفرقين في ذواتهم، وفي صفاتهم المعنوية

وأعمالهم الوهمية وفي صفاتهم الحسية التي يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنصوبة في المعابد والهياكل ﴿خير﴾ لكما ولغيركما من الأفراد والأقوام، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع، وكل ما تحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أم الله﴾ الواجب الوجود، الخالق لكل موجود ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿القهار﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والأرضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين الباطنة فكلها مسخرة بأمره.

٤٠ ـ ﴿ما تعبدون من دونه﴾، أي: غير هذا الواحد القهار ﴿إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من قبلكم، أي: وضعتموها لمسميات نحلتموها صفات الربوبية وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أرباباً وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الإله المستحق للعبادة، حتى يقال: إنها خير أم هو خير ﴿ما أنزل الله بها﴾، أي: بتسميتها أرباباً على أحد من رسله ﴿من سلطان﴾، أي: أيِّ نوع من أنواع البرهان والحجة فيقال: إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبداً له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده ﴿إن الحكم إلا لله﴾، أي: ما الحكم الحق في الربوبية، والعقائد والعبادات الدينية، إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا ينبغي لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ﴿أمر أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا، وإليه وحده فتوجهوا، حنفاء لله غير مشركين به أحداً ولا شيئاً من خلقه ﴿ذلك الدين القيم﴾، أي: الحق المستقيم الذي لا عوج فيه من جهالة الوثنيين، الذي دعا إليه جميع رسل الله أقوامهم ومنهم آبائي: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ذلك حق العلم

لاتباعهم أهواء آبائهم ورؤسائهم تقليداً بغير علم. وبعد تبليغهما دعوة الدين أفتاهما في رؤياهما فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

٤١ ــ ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ﴿فيسقي ربه خمراً﴾، يعني بربه: مالك رقبته وهو المَلِك، لا ربوبية العبودية، فملك مصر في عهد يوسف لم يدع الربوبية والألوهي كفرعون وموسى وغيره، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون ﴿وأما الآخر﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل خبزاً تأكل الطير منه ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾، أي: الطير التي تأكل اللحوم كالحدأة، وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما وقد يكون من خواطرهما النومية وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف ويؤكدها قوله ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفيان﴾ فهذا نبأ زائد على تعبير رؤياهما، وَرَدَ مورد الجواب عن سؤال كان يخطر ببالهما، أو أسئلة في صفة ذلك التعبير وهل هو قطعي أم ظني يجوز غيره، ومتى يكون؟ فهو يقول لهما: إن الأمر الذي يهمكما أو يشكل عليكما وتستفياني فيه قد قضي وبُتَّ فيه وانتهى حكمه.

٤٢ ــ ﴿وقال للذي ظن أنه ناج منهما﴾ وهو الذي أول له رؤياه بأنه يسقي ربه خمراً، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية، وما ذكر من قضاء الملك بذلك يحتمل أن يعرض ما يحول دون نفيذه، ولذلك عبر عن نجاته بالظن ﴿اذكرني عند ربك﴾، أي: عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري، عسى أن ينصفني ممن ظلموني ويخرجني من السجن، وهذا الذكر

يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جديرة بأن تذكره به كلما قدَّم للملك شرابه ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾، أي: أنسى الساقي تذكُّر ربِّه وأن يذكر يوسف عنده على حد «وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره» ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ منسياً مظلوماً، والفاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق، والجاري على نظام الأسباب، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريباً: «وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة»، أي: تذكر، وقيل: إن المعنى أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فعاقبه الله تعالى بإبقائه في السجن بضع سنين، وقالوا: إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب أنه توسل إلى الملك لإخراجه ولم يتوكل عليه، وهو خلاف الظاهر والصحيح الأول.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

٤٣ ـ ﴿وقال الملك﴾ هذا السياق عطف على سياق صاحبي السجن

وما قالاه في قص رؤياهما على يوسف ﴿إني أرى﴾، أي: رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية ماثلة أمامي كأني أراها الآن ﴿سبع بقرات سمان﴾ جمع «سمينة» وكذا «سمين» كما يقال: رجال ونساء كرام وحسان ﴿يأكلهن سبع عجاف﴾، أي: سبع بقرات مهازيل في غاية الضعف والهزال، وهو جمع «عَجْفاء» سماعاً لا قياساً وحُسْنُه هنا مناسبته لـ«سمان» ﴿وسبع سنبلات خضر﴾ عطف على «سبع بقرات» وهي جمع «سنبلة»: ما يخرجه الزرع كالقمح والشعير فيكون فيه الحب ﴿وأخَر يابسات﴾ عطف على ما قبله، واليابس من السنبل ما آن حصاده، واستغنى عن إعادة «سبع» هنا بدلالة مقابله في البقرات عليه ﴿ياأيها الملأ﴾ يخاطب رجال دولته وأشراف قومه ﴿أفتوني في رؤياي﴾ ما معناها وما تدل عليه فيكون مآلاً لها ﴿إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾، أي: تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى، فاللام فيها للبيان والتقوية، فعبرها وعبورها بمعنى تأويلها، وهو الإخبار بمآلها الذي يقع بَعْدُ.

٤٤ ــ ﴿قالوا أضغاث أحلام﴾، أي: هي أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الأحلام، أي: الأحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم فلا ترمي إلى معنى مقصود، وأصل «الأضغاث» جمع «ضِغْث» بالكسر وهو: الحِزْمة من النبات أو العيدان، و«الأحلام» جمع «حُلُم» بضمتين وسكن وسطه للتخفيف وهو: ما يُرى في النوم. ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ يحتمل قولهم هذا أنهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه الأحلام المختلطة المضطربة، وإنما يعلمون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة، ويحتمل نفي العلم بجنس الأحلام لأنها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى تؤول إليه.

٤٥ ــ ﴿وقال الذي نجا منهما﴾، أي: من صاحبي السجن وهو الساقي ﴿وادكر بعد أمة﴾، أي: والحال أنه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن وصيةَ يوسف إياه بأن يذكره عند سيده الملك، فأنساه الشيطان ذلك ﴿أنا أنبؤكم بتأويله﴾، أي: أخبركم به أو بمن عنده علم تأويله ﴿فأرسلون﴾ إليه أو إلى السجن فهو فيه.

٤٦ ـ ﴿يوسف أيها الصديق﴾، أي: قال فأرسلوني فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك، منادياً له باسمه وما ثبت عنده من لقبه «الصديق» وهو الذي بلغ غاية الكمال بالصدق في الأقوال والأفعال وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام، شارحاً له رؤيا الملك بنصها ـ وهو بَسْطٌ في محلِّه بعد إيجاز في محلِّه ـ قائلاً ﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات﴾ وعلل هذا الاستفتاء بما يرجو أن يحقق ليوسف أمله بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملائه بعلمه، فقال: ﴿لعلي أرجع إلى الناس﴾ أولي الأمر، وأهل الحل والعقد، بما تلقيه إلي من التأويل والرأي ﴿لعلهم يعلمون﴾ مكانتك من العلم فينتفعون به، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك وما يجب أن يعملوا بعد العلم به، فـ «لعل» الأولى تعليل لرجوعه إليهم بإفتائه، و«لعل» الثانية تعليل لما يرجوه من علمهم بها، و«الرجاء»: توقُّع خيرٍ بوقوع أسبابه.

٤٧ ـ ﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً﴾، أي: قال يوسف مبيناً للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ما تدل ليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي، وهذا ضرب من بلاغة الأسلوب والإيجاز، لا تجد له ضريباً في غير القرآن، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقي خطاب الأمر للمأمور الحاضر، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأباً مستمراً سبع سنين بلا انقطاع، فقوله «تزرعون» خبر في معنى الأمر، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله ﴿فما حصدتم فذروه في سنبله﴾، أي: فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه، أي: ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة إليه، ليكون الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع، فإن الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان، والسنبلات السبع الخضر على ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلاً لزرع سنة.

٤٨ ــ ﴿ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد﴾، أي: سبع سنين شداد في محلهن وجدبهن ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾، أي: يأكل أهلهن كل ما قدمتم لهم، وهو من إسنادهم إلى الزمان والدهر ما يقع فيه، ويكثر إسناد العسر والجوع إلى سني الجدب، يقال: أكلت لنا هذه السنة كل شيء ولم تبق لنا خفاً ولا حافراً، ولا سبداً ولا لبداً ــ أي: لا شعراً ولا صوفاً ــ وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان، وللسنبلات اليابسات ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾، أي: تحرزون وتدخرون للبذر[١].

٤٩ ــ ﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ الذي ذكر وهو السبع الشداد ﴿عام فيه يغاث الناس﴾، أي: فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الإغاثة وأوسعها، وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة. ويجوز أن يكون من «الغَيث» وهو المطر إذ يقال: غاث الله البلاد غيثاً وغياثاً إذا أنزل فيها المطر، والأول أعم وهو المتبادر هنا، ولا يقال إن الثاني لا يصح، لأن خصب مصر يكون بفيضان النيل لا بالمطر فإن فيضانه لا يكون إلا من المطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان، فاعتراض بعض المستشرقين من الإفرنج وزعمه أن الكلمة من الغيث وأنها غير جائزة جهل زينه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن ﴿وفيه يعصرون﴾ ما شأنه أن يُعْصَرَ من الأَدْهان التي يأتدمون بها ويستصبحون كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم وغير ذلك، والأشربة من القصب والنخيل والعنب. والمراد أن هذا العام عظيم الخصب والإقبال، يكون للناس فيه كل ما يبغون من النعمة والأتراف، والإنباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الأول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل لا مقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل.

---

(١) قوله: «وتدَّخرون للبذر» هذا آخر ما اختصره المؤلف السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من هذا القسم من تفسيره وقد أكملنا اختصار بقية تفسير سورة «يوسف» مما كتبه المؤلف، ومن تتمة تفسيرها للأستاذ العلامة الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله كما سنبينه في موضعه في آخر تفسير الآية «١٠١» وفصلناه في مقدمتنا لهذا الكتاب فارجع إليها.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

من المعلوم بالقرينة أن الرسول بلغ الملك وملأه ما قاله له يوسف عليه السلام وأنهم فهموا منه أن الخطب جلل، وأن هذا الرجل ذو علم واسع، وتدبير لا يستغنى عنه فيما يصفه من حالي السعة والشدة، وقد طوي ذلك إيجازاً لأنه يعلم من قوله تعالى:

٥٠ ـ ﴿وقال الملك ائتون به﴾ لأسمع كلامه بأذني، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسي ﴿فلما جاءه الرسول﴾ وبلغه أمر الملك ﴿قال ارجع إلى ربك فاسأله﴾ قبل شخوصي إليه ووقوفي بين يديه: ﴿ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾، أي: ما حقيقة أمرهن معي، فالبال: الأمر الذي يهتم به ويبحث عنه، فهو يقول: سله عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقته، فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت عليها، أو عَقِبها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل منه العفو ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ وقد صرفه عني فلم يمسني منه سوء معهن، وربك لا يعلم ما علم ربي منه.

وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه في سؤال:

منها: دلالته على صبره وأناته.

ومنها: عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهمًا بالباطل حتى تظهر براءته ونزاهته.

ومنها: وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها.

ومنها: مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة، وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر ما يجبن به.

ومنها: أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها، لأن أمر شَغَفَها به كان وجداناً قاهراً لها، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعاً عن نفسه، فهو لم يكن له بد منه.

٥١ ـ ﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ «الخطب»: الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره، ومنه قول إبراهيم للملائكة «فما خطبكم أيها المرسلون» والمعنى: أن الرسول بلغ الملك قول يوسف وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة، فجمعهم وسألهن: ما خطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه هل كان عن ميل منه إليكن، ومغازلة لكن قبلها، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع المجرمين؟ ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾، أي: معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوءه لا كبير ولا صغير، ولا كثير ولا قليل، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول «مِنْ» عليها وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه ﴿قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق﴾، أي: ظهر بعد خفائه، وهو تكرار من «حَصَّه» إذا قطع منه حصةً بعد حصة، وهي النصيب لكل شريك في شيء، فهي تقول: إن الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزَّع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصة، بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فإن كان عواذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي، فشهادتي هل على نفسي شهادة إثبات؟ ﴿أنا راودته عن نفسه﴾ وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني ﴿وإنه لمن الصادقين﴾ فيما اتهمن به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاءه الأسمى لمن أكرم

مثواه وأحسن إليه ـ على السكوت عنه الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الإحسان، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع.

٥٢ ـ ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾، أي: ذلك الإقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه، ليعلم الآن ـ إذ يبلغه عني ـ أني لم أخنه بالغيب في حال غيبته عني وغيبتي عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبته الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، وهذا تعليل آخر لإقرارها.

ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبرىء نفسها من الكيد له بالسجن، وأن ذلك كان من هوى النفس الأمارة بالسوء، لأن المراد منه تذليله لها، وحمله على طاعتها.

وفيها وجه آخر وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلى بينه وبيني، فاستعصم وامتنع، فبقي عرضه ـ أي: الزوج ـ مصوناً، وشرفه محفوظاً، ولئن برأت يوسف من الإثم فما أبرىء منه نفسي، فإن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي، وسيأتي أن من رحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الأمر السوء وهو أعلى الدرجات، ومنها: عدم تيسير عمل السوء لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حدّ: «إن مِنَ العصمة أن لا تجِدَ».

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾

هذه الآية تتمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار، وقيل: من قول يوسف عليه السلام ويرده عطفه على إقرارها، وعطف أمر الملك بالإتيان به من السجن عليه، فهي تقول:

٥٣ ـ ﴿وما أبرّيء نفسي﴾ في دعوى عدم خيانتي إياه بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الخيانة وما عرف أمره ﴿إن النفس لأمّارة بالسوء﴾، أي: النفس البشرية الكثيرة الأمر بعمل السوء بداعي الشهوات البدنية والأهواء الغضبية، ونزغات الوسوسة الشيطانية، ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه، وكانت مما يسوءه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين، ﴿إلا ما رحم ربي﴾، أي: إلا نفساً رحمها ربي رحمة خاصة، فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف، هذا هو المعنى المتبادر من سياق القصة.

ويجوز في الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعاً بمعنى: لكن رحمة ربي هي التي قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره أو تحول دونه، وأن تكون «ما» زمانية، والمعنى: «إنّ مِنْ شأن النفس أن تكون أمارة بالسوء في عامة الأوقات إلا وقت رحمة ربي الذي يوفقها فيه لمراقبته والأعمال الصالحة التي ترضيه ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ تعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى أن يصرف بعض الأنفس عن الأمر بالسوء، أو: عن طاعتها فيه، أو: يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترف السوء ثم يتوب إليه منه.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

كان الفصل الأول: من قصة يوسف عليه السلام في نشأته وما وقع بينه وبين إخوته وانتهى ببيعه بثمن بخس، والفصل الثاني: في حياته الأولى في مصر وهو قسمان: أحدهما في بيت عزيز مصر، وثانيهما في السجن، وكانت

هذه الأطوار كلها أطوار بؤس وشدائد، رباه الله تعالى بها أكمل تربية، وجعله خير أسوة لأفراد الناس في عفته ونزاهته وصدقه وأمانته، وخير أهل لما بعدها من إدارة ملك مصر، وإتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما تنبأ أبوه من قبل.

وهذا هو الفصل الثالث من قصة يوسف، وهو توليته حكومة مصر وما وقع لأخوته معه فيها، قال تعالى:

٥٤ ــ ﴿وقال الملك﴾ بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة وظهور براءة يوسف فيه من كل سوء وهو ما اشترطه في قبول الدعوة أول مرة ﴿ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾، أي: أحضروه من السجن إلي ــ وقد وفينا له بما اشترطه لمجيئه ــ أجعله خالصاً لنفسي لا يشاركني أحد فيه من وزير يدخل بيننا في إدارة الملك ولا حاجب يبلغه عني ويبلغني عنه، فأَتَوْه به ﴿فلما كلمه﴾ وسمع ما أجابه به ﴿قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾، أي: إنك في هذا الزمن لدى حضرتنا الملكية الخاصة ذو مكانة ثابتة ومنزلة عالية، وأمانة تامة موثوق بها، فأنت مفوض في إدارة ملكنا غير منازع في تصرفك ولا متهم في أمانتك.

٥٥ ــ ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ هذا جواب سؤال تقديره: ماذا قال يوسف للملك وقد سمع منه ما سمع ورأى من تأثير لقائه وكلامه في نفسه ما رأى؟ أي: قال ولِّني خزائن أرضك كلها أكن المشرف عليها لأتمكن من تنفيذ ما أَوَّلْتُه من رؤياك بنفسي فيكون منقذاً للبلاد والعباد من المجاعة، والمراد بالخزائن وهي جمع «خزينة»: الأهراء التي تخزن فيها غلات الأرض، أو ما يشمل كل مال ﴿إني حفيظ عليم﴾، أي: شديد الحفظ لما يخزن فيها بحيث لا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه، راسخ العلم بطرق حفظه ووجوه تصريفه والانتفاع به، فهو قد طلب أهم ما تتوقف عليه إدارة الملك وسياسته وتنمية العمران وإقامة العدل فيه. فكان مضطراً إلى تزكية نفسه بالحق فيه فالجملة تعليل لما قبلها.

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ

بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

هذا بيان لسنة الله تعالى في تأسيس الرياسة الفضلى والحكومات المثلى في الأمم، ونيل الأفراد المناصب العالية فيها وإن كان أهلها غرباء عنها وافدين عليها. يقول تعالى:

٥٦ ـ ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾، أي: ومثل هذا التمكين الذي سبق بيان أسبابه ومقدماته، مكنا ليوسف في أرض مصر وقد جيء به مملوكاً فأصبح مالكاً، ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ أي: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾، أي: نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى وغير ذلك مِنْ نعم الدنيا مَنْ نشاء من عبادنا بمقتضى سننا في الأسباب الكسبية، وموافقة الأحداث الكونية والاجتماعية ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ في أعمالهم بشكر هذه الرحمة والنعم، بل نأجرهم عليها في الدنيا بالزيادة والهناءة فيها.

٥٧ ـ ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم مثبتة أن أجر الآخرة وهو نعيمها الذي يكون فيها للجامعين بين الإيمان والتقوى، خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ومتاعه، ليكون المؤمنون المتقون المحرومون من هذا النعيم راضين عن الله عز وجل، موقنين بأن ما أعده لهم في الآخرة يصغر ويتضاءل تجاهه كل ما في الدنيا من مال وجاه وزينة وشهوات.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ

بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

٥٨ ـ ﴿وجاء إخوة يوسف﴾، أي: جاؤوا مصر يمتارون ﴿فدخلوا عليه﴾ لأن أمر الميرة وشراء الغلال بيده ورهن أمره ﴿فعرفهم﴾ إذ دخلوا بلا تردد ولا طول تأمل، كما يُفهم من العطف بالفاء، إذ كان عددهم وشكلهم وزيهم محفوظاً في خياله لنشوئه بينهم، وما قاساه منهم في آخر عهده بهم ويجوز أن يكون هنالك سبب آخر لسرعة هذه المعرفة كأن يكون عمال يوسف وعبيده لا يدخلون عليه إلا من عرفوا أمرهم وعرضوا عليه ونالوا إذنه بإدخالهم ﴿وهم له منكرون﴾، أي: والحال أنهم كانوا إذ دخلوا عليه منكرين له لتغير شكله بالدخول في سن الكهولة،ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته وما كان من حاجتهم كغيرهم لبره وعطفه، وكل ذلك مما يحول دون إطالة النظر إليه والتثبت من معارف وجهه، وكانوا يظنون أنه هلك أو طوحت به طوائح الزمن بالانتقال من سيد إلى آخر، فلو فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لعدُّوها مما يتشابه فيه بعض الناس ببعضٍ عادةً، ولم يخطر ببالهم أن أخاهم وصل إلى هذه العظمة.

٥٩ ـ ﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾، أي: أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون، وأوقر ركائبهم بما جاؤوا له من الميرة ﴿قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم﴾ يريد شقيقه «بنيامين» ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾، أي: أتمه وأجعله وافياً كافياً ﴿وأنا خير المنزلين﴾، أي: وأنا على هذا خير المضيفين للضيوف، وكان قد أحسن ضيافتهم ومن تمامها تجهيزهم بالزاد الكافي لهم مدة سفرهم، والميرة لا تقتضي هذا ولا تستلزمه.

٦٠ ـ ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ فإذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن معكم، مُنِعَ جنس الكيل أن يكال لكم في حضرتي أو ملكي، فضلاً عن إيفائه وإكماله الذي كان لكم بأمري ﴿ولا تقربون﴾ بكسر النون الدالة على ياء المكلم المحذوفة، وهو يجوز أن يكون نفياً معطوفاً على ما قبله، وأن

يكون نهياً عن القرب منه فضلاً عن إنزاله إياهم في ضيافته خير ضيافة لا توجد عند غيره، وناهيك بما بين منزلته من الملك والحكم، ومنزلتهم فيمن لا يحصى من الجائعين الممتارين من البُعْدِ.

٦١ ــ ﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾، أي: سنبذل جهدنا في مراوغة أبيه ورَوْدِهِ وتحويله عن إرادته في إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك حتى نقنعه بإرساله معنا كما تحب ﴿وإنا لفاعلون﴾ ذلك قطعاً وعداً مؤكداً لا ننساه ولا نتوانى فيه.

٦٢ ــ ﴿وقال لفتيانه﴾، أي: غلمانه الكيالين، ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ التي جاؤوا بها لشراء الطعام ﴿في رحالهم﴾، أي: أوعيتهم وهي جمع «رحل» بالفتح، يطلق على كل ما يُعَدّ للرحيل من وعاء ومركب ورَسَن للدابة ﴿لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾، أي: رجاء أن يعرفوا لنا حق إعادتها إليهم، وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجاناً بغير ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه، فإنهم إنما يفتحونها هنالك ﴿لعلهم يرجعون﴾ إلينا طمعاً في برنا وإن كانوا غير محتاجين إلى امتيار آخر لضرورة القوت.

ويجوز أن يكون رجاء الرجوع منوطاً باعتقادهم.

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

٦٣ ــ ﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾، أي: صدر حكم العزيز ولي الأمر في مصر بمنع الكيل لنا في المستقبل، وأخبروه بما قاله لهم ورتبوا عليه قولهم ﴿فأرسل معنا أخانا﴾ بنيامين ﴿نكتل﴾ أي: نتمكن من أخذ ما نطلب من الطعام بالكيل المعلوم، بأن نرفع المانع من الكيل ونكتال من الطعام بقدر عددنا ﴿وإنا له لحافظون﴾ في ذهابه وإيابه فلا يناله مكروه تخافه، كأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لا يزال يعتقد أنهم يحسدونه كما كانوا يحسدون

يوسف معه فقالوا له مثل ما قالوا لما طلبوا إرسال يوسف معهم يرتـع ويلعب، فماذا قال هو لهم؟

٦٤ ــ ﴿قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ إذ قلتم «يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون؟ أرسله معنا غداً يرتفع ويلعب وإنا له لحافظون»، ثم خنتم وكذبتم فأضعتم يوسف، فالحالة واحدة ووعدكم بحفظه لا يوثق به ﴿فالله خير حافظاً﴾ فمن لم يحفظه فلا حافظ له، ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه و يجمع عليّ الابتلاء بفقده وفقد أخيه يوسف معاً فرحمته أوسع وأعظم، وفي قوله هذا لين وميل إلى إرساله لشدة الحاجة ولكنه غير صريح.

وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

٦٥ ــ ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم﴾، أي: فتحوا رحالهم من غرائر وغيرها، وجدوا فيها ما كانوا أعطوه من بضاعة ونقد ثمناً للطعام كما توقع يوسف، إذ أمر فتيانه بوضعها في رحالهم ولم يعلموا بذلك من قبل ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ استفهام في سياق اشتئناف بياني، يعنون: أَيَّ إكرام نطلب وراء هذا الذي فعل معنا عزيز مصر، أو: نفي للمبالغة فيما حدثوه به من كرمه وحسن ضيافته، أي: ما نبغي ولا نسرف فيما حدثناك عن كرم هذا الرجل، ثم استدلوا على هذا بقولهم مستأنفاً أيضاً: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ بعينها على حقارتها لم يأخذ العزيز شيئاً منها، وكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته فهو هبة منه إلينا أو صدقة علينا ﴿ونمير أهلنا ونحفظ أخانا﴾ هذا عطف على محذوف تدل عليه القرينة، أي: فنحن ننتفع ببضاعتنا، ونمير

أهلنا بما نجلبه من الميرة من مصر مجاناً، ونحفظ أخانا بعنايتنا كلنا به مع عدم المخاوف التي تخشى أن تغلبنا عليه ﴿ونزداد كيل بعير﴾، أي: حمل جمل يُكال لأخينا، ويفهم منه أن يوسف ما كان يعطي أحداً أكثر من حمل بعير حتى لا يسرف الناس في الطعام، وقد أشار في تعبير رؤيا الملك إلى ما يجب من الاقتصاد ﴿ذلك كيل يسير﴾، أي: إن حمل البعير كيل سهل لا عسر فيه على عزيز مصر الجواد المحسن، أو: قليل لا يكثر على سخائه ولا يشق عليه وإن كان يعلم أن كل ما نأخذه لبيت واحد، فالمشار إليه حمل البعير، و«الكيل» بمعنى: المكيل، و«اليسير» له معنيان: أحدهما السهل وهو ضد العسير والثاني: القليل من كل شيء حتى الزمن ومنه قوله تعالى «وما تلبثوا بها إلا يسيراً».

٦٦ ـ ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله﴾، أي: حتى تعطوني عهداً موثَّقاً بالقَسَم بالله ﴿لتأتنني به﴾ جواب القسم، أي: لترجعن به إلي على كل حال تعرض لكم ﴿إلا أن يحاط بكم﴾ إلا في حال واحدة وهي: أن تُغْلَبوا على أمركم بعدو أو بلاء يحيط بكم فتهلوا دونه فلا تستطيعون الإتيان به مجتمعين ولا متفرقين، أو: لا يسلم منكم أحد ﴿فلما آتوه موثقهم﴾، أي: أعطوه العهد الموثق الذي اشترطه عليهم ﴿قال الله على ما نقول وكيل﴾ أشهد الله تعالى على ما قاله واشترطه وما أجابوه به، يعني: أنه سبحانه رقيب عليه وعليهم، وأمرهم موكول إليه فهو الكفيل الذي يوفق إلى الوفاء بالعهد، والصدق بالوعد.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

٦٧ ـ ﴿وقال يا بني لا تدخلوا﴾ مصر مجتمعين ﴿من باب واحد﴾ كهيئتكم هذه، بناء على أنه كان لمصر عدة أبواب لكبرها وكثرة طرقها، وقيل إنه أراد بالأبواب الطرق، والراجح عندي: أنه أراد الأبواب التي يدخل الناس منها على العزيز في قصره ﴿وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ بحيث لا يراكم من هنالك مجتمعين فيحسدكم الحاسدون، ويكيد لكم الظانون ظن السوء، فإذا وقع بكم مكروه بحسدهم وكيدهم أو بسبب آخر خشيت أن يصيبكم كلكم فيحاط بكم ﴿وما أغني عنكم﴾ وما أدفع عنكم بوصيتي هذه ﴿من الله﴾، أي: مما قضاه الله وقدره في علمه وسنن خلقه ﴿من شيء﴾ قل أو كثر، فما قضاه وحكم به لا بد من وقوعه ﴿إن الحكم إلا لله﴾، أي: ما الحكم في تدبير العالم ونظام الأسباب والمسببات إلا لله وحده ﴿عليه توكلت﴾ دون غيره ودون علمي ووصيتي، وحولي وقوتي ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ كلهم لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم، بل يجب على كل عاقل يؤمن به أن يتخذ لكل أمر ما يقدر عليه من الأسباب، وأن يوصي بها بعضهم بعضاً، وأن يكون اتكالهم في النجاح وقضاء الحاجة عليه، فإن من الأسباب ما يخفى عليهم، وما لا تصل إليه أيديهم.

٦٨ ـ ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ وهو الأبواب المتفرقة ﴿ما كان يغني عنهم﴾ يمنع أو يدفع دخولـهُم، أو أمره لهم وامتثالهم له ﴿من الله من شيء﴾، أي: أدنى شيء من المكروه الذي من شأنه أن يحول دون رجوعهم ببنيامين، وقد أخذ عليهم الموثق بأن يأتوه به إلا إذا أُحيط بهم فلم يبق منهم أحد، وإنما يقع هذا في العادة الغالبة إذا كانوا مجتمعين ﴿إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها﴾ هذا استثناء منقطع بالاتفاق، والمعنى: أن يعقوب كان يعلم أن الحذر لا يدفع القدر، ولكن كانت هنالك حاجة تعتلج في نفسه، وقضت الحكمة ألا يكاشف بها أحداً منهم، هي وراء ما يخطر بالبال من أسباب الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة به، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها ﴿وإنه لذو علم﴾ خاص به وبأمثاله الأنبياء ﴿لما علمناه﴾ لأجل ما أعطيناه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة والإلهام، وذلك عندهم فوق صحة الفكر وسلامة العقل، فهو يعلم به أن يوسف حي سيكون له شأن وأن

الإنسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له كل ما يصل إليه علمه من أسبابه حتى ما كان منها احتياطياً، ثم يتوكل على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ما نختص به رسلنا من علمنا اللدني، فهم يتكلون على ما يظنون أو يتوهمون من الأسباب.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

٦٩ ـ ﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم البلد، أو باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ﴿آوى إليه أخاه﴾، أي: ضم إليه أخاه الشقيق وهو بنيامين من دونهم، ﴿قال إني أنا أخوك﴾ يوسف الذي فقدتموه في صغره. ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾، أي: فلا يرهقنك بعد الآن بؤس، أي: مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يفعلون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك.

٧٠ ـ ﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ تقدم مثله في تفسير الآية «٥٩» من هذه السورة ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾ «السقاية»: وتطلق على إناء أو وعاء

يسقى به، وهو الذي عبر عنه في الآية «٧٢» بـ «صواع الملك»، وهو كالصاع مكيال معلوم يكال به الحب وغيره.

﴿ثم أذن مؤذن﴾، أي: نادى ماد وقف بينهم ليسمعوا كلهم، وهو من «التأذين»، أي: تكرار الأذان وكثرته، ومعناه: الإعلام بالشيء الذي تدركه الأُذُن، يقال: آذنه بالشيء إيذاناً، أي: أعلمه به، وأَذَّن الناس بكذا، أي: أعلمهم المرة به بعد المرة ومنه المؤذن بالصلاة ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ «العير» بالكسر: الإبل التي عليها الأحمال لأنها «تَعير»، أي: تجيء وتذهب، أي: نادى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم، والظاهر من السياق أن يوسف عليه السلام وضع السقاة في رحل أخيه بيده ولم يكله إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثاني لئلا يطلعوا على مكيدته، وكان من شأنهم أن افتقدوا السقاية لأنها الصواع الذي يكلون به للمتارين فلم يجدوها، فأذن مؤذنهم بذلك أي: كرر النداء كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان، وليس في العبارة ولا في السياق ما يدل على أنه قال هذا بأمر يوسف حتى يقال: كيف أمره بالكذب ويحتاج إلى تأويله له كما تكلفه بعض المفسرين.

٧١ ـ ﴿قالوا وأقبلوا عليهم﴾، أي: قال إخوة يوسف لجماعة المؤذن ـ المنادي ـ وقد تركوا رحالهم وأقبلوا عليهم ﴿ماذا تفقدون؟﴾ مِنْ «فَقَدَ الشيء الموجود»، أي: غاب عنه وعَدِمَه فلم يجده حيث يعهده، و«تَفَقَّدَه»: تعهده وفتّش عنه حيث يعهده.

٧٢ ـ ﴿قالوا نفقد صواع الملك﴾، أي: نفقد الصاع الرسمي الذي عليه شارة الملك ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾، أي: وَسْق جمل من الطعام وهو القمح، ﴿وأنا به زعيم﴾ يقول المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير أجعله حلواناً للذي يجيء به، يعني: إن كان مفقوداً غير مسروق أو جاء به غير سارقه.

٧٣ ـ ﴿قالوا تالله لقد علمتم﴾ القسم بالتاء خاص باسم الجلالة، أي: لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا في امتيازنا الأول وفي عودتنا وإعادتنا

لبضاعتنا التي ردت إلينا مع غيرها لما نبغيه من الميرة الثانية، أننا ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض﴾، أي: في أرض مصر بسرقة ولا غيرها من الاعتداء على الحقوق ﴿وما كنا سارقين﴾، أي: وما كان من شأننا ولا مما يباح في ديننا وأدبنا أن نسرق، فهذا من نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل كما بيّناه مراراً.

٧٤ ـ ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾، أي: قال فتيان يوسف لهم، فما جزاء الصواع على سارقه، أو: ما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين في جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة؟

٧٥ ـ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله﴾، أي: جزاؤه أَخْذُ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعه عبداً صاحبه ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم وتأكيد له في شرع يعقوب وآله وهو أن يُسْتَرَقَّ السارق سَنَةً ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم في شرعنا، فنحن أشد الناس عقاباً لهم، وهذه زيادة في تأكيد قولهم لثقتهم ببراءة أنفسهم، ولا يجوز أن تجعل هذه الجملة من كلام فتيان يوسف كما قيل.

٧٦ ـ ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾، أي: فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التي تشتمل عليها رحالهم ابتعاداً عن الشبهة وظن التهمة بالحيلة ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾، أي: ثم أنه بعد الفراغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج منه السقاية. ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ مثل هذا الكيد الخفي ـ وهو التدبير الذي يخفى ظاهره على ناظريه والمتعاملين به حتى يؤدي إلى باطنه المراد منه ـ كدنا ليوسف، أي: ألهمناه إياه وأوحنا إليه أن يفعله ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ هذا استئناف لبيان علة الكيد له، معناه: أنه ما كان من شأنه ولا مما تبيحه له أمانته لملك مصر أن يخالف دينه، أي: شرعه الذي يدين الله تعالى به في أخذ أخيه من إخوته، ومنعه من الرجوع معهم، فَأَخْذُهُ بغير جرم يبيحه له ظلم واستبداد، وللسرقة عقاب دون أخذ السارق واسترقاقه.

ولما كانت هذه الوسيلة الوحيدة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة الظاهر

لأنها تهمة باطلة، وكان من شأن يوسف أن يتأثّم بها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى، بيّـن تعالى أنه فعل ذلك بمشيئته وإذنه فقال: ﴿إلا أن يشاء الله﴾ فهو نص صريح في أنه فعل ذلك بإذن الله تعالى ووحيه لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة، واحتال بها لمخالفة الشريعة، كما يزعمه علماء السوء أصحاب الحيل التي يخترعونها لاتباع أهوائهم والخروج عن حكمة ربهم وحُكمه معاً ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ في العلم والإيمان كما رفعنا درجة يوسف ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ أوسع إحاطة وأرفع درجة منه في العلم، فلا يوجد أحد من علماء الخلق يحيط علمًا بكل شيء، فيكون فوقهم كلهم ولا يكون فوقه أحد، وإنما الذي أحاط بكل شيء علمًا وهو فوق كل ذي علم على الإطلاق فهو الله رب العالمين عز وجل.

ثم ماذا قال أخوة يوسف العشرة عندما رأوا السقاية قد استخرجت من وعاء بنيامين؟

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

٧٧ ـ ﴿قالوا إن يسرق﴾ أي: هذا من دوننا، وما كانت السرقة من شأننا ودأبنا، ﴿فقد سرق أخ له من قبل﴾ يعنون يوسف عليه السلام، وأن العلة فيه وفي أخيه واحدة وهي أمهما، كأنهما ورثا هذه الجريمـة منها، إذ لا ينفردان دونهم إلا بها، وهذه التهمة دليل على حسدهم لها لا يزال كامناً في قلوبهم، وأن علته الأولى اختلاف الأمهات. ويجوز أن تكون هذ التهمة كاذبة كقولهم «أكله الذئب» وهذا هو الصحيح.

﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾، أي: فكتم هذه القولة أو الكلمة التي سمعها يوسف منهم في نفسه ﴿ولم يبدها لهم﴾، أي: لم يؤاخذهم بها قولاً ولا عملاً لأنه بلغ منهم كل ما أراد من حيث لم يتعرف إليهم، ولكنه ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تفترونه، يعني: أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرقّ، وقلتم لأبيكم: قد أكله الذئب الخ ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ وهو أنكم كاذبون فهو يجازيكم عليه في الدنيا الآن. والظاهر أنه قال هذا في نفسه.

٧٨ ــ ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ بالغاً غاية الكبر في الشيخوخة، أو كبير القدر جديراً بالرعاية كما علمت مما قصصناه عليك من خبره وتعلقه به ﴿فخذ أحدنا مكانه﴾ بدله إذا استحققت أخذه، فهو يحل محله عندك فيما تشاء من الخدمة التي تراد من الرقيق، إن حيث ترحم هذا الشيخ الكبير فيما لا يضيرك ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ الذين لا يأبون إحساناً يقدرون عليه، أو: من المحسنين إلينا في ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا، وهذا الذي نرجوه منك الآن، هو غاية الإحسان.

٧٩ ــ ﴿قال معاذ الله أن نأخذ﴾، أي: نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿إلا من وجدنا متاعنا﴾ وهو الصواع ﴿عنده﴾ وهو بنيامين، ولم يقل إلا من سرق متاعنا إتقاء للكذب، فإنه يعلم أنه ليس بسارق، وقول المنادي: «إنكم سارقون» مبني على الظاهر له مِنْ فقد الصُّواع فقد قال ما اعْتَقَدَ ولم يكن يعلم بالمكيدة ﴿إنا إذاً﴾ أي: إذا أخذنا غيره ﴿لظالمون﴾ بمخالفة حكم شرعكم ونص فتواكم من إحدى الناحيتين ولشريعة الملك من الثانية.

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ

أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

٨٠ ـ ﴿فلما استيأسوا منه﴾، أي: استحكم اليأس في أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم، لإقامته الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وكون فعله حينئذ يكون ظلمًا بحكم الشريعتين: شريعتهم وشريعة ملك مصر، أو استيأسوا من بنيامين أن يعود معهم إلى أبيهم، ﴿خلصوا نجياً﴾ انفصلوا من كل شيء كانوا فيه، وانجمعوا دون يوسف وأخيه وفتيانه لا يخالطهم أحد ولا شيء خالصين للمناجاة والمساراة في أمرهم، كأنهم نجي واحد أو كأنهم نفس المناجاة. وهذه الجملة في منتهى البلاغة وإعجاز الإيجاز، يتمثل للعربي عند سماعها أولئك الإخوة العشرة وقد أعرض كبيرهم عن استعطاف العزيز، وغادر كل واحد رحله وما كان فيه، وانكمش بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه، وأرهفوا آذانهم للنجوى ﴿قال كبيرهم﴾ في السن والرأي ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾، أي: عهداً مؤكداً بالقسم بالله لتأتنه ببنيامين إلا أن يحاط بكم فلا يبقى منكم أحد وما الوقت ببعيد فيُنْسَى ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ التفريط في الشيء: المبالغة في التقصير والإهمال له، وضده «الإفراط» وهو المبالغة فوق الحاجة ـ أي ومن قبل هذا ما قصرتم في حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه، أو تفريطكم فيه، وما قاساه أبوكم من الحزن عليه ﴿فلن أبرح الأرض﴾، أي: فلن أفارق هذه الأرض أو أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ بتركها وبنيامن فيها والرجوع إليه ﴿أو يحكم الله لي﴾ بأمر من عنده مما هو غيب في علمه، كأن يترك العزيز لي أخي بإلهام منه تعالى

أو بسبب آخر، ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه لا يحكم إلا بالحق وهو المقدر للأقدار، والمسخر للأسباب.

٨١ ـ ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ صواعَ الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر، عملاً بشريعتنا إذ اضطررنا إلى إنبائه بها بعد أن استنبأنا. والاكتفاء بكلمة «سرق» من إيجاز القرآن في السكوت عن المعروف بالقرينة أو غيرها من الدلائل ﴿وما شهدنا﴾ عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة: ما شهدنا ﴿إلا بما علمنا﴾ إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه، أو ما شهدنا للعزيز بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شرعنا علمًا قطعياً جرى به العمل ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ فنعلم أنه يسرق، أو فنعلم كيف وقع له هذا ولو كنا نعلم الغيب لما آتيناك الموثق علينا.

٨٢ ـ ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾، أي: أهل القرية التي كنا نمتار فيها، وهي مصر، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم بحيث لو سئلوا لشهدوا، أو اسأل زائريها، ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾، أي: أصحابها ممن كانوا يمتارون معنا ﴿وإنا لصادقون﴾ في شهادتنا سواء أسألت غيرنا أم لا ـ انتهى ما لقنهم إياه كبيرهم ـ.

٨٣ ـ ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾، أي: فرجع الإخوة التسعة إلى أبيهم فقالوا له ما لقنهم كبيرهم، فلم يصدقهم على تأكيدهم للخبر وإنما قال لهم ما معناه: إن الأمر ليس كما تقولون بل سولت لكم أنفسكم أمراً، كيداً آخر، أي: هيئته وزينته لكم فنفذتموه، ﴿فصبر جميل﴾ فالذي عليّ والمصيبة قد وقعت: صبر جميل أتجمل به بين الناس وأشكو أمري إلى الله دونهم وأنوط الرجاء به وحده ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ يعني أولاده الثلاثة: يوسف وبنيامين وكبيرهم الذي بقي مرابطاً في مصر ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ الذي يحيط علمًا بحالي وحالهم، وله فينا حكمة بالغة هي ولا بد بالغة أجلها، وهذا يلاقي قوله ليوسف إذ قص عليه رؤياه: «وكذلك يجتبيك ربك» إلى قوله «إن ربك عليم حكيم» فتأمل وتدبر، وتذكر واعتبر.

٨٤ ـ ﴿وتولى عنهم﴾، أي: أعرض عن أولاده قاطعاً للكلام معهم كراهة له ﴿وقال يا أسفاعلى يوسف﴾، أي: يا حزني ويا حسرتي عليه، اقبلي فقد حقت كلمتك علي، وقال الزجاج: الأصل «يا أسفي» فأبدل من الياء ألفاً لخفةالفتحة. و«الأسف»: شدة الجزع، وقيل: شدة الحزن، ومناداة الأسف تعبير عن الشعور بأن الوقت وقته فهو قدوقع بحق فإن الطبيعة مقتضية له، فلا مناص منه لما تجدد من سبب اهتياجه، إذ كان ينتظر أو يأتوه من مصر ببشرى لقاء يوسف فخاب أمله وحل محله ذهاب ابنه المسلي عنه ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾، أي: أصابتهما غشاوة بيضاء ذهبت ببصرهما موقتاً مع بقاء عصبهما المدرك للمبصرات صحيحاً ﴿فهو كظيم﴾، أي: مملوء غيظاً على أولاده قد كتمه في نفسه، وفسروه بالمغموم وبالمكروب، وقال قتادة: كظم على الحزن فلم يقل إلّا خيراً.

قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

٨٥ ـ ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾، أي: قسمًا بالله لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتلهج به لا تفتر ولا تنسى همه ﴿حتى تكون حرضاً﴾، أي: مشفياً على التلف ومشرفاً على الهلاك من شدة الحزن والجزع ﴿أو تكون من الهالكين﴾ بالفعل فتموت كَمَداً.

٨٦ ـ ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أصل «البث»: تفريق المجتمع وإثارة الكامن، و«بَثُّ النفس»: إظهار ما انطوت عليه من الغم أو السر، أي: لِـمَ تلومونني وأنا لم أَشْكُ إليكم ولا إلى أحد من الخلق كَمَدي الذي ضاق صدري عن حبسه فبثثته وحزني الذي أمضني كتمانه فأفشيته بهذه

الكلمة «يا أسفى على يوسف» إنما أشكو ذلك إلى الله وحده ﴿وأعلم من الله﴾ في ابتلائي بفراق يوسف وخفاء حاله علي، وحسن عاقبته ﴿ما لا تعلمون﴾ أعلم منه أنه حي يرزق، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب وذريته به في الدنيا والآخرة، وأرى البلاء يتناوشكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم بيوسف من قبل، وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعد، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك، وأن بنيامين قد سرق فاستُرِقَّ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاه فلا مرد له، وأنا أعلم أن له أجلاً فيه هو بالغه، كلا.

٨٧ ـ ﴿يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾، أي: اذهبوا إلى مصر فتكلفوا أن تدركوا بحواسكم من سمع وبصر شيئاً من حال يوسف وأخيه حتى تكونوا على يقين من أمرهما ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾، أي: فرجه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب، وترويحه بما ترتاح له الرُّوح ويطمئن به القلب ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ بقدرته وسعة رحمته، الذين لا يتجاوز علمهم بشؤون أنفسهم وأحداث زمانهم دائرةَ ظنونهم، إلى ما لله عز وجل في عباده من حِكَمٍ بالغة ولطف خفي، فإذا تقطعت بهم الأسباب دون ما يبغونه من كشف ضر أو جلب خير، بخعوا أنفسهم أسفاً، وانتحروا بأيديهم هماً وحزناً، فأنفع ما يمتاز به المؤمن على الكافر أن المصائب والشدائد لا تقنطه من رحمة ربه وتفريجه لكربه، وإنْ عَظُمَ عليه المصاب، وتقطعت به الأسباب.

ثم اعلم أن «الرَّوْح» ـ بالفتح ـ: ما ترتاح له الرُّوح ـ بالضم ـ وهما من مادة الريح.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ

يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

هذا هو الفصل الرابع من قصة يوسف عليه السلام وهو في الفرج القريب وعطف الحبيب على الحبيب، قال تعالى:

٨٨ ـ ﴿فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضرُّ﴾، أي: أصابنا ضر المجاعة من هزال وضعف، شكوا هذه المرة ما لم يشكوا من قبل ليروا تأثير الشكوى فيه، وغرضهم الأول التحسس لا طلب الميرة، شعروا أن أباهم يرجح أنه هو يوسف، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ رديئة من شأنها أن يدفعها التجار ويردوها احتقاراً لها، إذ لم يبق عندنا غيرها ﴿فأوف لنا الكيل﴾ وأكمله كعادتك الحميدة، ومقتضى إحسانك ﴿وتصدق علينا﴾ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد إغماضك عن رداءتها ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ بإخلاف ما ينفقونه والمضاعفة لهم بما هو خير منه، بالغوا في التذلل والاستماحة وإظهار الذل والحاجة لما ذكرنا آنفاً من تحسس تأثير ذلك في معارف وجهه، وجرس صوته، ومغالبة دمعه، فماذا قال يوسف؟

٨٩ ـ ﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟﴾ أي: هل علمتم الآن ما آن لكم أن تعلموه بالتجارب في هذه السن، من عاقبة ما فعلتم بيوسف من قبل وأخيه بنيامين من بعد، وقد قرب العهد ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ قبح فعلكم، وحقوق بر الوالد، ورحمة الرحم، أي: في الحال التي كان يغلب عليكم الجهل بهذه الحقوق، وبعاقبة البغي والعقوق، ويجوز أن يكون مراده بالجهل ما يقابل العقل والحلم لا ما يضاد العلم، وهو: الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة، والمختار عندي الجمع بين المعنيين فكلاهما كان واقعاً.

٩٠ ــ ﴿قالوا أءنك لأنت يوسف﴾ كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه سؤال عارف بأمرهم معهما، من أولها البعيد جداً إلى آخره القريب جداً، مصداقاً لما أوحاه الله إليه حين ألقوه في غيابة الجب: «وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون»، ودليلاً راجحاً على أنه هو يوسف، إذ يبعد أن يعرف غيره هذا، فأرادوا أن يتثبتوا منه بالعلم اليقين الذي يذهب بكل احتمال لما يعترضه من الشبهة بوجوده في هذا المنصب السامي، فوجهوا إليه الاستفهام بجملة اسمية مؤكَّدة، يعنون: أمن المؤكد القطعي الذي لا ريب فيه أنك أنت يوسف؟ ولولا هذا لكان يكفيهم أن يقول: أأنت يوسف؟ ﴿قال أنا يوسف﴾ صرح باسمه العلم لأنه نص قطعي الدلالة مطابق للسؤال ﴿وهذا أخي﴾الذي فرقتم بيني وبينه ﴿قد منّ الله علينا﴾ فجمع بيننا على أحسن حال في ديننا ودنيانا ﴿إنه من يتق ويصبر﴾، أي: إن الأمر الواقع والحق الثابت بالوحي وباستقراء التجارب هو ما تنطق به هذه القضية: من يتق الله فيما أمر به ونهى عنه، ويصبر على ما أصابه من المصائب والمحن وفتن الشهوات والأهواء حتى يبلغ الكتاب أجله فيها ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ بل يوفيهم أجورهم في الدنيا ثم في الآخرة.

٩١ ــ ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾، أي: اختارك وفضلك علينا في كل شيء، من خَلْق وخُلُق، وعلم وعمل، وجزاء وإحسان. ﴿وإن كنا لخاطئين﴾، أي: والحال أن شأننامعك هو أنا كنا مذنبين متعمدين للخطيئة لا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس. و«الخاطىء»: فاعل الخِطء ــ بالكسر ــ وهو الذنب.

٩٢ ــ ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾، أي: لا محل لأي شيء من اللوم والتعنيف عليكم في هذا اليوم الذي هو مظنته، فإنني أَعُدُّه يوم عفو وسماح.

ثم تركهم لمغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته فقال بعد نفي جنس التثريب: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ دعا لهم بأن يغفر الله لهم خطاياهم معه، إذ غفر هو لهم والله أولى وأحق بالمغفرة وهو أرحم الراحمين من الأقربين وغيرهم.

٩٣ ـ ﴿اذهبوا بقميصي هذا﴾ وأشار إلى قميص كان على بدنه أو بيده ﴿فألقوه على وجه أبي﴾ عند وصولكم إليه بلا تأخير ﴿يأت بصيراً﴾، أي: يصر بصيراً في الحال، أو يعود ويرتد بصيراً. ﴿وائتوني بأهلكم أجمعين﴾ من الرجال والنساء والذراري لأجل الإقامة عندي وفي جواري آمنين.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

٩٤ ـ ﴿ولما فصلت العير﴾، أي: انفصلت عير بني يعقوب من عريس مصر أو حدودها قافلة إلى أرض الشام، ﴿قال أبوهم﴾ لمن حضره كان عنده من أحفاده وغيرهم ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ في نفحة طيبة هبت عليَّ من رُوحه، أو أشم رائحة ذاته كما عرفتها في صغره ﴿لولا أن تفندون﴾ أي: لولا تفنيدكم إياي أي نسبتي إلى «الفَنَد» وهو فساد الرأي، وضعف العقل والخرف من سوء الكبر، لصدقتموني في أنني أجد رائحته حقيقة غير متوهم، وأنه حي قد قرب موعد لقائه والتمتع بقربه ورؤيته.

٩٥ ـ ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾، أي: قال حاضرو مجلسه تالله إنك لفي خطئك الذي طال أمده، في اعتقادك أن يوسف حي يرجى لقاؤه وقد قَرُب، أو في الإفراط في حبه والإصرار على اللَّهج به، وتوهمك وجدان رائحته.

٩٦ ـ ﴿فلما أن جاء البشير﴾ وهو الذي يحمل القميص من يوسف، وعن ابن عباس والضحاك:أنه البريد، ويتجه أن يكون قد سبق العير إليه بريداً

وبشيراً ﴿ألقاه على وجهه فارتد بصيراً﴾، أي: ألقى القميص على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيراً كما كان، وزاد بعضهم أنه عادت إليه سائر قواه، ولا غرو فالشفاء من الأمراض وتجدد قوى الأرواح والأبدان بتأثير السرور العظيم غير منكر عند الأطباء ولا في تجارب الناس، فما القول بتجارب الأنبياء والأصفياء، وبما يزاد لهم بعناية الله من خوارق العادات، والآيات البينات.

﴿قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ فذكرهم الآن إذ عاد بصيراً بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن، وهو: أنه يعلم من أمر يوسف ما لايعلمون، وأن علمه هذا وحي من الله عز وجل لا من خطرات الأوهام، ولا من أخيلة الحب والغرام.

٩٧ ــ ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾، أي: قال أولاده ــ وكانوا قد وصلوا في إثرالبشير أو معه، وإنما تقدمهم استعجالاً لنعمة البشارة وما تبعها من ارتداد البصر وغيره من السرور والنشاط والعافية ــ: يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا الكثيرة التي اقترفناها من عقوقك وإيذاء أخوينا ﴿إنا كنا خاطئين﴾ متعمدين لهذه الخطيئة عاصين لله بها، اعترفوا له بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف، ولكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه.

٩٨ ــ ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ وعدهم باستغفار ربه لهم في المستقبل المبهم وعلله بقوله ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ فكرر اسم الرب مضافاً إليه ووصفه بالمغفرة والرحمة الواسعة التي لا ينقطع منها رجاء المؤمن وإن أساء وظلم.

أما خاتمة قصة يوسف عليه السلام فقد قصها الله تعالى علينا في قوله:

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى

مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

ههنا كلام يدل عليه السياق بالإجمال حذف إيجازاً على منهج القرآن في الاقتصار على ما فيه العبرة المرادة من الكلام، والمعنى: أن إخوة يوسف بَلَّغوا أباهم وسائر أهلهم مكانة يوسف في مصر، وأنه محبوب مجمع على إجلاله فيها، وأن يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها، فرحلوا إليها حتى بلغوها واستُقْبلوا فيها بما يليق بمقامه:

٩٩ ـ ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ ظاهر العبارة أن أمه كانت لا تزال حية، ومعنى إيوائهما إليه: ضَمُّهما إلى نفسه، وجعله إياهما معه في قصره وهو مأواه الخاص به ﴿وقال ادخلوا مصر﴾، أي: وقال لسائر أهله ومن معهم: ادخلوا مصر، قال ابن عباس معناه: أقيموا فيها، إذ كانوا قد دخلوها فكان الأمر بدخولها عبارة عن الإذن باستيطانها، وقيل: إن يوسف استقبلهم في الطريق احتفاء بهم فقال لهم ذلك في مكان الاستقبال أو عند الوصول إلى العاصمة ﴿إن شاء الله آمنين﴾ على أنفسكم ومواشيكم من المنع المعتاد للغرباء، أو: من الجوع والهلاك فإن سني القحط لم تكن انتهت بعد، والتعليق بمشيئته تعالى هو شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقين، فهو في إسداء هذه النعمة إلى أهله يتبرأ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخره لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم.

١٠٠ ـ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾، أي: أصعد أبويه إلى السرير الذي كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك، فالعرش: كرسي تدبير الملك، لا كل كرسي يجلس عليه الملك ﴿وخروا له سجداً﴾ أي: وأهوى أبواه وأخوته إلى الأرض وخروا له سجداً، وكان السجود تحية الملوك والعظماء في عصرهم، والسجود ليس عبادة بذاته وإنما جعله الدين عبادة فهو يكون عبادة بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾، أي: إن هذا السجود

منكما ومن إخوتي الأحد عشر هو المآل الذي آلت إليه رؤياي التي رأيتها من قبل في صغري إذ «رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ واقعاً ولم تكن حديث نفس من أضغاث الأحلام، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الأحد عشر، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر، ولا غرو فهذه الأسرة هي التي أراد الله بها حفظ ذرية إسحاق بن إبراهيم لنشر دين التوحيد في العالمين، فكانت خير أُسَر البشر ﴿وقد أحسن بي﴾ ربي يقال: أحسن به وأحسن إليه ﴿إذ أخرجني من السجن﴾ إلى عرش الملك فذكر آخر المحن المتصل بغاية النعم، ﴿وجاء بكم من البدو﴾ حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونتها إلى الحضـر، حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق والتعاون على العلوم والصناعات، وفيه تفضيل الحضارة على البداوة ﴿إن بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ أي: أفسد ما بيننا من عاطفة الأخوة، وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القربى بإغراء الحسد وتهييج الشر، ثم قال: ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾، أي: بالغ أقصى اللطف بعباده في التدبير، والرفق في التسخير لتنفيذ ما يشاء في خلقه، حيث لا يشعر من لَطَفَ به عند وقوع الأسباب والوسائل بغايتها إلا عند وصوله إليها، فَمَنْ ذا الذي كان يخطر بباله أن الإلقاء في الجب وما أعقبه ينتهي بالسيادة والملك؟ ﴿إنه هو العليم﴾ بما لكل قدر من عمل، وما لكل عمل من أجل، ﴿الحكيم﴾ في بلوغ مشيئته في ذلك كله كمال المصلحة في جزاء الذين أحسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين.

(دعاء يوسف عليه السلام بحسن الخاتمة)

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

تحول عليه السلام عن خطاب والده في بيان هذه العاقبة المثلى، في مقام

الشكر لربه وحمده، إلى مناجاة ربه في الاعتراف بها والشكر عليها، وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا الرافعة إلى منتهى السعادة في الآخرة، لشعوره فقال:

١٠١ ـ ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ أقصى ما نبغي ما ينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه، فجعلتني متصرفاً في ملك مصر ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة، فتقع كما قُلْتُ ﴿فاطر السماوات والأرض﴾، أي: خالقهما ﴿أنت وليي﴾ الذي توليت ولا تزال تتولى أموري كلها﴿في الدنيا والآخرة﴾ لا حول لي في شيء منها ولا قوة ﴿توفني مسلمًا﴾ لك إذ تتوفاني ﴿وألحقني بالصالحين﴾ واحشرني معهم، أي: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قال السيد محمد رشيد رضا رحمه الله:

«فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام»[١].

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

١٠٢ ـ ﴿ذلك﴾، أي: نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف رفعه الله عليهم، ومكن له في الأرض، وجعل له العاقبة والنصر، والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك ﴿من أنباء الغيب﴾، أي: من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاينه، ولكنا ﴿نوحيه إليك﴾ ونُعَرِّفَكَهُ لتثبت به فؤادك، ونشجع به قلبك، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله، وتعلم

---

(١) قوله: «بالموت على الإسلام»، كان هذا آخر ما كتبه المؤلف رحمه الله من تفسيره، ثم توفي بعد ذلك، وقد أكمل تفسير ما تبقى من سورة «يوسف» الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار، عام «١٣٥٥» هجرية، وها نحن نتابع اختصاره أيضاً بتوفيق الله تعالى وفضله.

أن من قبلك من رسل الله لما صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعرف، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر، وأيدوابالنصر، ومكنوا في البلاد، وغلبوا على من قصدوا من أعدائهم ﴿وما كنت لديهم﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً، ﴿إذ أجمعوا أمرهم﴾، أي: اتفقت آراؤهم وصحت عزائمهم، أو عزموا عزماً إجماعياً لا تردد فيه، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب، وذلك مكرهم الذي قال تعالى: ﴿وهم يمكرون﴾ به، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك.

١٠٣ ـ ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، أي: وما أكثر مشركي قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك، بمصدقيك ولا متبعيك.

١٠٤ ـ ﴿وما تسألهم﴾، أي: وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك يا رسول الله ﴿عليه﴾، أي: على هذا القرآن الذي أمرت أن تدعوهم إليه، وتذكرهم به، أو: على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان، وطاعة الرحمن، ﴿من أجر﴾ من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله، أي: ما تسألهم على ذلك مالاً ولا غيره من المنافع فيقولوا لك: إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك عن أموالنا ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾، أي: ما هذا الذي أرسلك به ربك إلا تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة، لا لهم خاصة، وهو نص في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

١٠٥ ـ ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها

معرضون﴾ «كأين» بمعنى «كم» الخبرية، يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه سبحانه في السماوات والأرض فيقول عز وجل: كم من آية في السماوات والأرض وعبرة وحجة، كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السماوات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض، يمرون عليها معرضين عنها لا يعتبرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها، وأن الألوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فدبرها.

١٠٦ ـ ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ قال الحافظ ابن كثير: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشَّعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم «لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك».

١٠٧ ـ ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟﴾ يقول عز من قائل: أفأمن هؤلاء الذين لا يقرون بأن الله هو ربهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره، أن تأتيهم غاشية من عذاب الله تغشاهم من عقوبة الله على شركهم به، أو تأتيهم القيامة فجأة وهم مقيمون على شركها، وكفرهم بربهم، فيخلدهم الله عز وجل في ناره، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها، ومعنى: «غاشية من عذاب الله»، أي: نائبة تغشاهم وتجللهم.

قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

١٠٨ ــ ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿هذه﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، دون الآلهة والأوثان ﴿سبيلي﴾ سنتي ومنهاجي، وقال مقاتل: ديني، والسبيل كالطريق يذَّكر ويؤنث ﴿أدعو إلى الله﴾ وحده لا شريك له ﴿على بصيرة﴾ يقين، و«البصيرة»: هي المعرفة التي يميز بها الحق والباطل، أدعو ﴿أنا ومن اتبعني﴾، أي: ويدعو إليه أيضاً من اتبعني وآمن بي وصدقني ﴿وسبحان الله﴾، أي: تنزيهاً لله وتعظيمًا له من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه، ﴿وما أنا من المشركين﴾، أي: وأنا بريء من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم مني، تعالى الله عن شركهم علواً كبيراً.

١٠٩ ــ ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾ هو رد لقولهم: «لو شاء ربنا لأنزل ملائكة»، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وهذا القول عن ابن عباس يؤيد قوله تعالى: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين، إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق».

وقال الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة، أي: إن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحي تشريع، ﴿من أهل القرى﴾، أي: من أهل الأمصار دون أهل البوادي، و«القرى»: جمع «قرية» وهي الموضع الذي فيه الناس، والمراد بالقرى المدن الجامعة لعظماء الأمة ورؤسائها، وإنما كان الرسل يبعثون من أهل المدن الكبرى وفيهم، لأن سائر البلدان والبوادي تتبعهم إذا آمنوا ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾، أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المقيمون على شركهم بالله، المكذبون رسوله من قريش في البلاد، فإنهم أهل سفر إلى اليمن والشام ــ رحلتهم في الشتاء والصيف ــ فينظروا فيما وطئوا من البلاد إلى وقائعنا فيمن أوقعنا به من الأمم قبلهم، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا، بتكذيبهم رسلنا، وجحودهم آياتنا، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبى تكذيبهم فيعتبروا ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون؟﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم يفيد أن نعيم الآخرة ليس

كنعيم الدنيا، بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعة الثابتة الدائمة. وأن تلك الدار للذين اتقوا الشرك والشرور المحرمة، وآمنوا بالرسل واتبعوهم، خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين للرسل، ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته وفي دوامه وثباته، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض، ولا إزالة أقذار، فما القول بنعيمها الروحاني، من لقاء الله ورضوانه، وكمال معرفته المعبر عنه برؤيته؟ أتغفلون فلا تعقلون هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة؟ أما لو عقلتم لآمنتم.

ثم بيّن تعالى تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام: أن العاقبة لرسله كما قال تعالى «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي» وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون في تكذيبهم، فقال سبحانه:

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

١١٠ ـ ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا جاءهم نصرنا﴾ قال الإمام ابن جرير: يقول تعالى «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى» فَدَعَوْا مَنْ أرسلناهم إليهم فكذبوهم، وردوا ما أتوهم به من عند الله، حتى إذا استيأس الرسل من الذين أرسلناهم إليهم أن يؤمنوا بالله ويصدقوهم فيما أتوهم به من عنده. وظن الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذبة، أن الرسل الذين أرسلناهم إليهم قد كَذَبُوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم، جاءهم نصرنا اهـ.

وتلك سنته تعالى في الأقوام، يرسل إليهم رسله بالبينات، ويؤيدهم بالمعجزات حتى إذا أعرضوا عن الهداية، وعاندوا رسل ربهم، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم، واشتد البلاء على الرسل صلوات الله عليهم حتى يستشعروا القنوط من تمادي التكذيب، وتراخي النصر، جاءهم نصر الله فجأة، وأخذ المكذبين العذاب بغتة، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح، والريح التي أهلكت عاداً قوم هود، والصيحة التي أخذت ثمود، والعذاب الذي هلك به النمروذ الذي حاول إحراق إبراهيم، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها «ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»، والمراد: تذكير قوم النبي ﷺ بأن سنته تعالى في عباده واحدة، لا ظلم فيها ولا محاباة، وأنهم إن لم يتوبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل، وقد نصر الله نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه.

﴿فنجي من نشاء﴾، أي: فنجي الرُسُلُ ومن آمن بهم من أقوامهم، لأنهم بحسب مشيئته، وسنته تعالى في عباده وحكمته، هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم، بما يختارون من التوحيد على الشرك، ومن الخير على الشر. ﴿ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾، أي: ولا يُـمْنَعُ عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده، وتلك سنة الله في رسله مع أمم الدعوة، يبلغونهم الرسالة، ويقيمون عليهم الحجة، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن المهتدون ويصر المعاندون، فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين.

ثم ختم سبحانه هذه القصة والسورة بقوله:

١١١ ــ ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ «القصص» مصدر أو اسم من «قص الخبر» إذا حَدَّث به على أصح الوجوه وأصدقها، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، فيكون القصص بمعنى: المقصوص من الأخبار والأحاديث، المراد من «قصصهم»: قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته،

ومنهم من قال قصص الرسل، وأيده بقراءة «قصصهم» بكسر القاف، وكلا الوجهين صحيح، والاعتبار والعبرة: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهَد إلى ما ليس بمشاهد، والمراد منه التأمل والتفكر.

وإنما قال: «لأولي الألباب» ـ وهم أصحاب العقول الراجحة ـ لأن أهل البصيرة والروية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها، وأما الأغرار الغافلون، والظالمون المعاندون، فلا يمرِّنون عقولهم على الاستقلال في النظر، والاعتبار بما جرى على الأفراد والأمم، فلا يفيدهم النصح والتذكير، ولا سوء العاقبة والمصير ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾، أي: ما كان هذا القرآن أو القصص حديثاً يُختلق ويُكذب، لأن هذا النوع من القصص الذي أعجز حَمَلَةَ الأحاديث ورواة الأخبار، ممن لم يطالع الكتب، ولم يخالط العلماء، دليل ظاهر وبرهان قاهر، على أنه بطريق الوحي والتنزيل، ولهذا قال: ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذي بين يديه﴾، أي: من الكتب السماوية، التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور قبل التحريف والتبديل فيها، ﴿وتفصيل كل شيء﴾، أي: من أمر الله ونهيه، ووعده ووعيده، والإخبار عن الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وتنزهه عن مماثلة مخلوقاته، وفيه العظات والعبر بقصص الرسل مع أقوامهم، وسائر ما بالعباد إليه حاجة.

﴿وهدى﴾ كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته، فإنه يجذبه ببيانه وبلاغته إلى الحق الذي قرره، وعمل الخير والصلاح الذي بيّن فوائده ومنافعه ﴿ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي: رحمة عامة للمؤمنين الذين تنتشر فيهم هدايته، وتنفذ فيهم شريعته، فهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة جميعاً.

* * *

خاتمة الكتاب

يقول متمم اختصاره الشيخ محمد بن أحمد كنعان قاضي الشرع الشريف في لبنان:

تم بعونه تعالى اختصار «تفسير المنار» للسيد محمد رشيد رضا رحمه الله ومراجعة ما اختصره المؤلف منه في العاشر من شهر شوال من العام الثالث بعد المائة الرابعة والألف من هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ثم راجعه بعد تنضيد حروفه الأخ العالم الجليل الشيخ زهير الشاويش في شهر صفر الخير من العام الرابع من القرن الخامس عشر الهجري

والحمد لله رب العالمين

فهرس الجزء الثالث
من «مختصر تفسير المنار»

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

والحمد لله رب العالمين